أمراء الشعر العربي

في العصر العباسي

أنيس المقدسي

دار العلم للملايين
بيروت

أمراء الشعر العربي

في

العصر العباسي

أمراء الشعر العربي

في

العصر العبّاسي

وهو دراسة تحليلية لأدب ثمانية من أشهر شعراء العرب
وللجوّ الذي نشأوا فيه

تأليف

أنيس المقدسي

استاذ شرف للأدب العربي في جامعة بيروت الأميركية
وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق ومجمع اللغة العربية بالقاهرة
واستاذ سابق للأدب في معهد الدراسات العربية العالية بمصر

دار العلم للملايين
بيروت

مكتبة لسان العرب

الطبعة العاشرة

بيروت ، كانون الثاني (يناير) ١٩٧٥

توطئة

في الغرض من هذا الكتاب

لدرس الادب طريقتان : الأولى الطريقة الاجمالية ، وهي المتّبعة في المدارس الثانوية والاوساط الأدبية العامّة . ويراد بها الاطلاع على كل ما أنتجته قرائح الأدباء والعلماء في مختلف العصور . وقد كان المرحوم العلّامة جرجي زيدان أول من نظّم هذه الطريقة في تاريخ الأدب العربي ، ثمّ تلاه جملة من الاساتذة والأدباء ، فعُنوا بذلك ووضعوا من المؤلفات ما يفي بحاجات الطلبة والمتأدّبين .

والطريقة الثانية التقصّي الدقيق ، وهي المتّبعة في معاهد البحث الخاصّة في الجامعات وسواها . وفيها ينحصر جهد الباحث في وجهة معينة يتقنها — كأن ينصرف مثلاً إلى فرع معيّن من فروع البلاغة ، أو باب من أبواب الفيلولوجيا (فقه اللغة) — أو يقتصر على حياة شخص من أشخاص التاريخ كالمتنبي أو الغزالي أو ابن خلدون ، أو كتاب خاص من كتب الأدب كالعقد الفريد أو العمدة أو اللزوميات . وبهذه الطريقة يُدرّب الطالب على جمع المعلومات من شتّى المصادر ، ويخرّج في أصول النقد وسلوك السبيل العلمي في الكتابة . وهنا يشترك الاستاذ والطالب توصّلاً إلى هدف واحد هو دقّة الاستقراء والنظر في الاصول نظراً لا تشوبه شائبة التفرّض أو المتابعة العمياء .

وبين هاتين الطريقتين طريقة وسطى نطلق عليها اسم « التخصّص

الأولي » . وفيها يُعمد إلى فرع واسع من فروع الأدب كالشعر مثلاً ، فيُختار للمتأدّب نخبةً من امرائه ، ويُدرس كل منهم درساً وافياً يجمع بين البحث العلمي والتحليل الأدبي جمعاً يمكّن المتأدب من الانتقال بعدئذ إلى درجة التقصّي الدقيق .

وقد حاولنا في هذا الكتاب ان نحقّق هذه الغاية فاخترنا الشعر في العصر العباسي ، وتناولنا من امرائه ثمانية فدرسنا عصرهم وشعرهم على الطريقة التحليلية الحديثة ، وقرنّا ذلك بذكر أهمّ المصادر التي يُرجع اليها في دراستهم ، وبطائفة كبيرة من روائعهم الشعرية . فتمّ لنا بذلك غرضان : غرض علمي وهو الجري في ميدان البحث الحرّ ، وغرض أدبي وهو التفقّه بالأدب نفسه .

ونحن نعلم ما سنستهدف له بسبب اختلاف الآراء . فإن مقاييس البحث في الادب ليست مقاييسه في العلوم الطبيعية والرياضيّة . وإنما نحن نعرض هذه الابحاث للمتأدّبين المفكّرين ، ولطلاّب التخصّص الاولي مدرجةً إلى التخصّص العالي وسعياً وراءَ الحقيقة العلمية . وإنا لنرحّب بكل انتقاد مبني على الدرس والانصاف وأصول البحث والمنطق .

وقد كان معوّلنا في اختيار هؤلاء الثمانية شهرتهم ، وانهم أعمق أثراً من سواهم في تاريخ الشعر العباسي . ولا يعني ذلك انه لا يوجد بين سائر الشعراء من يرتفع الى درجتهم أو من يفوقهم في بعض المناحي ، وانما يعني انهم يمثلون العصر العباسي أفضل تمثيل ، وفي درسهم درس لذلك العصر ودرس للحركة الأدبية فيه .

وها نحن نتقدم الى العالم العربي بالطبعة السابعة من هذا الكتاب بعد ان بذلنا الجهد في ضبطها وتنقيحها . نفعل ذلك نزولاً عند رغبة كثير من الأدباء والعلماء والأساتذة وحباً بدراسة وافية لهذه السلسلة الشعرية العظيمة التي تعكس لنا العواطف العربية في أخصب العهود الأدبية .

ا . م .

العوامل السياسية في الخلافة العباسية

●

نظرة عـــامة

حكم العباسيون في بغداد خمسة قرون كان عرشهم فيها ملعباً للأهواء والحركات السياسية المختلفة . وقد رأينا تمهيداً لهذا البحث ان نقسم مدة حكمهم أقساماً توضح لنا العوامل التي كانت تعمل فيها والتي أدّت أخيراً إلى انحلالها . وهي عند التحقيق خمسة نطلق عليها اسم « أدوار سياسية » .

الدور الأول – دور القوة المركزية

أي قوة الخلافة . ويمتد من بدء الدولة إلى أواخر حكم المتوكل ، فيشغل نحو قرن من الزمان بلغت فيه الخلافة أقصى قوتها وأزهى مظاهر مجدها . وفي هذا الدور كانت بغداد عـــاصمة لسلطنة واحدة تمتد من حدود الهند إلى افريقيا (تونس) .

الدور الثاني – دور الجندية

كان الخليفة المعتصم قد نظّم من فتيان الاتراك جنداً يعتمد عليه في

حماية العرش . فلمـــا مات المعتصم أصبح نفوذ أمراء الجند شديداً في الخلافة . ولم يكد يُقتل المتوكل سنة ٢٤٧ هـ حتى أصبـــح الخليفة في قبضتهم يتصرفون به كما يشاؤون . ويمتد هذا الدور إلى سنة ٣٣٤ هـ . على ان الخلافة بقيت برغم استبداد الجند محافظة على شيء من رونقها ، وكان لها وزارة وعمّال . ومما يُذكر في هذا الدور ان ديوان الخلافة كان قد نقله المعتصم سنة ٢٢١ هـ إلى سامرّا وبقي فيها نحواً من ٥٨ سنة ثم أعيد إلى بغداد .

الدور الثالث – الدور البويهي (٣٣٤ هـ – ٤٤٧)

وفيه كانت السلطة الحقيقية في أيدي بني بويه « وصارت الوزارة من جهتهم والاعمال اليهم » وأصبح الخليفة لا يملك من المال إلاّ راتبـــاً يتقاضاه . على ان البويهيين كانوا أهل سياسة ودهاء ، فأبقوا للخلافة نفوذها الاسميّ وصاروا يحكمون في الدولة ظاهراً بإمرة الخلفاء . وبقوا كذلك إلى أن ضعفوا ثم زال ملكهم بقيام السلاجقة .

الدور الرابع – الدور السلجوقي (٤٤٧ هـ – ٥٩٠)

فيه كانت السلطة للسلاجقة ، وهم دولة تركية قويّة عرضت مملكتها واستولت على الامر في بغداد وضربت باسم سلاطينها النقود وخُطب لهم على المنابر . على انهم كانوا كالبويهيين يحافظون على الخلافة ويظهرون التبجيل لصاحبها .

الدور الخامس – دور الاحتضار

انقرضت دولة السلاجقة من بغداد أيام الناصر ، ولكن الانحلال كان قد تمكّن من جسم المملكة العباسية . فلما ذهب بنو سلجوق لم يبق للخلافة في بغداد سوى بعض انحاء العراق . فكانت الخلافة في طور

الاحتضار ، ولم تزل كذلك حتى جاءَها المغول سنة ٦٥٦ ﻫ فنهبوا بغداد وقتلوا آخر خلفائها ومحوا ما كان قائماً من معالمها .

* * *

هذه نظرة عامة نلقيها عن بعد على العصر العباسي . وإنما نحن في ذلك كالواقف على ربوة مشرفة على سهل عامر يسرّح نظره في مناحيه العامة ويتبين معالمه الرئيسية دون أن يتغلغل فيه ليطّلع على دواخله وخوافيه. وغايتنا من ذلك معرفة الخطط السياسية العامة تمهيداً لدرس حالة العصر النفسية ، وتوصلاً إلى فهم آدابه . فنحن هنا إنما نحاول درس الجو الذي نشأ فيه أدب القوم لا تاريخهم السياسي ، وإلا فالأفضل الرجوع إلى المطوّلات التاريخية كالطبري والمسعودي وابن الأثير ومسكويه وابن الطّقطِقَى والذهبي وابن خلدون وسواهم ممن خاضوا عباب هذا البحث وجاءوا بالاخبار الوافية .

* * *

ولما ألقينا نظرتنا العامة على هذه القرون الخمسة ظهر لنا في حياة الدولة العباسية وما تقلّب عليها من غِيَر الدهر ظواهر كبرى تمثل لنا ما نحن بصدده . أهمّها ما يلي :

١ – التنافس على السيادة بين مختلف العناصر والأعراق .

٢ – ضعف الخلافة وتجزّؤها إلى امارات مستقلة .

٣ – الحركات الهدّامة الداخلية .

٤ – غارات الروم والافرنج على أطرافها .

وقد كان يجدر بنا ان نتجاوز ذلك إلى الكلام عن أحوال الممالك الاسلامية ، ولا سيما البلاد العربية بعد سقوط بغداد ، ونربط ذلك بقيام العثمانيين وانتزاعهم الخلافة من العباسيين في مصر ، وما كان من أحوال الادب في أيامهم ، ثم نسوق الكلام إلى حالة الناطقين بالعربية في العصر الأخير ، وما كان لهم من النهضة بعد الحرب الكبرى . وإنما ذلك

خارج عن موضوعنا فنتركه لغير هذا المقام[1] . ونعود الآن إلى الظواهر السياسية الكبرى في العصر العباسي .

التنافس بين العناصر العرقية
وأخصها العربي والفارسي

في الفتوح الاسلامية الأولى وُضع حجر الزاوية لبناء الملك العربي العام. فبعد أن كان معظم العرب في جاهليتهم قبائل متفرقة ضاربة في أجواز الفلاة ، وبعد أن كانت حكوماتهم في العراق والشام وسواهما خاضعة لإحدى الدول السائدة من فرس أو روم أصبحوا في عهد الراشدين دولة واحدة ذات سيادة . فنما فيهم حب الفتح والسلطان ووصل إلى أشدّه في دمشق أيام الامويين ، واستمر على ذلك في بغداد إلى أيام المعتصم . فعصر السيادة العربية لم ينتهِ بغتةً بانتهاء الدولة الأموية بل بقي نحو قرن بعدها. نعم ان عوامل الضعف كانت قد بدأت تعمل في جسم الدولة والخلافة ، ولكن سيادة العنصر العربي لم تهبط إلاّ تدريجياً وبقي العرب على شيء كبير من القوة والنفوذ طيلة العصر العباسي الأول .

في هذا العصر بلغت الخلافة أوج قوتها ، فكانت بغداد كما كانت دمشق قبلها عاصمة سلطنة مترامية الأطراف لا تقل عن سلطنة رومة في إبّان مجدها ، وكان الخليفة العربي الحاكم المطلق يتصرف بشوون الدولة وأموالها كما يشاء .

أما الروح الفارسية التي كانت تمثّل عظمة الفرس الماضية وآمالهم في استرجاعها فقد كانت في أحط دركاتها أيام الامويين ، ولكنها أخذت تنتعش في أواخر حكمهم ، ولم تلبث أن تجسّمت بروح الثورة الخراسانية

---

١ راجع كتابنا الجديد « الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث » .

يقودها أبو مسلم الخراساني لنصرة العباسيين. وعرف العباسيون ذلك للفرس فاتكلوا عليهم في الادارة والوزارة، ولذا رأينا نفوذهم يتعاظم ورأينا التنافس بينهم وبين العرب يشتد. وعلى ذلك يعدّ الجاحظ دولة العباسيين أعجمية خراسانية ودولة بني مروان عربية أعرابية وفي أجناد شامية[1]. وقال ابن خلدون: «كان بنو امية يستظهرون في حروبهم وولاية اعمالهم برجال العرب مثل عمر بن سعد وعبدالله بن زياد والحجّاج بن يوسف والمهلّب بن ابي صُفرة وخالد القسري وابن هُبيرة وبلال بن ابي بردة ونصر بن سيّار وأمثالهم. وكذا صدرٌ من دولة بني العباس كان الاستظهار فيه أيضاً برجالات العرب. فلما صارت الدولة للانفراد بالمجد وكُبح العرب عن التطاول للولايات صارت الوزارة للعجم والصنائع من البرامكة وبني سهل وبني طاهر وسواهم[2].

على ان العباسيين الاولين كانوا أصحاب بطش وقوة، فإنهم مع اتكالهم على الفرس لم يستسلموا لهم، بل أبقوا للخلافة العربية جلالها. يدلك على ذلك ما فعله المنصور بأبي مسلم حين خشي منه الطغيان[3]، وكذلك ما فعله الرشيد بالبرامكة حين أخذته الغيرة من تعاظمهم وابّهة دولتهم[4]، والمعتصم بالأفشين لطمعه أو لأنه على ما قيل كاتبَ بعض أمراء العجم وأحبّ أن ينقل الملك اليهم[5]: بل كانت سياستهم حفظ التوازن بين المُضرية واليمنية والخراسانية منعاً لاستبداد فريق بالدولة[6]. وكانت جيوشهم مؤلفة من عرب وفرس ثم جاء المعتصم فقطع عن هؤلاء المال وجعل جنده من الاتراك.

---

١ البيان والتبيين (تحقيق السندوبي) ٣ – ٢١٧.

٢ مقدمة ابن خلدون (بيروت) ١٨٣ راجع هنا قصيدة المهلبي في رثاء المتوكل، العقد (المطبعة الجمالية) (١٣٣١) ٢ – ١٨٦.

٣ المسعودي (باريس) ٦ – ١٨٣.

٤ المقدمة ١٦ و ١٧ الفخري (مصر ١٣١٧) ١٩٠.

٥ مختصر الدول لابن العبري (١٨٩٠) ٢٤٢ واليعقوبي (ليدن) ٢ – ٥٨٢.

٦ ابن الاثير، حوادث ١٥١.

ومما يدلك على هذا التنافس بين العنصرين ، العربي والفارسي ، مدائح الشعراء الذين نبغوا في ذلك العصر . فاذا اعتبرت أهم شعرائه تجدهم في أول الامر يتسابقون إلى باب الخليفة ويتنافسون في مدحه ، ثم تجدهم يتحوّلون إلى أمراء الدولة من عرب وفرس . ويزداد هذا التحوّل مع الزمن إلى العنصر الاخير . فقد نبغ بين أيام المأمون والمعتضد ثلاثة من أكبر شعراء العرب هم أبو تمام والبحتري وابن الرومي ، وكان أكثر مديح الاول (وهو أقدمهم) في المعتصم وبعض كبار العرب كأبي سعيد الثغري والقاضي أحمد بن دؤاد وخالد بن يزيد ومالك بن طوق وأبي دُلف العِجلي . ومدح الثاني المتوكل واختص به ، ومع ذلك كانت مدائحه في كبار الدولة من الفرس تفوق مدائحه في أمراء العرب . أما ابن الرومي فليس له في الخلفاء شيءٌ يـذكر ، وأهم ممدوحيه من الاعاجم كآل وهب وآل طاهر وأمثالهم . وسيأتي تفصيل ذلك في كلامنا عن الشعراء وأحوال ممدوحيهم .

ولو تحرّيت الاسباب التي آلت إلى وهـن العرب — وهم أصحاب الخلافة — ومنافسة الأعاجم لهم في الرئاسة والادارة ، ثم تغلّبهم عليهم لرأيت من أهمها — عـدا انقسامهم بين يمنية ومضرية — تناحرهم على الامر بين عباسية وعلوية ، بل العباسيون انفسهم لم يكونوا يداً واحدة ، فراجت بينهم سوق الاغتيال والدسائس والفتن : من ذلك قتل المنصور لعمه عبدالله [1] ، وفتنة الامين والمأمون ، وثورة ابراهيم بن المهدي عم المأمون وطلبه الخلافة ، وما كان من قتل المتوكل وغير ذلك من الحركات السياسية التي أوهنت قوى العنصر السائد ، ومهدت السبيل لانحلال عصبيته .

* * *

بدأ نفوذ الفرس في الدولة العباسية منذ نجح الخراسانيون في الدعوة لبني

---

١ ابن الاثير ، حوادث ١٤٧ .

العباس ومبايعة السفّاح . وقد ظلت كفّة العرب وكفّة الفرس متكافئتين حتى انتصرت خراسان مرة أخرى وجلس المأمون على العرش . فتعاظم نفوذ الفرس جداً وما زال كذلك حتى بلغ أوجه أيام عضُد الدولة البويهي الذي قبض على زمام الأمر في بغداد ، فتحول الأمر بعد ذلك إلى نزاع بين الفرس والترك انتهى بقيام السلاجقة كما سيذكر في حينه . ولم يبق للعرب في الدولة من قوة تذكر إلّا في بعض امارات حكموها ، كامارة بني حمدان في حلب وامارة بني الاغلب في تونس ، وسواهما من الامارات التي ستذكر في كلامنا على تجزّؤ الدولة العباسية .

ضعف الخلافة

وتجزؤها الى امارات مستقلة

كانت خلافة الراشدين زعامة دينية دنيوية والدين فيها أقوى وأظهر ، وأصبحت في عصر السيادة العربية (العصر الاموي وصدر العصر العباسي) ملكاً عظيم الشأن واسع الاطراف ذا قوة مركزية عظيمة . فلما انقضى هذا العصر ، وفسدت عصبية العرب التي كانت ركن القوة الحربية في الدولة ، أخذت الخلافة تتحول تدريجياً من سلطة ملكية مسيطرة إلى زعامة دينية مستضعفة . قال ابن خلدون : ثم تغلب العجم الاولياء على النواحي وتقلّص ظل الدولة ، فلم تكن تعدو أعمال بغداد حتى زحف الديلم اليها وملكوها وصار الخلائف في حكمهم ، ثم انقرض أمرهم وملك السلجوقية فصاروا (أي الخلفاء) في حكمهم[1] .

وجاءَ في الفخري قول صاحبه واصفاً دولة بني بويه : « فدوّخت الأمم واذلّت العالم واستولت على الخلافة ، فعزلت الخلفاء وولّتهم ،

---

١ المقدمة ١٥٥ .

واستوزرت الوزراء وصرفتهم ، وانقادت لأحكامها أمور بلاد العجم والعراق ، واطاعتهم رجال الدولة بالاتفاق[1] » . وكذلك كان السلاجقة كما ذكر ابن خلدون ، على ان هذه الدول المسيطرة لم تتطاول إلى مقام الخلافة فكانوا يدينون بطاعة الخليفة تبرّكاً[2] . وكانوا على ما ذكر القلقشندي مع غلبتهم على أمر الخلفاء يقتصرون على متعلّقات الملك في الجهاد والتصرف بالاموال ، ويكلون أمر الولايات إلى الخليفة يباشرها بنفسه فتكتب عنه العهود والتقاليد على ما يشهد به الموجود من انشاء الصابي وغيره[3] .

وقد وصف صاحب كتاب الفخري هذه الحالة أحسن وصف إذ قال : « ثم طرأت عليها (أي على الدولة العباسية) دول كدولة بني بويه وفيها كبشهم وفحلهم عضد الدولة ، ودولة بني سلجوق وفيها مثل طغرلبك ، وكالدولة الخوارزمشاهية وفيها مثل علاء الدين ، وجريدة عسكره مشتملة على اربعمئة الف مقاتل ... » إلى أن يقول : « ولم تقوَ دولة على ازالة ملكهم ومحو أثرهم بل كان الملك من هؤلاء المذكورين يجمع ويحشد ويجرّ العساكر العظيمة حتى يصل إلى بغداد . فاذا وصل التمس الحضور بين يدي الخليفة ، فاذا حضر قبّل الارض بين يديه . وكان قصارى ما يتمناه ان يولّيه الخليفة ، ويعقد له لواءً ويخلع عليه[4] » . فمن كل ذلك نستنتج ان هؤلاء الملوك كانوا يتصرفون بأمور الدولة كما يشاؤون إلا انهم كانوا يظهرون التبجيل لصاحب الخلافة فيقدّمونه ويقبّلون يديه ويتبركون به ، وهم في الواقع أصحاب الأمر ليس للخليفة منه شيءٌ ، وإنما كانوا يفعلون ذلك لما كان للخلفاء من المنزلة الدينية في نفوس الناس .

* * *

ولم يكد يدخل القرن الرابع الهجري حتى ضعفت الحكومة المركزية في

١ الفخري (مصر ١٣١٧) ٢٥٠ .
٢ المقدمة ٢٠٨ .
٣ صبح الاعشى (المطبعة الاميرية – مصر) ١١ – ٧٣ .
٤ الفخري ١٢٤ .

بغداد جداً ولم يبقَ للخلافة من نفوذ فعلي في المملكة . فكانت خلافة الراضي ، وبلاد فارس في يد بني بويه ، والموصل وديار بكر وديار ربيعة ومضر في يد بني حمدان ، ومصر والشام في يد محمد بن طُغج ثم في أيدي الفاطميين ، وخراسان والبلاد الشرقية في أيدي السامانية . وثمّة امارات أخرى ، واليك ذلك ببعض التفصيل :

الامارات المستقلة في بلاد فارس

وقد نشأت وانقرضت في مدد مختلفة بين سنة ٣٠٥ هـ و ٤٣٤ هـ وهي :

الطاهرية في خراسان	الصفارية في فارس
السامانية في ما وراء النهر	الساجية في اذربيجان
الزيارية في جرجان	

أما الامارة الفارسية الكبرى فقد مر ذكرها وهي البويهية (٣٢٠ هـ — ٤٤٧) ويرجع نسب ملوكها إلى أبي شجاع بويه بن فناخسرو من ولد يزدجرد آخر ملوك الفرس[١] . نشأت في بلاد الديلم وأخذت بالتقدم حتى استولت على بلاد فارس ثم استولت على بغداد وأصبح لها الامر والنهي في العراق وفارس . وكان الخليفة يعيش في ظلها من إقطاع يعيّنه له الملك البويهي[٢] . وهذه الدولة شيعية لكنها لم تتعرض للخلافة العباسية (وهي سنّية) بل أبقتها على حالها وأبقت للخلفاء حق اصدار المراسيم والخلع . وهذا كبيرهم عضد الدولة لما استولى على بغداد وعلى شؤون الدولة ، لم يرَ بداً من تعظيم الخلافة[٣] مع انه لا يعتقد باطناً بحق العباسيين فيها . وقد زوّج الخليفةَ ابنته ونحرضه ان تلد ذكراً فيجعله ولي العهد وتكون الخلافة في ولده[٤] .

١ ابن العبري ٢٧٩ .
٢ ابن العبري ٢٩١ .
٣ مسكويه — تجارب الأمم (مصر ١٩١٥) ج ٢ ص ٣٤٤ .
٤ مسكويه ج ٢ — ٤١٤ .

الامارات التركية

ومنها الطولونية في مصر والشام ٢٥٤ هـ – ٢٩٢ .

الاخشيدية في مصر والشام ٣٢٣ هـ – ٣٥٨ .

الغزنوية في خراسان وافغانستان ثم الهند ٣٥١ هـ – ٥٨٢ .

قال ابن خلدون وقد بلغت هذه الدولة من العز المبالغ العظيمة [١] .

اما الامارة التركية الكبرى فهي السلجوقية . وقد نشأت أولاً في تركستان ثم جمع جدهم سلجوق عشيرته ونفر بهم من بلاد الترك إلى بلاد المسلمين ، فلما دخلها أظهر الاسلام وعلى ذلك نشأ أولاده . وما زال أمرهم يعظم حتى ملك طغرلبك (وهو أول سلاطينهم) بلاد العجم وكان قيامه في خلافة القائم العباسي ، ثم تقدم إلى بغداد بدعوة من القائم لينصره على ثائر اسمه البساسيري [٢] . فاستولى عليها وخُطب له بالسلطنة على منابر بغداد وذلك سنة ٤٤٧ هـ . وتولى خلفاؤه الأمر بعده ، وما زالوا يسوسون الامور في بغداد حتى ضعف أمرهم . ثم زالت دولتهم في خلافة الناصر سنة ٥٩٠ هـ وكان السلاجقة في إبّان مجدهم أصحاب شوكة عظيمة . وهم عدّة فروع امتد سلطانهم من افغانستان إلى البحر المتوسط . ولما ضعف أمرهم استبد عمّالهم (الاتابك) بالاحكام في اماراتهم المختلفة ، ولم يبق لهم بعد ذهاب دولتهم في بغداد وغارة المغول على المملكة العباسية إلا آسيا الصغرى . فقد حفظوها حتى جاء الاتراك العثمانيون فاستولوا عليها وأسسوا على انقاض السلاجقة سلطنتهم العظيمة ، ثم لم يعتموا ان أصبح سلاطينهم خلفاء العالم الاسلامي ودخلت أكثر البلدان العربية في حوزتهم . ولهم تاريخ خاص لا يدخل في بحثنا هذا .

الامارات العربية

نشأ في الدولة العباسية بضع امارات عربية مستقلة ، على انها – إذا

---

١ ابن خلدون (تصحيح الهوريني) ٤ – ٣٦٠ .

٢ ملك هذا الثائر الامر حيناً في بغداد ودعا فيها للفاطميين .

استثنيت العلوية والادريسية منها - كانت جميعها تخطب للخليفة العباسي وتعدّه الزعيم الاسلامي الاكبر . ومنها :

الادريسية – في مراكش ١٧٢ هـ – ٣٧٥ وكانت معادية للعباسيين .

الاغلبية – في تونس ١٨٤ – ٢٨٩ امراؤها من تميم .

الحمدانية – في حلب ٣١٧ – ٣٩٤ شيعية وامراؤها من تغلب اشهرهم سيف الدولة ممدوح المتنبي .

المزيدية – في الحلة ٤٠٣ – ٥٤٥ وهم من بني أسد .

العقيلية – في الموصل ٣٨٦ – ٤٨٩ دولة مضرية .

المرداسية – في حلب ٤١٤ – ٤٧٢ وهي مضرية وامراؤها من بني كلاب .

على ان أهم الدول العربية التي نشأت في أثناء العصر العباسي اثنتان ، الفاطمية والاندلسية . واليك كلمة وجيزة في كل منهما :

الدولة الفاطمية (٢٩٦ هـ – ٥٦٧)

وهي علوية اسماعيلية . بذلك يقول ابن خلدون [١] وابن الاثير [٢] وابن الطِقطقَى [٣] ويشك غيرهم في أصلها العلوي .

وكان بدء أمرها في افريقيا أيام المقتدر العباسي ، ثم انتقلت (في ٣٥٨ هـ) إلى مصر وبقيت هناك حتى أزالهـا صلاح الدين الايوبي ٥٦٧ هـ . وهذه الدولة عظيمة الشأن ، تختلف عن سواها من الدول التي نشأت أيام العباسيين انها قرنت الملك بالدين فنشأت خلافة تزاحم الخلافة العباسية . وقد تبسّطت فاستولت على افريقيا ومصر وسوريا والحجاز ، وبعبارة ابن خلدون : « قاسمت العباسيين شقّ الأُبلمة » ، ثم أخذت بالانحدار وما زالت كذلك حتى استولى صلاح الدين على مصر . فلما مات العاضد (آخر خلفائها) قطع صلاح الدين الخطبة للفاطميين وحوّلها إلى العباسيين .

١ ابن خلدون ٤ – ١١ .
٢ ابن الاثير (ليدن) ٨ – ١٨٧ .
٣ الفخري ٢٣٧ .

وللدولة الفاطمية يد على الأدب العربي ، فهم الذين انشأوا الجامع الأزهر ، وكانوا ينشطون العلماء والأدباء بالعطف عليهم واقتناء المكتبات الكبرى وفتح أبوابها لهم .

الدولة الاموية الاندلسية (١٣٨ – ٤٢٨ ﻫ)

تبدأ بعبد الرحمن الداخل (حفيد هشام بن عبد الملك بن مروان) الذي فرّ من وجه العباسيين إلى افريقيا ، ثم تمكّن من دخول الاندلس والاستيلاء عليها . وما زال الملوك من آله يتوارثون الحكم فيها حتى قام عبد الرحمن الناصر فبلغت به الدولة الأموية في الاندلس أوجها ، وهو أول من طمع بالخلافة من أمرائها فلقّب بأمير المؤمنين[1] . قال مسكويه فعل ذلك لما ضعف أمر الأمة ووهت أركان الدولة العباسية وتغلبت القرامطة والمبتدعة على الاقاليم[2] . وقد ازدهرت في أيامه الاندلس أيّما ازدهار ، وبقيت كذلك أيام ابنه الحكَم المستنصر . ثم أخذت دولة بني أمية تضعف وأخذ الفساد يستولي على خلافتهم ، فتجزّأت وأصابها ما أصاب الدولة العباسية من ضعف العرش واستبداد الأمراء بإماراتهم المختلفة . ولهذه الدولة تاريخ خاص خارج عن تاريخ الدولة العباسية ، وقد نشأ فيها من الآداب والعلوم والفنون ما يقتضي سِفراً خاصاً . وانّما ذكرناها في عرض هذا البحث زيادة للايضاح وتتمة للكلام على الدول العربية التي انفصلت عن الخلافة العباسية .

* * *

ومن الامارات المشهورة التي كان لها شأن يذكر في الخلافة العباسية الدولة الكردية المعروفة بالايوبية (٥٦٤ – ٦٤٨ ﻫ) وأشهر ملوكها مؤسسها السلطان صلاح الدين الذي اشتهر بوقائعه مع الصليبيين .

---

١ ابن خلدون ٤ – ١٢٢ .

٢ تجارب الامم ج ٢ – ٦٠ .

تأثير هذا التجزؤ في الادب العربي

وكان من نشوء هذه الدول في العالم الاسلامي ان الأدب تحوّل عن بغداد إلى مراكز أخرى . فكان الخليفة الراضي الذي بويع ٣٢٢ ﻫ آخر خليفة دوّن له شعر ، وآخر خليفة كانت مراتبه وجوائزه وخدمه وحجّابه تجري على قواعد الخلفاء المتقدمين[١] . ومعنى ذلك ان العرش العباسي لم يعد الموئل الاكبر للأدب والأدباء ، وانه نشأ في الامارات المستقلة حواضر زاحمت بغداد في الشعر والعلم . نذكر من ذلك بلاط سيف الدولة في حلب ، وتلك الحلقة الأدبية التي كانت تحيط به مثل ابن خالويهِ وابن نباتة وأبي فراس والمتنبي والنامي والفارابي والسريّ الرفّاء والخالديّين ، وبلاط آل بويه ومن كان يتصل بهم كابن العميد والصابي والصاحب ابن عباد ، وامراء سامان وما كان لهم من عطف على العلم والعلماء .. وقس على ذلك سائر الامارات في مصر والعراق والاندلس وفارس والمغرب ، فان اللغة العربية ظلت إلى أيام العثمانيين لغة الأدب والدين والسياسة في أكثر الممالك الاسلامية . وكان الامراء من عرب وغير عرب يتنافسون في العطف على الأدباء والعلماء ، وفي جمع الكتب وخدمة العلم . وأظهر من فعل ذلك من غير العرب الملوك الايوبيون في اماراتهم المختلفة[٢] . وهذا التنافس على الأدب يفسّر لنا تلك الظاهرة التاريخية الغريبة – استمرار الأدب العربي مع ضعف العرب وذهاب السيادة من أيديهم . واليك بعض أمثلة من رجال العلم في ذلك العصر توضح لك ما نحن بصدده :

ابن سينا الطبيب الفيلسوف توفي ٤٣٨ ﻫ . كان في بخارى في خدمة نوح بن منصور الساماني
وفي خوارزم عند مأمون
ابن مأمون .

١ الفخري ٢٥٢ .

٢ زيدان – تاريخ آداب اللغة ٣ – ١١ .

البيروني – الفلكي المشهور توفي ٤٣٠ هـ. كان في الهند وأقام مدة في خوارزم وقد قدم بعض كتبه للسلطان محمود الغزنوي .

الجوهري – صاحب الصحاح توفي ٣٩٨ هـ. كان في نيسابور وقد ألَّف كتابه لأبي منصور البشيكي .

ابن فارس – اللغوي المشهور توفي ٣٩٠ هـ. الف كتابه الصاحبي للصاحب بن عباد .

ابن دريد صاحب الجمهرة والمقصورة توفي ٣٢١ هـ. صحب ابن ميكال أمير فارس والف له بعض كتبه .

المسعودي – المؤرخ المشهور توفي ٣٤٦ هـ. نشأ في بغداد وطاف البلدان ثم استقر في مصر .

مسكويه (أو ابن مسكويه) – المؤرخ والمفكر توفي ٤٣١ هـ. صحب ابن العميد وخدم بني بويه .

ابن البيطار – النباتي المشهور وكان في خدمة الملك الكامل الايوبي .

وأمثال هؤلاء الاعلام كثيرون لا يتسع المقام لذكرهم . اما المدن التي شاركت بغداد او زاحمتها في الادب والعلم فنذكر منها – القاهرة وحلب ودمشق وقرطبة واشبيلية والقيروان وخوارزم ونيسابور وبخارى . ومن الامراء الذين اشتهروا بميلهم إلى الأدب وعطفهم على العلماء ركن الدولة البويهي ومنصور الساماني وشمس المعالي قابوس ومحمود الغزنوي والعزيز والحاكم الفاطميّان ، وصلاح الدين الايوبي وغيرهم .

الحركات الهدامة الداخلية

كانت الدولة العباسية منذ نشأتها مرتعاً خصباً للثورات ، وتاريخها وثيق

الارتباط بها . وهذه الثورات تظهر في مظهرين كبيرين : حركات الخوارج والحركات العلوية .

حركات الخوارج

ويرجع تاريخها كما هو معروف إلى أيام صِفّين والتحكيم . من ذلك الحين ظهر الخوارج وأنشأوا حزباً معادياً للخلافة فحاربوا الامام علياً بعد أن كانوا قبلاً من أنصاره . ولهم مع الامويين وقائع مشهورة ، وقد كانوا من أشد الاخطار على دولتهم حتى قهرهم الحجـــاج بن يوسف والمهلّب ورجالهما فضعف أمرهم وتشتتوا في أنحاء مختلفة ، ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك حتى خلافة المنصور العباسي . ففي أيامه خرجوا في عُمان بقيادة زعيمهم شيبان بن عبد العزيز ، ولكن المنصور أرسل لمحاربتهم جيشاً قوياً فهزمهم وفلّ جيوشهم .

ولما كانت خلافة المعتمد – والعرش العباسي في حال اضطراب من جراء المستبدّين به – عادوا إلى حركاتهم فخرجوا في ولاية الموصل بقيادة مساور بن عبد الله ، وتمكنوا سنة ٢٥٥ هـ . من دخول الموصل والاستيلاء على كثير من أنحاء العراق . وبلغ من أمرهم أن زحفوا على بغداد نفسها ، لكن جيوش الخليفة ردّتهم فتراجعوا . وأقام مساور في الموصل حتى اغتيل سنة ٢٥٨ هـ ، ولم يبق للحركة الخارجية بعد ذلك من قوة سياسية في العراق . على انها بقيت في الجزيرة العربية وفي افريقيا تحت اسم الأباضية (وهي فرع منها) قوة لا يستهان بها . ثم اعتراهم الوهن فتضعضعت أحوالهم ، ولم يلبثوا ان انسحبوا من معترك الجهاد السياسي والحربي[١] .

الحركات العلوية

وهي إما ثورات قام بها آل البيت أنفسهم خروجاً على الخلافة القائمة

---

١ وأخبارهم متفرقة في أمهات كتب التاريخ العربي : ومن الكتب الحديثة مختصر تاريخ الخوارج لمحمد شريف سليم ، والخوارج في الاسلام ، بيروت (مكتبة المعارف) ، وسواهما .

أو حركات هدّامة مؤسسة على المبدأ العلوي . وقد بدأت الاولى (ثورات الائمّة) منذ انتزع الامويون الملك من آل البيت . ومنها قيام الحسين إلى الكوفة ومقتله في كربلاء ، ومـــا تبع ذلك من دعوات وثورات طيلة الحكم الاموي ، كثورة المختار في العراق ثم الثورة الخراسانية ، وكانت علوية في أول الأمر ثم تحوّلت إلى العباسيين .

ولما قام العباسيون وانفردوا بالملك دون العلويين رجع النزاع إلى ما كان عليه بين الشيعة والخلفاء . فتحركت الشيعة حركات عدّها العباسيون عصياناً ، كخروج النفس الزكية في المدينة أيام المنصور ، وخروج يحيى ابن عبد الله في الديلم أيام الرشيد ، ويحيى بن عمر بن يحيى في الكوفة أيام المستعين ، وظهور الكوكبي بقزوين وطرده آل طاهر [1] . لكن الخلفاء تمكنوا من الثائرين وقتلوهم .

وفي بدء خلافة المأمون (وذلك قبل أن يقدم من خراسان إلى بغداد) كثرت حركات الشيعة حتى رأى أن يعهد بالأمر بعده لعلي الرضا [2] ، ولكن استياء العباسيين وموت علي الرضا ، حالا دون ذلك . ثم كثر خروجهم في الحجاز واليمن والعراق وفارس وتتابعت دعـــاتهم . وهم ، ولئن لم يستطيعوا تقويض العرش العباسي ، فقد أحدثوا فيه اضطراباً شديداً كان من جملة الاسباب التي أدت إلى انحلال الدولة . ولا يخفى ان الخلافة الفاطمية التي ذكرناها آنفاً كانت من ثمار الحركات العلوية ومن أشدّ الضربات على الخلافة العباسية .

* * *

أما الحركات الهدامة المؤسسة على المبدأ العلوي فقد قامت بها هيئات منظمة أحدثت تأثيراً كبيراً في الدولة العباسية ، وأهمها حركات الزنج والقرامطة والحشاشين (الباطنية) .

---

١ الطبري ، أخبار سنة ٢٥١ .

٢ ابن خلدون ٤ — ٩ .

الزنـــج

حوالى منتصف القرن الثالث الهجري في أيام الخليفة المعتمد قام رجل اسمه علي بن محمد يدّعي النسب العلوي . فاستمال اليه قلوب العبيد من الزنج بالبصرة ونواحيها وأفسدهم على مواليهم حتى اجتمع اليه منهم ومن سواهم خلق كثيرون ، وما لبث حتى عظم شأنه واشتدت شوكته . واتفقت له حروب وغزوات نُصر بها ، فتفاقم شرّه ، وانبثّ عسكره السودان في البلاد العراقية والبحرين والأهواز . وفي ٢٥٧ ﻫ أغاروا على مدينة البصرة فنهبوها وأحرقوها وأحدثوا فيها فظائع ذكرها ابن الرومي في قصيدة ستذكر في حديثنا عن هذا الشاعر . وكانت بينهم وبين جنود الخلافة حروب عظيمة دامت سنين كثيرة وذهب فيها الوف من القتلى ولكنها انتهت سنة ٢٧٠ ﻫ بقهرهم وتحرير البلاد من شرهم . وكان قائد العباسيين الاكبر في حروبهم الموفّق اخا الخليفة المعتمد . ومن كبار رجاله موسى بن بغا ، وابراهيم بن المدبّر ، وابو العباس ابن الموفّق ، وسواهم ممن يرد ذكرهم في مدائح الشعراء[1] .

القرامطة

كان ابتداء ظهورهم سنة ٢٧٨ ﻫ بسواد الكوفة ، وقد قاموا يدعون لآل البيت . وقوي أمرهم هناك ثم ظهر منهم جماعة في البحرين وعاثوا في البلاد ينوون البصرة . فحاربهم عمال العباسيين ولكن القرامطة انتصروا عليهم واستفحل أمرهم في العراق ، فانضم اليهم جموع من اعراب الشام وهاجموا دمشق . وكان بينهم وبين عامل الطولونيين فيها وقائع شتى . وما زال أمرهم يتعاظم ونفوذهم يتسع في العراق والشام والجزيرة العربية حتى أمست طرق الحج بأيديهم فصاروا يعتدون على الحجاج . وفي سنة ٣١٧ ﻫ

---

١ لزيادة الاطلاع راجع ابن خلدون ٤ ص ١٨ – ٢٢ ، الفخري ٢٢٧ ، الطبري في اخبار سنة ٢٥٥ و ٢٦٧ الخ ...

دخلوا مكة فنهبوا أموال الحجاج وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، ثم اقتلعوا الحجر الاسود من الكعبة وحملوه إلى هجَر فبقي عندهم اثنتين وعشرين سنة . قال ابن الاثير فلما بلغ ذلك الخليفة الفاطمي المهدي كتب إلى زعيمهم أبي طاهر ينكر عليه ذلك ويلومه ويلعنه ويقيم عليه القيامة ويقول : « قد حقّقت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والالحاد بما فعلت ، وان لم تردّ على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم مـا أخذت منهم ، وتردّ الحجر الاسود إلى مكانه ، وترد كسوة الكعبة فأنا بريءٌ منك في الدنيا والآخرة . » فلما وصله هذا الكتاب أعاد الحجر الاسود واستعاد مـا أمكنه من الاموال .

وبقي أمرهم الشغل الشاغل لولاة الامر في بغداد أكثر القرن الرابع الهجري ، وانك لتعرف مبلغ ما أحدثوه في نفوسهم من كتاب كتبه الصابىء على لسان الخليفة[1] . ثم ضعف أمرهم وتفرّقوا في البلاد[2] .

الحشاشون

وهم من الباطنية . ظهروا أولاً في ساوه أيام ملكشاه السلجوقي فناضلهم أولو الامر لكنهم لم يستطيعوا قهرهم . فلما مات ملكشاه استفحل أمرهم في أصبهان . وفي ٤٩٣ هـ استولى زعيمهم ومؤسس فرقتهم الحسن بن الصبّاح على قلعة ألمُوت وهي من نواحي قزوين وجعلها مقر الحكم الاسماعيلي ، منها تصدر الأوامر إلى كل النواحي . وكان يدعو للخليفة الفاطمي بمصر . وفي ٤٩٨ هـ ظهر أمرهم في الشام فتملكوا حصن افامية وقطعوا الطرق . وأخذت شوكتهم تتعاظم حتى كانت سنة ٥٢٠ هـ فاستولوا على بانياس ثم على أماكن أخرى وكان بطشهم شديداً بالمسلمين والافرنج الصليبيين ، وكان دأبهم اغتيال الامراء والزعماء . ومما يدلك على شدة شكيمتهم ان

---

١ راجع رسائله (المطبعة العثمانية ١٨٩٨) ٢٤٦ .

٢ راجع بعض أخبارهم في ابن خلدون ٤ ص ٨٤ – ٨٨ و ص ٣٠٩ و ٤٥٧ .

صلاح الدين الايوبي حاربهم في الشام ثم رأى ان يصالحهم .

وقد ظلوا أصحاب قوة وبطش وظلّ نفوذهم عظيماً من تركستان إلى البحر المتوسط حتى أواخر الدولة العباسية وقيام دولة التتر ، فهاجمهم هولاكو في العراق وخرّب قلاعهم وأغار عليهم في الشام الملكُ الظاهر ملك مصر . وهكذا خُضدت شوكتهم وتشلتوا شراذم في الاقطار الاسلامية وذلك بعد أن اضطربت لهم ملوك المسلمين والصليبيين نحواً من قرن ونصف .

والباطنية التي ينتمي اليها الحشاشون تعضد المذهب الشيعي فكانت لذلك من أكبر أنصار الدولة الفاطمية ، ومن أفعل العوامل دينياً وسياسياً في تقويض سلطة الدولة العباسية .

العوامل الهدامة الخارجية ومنها غارات الروم

كانت بلدان الشرق الادنى المتاخمة لبحر الروم قبل الفتح الاسلامي جزءاً من مملكة الرومان الشرقية (بيزنطية) . فلما حدث الفتح الاسلامي تقلّص ظلّ الروم أمام العرب الفاتحين . فاحتل العرب مصر وسوريا وانتزعوا جزءاً من الاناضول وبقي أكثره تابعاً للروم لأن العرب لم يستقرّوا هناك . ولمتاخمة الاناضول لسوريا والجزيرة العراقية نشأ بين الفريقين منذ المئة الأولى الهجرية حروب متواصلة كان النصر فيها سجالاً . ففي أيام معاوية مثلاً توغلت جيوش العرب حتى القسطنطينية ثم تراجعت [1] ، واضطر معاوية سنة ٣٢ هـ أن يصالحهم على مئة الف [2] . وفي أيام عبد الملك هجم الروم على سوريا فبلغوا حماه وقنسرين والعواصم ثم هاجموا السواحل حتى خضع لهم قسم من الجبل . قال البلاذري وصالح عبد الملك الروم ،

---

١ الطبري ٥ — ٢٨٨٨ وابن خلدون ٢ — ٢٢٨ .

٢ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٥٧ — ٢٥٨ .

بعد موت أبيه وطلبه الخلافة ، على شيء كان يؤديه اليهم [1] . وفي أيام سليمان بن عبد الملك عاد العرب فهاجموا القسطنطينية [2] . وبقي الحال على هذا المنوال بين الروم والمسلمين أكثر أيام العباسيين . ولا يتسع المقام هنا لذكر الوقائع أو لتعداد المدن والحصون التي كانت تتداولها أيدي الفريقين . على انه لا بدّ من القول انه كان لهذه الحروب أثر كبير في الأدب العربي . يكفي أن نشير هنا إلى ما سنذكره من روائع أبي تمام والبحتري والمتنبي في انتصارات المعتصم والمتوكل وسيف الدولة . ولم تنج الممالك الاسلامية من خطر الروم الذين كانوا يواصلون الغـارات من الشمال حتى استقر الاتراك في الاناضول وحالوا دون تقدم الروم نحو الجنوب .

غارات الصليبيين

وبينما كان الروم يتهددون الدولة العباسية من الشمال الغربي ، وكان السلاجقة يوطّدون نفوذهم في عاصمتها ، اتفـق الافرنج على اكتساح الشام وما اليها بحجة انتزاع بيت المقدس من أيدي المسلمين . وهكذا بدأت الحروب الصليبية وأخذ الاوروبيون يواصلون الغارات على الانحاء الساحلية من سوريا وفلسطين ومصر .

* * *

ويمتد عصر الحملات الصليبية من ١٠٩٦ م – ١٢٩١ م وقـد كانت الخلافة العباسية في أوائله متفككة العرى ، والفاطميون في مصر يتربّصون الفرص للايقاع بها . وكانت سوريا – المعترك العام يومئذٍ – قد خرجت من حكم الدولة السلجوقية الرئيسية وأصبحت أمارات يتنازعها اتابكهم وخلفاء مصر . فاغتنم الافرنج تلك الفرصة وغزوها أولاً عن طريق الروم ثم عن طريق البحر ، ولم يعتموا أن احتلوا القدس وأسسوا فيها مملكة لاتينية

١ فتوح البلدان ١٨٨ .

٢ ابن الاثير ، في حوادث سنة ٩٨ .

بقيت نحو قرن ونصف (١١٠٠ م – ١٢٤٣ م) . ولم يكتفوا بذلك بل مدوا نفوذهم على القسم الغربي من سوريا إلى ما وراء انطاكية ، فأسسوا الامارات المختلفة وابتنوا القلاع الحصينة ، ساعدهم على ذلك تنازع الحكم في البلاد وضعف الخلفاء في بغداد والقاهرة ، ولكن الصليبيين كانوا من عناصر وبلدان شتى ، فنشبت بينهم منازعات كثيرة أدت أخيراً إلى فشلهم وخروجهم من البلاد[١] .

وممن كان له اليد الطولى في خضد شوكة الافرنج صلاح الدين الايوبي ملك مصر وأخوه الملك العادل ، ووقائعهما مع الصليبيين في مصر والشام مشهورة . ولصلاح الدين وآله في الأدب العربي أثر كبير يظهر في المدائح التي نالوها من شعراء زمانهم . نذكر منهم ابن الساعاتي[٢] وابن النبيه وابن قلانس وابن مفرج النابلسي وابن التعاويذي (وقد ذكره ابن خلكان ذكراً خاصاً في سيرة صلاح الدين وذكر بعض مدائحه) . ناهيك بالرسائل التي كان يتبارى بها منشئو ذلك الزمان وأشهرهم القاضي الفاضل وعماد الدين الاصفهاني وضياء الدين ابن الأثير[٣] .

وبرغم ما كان بين الشرق والغرب في خلال تلك الحروب من العداء المستحرّ والنزاع المستمرّ ، خرج الفريقان من غمارها بفوائد اجتماعية أدبية عظيمة . وربما كانت فائدة الغربيين أعظم ، فانهم رجعوا عن الشرق العربي وقد اقتبسوا من حضارته يومئذٍ ما كان له أثر كبير في حياتهم الاجتماعية .

والخلاصة

إن الدولة العباسية لم يكد يمضي عهد خلفائها الثمانية الأول حتى ظهرت

---

١ قال ابن الجوزي في مرآة الزمان ج٨ ص٢٤٨ أخبار سنة ٥٨٢ وفيها ظهر الخلاف بين الفرنج وتفرقت كلمتهم وكان لسعادة الاسلام .

٢ نشرنا ديوانه في جزأين عن نسخ خطية فريدة فليراجع .

٣ راجع أخبار صلاح الدين في مرآة الزمان للجوزي ج٨ ص٢٧ – ٢٨٠ في أخبار سنة ٥٨٩ وراجع الكلام على الرسائل في تطور الاساليب النثرية للمؤلف ، وفي ما نشره من رسائل ابن الاثير .

فيها عوامل الفساد التي أدّت إلى انحلالها . وهذه العوامل داخلية وخارجية فالداخلية هي :

١ – ضعف السلطة المركزية لتسلط المستبدين بها من عجم وأتراك .

٢ – استقلال الامارات المختلفة وتنازعها .

٣ – عوامل الفتن والثورات من خوارج وعلوية .

والخارجية : غارات التتر من الشرق ، وغارات الروم والصليبيين[١] من الغرب . وهناك عوامل أخرى يرجع فيها إلى المطوّلات التاريخية .

---

١ من أراد التوسع في الحروب الصليبية فليراجع من بين المصادر الكثيرة :
– مرآة الزمان للجوزي ج ٨ .
– ما ورد في الجزء الخامس من ابن خلدون .
– أخبار الصليبيين في دوائر المعارف ولا سيا البريطانية والاسلامية .
– كتاب The Crusaders in the East للمؤرخ ستيفنسن (Stevenson)
– رسائل الكتاب أيام صلاح الدين في صبح الأعشى .

تطور الحياة الاجتماعية

في العصر العباسي

الحضارة في فجر الاسلام

من المعلوم ان بلاد العرب لم تكن في زمن الجاهلية خِلواً من حضارة ما . وفي القرآن الذي هو نصٌّ تاريخي صادق نجد الدليل على ذلك في ذكر المتاجر البرية والبحرية والشركات والاحتكارات والشورى والصنائع والكتابة والملاهي والنقود وبعض المعارف . فإذا اضفت ذلك إلى ما نقله المؤرخون من أخبار اليمن وقريش والامارات العربية القديمة في العراق وحوران وتدمر وسواها ، عرفت انه كان للعرب قبل الاسلام اتصال بالعمران السائد يومئذ . فلما جاءَ الاسلام وحدثت الفتوح ازداد هذا الاتصال وتنظّم ، وكان له بعد ذلك آثاره المعروفة .

بيد ان الروح الدينية كانت في فجر الاسلام قوية جداً ، فوقفت بهم قليلاً عن الأخذ بأسباب الرخاء الحضري ، وكان لها أثر بيّن في تنظيم حكومتهم الأولى ، حتى كان بعض امرائهم الأولين يسلكون مسلك التقشّف ويشددون في تنفيذ أحكام الدين يلبسون الخَلَق المرقّع من الاثواب ويتجافون عن أطايب الطعام ويسيرون في الاسواق كعامّة الناس . والشواهد على ذلك

من أقوال المؤرخين كثيرة متعارفة لا يسعها هذا المقام[1] . نكتفي منها بمثال رواه لنا الطبري عن عمر قال : « ان سلـَمة بن قيس بعث برسولٍ إلى عمر ينبئه بفتح بلاد الاكراد ويحمل اليه حلى وجواهر . قال الرسول فأتيت أمير المؤمنين وهو يغذّي الناس متكئاً على عصا كما يصنع الراعي ، وهو يدور على القصاع ويقول يا يرفأ (خادمه) زد هؤلاء لحماً ، زد هؤلاء خبزاً ، زد هؤلاء مرقة . فاذا طعام فيه خشونة . ثم اتـّبعته إلى داره فإذا هو جالس على مسح ، متـّكىء على وسادتين من أدم محشوّتين ليفاً فنبذ إليّ احداهما فجلست عليها ، وإذا بهوٌ في صفـّة فيها بيت عليه ستر . فقال يا ام كلثوم (زوجة عمر) غداءَنا . فأخرجت اليه خبزة بزيت في عرضها ملح لم يدقّ » إلى آخر الحديث[2] .

على ان هذا التحرّج كان على أشده في خلافة عمر . ذكروا انهم استأذنوه في بناء الكوفة بالحجارة وقد وقع الحريق في القصب الذي كانوا بنوا به من قبل ، فقال افعلوا ولا يزيدنّ أحدكم على ثلاثة أبيات ولا تطالـّوا في البنيان والزموا السنـّة[3] . وماذا يراد بالسنـّة هنا غير ما عهدوه من مقتضيات التقشف اتباعاً لأحكام الدين ؟ وتأييداً لذلك نقل العلماء الأولون كمالك وابن حنبل وابن سعد وسواهم كثيراً من الاحاديث النبوية التي تحض على البساطة والتقشف . فلما جاءَ عهد عثمان أخذوا يتساهلون في ذلك ، فقد روى المسعودي ان الصحابة أيام عثمان اقتنوا الضياع والمال وابتنوا الدور ذات الشرفات[4] . ولما حدثت الفتنة على ذلك الخليفة أراد خصومه ان يستغلـّوا هذا التساهل العمراني فذكروا من جملة ما نقموه عليه بناء الدار[5] . وقد فسر ذلك المستشرق كاسانوفا بقوله : « ان القوم الذين

---

١ راجع وصف حالهم في مقدمة ابن خلدون ٢٠٤ والفخري ٦٥ .

٢ الطبري (ليدن) جم ١ – ٢٧١٦ .

٣ مقدمة ابن خلدون ٣٥٨ .

٤ المسعودي (باريس) ٤ – ٢٥٣ .

٥ اليعقوبي ٢ – ٢٠٢ .

نشأ فيهم عثمان (أي الامويين) كانوا أقل اهتماماً بأمور الدين والآخرة منهم بأمور الدنيا ، فكان همهم الفتح وجمع المال »[1] . ولعل الاصوب ان نقول ان التحرج الديني ضد الحضارة والرفاهية أمر غير طبيعي فلا يلبث ان يزول . وهكذا كان بعد الحكم العمري ، برغم ان بعض الصحابة والتابعين ظلوا على سنّة عمر .

الدولة الاموية

ولما انتقل مركز الخلافة إلى الشام خطا العرب إلى الامام في سبيل الحضارة السياسية والاجتماعية « وكان معاوية مؤسس الدولة الاموية أول من أقام الحرس والشُرط والبوّابين في الاسلام وارخى الستور ، ومُشي بين يديه بالحراب وجلس على السرير والناس تحته »[2] . وقد ظهر على معاوية الميل إلى محاكاة الاعاجم في ابّهتهم منذ كان عاملاً على الشام . ذكر ابن خلدون انه لما لقي معاوية عمر بن الخطاب عند قدومه إلى الشام في ابّهة الملك وزيّه من العديد والعدة استنكر ذلك وقال : « أكسرويّةً يا معاوية ؟ » فقال : « يا أمير المؤمنين انـّا في ثغر تجاه العدو ، وبنا إلى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة[3] » .

وبعد ان كانوا في المدينة لعهدهم الاول يحسبون التجافي عن الرفه والرخاء واجباً دينياً صاروا لما استقر ملكهم في الشام يتأنقون في أسباب الحياة الحضرية ، فلبسوا الحلل المزركشة وأقاموا الابنية الفاخرة ، وانصرفوا إلاّ القلائل منهم إلى الملاهي . ولم ينحصر ذلك في دمشق بل نراه في كثير من الحواضر كالكوفة والبصرة والمدينة ومكة . ومن البديهي ان يُقبل الخاصة ومن يليهم من العامة على ما يقبل عليه امراؤهم ، حتى ان بعض أبناء

---

١ Moh. et la fin du monde 58

٢ اليعقوبي ٢ – ٢٧١ الفخري ٧٨ .

٣ المقدمة ٢٠٣ .

الصحابة واحفادهم أصبحوا من أكثر الناس استمتاعاً بالملاهي .

ومن أمثلة ذلك عبد الله بن جعفر بن ابي طالب فقد تشاغل بالغناء والجواري حتى عيب عليه سعيه في هدم مروءته . ومنهم الوليد بن عُقبة أخو عثمان بن عفان فقد شهد عليه أهل الكوفة انه صلّى بهم الصبح ثلاث ركعات وهو سكران ، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب حدّه عمرو ابن العاص بمصر لشرب الخمر . ومنهم الوليد بن عثمان بن عفان ، وحفيده العَرجي الشاعر ، وابن ابي عتيق حفيد ابي بكر ، وغيرهم من أبناء الصحابة الذين اقتضت السياسة الاموية منعهم من الاشتغال بالسياسة فاندفعوا في سبيل اللهو والمجون[1] . وصار اللهو الشغل الشاغل لبعض المترفين حتى في مناسك الحج[2] . وهذا الاقبال من الامراء ومَن دونهم على الدنيا كان له بلا شك تأثير كبير في تنشيط الصناعة والتجارة والادب ، فأقبل على دمشق وسائر الحواضر العربية عدد من الصناع والمغنين والجواري والشعراء مما زاد حركة الاعمال وأحدث فيها حالة اجتماعية لم يعهدها الراشدون .

ومع كل ذلك بقيت للبداوة نزعة في نفوس الأمويين . فلم يكن امراؤهم برغم سياستهم التي كانت ترمي إلى تعظيم البيت الأموي يترفعون عن معاشرة رعاياهم ومخالطتهم والسماح لهم بالكلام عندهم . فقد نقل عن الوليد بن يزيد والغمر اخيه انهما لما مات مَعبد (المغني المشهور) مشيا بين يدي سريره حتى أخرج من دار الوليد[3] . وكان عبد الملك أول خليفة منع الناس من الكلام عند الخلفاء وتقدم فيه وتوعد عليه[4] . ولا غرابة فقد

---

١ و ٢ راجع أخبارهم في ما يلي :
– الكامل للمبرّد (مصر ١٣٠٨) ١ – ٣٩٢ و ٣٩٣ .
– العقد (بولاق) ٣ – ٤٠٦ و ٤٠٧ والنويري (دار الكتب المصرية) ٤ ص ١١٣ – ١١٩ .
٣ الاغاني (دار الكتب) ١ – ٣٧ .
٤ البيان والتبيين (ص) ٢ – ١٩٢ .

كان بعضهم يكلّمه بما لا يُكلّم به الملوك ، كما روى الجاحظ عن رجل من بني مخزوم وكان زُبيريا . قال دخل على عبد الملك فقال له عبد الملك : « أليس قد ردّك الله على عقبيك ؟ » فقال : « أو مَن رُدّ اليك فقد رد على عقبه ؟ » فاستحى وعلم انه قد اساء[1] . ودخل كثيّر على يزيد بن عبد الملك يسأله عن معنى بيت للشّماخ فاستحمقه وأخرجه[2] . ويثبت ذلك انهم كانوا حتى أيام الوليد يسمّون خلفاءهم بأسمائهم . قال اليعقوبي : « كان الوليد يقول لا ينبغي لخليفة أن يناشَد ولا يكذّب ولا يسميه أحد باسمه . » وعاقب على ذلك[3] . وعن ابن خلدون انهم تجافوا عن ألقاب التعظيم مع الغضاضة والسذاجة لأن العروبة في منازعها لم تفارقهم حينئذٍ ، ولم يتحول عنهم شعار البداوة إلى شعار الحضارة[4] ، وقال : كانت اعطيتهم أكثرها الابل أخذاً بمذاهب العرب وبداوتهم ، ومثلهم كان عمالهم .

وقد نقل ابن خلدون حديث الحجاج ووليمته في اختتان بعض ولده ، قال فاستحضر بعض الدهاقين يسأله عن ولائم الفرس فقال شهدت بعض مرازبة كسرى وقد صنع لأهل فارس صنيعاً أحضر فيه صحاف الذهب على أخونة الفضة ، اربعاً على كل واحد ، تحمله اربع وصائف ، ويجلس عليه اربعة من الناس . فاذا طعموا أتبعوا اربعتهم المـــائدة بصحافها ووصائفها . فقال الحجاج ، وقد علم انه لا يستقل بهذه الابهة ، يا غلام انحر الجزر[5] . ويظهر مما ذكره في موضع آخر ان نظامهم الحربي ظل بدوياً فكانت أسفارهم لحروبهم وغزواتهم بظعونهم وسائر حللهم واحيائهم من الأهل والولد[6] . ومع ما درّته الفتوح عليهم من مال وما مهّدت لهم

١ البيان والتبيين (س) ٣ – ٢٦٧ .
٢ البيان والتبيين (س) ٢ – ١٩٦ .
٣ اليعقوبي ٢ – ٣٤٨ .
٤ المقدمة ٢٢٨ .
٥ المقدمة ١٧٤ .
٦ المقدمة ٢٦٨ .

من سبل الحضارة لم يخرجوا خروجاً تاماً عن منازع البادية في حياتهم . إلاّ انهم توسعوا كثيراً في الملاهي فتنظمت في الامصار المختلفة حركة الغناء واللعب على الآلات ، ونشأت في المدن المختلفة ولا سيما مدن الحجاز مجالس خاصة وحلقات خاصة من مغنّين ومغنيات اتخذت الغناء مهنة ترتزق بها . وقد بلغ ذلك منهم حتى صار فيهم دور خاصة للملاهي والمطالعة . جاء في كتاب الاغاني ان عبد الحكيم بن عمرو الجُمَحي اتخذ بيتاً في المدينة فجعل فيه شطرنجات ونردات وقِرقات ودفاتر فيها من كل علم ، وجعل في الجدار أوتاداً فمن جاءَ علق ثيـــابه على وتد منها ، ثم جرّ دفتراً فقرأه ، أو بعض ما يلعب به فلعب به مع بعضهم[1] . وإذا قابلت ذلك بما كانت عليه المدينة أيام أبي بكر وعمر مثلاً تجد فرقاً كبيراً في اتجاه الافكار نحو الملاهي .

أما في دمشق – عاصمة الدولة يومئذ – فقد كان الخلفاء أنفسهم إلا القليل منهم ينشّطون هذه الحركة . وكان يزيد بن معاوية أول من سن الملاهي في الاسلام من الخلفاء وآوى المغنين وشرب الخمر[2] . واشهرهم في ذلك سليمان بن عبد الملك ، ويزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد[3] . وفي أيامهم كثرت الملاهي ولم تنحصر في الخاصة بل تعدتها إلى العامة ، فنشأت طبقة من المتخصصين في صناعة الطرب كان لهم اتباع يدربونهم على الغناء والآلات تدريباً فنّياً . وظهر في الحجاز جمـــاعة من المغنين بلغوا من الشهرة مبلغاً عظيماً – منهم :

ابن مِسجَح (مكي) وابن مُحرز (مكي) وطُويس (مدني) وابن سُريج (مكي) ومَعبد (مدني) وجميلة (وكانت معلمة القينـــات في المدينة) وعَزّة الميلاء وحُنين والغَريض واضرابهم ممن تجد أخبارهم بالتفصيل

---

١ الاغاني (بولاق) ج ٤ – ٥٢ .
٢ الاغاني ١٦ – ٧٠ .
٣ المستطرف (بولاق) ٢ – ١٨٨ .

في كتب الادب[١] .

وقد رافق تقدم الغناء في هذا العصر تقدم الشعر الغزلي ، ولا غرو فهما ربيبا عاطفة واحدة . ومن الشعراء الذين عرفوا بالغزل والتشبيب وما إلى ذلك من لهو ومجون :

الاحوص وهو مدني من الأوس .

يزيد بن الطَّثَرية وهو شاعر بدوي .

نُصيب مولى عبد العزيز بن مروان وقد اشتهر أيضاً بالغناء .

عمر بن ابي ربيعة وهو مشهور ، واختص شعره بوصف النساء وحاله معهن .

العَرجي وقد مرّ ذكره وكان شغوفاً باللهو والصيد والتشبيب .

ومن طبقتهم كثيرون لا يتسع لهم المقام[٢] .

ومن مظاهر التطور الاجتماعي أيام الامويين نشوء دور التعليم وازدياد عدد المتعلمين . فقد كان العرب في أول أمرهم أميين ، إلاّ أفراداً قلائل بلغوا في الحجاز أول الدعوة الاسلامية سبعة عشر شخصاً[٣] . ثم أخذ عدد القراء والكتبة يتزايد : قال ابن خلدون : « لما جاءَ الملك للعرب وفتحوا الامصار وملكوا الممالك ونزلوا الكوفة والبصرة واحتاجت الدولة إلى الكتابة استعملوا الخـــط وطلبوا صناعته وتعلمه ، وتداولوه فترقت الاجادة به[٤] . »

وطبيعي أن تتقدم القراءَة والكتابة ، وان ينشأ في مساجد الحواضر حلقات تعليمية ويكون فيهم معلمون لصبيانهم . وقد ورد ذكر معـــلم

---

١ راجع كتاب الاغاني، ج١ – ١٥٢، ج٣ – ٨٤، ج٧ – ١٤٤ وأماكن أخرى فيه. ونهاية الارب للنويري (دار الكتب المصرية) ج ٤ ص ٢٣٢ – ٢٩٠ .

٢ وتجد أخبارهم في الاغاني ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، ووفيات الاعيان وسواها .

٣ البلاذري (ليدن) ٤٧١ .

٤ المقدمة (بيروت) ٤٢٠ .

الكتّاب في شعر جرير إذ قال : « هذي دواة معلّم الكتّاب » . وفي أخبار الوليد بن عبد الملك انه مرّ بمعلّم صبيان يعلّم جارية [1] الخ ...

وذكر الجاحظ أمثال الناس عن المعلمين . وفي دفاعه عنهم جعلهم ثلاث طبقات : مؤدبي أولاد الملوك ، ومؤدبي الخاصة ، ومعلمي كتاتيب القرى . وذكر بضعة من كبار المؤدبين في العصر الاموي مثل الجهني والشعبي وعبد الصمد الأعلى وكميت بن زيد وقيس بن سعد وعطاء بن ابي رباح وعبد الحميد الكاتب والحجاج بن يوسف ، يوم كان يعلم في الطائف [2] . وبعبارة أخرى فرّق بين الاساتذة المؤدبين وبين معلمي الكتاتيب الذين لم يبلغوا مكانة في العلم والتأديب . وقال ان أمثال العامة قد تصدق على بعض هؤلاء لا على الطبقة الأولى التي ينتمي اليها كبار العلماء والفقهاء وقادة الافكار .

وقد نقل ابن قتيبة وصايا بعضهم لمعلمي العصر الاموي فلتراجع [3] .

ويدلك على انتشار التعليم في هذا العصر نشاط حركة النسخ والتدوين : ذكروا انه في معركة صِفّين رفع نحو خمسمئة نسخة من القرآن [4] . ومع انه لم يصلنا شيءٌ يذكر مما دوّن في هذا العصر فلا شك ان التدوين سابق للعصر العباسي . ومن أدلة ذلك نقلهم الدواوين الاميرية إلى اللغة العربية . ويحدثنا اليعقوبي ان زياد بن ابيه كان أول من دوّن الدواوين ووضع النسخ للكتب [5] .

وفي هذا العصر بدأت حركة النقل والترجمة ، وأول من فعل ذلك

---

١ البيان والتبيين (س) ٢ – ١٦٤ .
٢ البيان والتبيين (س) ٢١٠ .
٣ عيون الاخبار (دار الكتب) مج ٢ – ١٦٦ .
٤ المسعودي (باريس) ٤ – ٣٧٨ .
٥ اليعقوبي ٢ – ٢٧٩ .

خالد بن يزيد . ففي الفهرست لابن النديم نقل له الكيمياء رجل اسمه اسطفان[1] . ويقول ابن النديم ان سالماً كاتب هشام نقل بعض رسائل ارسطو وذكر كتباً في مواضيع مختلفة دوّنت في هذا العصر .

فمما مرّ نستنتج ان احتكاك العرب بسواهم أحدث فيهم ميلاً إلى الاخذ عنهم ، فزاد فيهم عدد المتعلمين وكثر الاقبال على القراءة والكتابة وأصبح كثير من المساجد مراكز تعليمية للعلوم اللسانية والدينية .

على ان المدارس لم تكن قد تنظمت تماماً وذلك :

١ . لعدم توفر الادوات الكتابية واتقانها .

٢ . لقصر مدة الامويين ولانشغالهم بالحروب والفتن .

* * *

وبقي الامر كذلك حتى قام العباسيون وانتقلوا إلى بغداد ، ثم انصرفوا إلى العلوم والمدارس فتنظمت أسباب التعليم والتدوين والتصنيف ، وحدثت تلك الحركة الفكرية المشهورة .

فالعصر الاموي عصر انتقال اجتماعي تطورت فيه نوعاً عادات العرب ومعارفهم ، ودخل اللغة كثير من المصطلحات الادارية والاجتماعية والعلمية التي لم يكن للجاهلية عهد بها[2] .

---

١ الفهرست (ل) ٢٤٢ و ٢٤٤ .

٢ راجع أمثلة ذلك في تاريخ اللغة العربية لزيدان ص ٢٠ – ٣٠ .

حضارة العصر العباسي

في هذا العصر بلغ التطور الاجتماعي أوجه ويظهر ذلك في ما يلي :

١ – نشوء قومية عربية جديدة .

٢ – عمران بغداد وسواها من الحواضر .

٣ – اتساع الثروة وترف الخاصة .

٤ – النهضة الفكرية العامة .

ولنشرح كلاً من هذه الظواهر الاجتماعية بالتفصيل .

نشوء قومية عربية جديدة

وأساس هذا النشوء :

١ – انتشار العرب في الامصار بعد الفتح .

٢ – امتزاجهم عن سبيل الزواج بعناصر أخرى .

٣ – تعرّب الامم المغلوبة .

خرج العرب من جزيرتهم فاتحين فانتشروا في الاقطار التي افتتحوها وأنشأوا فيها معسكرات صارت بعدئذ حواضر عامرة كالبصرة والكوفة والانبار والقيروان، كما أسّسوا عدداً من المدن المعروفة كواسط وبغداد والقاهرة. وكانوا في أول أمرهم يرحلون في أثر الفتوح قبائل وعشائر فيقيمون في

الامصار ويتحضرون . والظاهر ان هذه الهجرة إلى البلدان المغلوبة كانت من سياسة القادة والامراء . فقد ذكر البلاذُري مثلاً ان ابا عبيدة رتّب ببالس (بناحية حلب) جماعة من المقاتلة وأسكنها قوماً من العرب الذين كانوا بالشام فاسلموا بعد قدوم المسلمين ، وقوماً لم يكونوا من البعوث نزعوا من البوادي من قيس [١] . وذكر ان مسلمة بن عبد الملك أسكن مدينة الباب في الخزر اربعة وعشرين الفاً من أهل الشام [٢] ، وان هرثمة اختط الموصل وأسكنها العرب [٣] . وقال المقدّسي كانت تدعى أولاً خولان حتى وصل بها العرب عمارتهم ومصّروها [٤] . وقد سبق هذه الهجرات الاسلامية الاولى إلى الامصار المجاورة لبلاد العرب هجرات قديمة ؛ يدلنا على ذلك انه قبل الاسلام وجدت امارات وقبائل عربية في العراق وسوريا وفلسطين كاللخميين والغساسنة والتدمريين والانباط وسواهم . وكثير من هـؤلاء القبائل تحضّر واصطبغ بصبغة البلاد الدينية والاجتماعية .

واستمر الامر على ذلك شطراً من الدولة العباسية . فقد بنى المنصور ملَطية من ثغور الروم (وكان قد رتب فيها معاوية رابطة من المسلمين ثم خرجت) واسكن فيها الوفاً من أهل الجزيرة [٥] . وفي أيام المهدي غزا الحسن بن قَحطبة بلاد الروم بجيش مؤلف من أهل خراسان والموصل والشام وامداد اليمن ومطوّعة العراق والحجاز ، وبنى طرطوس (وكانت قد خربت) ومصّرها [٦] . ومما يشعر بسياسة التمصير هذه انه لما أراد المأمون غزو الروم قال : « اوجّه إلى العرب فآتي بهم من البوادي ، ثم أُنزلهم كل مدينة افتتحها حتى أضرب إلى القسطنطينية . » على ان الاجل لم يمهله ان

---

١ البلاذري ١٥٠ .

٢ البلاذري ٢٠٧ .

٣ البلاذري ٣٣٣ .

٤ أحسن التقاسيم (ليدن) ١٣٩ .

٥ البلاذري ١٨٧ .

٦ البلاذري ١٦٩ .

يتم هذا الفتح[١] .

ومن ذلك تحرّك العصبيات في الامصار المختلفة كربيعة ومضر أيام الوليد في خراسان ، والقيسية واليمانية أيام المأمون في مصر ، ولخم وجذام سنة ٢٥٧ ه[٢] في فلسطين . ناهيك بمن كان قد رحل من العرب إلى افريقيا والاندلس .

وإلى انتشار العرب بعد الفتوح واستقرارهم في الامصار يشير ابن خلدون في قوله : « وكان قد وقع في صدر الاسلام الانتماء إلى المواطن فيقال جند قنّسرين وجند دمشق وجند العواصم ، وانتقل ذلك إلى الاندلس . ولم يكن (ذلك) لاطّراح العرب أمر النسب وإنما كان لاختصاصهم بالمواطن بعد الفتح حتى عرفوا بها وصارت لهم علامةً زائدة على النسب . ثم وقع الاختلاط في الحواضر مع العجم وغيرهم وفسدت الانساب بالجملة وفقدت ثمرتها من العصبية فاطّرحت ، ثم تلاشت القبائل ودثرت العصبية بدثورها وبقي ذلك في البدو كما كان »[٣] .

وإذا نظرت إلى هذا الامتزاج من جهة أخرى وجدت ان الجزيرة العربية لم تكن مركز الملك العربي إلاّ نحواً من ربع قرن . ثم تحول الأمر إلى دمشق فبغداد . ونشأت على اثر ضعف الخلافة في بغداد حواضر لامارات مستقلة . ومعنى ذلك من الوجهة الاجتماعية ان العنصر العربي الفاتح استقر قسم كبير منه بعد الفتح خارج الجزيرة حتى قدّر بعضهم من دخل سوريا منه بنحو ربع مليون[٤] . ولا نستطيع ان نجزم بصحة هذا العدد ولكننا لا نشك ان الفتح سهّل للعرب الانتشار والاستقرار في البلاد التي افتتحوها ، ولا يعقل أن يحدث ذلك دون امتزاج أو احتكاك قوي بالامم الأخرى . ففي الشام كان الروم والسريان واليهود ، وفي العراق الاراميون

---

١ اليعقوبي ٢ – ٥٧٣ .

٢ راجع اليعقوبي ٢ – ٣٩٩ و ٥٦٧ و ٦٢٣ .

٣ المقدمة ١٣٠ .

٤ La Syrie - Lammens 119 - 120

والفرس ، وفي مصر الاقباط ، وسواهم في سوى ذلك . وقد اتصل العرب بهذه الامم اتصالاً وثيقاً واختمروا بثقافتهم وحياتهم الاجتماعية . وكان أكثر امتزاجهم بالفرس – أولاً لاسراع هؤلاء باعتناق الاسلام ، وثانيـــاً لمـــا كان لهم من التأثير السياسي بعد أن أصبحت بغداد عاصمة الخلافة .

وإذا تحريت ذلك من الوجهة اللغوية اتضح لك وجه الامتزاج – فان أكثر الالفاظ المقتبسة إما يونانية أو فارسية . على ان اليونانية راجعةٌ بالاكثر إلى حياة اليونان العلمية والفلسفية دلالةً على ان الامتزاج كان على هذا السبيل[١] . اما الالفاظ الفارسية فمعظمها اجتماعي . وقد تحرينا أكثر من مئة لفظة فارسية الاصل فوجدنا معظمها من باب المأكل والمشرب والملبس والمفرش والملهى ومن الادوات المنزلية والصناعية وما إلى ذلك ، مما يدل على شدة تأثرهم من حياة الفرس الاجتماعية[٢] .

وإذا نظرت إلى البلدان العربية اليوم وجدت في الفاظها المعربة الحديثة قياساً منطقياً لمـــا حدث في الماضي . فأكثر الفاظها العلمية مقتبسة عن لغات أوروبا الحديثة . اما الاجتماعية ففي العراق تكثر منها المقتبسات الفارسية والتركية ، وفي سوريا الايطالية والافرنسية ، وفي مصر التركية والاوروبية . وما وجود هذه الالفاظ إلاّ دلالة على احتكاك سكانها بالامم التي اقتبسوا عنها . وذلك ما حدث للدولة العربية في بغداد وسواها . وهذا الامتزاج اللغوي الاجتماعي طبيعي بين الشعوب تتبادل فيه الالفاظ كما تتبادل السلع . فكما ان العرب أخذوا أولاً عن الفرس والروم والسريان والاقباط الذين استقروا بينهم كثيراً من الفاظهم ومصطلحاتهم ، عاد هؤلاء فأخذوا من العربية ما لا يمكن حصره هنا ، ولا سيما الفرس الذين أصبحت

---

١ تجد كثيراً من هذه الالفاظ في الكتب الطبية والعلمية لذلك العهد .

٢ راجع المقتبسات الاعجمية في «شفاء الغليل» للخفاجي وفي «المعرب» للجواليقي و«الالفاظ المعربة» لادي شير وسواها .

الفاظ لغتهم مزيجاً من الفارسية القديمة والعربية . وكذلك أخذ غيرهم كالاتراك والاسبان . وكل ذلك دليل على تبادل أسباب الحياة الاجتماعية . ويكون الاقتباس عموماً على أحد سبيلين :

١ – الامم المغلوبة من الامم الغالبة .

٢ – اللغات المتأخرة في نوع من أنواع الحضارة من اللغات المتقدمة فيه .

الامتزاج بالزواج

ولم تقف عملية المزج في الاقطار الاسلامية عند هذا الحد ، بل تعدتها إلى ما هو أعمق ، فقد اختلط الجنس العربي بسواه عن طريق الزواج – اختلط أولاً بالامم التي اعتنقت الاسلام من فرس وترك وبربر وسواهم ، ثم بالامم الاخرى عن طريق السبايا والجواري اللواتي لعبن دوراً مهماً في تاريخ الاسلام الاجتماعي . وقد كان الامويون أولاً يتعصبون على أبناء الاماء ولا يستخلفونهم . فقد أنّب عبد الملك علي بن الحسين لتزوّجه جارية ، وعيّر هشام زيد بن علي بن الحسين بقوله : أنت الذي تنازعك نفسك في الخلافة وأنت ابن أمة [١] . ولما زوّج ابراهيم بن النعمان بن بشير الانصاري يحيى بن حفصة مولى عثمان بن عفان ابنته على عشرين الف درهم قال قائل يعيره [٢] :

لعمري لقد جلّلت نفسك خزيةً وخالفت فعل الاكثرين الاكارم
ولو كان جدّاك اللذان تتابعا ببدرٍ لما راما صنيع الألائم

على ان ذلك لم يمنع حتى بعض الخلفاء الامويين من التزوج بالاماء . فكانت أم يزيد بن الوليد فيروزا شاهي ابنة شيرويه [٣] ، وام يزيد بن

---

١ المسعودي ٥ – ٤٦٨ .
٢ كامل المبرد (ليبزك) ج ١ – ٢٧١ .
٣ عن الجاحظ (راجع رسائل الجاحظ ، مطبعة السعادة مصر ص ٥١) .

عبد الملك شاهفريد بنت فيروز ابن كسرى[1] ، وكانت جدة مروان بن محمد كردية . أما بنو العباس فكثر ذلك بينهم ، حتى كان كثير من خلفائهم ابناء اماء[1] . منهم المنصور والرشيد وابراهيم بن المهدي والمأمون والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمقتدر والمكتفي والمستضيء والناصر . وقس على ذلك سائر الطبقات التي اختلط فيها الدم العربي بسواه اختلاطاً واسع النطاق .

تعرّب الامم المغلوبة

من هذه الامم من تعرّب تعرباً جزئياً وقتياً كفارس والاندلس مثلاً ، ومنها من تعرّب تعرباً كلياً دائماً كمصر والشام والعراق وشمالي افريقيا . وقد حدث هذا التعرّب فيها تدريجاً – بدأ منذ الفتوح الأولى وقبلها بهجرة العرب واشتد بنشر الاسلام ، ثم بتحول دواوين الحكومة أيام الأمويين ، وبما كان للعرب أو للمسلمين من امتيازات في المملكة الاسلامية . وأخذت حركة التعرب تتقدم مع الايام حتى استقرت العربية في هذه الاقطار والمشاهد ان ذلك جرى في الاقطار السامية الاصل أو التي تمتّ إلى الساميين بنسب متين ، أما في سواها فلم يكن إلاّ جزئياً كما ذكرنا ، ولوقت معين . فلما زالت شوكة العرب زالت الصبغة العربية عنهم وبقي اثرها في لسانهم ومدنيتهم . وهكذا نشأ في الاقطار الاسلامية العربية (ما نسميه اليوم بالشرق العربي) قوميات شتى ، تجمعها جامعة معنوية قوية هي جامعة اللغة والثقافة . وليس من نسميهم اليوم ابناء العرب (خارج الجزيرة العربية) إلاّ مزيجاً من عناصر شتى اصطبغت بالصبغة العربية وارتبطت بتاريخ العرب وميراثهم الأدبي . وهذا الامتزاج القومي اللغوي التاريخي أثر في الادب العربي تأثيراً بيناً ، فكثرت فيه المقتبسات الاجنبية ، واختمرت

---

١ تاريخ التمدن الاسلامي (لزيدان) ٤ – ١٥٣ .

فيه الحياة الفكرية اختماراً أدّى إلى نشوء الحضارة العربيـة المعروفة في القرون الوسطى .

حضارة بغداد عاصمة العباسيين

كانت بغداد في أيام الفرس قرية يقوم بها سوق لهم ، فأغار عليها المثنّى فانتسفها[1] ، ثم لم تلبث بعد ان اختارها المنصور العباسي مركزاً لدولته وبنى فيها مدينته ، حتى زخرت بالعمران وأصبحت من أعظم العواصم في القرون الوسطى . وإنما نحن نذكرها هنا ذكراً خاصاً لعلاقتها الكبيرة بالشعراء الذين ندرس حياتهم وشعرهم ، ولأنه فيها تتجلى الحضارة العربية في أبهى ظواهرها .

وقد مرّ بنا في عرض كلامنا عن « العوامل السياسية في الدولة العباسية » ما كان من تنازع العناصر المختلفة في بغداد ، وان أهمها ثلاثة :

١ — العرب : ويمثلهم البيت المالك وبعض الامراء والعمال .

٢ — الفرس : ويمثلهم الوزراء والكتبة ومعظم رجال العلم ثم امراء الديلم المتغلبون .

٣ — الاتراك : وكان منهم امراء الجند ثم السلاجقة ورجالهم .

ففي بغداد التقت عناصر شتى وأجناس كثيرة تتنافس على السيادة والرزق وكان لهذا التنافس أثره في أحوالها الاجتماعية . ولما كانت هذه المدينة عـــاصمة الخلافة والدولة ، ولا سيما في القرنين الاولين من العصر العباسي ، كان من الطبيعي ان تتدفق فيها أموال الاقاليم عن طرق شتى أهمها : الجباية والمصادرة والتجارة والزراعة . ولنتناول كلا منها بقليل من الاسهاب .

الجباية والمصادرة

بلغت رقعة المملكة العباسية في ابان قوّتها حداً عظيماً من الاتساع

---

١ مراصد الاطلاع (ليدن) ١ — ١٦٣ .

فكان يجبى اليها مما وراء النهر إلى المغرب الاقصى . قيل وقد حسب خراج الروم للمعتصم فبلغ أقل من ثلاثة آلاف الف . فكتب إلى ملك الروم : « ان أخسّ ناحية ، عليها أخسّ عبيدي ، خراجها أكثر من خراج أرضك[1] » . وإذا صحّت هذه الرواية لم يكن المعتصم مبالغاً ، فقد ترك لنا قدامة بن جعفر قـــائمة مسهبة في الخراج لعهد المعتصم يبلغ مجموعها أكثر من ٣٣٨ مليون درهم[2] . وأحصى ابن خلدون الخراج أيام المأمون وفصّله اقليماً اقليماً فاذا مجموعه يزيد على الاربعمئة مليون درهم[3] . وكان الخلفـــاء في صدر الدولة العباسية مطلقي التصرف بالاموال والارواح ، تجبى اليهم الاموال الطائلة فينفقونها في رجالهم وحاشيتهم وملاهيهم ، ويختزنون منها ما يرونه لحين الحاجة . فان المنصور خلف لابنه المهدي ما يزيد عن ٦٠٠ مليون درهم و ١٤ مليون دينار[4] . وخلف الرشيد نحو ٩٠٠ مليون درهم[5] . هذا مع كل ما اشتهر به من السخاء والاسراف ، حتى قال الطبري عنه انه لم يُرَ خليفة اعطى منه[6] . وكانت غلة أمّه الخيزران في العام ١٦٠ مليون درهم . أما عمال الخلفاء ووزراؤهم فكانوا يحصّلون الاموال الطائلة ويتبارون في انفاقها . فقد بلغت عُمالة الفضل ابن سهل أيام المأمون على ما رواه الطبري نحو ثلاثة ملايين درهم ، ووهب الفضل بن يحيى البرمكي الف الف درهم لمحمـــد بن ابراهيم العباسي[7] . والبرامكة مشهورون بكرمهم ورخائهم ، وكانوا أصحاب الدولة والمجد حتى نكبهم الرشيد واستصفى أموالهم . على ان الكرم والغنى لم ينحصرا فيهم .

١ أحسن التقاسيم للمقدسي (ليدن) ٦٤ .
٢ تاريخ التمدن الاسلامي ٢ — ٥٦ .
٣ المقدمة ١٧٩ — ١٨١ .
٤ المسعودي ٦ — ٢٣٣ .
٥ ابن الاثير ٦ — ٧٦ والطبري جم ٣ — ٧٦٤ .
٦ الطبري جم ٣ — ٧٤١ .
٧ الفخري ١٥١ .

ومن يراجع أخبار الوزراء والعمال يدهش لكثرة ما كان يصلهم من المال ، وما كانوا ينفقونه في سبيل مآربهم وملذاتهم . جـاء في « سراج الملوك » للطرطوشي ان العامل (أي الحاكم) أيام عمر بن الخطاب كان راتبه مع معاونيه ٦٠٠ درهم في الشهر[1] ، فصار العمال أيام الامويين يتقاضون الرواتب الكبيرة . على انهم لم يبلغوا عموماً مبلغ زملائهم في العصر العباسي .

ولم يكن هذا المال عن طريق الجباية المشروعة فقط بل كان للمصادرة شأن كبير في العصر العباسي . والمصادرة مال يقبضه السلطان من الوزير وهذا من العمال ، والعمال من الرعية .

وقد بلغت في الدولة العباسية ان انشأوا لها ديواناً خاصاً . وأخبار بني العباس حافلة بذكر المصادرات ، وكذلك أخبار وزرائهم وعمالهم . من أمثلة ذلك قائمة ما قبضه ابن الفرات وهي انموذج لأنواع المصادرة ومقاديرها ويبلغ مجموعها ملايين الدراهم[2] . وقد نال ابن الفرات من ذلك ما نال سائر الكبراء . فقد قال عن نفسه : تأملت ما صار إلى السلطان من مالي فوجدته عشرة آلاف ألف دينار ، وحسبت ما أخذته من الحسين بن عبد الله الجوهري بن الجصاص فكان مثل ذلك . واليك أمثلة أخرى مما يرويه اليعقوبي : سخط المتوكل على الفضل بن مروان وقبض ضيـاعه وأمواله ونفاه ، ثم رضي عليه ورده ، وسخط على احمد بن خالد المعروف بأبي الوزير فاستصفى ماله ثم رضي عليه . ولما سخط على الكتّاب قال لاسحق ابن ابراهيم انظر لي رجلين أحدهما لديوان الخراج ، والآخر لديوان الضياع (المصادرة) ، ثم يذكر ما فعله هذا الخليفة بايتاخ التركي وهرثمة عامل مصر ، ويقول : « ووجّه بالحسين بن اسماعيل مكان عمه محمد بن ابراهيم وأمره أن يعذبه حتى يستخرج الاموال التي صارت اليه ، فعذّب حتى مات . » وفي مكان آخر يذكر قبضه ضياع ابن ابي دؤاد وأمواله ، وانه

---

[1] سراج الملوك (١٢٨٩) ٢٢٥ .

[2] راجع عصر المأمون للرفاعي ١ — ٤٣١ .

أُحضر إلى بغداد فلم يقم قليلاً حتى مات[1] . وفي الفخري أمثلة كثيرة على هذه المصادرات . منها مصادرة المعتمد للوزير ابي الصقر بن بلبل ، وام المقتدر لكاتبها ابن الخصيب ، وابن الفرات لابن مقلة على مئة الف . قال وفي أيام المقتدر وأيام وزيره ابي القاسم كثرت المصادرات ولم ينج الوزير نفسه منها فصادره الخليفة وأبعده . وأعجب من ذلك ما فعله القاهر بأم المقتدر . فقد عذبها وصادر منها مئة وثلاثين الف دينار[2] . هذا عدا ما صادره الاتراك والديلم وكثير من الوزراء وكبار العمال مما لا يسعه هذا المقام[3] .

وكانت هذه الأموال الوفيرة ينفق أكثرها في بغداد فليس من الغرابة ان نسمع عن كثرة البذخ والسخاء في دوائر الخلفاء والأمراء[4] . وقد تناول زيدان في تاريخ التمدّن الاسلامي[5] نفقات الدولة العباسية ، وبعد ان بحث فيها باسهاب ونقل ما نشره فون كريمر عن أحمد بن محمد الطائي ، وما اشترطه هذا على نفسه ان يقدمه من ضمانة لبيت المال (وفيه ما كان ينفقه بيت المال أيام المعتضد) ، وجد ان مجموع النفقات كانت نحو مليونين ونصف مليون دينار في السنة ، باعتبار سبعة آلاف دينار لكل يوم . فاذا حسبنا ان النفقات كانت متقاربة أيام المأمون والمعتصم والمعتضد وأخرجنا ذلك من معدل ارتفاع الجباية كما أوردها ابن خلدون وقدامة ، استنتجنا ان نحواً من ٣٠٠ مليون درهم كانت تبقى في بيت المال يتصرف بها الخليفة كما يشاء . فهل يستغرب أو ينكر بعد هذا دفعهم (حتى في أيام ضعفهم) الوف الدنانير للشعراء والمغنّين والعلماء ، أو في سبيل الجواري

---

١ تاريخ اليعقوبي ج ٢ من ٥٩٢ — ٥٩٧ .
٢ كتاب الفخري في أخبار المقتدر والقاهر .
٣ راجع أمثلة ذلك في تجارب الامم لمسكويه في أخبار سنة ٣٥٠ و ٣٦١ .
٤ راجع مثالاً لذلك بذخ المتوكل — المسعودي ٧ — ٢٢٨ .
٥ ج ٢ — ص ٦٥ — ٧٢ .

وسائر الملاهي التي اشتهروا بها وراجت سوقها في زمانهم ؟ وايضاحاً لذلك ننقل بعض أمثلة من بذخهم .

ملابس الموفق والمكتفي

اشتهر هذان الخليفتان بكثرة ما جمعا من الاثواب وبكثرة التأنق في الملبس حتى كان للموفق ستة آلاف ثوب من جنس واحد[١] ، وكان للمكتفي من الاثواب ما يبلغ عشرات الالوف[٢] .

جواهر المقتدر واسرافه

كانت خزانة الدولة في أيامه مترعة بالجواهر ، من جملتها الياقوت الذي اشتراه الرشيد بثلاثمئة الف دينار ، والدرة اليتيمة التي كان وزنها ثلاثة مثاقيل إلى غير ذلك من الجواهر النفيسة ، ففرّقه المقتدر وأتلفه في أيسر مدة[٣] . ولا عجب فقد كان له احد عشر الف خادم من الروم والسودان وهم بمثابة حاشيته وحرسه .

بذخ ام جعفر وام المستعين

ذكر المؤرخون انه كان لأم المستعين بساط فيه نقوش على أشكال الحيوانات والطيور أجسامها من الذهب وعيونها من الجواهر ، وقد قدّروا قيمته بنحو ١٣٠ الف الف دينار[٤] . وذكر ابن خلكان ان ام جعفر البرمكي كانت في أيام عزها تمشي ووراءَها اربعمئة وصيفة ، وقد يكون في ما ذكروه مبالغة ولكنه يشير إلى غنى وافر وبذخ عظيم .

---

١ الفخري (١٣١٧) ٢٢٨ .
٢ راجع تفصيل ذلك في تاريخ التمدن الاسلامي ٥ — ١٠٧ .
٣ الفخري ٢٣٤ .
٤ المستطرف (بولاق) ١ — ١٩١ .

الهادي والرشيد والواثق ومطربوهم

قيل ان الهادي أعطى ابراهيم الموصلي في يوم واحد ١٥٠ الف دينار[١] .

وغنّى ابن محرز في حضرة الرشيد بأبيات مطلعها « وأذكر أيام الحمى ثم انثني » فاستخف الرشيدَ الطرب وأمر له بمئة الف درهم ، وفعل مثل ذلك لدحمان الاشقر[٢] . وهبات هذا الخليفة لندمائه وشعرائه أكثر من ان تحصى هنا . واقتدى الواثق بجدّه فوهب اسحق وقد غنى في حضرته ، مئة الف درهم[٣] .

الولائم والافراح والمساكن

ذكروا ان المال الذي أُنفق يوم زفاف بوران إلى المأمون على القوّاد فقط بلغ نحواً من خمسين الف الف درهم[٤] .

وذكر صاحب التكملة ان ابا الفضل الشيرازي عمل دعوة انفق فيها الفي الف درهم ووهب فيها جواري وغلماناً وضياعاً الخ ...

وفي يوم زفاف ابنة القاسم بن عبيد الله إلى أحمد ابن المكتفي أنفق ما يزيد على عشرين ألف دينار[٥] .

أما المساكن فنكتفي منها بذكر دار الوزير ابن الفرات التي أنفق عليها مئتي الف دينار ، ومثلها على ما قيل دار ابن مقلة[٦] .

* * *

وإنما هذه أمثلة قليلة سقناها على ما قد يكون فيها من مبالغة لنوضح ما نحن بصدده من توفر المال لدى الخاصة ولا سيما قبل انحلال الدولة . وفي اخبار العباسيين

---

١ الاغاني ٥ — ٦ .
٢ المستطرف ٢ ص ١٨٢ — ١٨٤ .
٣ المستطرف ٢ — ١٨٥ .
٤ الطبري جم ٣ — ١٠٨٣ وتزيين الاسواق للانطاكي ٣ — ١١٧ .
٥ صلة الطبري آخر أخبار سنة ٣٠٦ .
٦ صلة الطبري أخبار سنة ٣١٨ .

ورجالهم مما تجده في تضاعيف كتب الادب والتاريخ ما يملأ صفحات عديدة . ولم يكونوا ليستطيعوا القيام بهذه النفقات الطائلة وهذه الابّهة العظيمة (مهما كان مبالغاً فيها) لولا تدفّق الاموال عليهم من الاقاليم المختلفة ، وقد بقي لهم حتى في أيام ضعفهم وخروج السلطة من أيديهم حظ وافر من المال . فان البويهيين لما استولوا على الامر ببغداد عيّنوا راتباً للخليفة خمسة آلاف درهم كل يوم[1] . وفي سنة ٣٣٤ هـ عُيّن للمطيع الفا درهم[2] ، وهو مبلغ كبير إذا قيس برواتب الحكام . ولم يكن ما يقبضه الخليفة المستضعف يومئذ إلاّ شيئاً يسيراً بالنسبة إلى ما كان يتقاضاه صاحب الامر وعمّاله . وهذه الأموال الطائلة كان ينفق أكثرها في بغداد ، وكان نصيب الادب منها وافراً . ولما تجزّأت الدولة إلى امارات مستقلة لم يتغير الحال كثيراً على الادباء والعلماء وارباب الفنون ، إذ أصبحت حواضر هذه الامارات تنافس بغداد في الغنى والبذخ والانفاق على العلم والادب، وان لم تبلغ ما بلغته العاصمة الكبرى في إبان مجدها .

العمران التجاري والزراعي

لم تكن بغداد مركزاً للخلافة والسلطنة فحسب بل كانت مركزاً كبيراً للتجارة أيضاً ، وساعدها على ذلك مركزها الجغرافي على نهر كبير صالح للملاحة وانها في نقطة وسطى بين الشرق والغرب . والمعروف ان المسلمين كانوا في العصر العباسي سلاطين البحار تمخر سفنهم إلى سومطره وزنجبار وكلكتا وجزائر الهند والصين[3] ومدغسكر ، وتجوب البحر المتوسط إلى الأندلس وسواها . وقد تركوا أثـر تفوّقهم التجاري في المصطلحات التي

---

١ ابن الاثير ، أخبار سنة ٣٣٤ .

٢ تجارب الامم ، أخبار ٣٣٤ .

٣ ترجم مؤخراً في روسيا كتاب صيني يرجع إلى القرن الحادي عشر معظمه عن تجارة الصين مع العرب – راجع كتاب زويمر A Moslem Seeker After God p. 30 وفيه انه وجد مسكوكات كوفية في اسكندنافيا ترجع إلى القرن الحادي عشر .

اقتبستها لغات الغرب عنهم مثل :

حبل السفينة	Cable	حرّاقة	Garracca
امير البحر	Admiral	تعريفة	Tarif
دار الصناعة	Arsenal	موصلين	Musline
		دمقس	Damask

وما أشبه من الالفاظ التي دخلت أوروبا عن طريق التجارة[1] .

ويوازي أساطيلهم التجارية في الأهمية قوافلهم البرية التي كانت تحمل المتاجر من كل الجهـــات ، وقد ذكر المقدّسي في أحسن التقاسيم أنواع التجارات من الاقاليم المختلفة وأهمّها :

الياقوت والالماس والعقاقير والارز	من الهند
اللؤلؤ	من البحرين
المنسوجات	من ايران
الحصر والقباطي والقراطيس	من مصر
الزجاج والخزف	من البصرة
المسك والكافور	من الصين
الرقيق الابيض	من تركستان والاندلس وبلاد الصقالبة وسواها
الرقيق الاسود	من السودان

وغير ذلك من المتاجر الواسعة التي لا يتسع المقام لذكرها . ولا شك انه كان لبعضهم يدٌ كبرى في التجارة . فان جوهرياً من الكرْخ ساومه يحيى البرمكي على سفط من الجواهر بمبلغ سبعة ملايين درهم[2] . وقد عُرف من كبار التجار آل الجصّاص (مر ذكرهم في باب المصادرة) –

---

١ راجع كتاب فون كريمر The Orient Under The Caliphs Tr. Bukhsh 362

٢ راجع المقتطف ، ديسمبر ١٩٣٠ ص ٥٣١ .

والشريف عمر — ذكر ابن الاثير ان دخله السنوي كان الفي الف وخمسمئة الف درهم . وكانت ثروات بعض تجـــار المراكب في البصرة تقدر بالملايين . وقد دفعت التجارة بعضهم إلى أقصى البلاد : ذكر المقري ان علي بن بندار البرمكي قدم الاندلس تاجراً سنة ٣٣٧[١] . وأمثال هذا التاجر كثيرون ممن كانوا يرحلون من الشرق إلى الغرب وبالعكس . وكان لبغداد نصيب وافر من ذلك ، تعكسه لنا بعض قصص الف ليلة وليلة ، فهي وإن تكن أساطير لا صحة لها فإنها تمثل روح العصر الذي بلغت فيه بغداد والبصرة أوج حضارتها التجارية .

أما الزراعة فقد كانت أيام العباسيين على درجة عظيمة من الارتقاء . فانهم على ما يُستدل من أخبارهم جعلوا همّهم احتفار الانهر وانشاء الجسور والترع ، حتى جعلوا ما بين دجلة والكوفة سواداً مشتبكاً غير مميّز تخترقه انهار الفرات[٢] . وقد ذكر المؤرخ مسكويه في عرض كلامه عن عضد الدولة تلافيه بغداد بالعمارة بعد ان خربت لكثرة الفتن والمصادرات والاضطرابات . قال : « وكان ببغداد انهار كثيرة (ذكر منها نحو عشرة بعضها من دجلة وبعضها من الدجيل) فاندفنت مجاريها وعفت رسومها » . ثم ذكر مصالح السواد وتعمير القناطر على انهاره وحماية مزارعه وما بلغ بهمّة عضد الدولة من العمران بعد الخراب[٣] . وفي كل ذلك إشارة إلى عهد زراعي راقٍ عرفته بغداد والعراق عموماً أيام زهو الخلافة .

ومثل ذلك في كتاب القاضي ابي يوسف إلى هارون الرشيد كما نقله فون كريمر في كتابه ، « الشرق تحت حكم الخلفاء[٤] » . فان ابا يوسف يذكر من واجبات الحاكم تعمير الاقنية للريّ وتنظيف الانهر التي تحمل المياه من الفرات والدجلة إلى السواد ، وما إلى ذلك من الجسور والسدود والقناطر

---

١ نفح الطيب (بولاق) ٢ — ٧٢٢ .

٢ الاصطخري (طبعة بريل) ٨٥ .

٣ تجارب الامم ، أخبار سنة ٣٦٩ .

٤ النسخة الانكليزية ٢٣٨ (ترجمة Bukhsh)

والملاحة . ويؤيد ما ذكرناه من هذا العمران الزراعي ان ارتفاع الخراج من السواد أيام المعتصم (كما في قائمة قدامة بن جعفر) بلغ من القمح والشعير نحو ثلث ارتفاع الاقاليم كلّها، أي حوالى ١١٥ مليون درهم، وبقي على هذه النسبة إلى أواسط القرن الثالث الهجري (راجع قائمة ابن خرداذبة) . وليس ذلك دليلاً على ثقل الجبايات فقط، ولكن على عمارة الأرض أيضاً وتمكّن الناس من القيام بما يتطلب منهم للدولة . ولم ينحصر هذا العمران الزراعي في السواد العراقي، بل نراه ايام عزّ العباسيين في أقاليم أخرى كخراسان ومصر وسواهما .

فبالتجارة والزراعة، وبما كان يجبى إلى بغداد أيام عزّها، توفرت فيها أسباب العمران حتى فاقت سواها وأصبحت عروس الحواضر في القرون الوسطى، أو كما قالت دائرة المعارف الاسلامية (في كلامها عن بغداد) «انها بلغت في أيام زهوها المقام الاول بين المدن في العالم المتمدن يومئذ .» وقد زارها أيام المستنجد السائح اليهودي بنيامين الطليطلي وقال عنها (ولم تكن يومئذ في ابّان مجدها) : «انها أفخر مدن العـــالم لا يقابلها إلا القسطنطينية[1]» . وزارها الرحالة ابن جُبير الاندلسي سنة ٥٧٠ هـ أي في أواخر العصر العباسي وقال عنها : «واما حماماتها فلا تحصى عدّة : ذكر لنا أحد اشياخ البلد انها بين الشرقية والغربية نحو الالفي حمـــام وكذلك مساجدها لا يأخذها التقدير، والمدارس فيها نحو الثلاثين، وما فيها من مدرسة الاّ ويقصر القصر البديع عنها، وأعظمها واشهرها النظامية» . إلى أن يقول : «فشأن هذه البلدة أعظم من أن يوصف وأين هي مما كانت عليه — هي اليوم داخلة تحت قول حبيب (ابي تمام) :

لا انتِ انت ولا الديار ديار خفّ الهوى وتولّت الاوطار[2]»

ويحق لابن جبير ان يقول ذلك متأسفاً نادباً عمران بغداد . فقد ذكر

---

١ Coke; Bagdad the City of Peace (London 1927) ١٢٤

٢ رحلة ابن جبير (مصر) ٢٠٧ و ٢٠٨ .

الخطيب البغدادي بغداد في أيام المأمون وقال : « كان فيها خمسة وستون الف حمام[1] » . ويظهر لنا في ذلك بعض المبالغة ، ولكنه مهما كان ، فهو يدل على عظمة المدينة واتساع عمرانها حتى لقد قُدّرت مساحتها بنحو ستة عشر الف فدان ، وعدد سكانها بنحو مليون ونصف أو أكثر[2] .

ولم ترتق هذا الارتقاء العظيم في مدة لا تتجاوز الستين سنة إلا لأنها كانت مركز دولة تسيطر على أقاليم وشعوب تضارع ما كانت عليه الدولة الرومانية في عنفوان قوتها . ويؤيد ذلك ما نجده من وصف أقاليمها في كتب الاصطخري وابن حوقل والمقدسي وابن جبير وابن خرداذبة وقدامة وسواهم من أرباب الرحلات وكتّاب الخراج .

بعض صور اجتماعية يعكسها الادب العباسي

١ – كثرة الجواري والغلمان : من نتائج المال والترف في العصر العباسي اقتناء الجواري والغلمان . وكان في بغداد – كما كان في البصرة وسواها من الحواضر الكبرى – سوق لبيع الرقيق من عبيد واماء : حكي عن ابي دلامة الشاعر انه مرّ بنخّاس يبيع الرقيق فرأى عنده من كل شيء ، فانصرف مهموماً ودخل على المهدي فأنشده قصيدة منها :

ان كنت تبغي العيش حلواً صافياً   فالشعر أعزِ به وكن نخّاسا[3]

وذكر الاصفهاني انه كان للرشيد زهاء الفي جارية[4] ، وعن المسعودي كان للمتوكل اربعة آلاف جارية[5] . ولم يقصّر الفاطميون في مصر عن العباسيين في بغداد . فقد كان في قصر أخت الحاكم بأمر الله ثمانية

---

١ نقل ذلك زيدان عن ابن خلدون وعن سير الملوك ، (راجع تاريخ التمدن الاسلامي ، ج ٢ – ١٩٠) .
٢ تاريخ التمدن الاسلامي ٢ – ١٩٢ .
٣ الأغاني ٩ – ١٢٨ (في أخبار ابي دلامة) .
٤ الأغاني ٩ – ٨٨ (في أخبار علية) .
٥ مروج الذهب ٧ – ٢٧٦ .

آلاف جارية[1] . ومثل هؤلاء ملوك الاندلس وسواهم . على ان ذلك لم ينحصر في قصور الملوك والامراء ، بل تعداهم إلى منازل الخاصة وارباب اليسار من تجار وملاكين وعلماء ، ومن يليهم من طبقات الشعب . وكانت أثمان الجواري تختلف من عشرات الدنانير إلى الألوف . وقد يبلغ الشغف ببعض الامراء ان يدفع مئات الالوف من الدراهم في سبيل احداهن . وكانوا يتهادَون الجواري ، فقد أهدى طاهر إلى المتوكل هديّة فيها ٢٠٠ وصيفة ووصيف[2] ، بل كانت الامرأة أحياناً تهدي زوجها بعض الجواري كما فعلت زبيدة مع الرشيد[3] . وقد بلغ اهتمامهم بتثقيف الجواري والغلمان وتعليمهم مبلغاً عظيماً إذ كان ذلك يزيد اثمانهم ويعود بالربح على المتّجرين بهم .

ومع اننا نجد في العصر العباسي بعضاً من النساء الراقيات علماً وثقافة ، واننا نجد في كتب التاريخ شواهد على انه كان يتاح للفتاة ان تتعلم كالفتى ، لا نجد الأدب العباسي يعكس لنا من حالة المرأة ما يجعلها في مقام رفيع : خذ الشعر مثلاً تجده من هذا القبيل نوعين : الهزلي والجدّي . فالهزلي كشعر ابي نواس وأضرابه أكثره مقرون بحياة الجواري اللواتي كن يُشترين ويتهادى بهنّ ، وهو يصور لنا عبث الشباب الماجن . أما الجدّي كشعر المعرّي فمتشائم ينظر إلى المرأة في المنزل نظرة سوداء ، ولعله متأثر مما بلغته من التأخر الاخلاقي بعد ان زاحمتها الجارية فاعتُقلت وحيل بينها وبين الرقي العلمي والادبي . ويظهر ذلك في الادب المنثور كما يظهر في الشعر ، ولا يستثنى من هذا الحكم إلاّ قلائل لا يبنى عليهن حكم عام .

ومما يذكر هنا ما بلغه بعضهم من التهتك والانحطاط الاخلاقي

---

١ خطط المقريزي (مصر ١٣٢٤) ج ٢ - ٢٣٣ .

٢ المسعودي ٧ - ٢٨١ .

٣ الأغاني ١٦ - ١٣٧ (في اخبار دنانير) .

الاجتماعي ، حتى صاروا يستخدمون الغلمان كالجواري ، ومن ذلك نشأ غزل المذكّر كما نراه في شعر بعضٍ من متهتكي ذلك العصر .

٢ – مجالس الشرب والغناء : توفرت في الحواضر ولا سيما بين الخاصة في بغداد مجالس الشرب ، ولم تكن تخلو منها قصور الحكام . وكان بعضهم يتذرّع إلى ذلك – على مناقضته لأوامر الدين – بأن الشرع حلّل نبيذ التمر . وعليه بنى ابن خلدون دفاعه عن الرشيد إذ قال : « وإنما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق ، وفتاويهم فيها معروفة . واما الخمر الصرف فلا سبيل إلى اتهامه بها ولا تقليد الاخبار الواهية فيها » . إلى أن يقول : « وحال ابن اكثم والمأمون في ذلك حال الرشيد ، شرابهم إنما كان النبيذ ، ولم يكن محظوراً عندهم[1] » . على ان شرب الخمر على أنواعها كان شائعاً كما يتبين من درس الشعر العباسي ، وكذلك مجالسة الندماء والمغنين والقَيْنات . ولم يكن ذلك بدعة في الدولة العباسية ، فقد سبقهم إلى ذلك الامويون ، وأخبار يزيد والوليد وسليمان وغيرهم كافية للدلالة على ما ذكرناه . فبعد أن كان المسلمون أيام الراشدين يتحرّجون من الخمر ويعاقبون شاربها ، أصبحوا بعد ذلك يرون في بعض خلفائهم وزعمائهم ما يسهّل لديهم معاقرتها – نعم ظلت الشريعة نافذة في حد السكارى ، ولكن ذلك لم يمنع الناس من تعاطي المسكر وارتياد الحانات . ومهما كان من المبالغة في ما ينقلونه عن الهادي والرشيد والامين والواثق والمتوكل ، ومن جرى مجراهم من الملوك أو نادمهم من الشعراء والمغنين ، فاجماع أكثر المؤرخين على شربهم الخمر وبلوغ بعضهم من ذلك درجة التهتك ، حتى روى الأبشيهي ان الواثق كان يرقد في المكان الذي يشرب فيه ، ويرقد معه ندماؤه[2] . وكان الشراب عادة مقروناً بالغناء ، ففي كل مجلس طرب عند الخاصة يحضر اولو الفن

---

١ المقدمة ١٨ .

٢ المستطرف للابشيهي (بولاق) ٢ – ١٨٧ .

فيغنّون أو يرقصون ، ويشرب الحاضرون ، ويقضون وقتهم على ذلك . ومن أمثلة ذلك ما نقله ابن الاثير عن الأمين انه أمر يوماً قيّمة جواريه ان تهيء له مائة جارية فتُصعد اليه عشراً عشراً بأيديهنّ العيدان يغنين بصوت واحد[1] وكتب الادب ملأى بأخبار المغنين والمغنيات ، وما كان يبذل لهم من الاموال الطائلة ، وسنلمّ بشيء من ذلك في كلامنا عن الشعراء .

٣ — نشوء حركة زهدية مضادة لترف العصر : وسنتكلم عنهـــا في غير هذا المقام .

٤ — التأنق في الفنون الحضرية : ويدخل تحتها تشييد المنازل ونسج الثياب والمفروشات وطهو الطعام وبناء المراكب وصنع الآلات الموسيقية ، وما إلى ذلك من أسباب الحضارة . وقد بلغت البلدان الإسلامية من ذلك في العصر العباسي مبلغاً عظيماً : يدلك على ذلك وصف القصور والمساجد التي كان يبنيها الملوك والامراء في الحواضر الكبرى ، مما يعكسه لنا الشعر العربي في ذلك العصر كما سترى عند كلامنا عن الشعراء . وكذلك وصف الولائم والرياش وسائر أسباب الحضارة الصناعية .

ذكر ابن خلدون انه كان للملوك دور في قصورهم لنسج أثوابهم تسمى دور الطّراز ، وكان القائم عليها ينظر في أمور الصنّاع فيها وتسهيل آلاتهم واجراء أرزاقهم[2] . ولما احتكّ الصليبيون بالشرقيين وجدوا في رقي الشرق الصناعي والاجتماعي والزراعي ما حداهم إلى اقتباس كثير من فنونه وعوائده ، وقد رجعوا إلى أوروبا يحملون معهم من الشرق ما كان له تأثير في نهضة أوروبا الاجتماعية في القرون الوسطى : كتربية دود الحرير وصناعة النسيج والسجاد والسكّر والزجاج والخزف والبارود ، وما إلى ذلك

---

١ ابن الاثير ٦ : ٢٠٦ (في سيرة الامين) .
٢ المقدمة ٢٦٧ .

مما تجده مفصّلاً في المباحث الخاصة عن الحروب الصليبية[1] .

٥ – انتشار المدارس والعلوم : ذكرنا قبلاً ان الأميّة كانت سائدة في العرب قبل الاسلام ، وانهم أخذوا بعد ذلك يخطون في سبيل الثقافة ، ومما عتموا ان أنشأوا حلقات العلوم الدينية واللغوية في المساجد والكتاتيب البسيطة في القرى . ولما استقر الامر للعباسيين زادت حركة التعليم والتثقيف وتنظمت دور العلم في الامصار المختلفة ، ولا سيما في بغداد ومصر : قال المقريزي : « والمدارس مما حدث في الاسلام ولم تكن تعرف في زمن الصحابة ولا التابعين وإنما حدث عملها بعد الاربعمئة من سني الهجرة[2] » ثم يذكر بعض المدارس المهمة ، ويتناول مدارس مصر خاصة فيصفها مدرسة مدرسة . ولا شك ان المقريزي يعني بالمدارس هنا مؤسسات تعليمية خاصة توقف لها الاوقاف والاموال ، وتجري على نظم معيّنة كالنظامية في بغداد ، ودار العلم والازهر في مصر ، والاّ فان التعليم سابق للدولة العباسية ، ولكنه لم ينتظم إلاّ بعد القرن الرابع الهجري . وأهم مراكز التعليم في العصر العباسي : بغداد ودمشق ومصر والكوفة والبصرة وقرطبة والقدس ، ويليها حلب وطرابلس ومدائن كثيرة من امصار مختلفة[3] .

* * *

ومن أسباب الرقي العلمي في هذا العصر تلك الحركة الكبيرة – أعني حركة النقل العلمي عن اليونان والفرس والهنود التي عرّفت أهل العربية بالعلوم الكونية القديمة وأخرجت منهم بعدئذ مشاهير في الطبّ والفلسفة والفلك والرياضيات والجغرافيا وسواها .

ولما كنا قد خصصنا الفصل التالي للبحث في هذه الحركة

---

١ راجع دائرة المعارف البريطانية تحت Crusades

٢ المقريزي (مصر ١٣٢٦) ج ٤ – ١٩٢ .

٣ راجع هنا القائمة التي نظمها خليل طوطح في كتابه :
The Contribution of the Arabs to Education p. 23.

الفكرية فاننا نجتزىء هنا بالاشارة اليها وبذكر ظواهرها العامة وهي :

١ – تنافس الامراء في العالم الاسلامي على بناء المدارس والكليات والسخاء عليها .

٢ – نمو حركة النسخ والتدوين وازدياد عدد الكتب وانتشارها[١] .

٣ – انشاء المكتبات العامة والخاصة .

٤ – حظوة العلماء والادباء لدى الملوك والامراء .

٥ – الرحلات العلمية من الاندلس إلى الشرق وبالعكس .

٦ – المذاهب الفكرية المختلفة ونشاط أربابها في الدفاع عنها .

٧ – اختمار العقلية العربية بالعلوم الطبيعية والفلسفية .

كل ذلك أحدث في العصر العباسي تجدداً ظاهر الأثر في الشعر الذي يمثل تأثر الامة بما يحيط بها من أسباب العمران .

---

١ راجع مقدمة ابن خلدون في صناعة الوراقة .

مجاري الحركة الفكرية

ليس للحركة الفكرية في أمة من الامم منبثَق خاص تتدفق منه تدفّق الينابيع من جوانب التلال . بل هي كسيول الاودية تمدّها المياه القليلة المتحدّرة من هنا ومن هناك فلا تلبث أن تصير عجّاجة شديدة الشكيمة . كذلك حياة العرب الفكرية كثيرة الاصول متشعّبة الروافد ، وهيهات ان نحاول الآن البحث عن كل أصل وكل رافد منها فانها متصلة بظلمات يتيهُ فيها الاستقراء العلمي والقياس المنطقي . فما تاريخها الذي نبسطه هنا إلا وصف اجمالي للمجاري الكبرى التي تمثل لنا طور البلوغ في حياة الناطقين بالعربية .

على اننا لا نرى مندوحةً عن القاء نظرة إلى الماضي العريق في القدم لنطّلع على بعض العوامل الرئيسية التي كان لها يد في ترقية هذه الحركة الفكرية العربية ، فنربط الماضي بالحاضر ربطاً يسهّل لنا فهم مبادئها والنظر في رجالها ، ما أخذوا وما أعطوا . وذلك ما حدانا إلى ان نجعل كلامنا في مبحثين رئيسيّين :

١ – المصادر الرئيسية التي استمدت منها العربية مجاريها الفكرية .

٢ – وصف بعض المجاري الكبرى مما له أثر يذكر في الادب العربي .

في المصادر الرئيسية

وهو يتناول ما استمدّه العرب من فلسفة اليونان من الحركات الفكرية في الهند وايران، وهو بحث واسع نلخصّه لطلاّب الادب فيما يلي استناداً إلى مراجع تذكر في حينها.

المصدر اليوناني

كان الجو الذي ظهرت فيه النهضة العربية (الاسلامية) مشبعـاً بالنظريات اليونانية. فمنذ أغار الاسكندر على آسيا زاحفاً إلى الهند، أخذت العـلوم اليونانية تنتشر في الشرق[١]، وتخمّر عقول المفكرين بمبادىء الفلاسفة الذين أنجبتهم بلاد اليونان. ولما نهض الرومان ومدّوا رواقهم على شاطىء البحر المتوسط – على البلدان التي ورثها خلفاء الاسكندر – قضوا على سيادة العنصر اليوناني السياسية، لكنهم لم يقضوا على مدنيّة اليونان، لأن الرومان أنفسهم كانوا يعدّون اليونان أساتذة لهم في العلم والحضارة. فكان في العالم الروماني مركزان كبيران للحركات الفكرية: أثينا في الغرب ومجرى الفلسفة فيها أدبي اجتماعي، والاسكندرية في الشرق ومجرى الفلسفة فيها ديني روحي[٢]. وكان طلاّب العلم يقصدون هذين المركزين للتبحّر في العلوم والفلسفة، حتى الرومان أنفسهم كانوا يؤمونها لهذه الغاية[٣].

وفي أوائل القرن السادس للميلاد اشتد اضطهاد الحكومة الرومانية على مفكري اثينا الذين كانوا يتشيّعون للتعاليم اليونانية القديمة (الوثنية)، فاضطر هؤلاء إلى هجرة الاوطان والضرب في رحاب الارض، ولسان حالهم ينشد:

---

١ Huart, Histoire des Arabes (Paris 1913) 2 — 363

٢ Alexander - Short Hist. of Philosophy 117

٣ Mosheim, Ecclesiastical Hist. (1832) 1 — 77

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى   وفيها لمن خاف القِلى متعزّلُ

فساقتهم الاقدار إلى بلاط كسرى انوشروان ، ذلك العاهل الفارسي المحب للعلم والفلسفة ، فانزلهم على الرحب والسعة ، ولم يعتموا أن أحدثوا في بلاده حركة فكرية جديدة ظهر آذيُّهـا في مدرستي نصيبين وجنديسابور[1] . ولكنها لم تلبث أن ضعفت لرجوع هؤلاء المفكرين إلى بلادهم .

وكأنما قدّر لغير فارس أن تكون الصلة بين الشرق والغرب ، وهذا الفخر الذي فات العنصر الفارسي انقلب إلى العنصر السرياني (السوري) الذي عرّف الشرقيين بفلسفة اليونان وعلومهم . ففي أوائل القرن السابع للميلاد كانت بلاد العرب تتمخّض بمولود جديد – بمدنيّة دينية مركزها الحجاز ، حتى إذا ترعرعت وامتد سلطانها واستولت على سوريا ومصر وسواها من بلدان البحر المتوسط ، استقرت تطلب غير الفتح المادّي من أسباب التقدم والحضارة . فانصرفت إلى تحصيل العلم والفلسفة واتخذت ادلّتها في ذلك وأساتذتها مفكري اليونان الذين كانت تعاليمهم كما ذكرنا قد ملأت العالم المتمدن شرقاً وغرباً ، ولا سيما تعاليم فيثاغورس وافلاطون وارسطو . ذكر ابن القفطي ان خمسة هم اساطين الحكمة ، وهم ابيدْقليس وفيثاغورس وسقراط وافلاطون وارسطوطاليس[2] . ولا شك ان الاخيريْن أشدهم علاقة بحياة العرب .

قلنا انه كان في العالم القديم قبل الاسلام مركزان رئيسيان للعلم والفلسفة هما اثينا والاسكندرية ، على انهما لن يكونا الوحيدين . ففي القرن الخامس للميلاد كان للعلم والفلسفة بضعة مراكز أهمها ، عدا أثينا والاسكندرية ، القسطنطينية وانطاكية وروما والرّها (اورفا) وهي في القسم الشمالي الغربي

---

١ Arabic Thought (N. Y. 1922) 42 — . Les penseurs de l'Islam 111 — 7

٢ القفطي ، أخبار الحكماء ٦٠ .

من الجزيرة ، ونصيبين في شمالي الجزيرة ، وجنديسابور في بلاد فارس ، وحرّان . وكان للفلسفة اليونانية الحظ الاوفر في هذه المراكز العلمية ، إذ على فلاسفة اليونان كان المعوّل في الطبيعيات والإلهيات والرياضيات . قال موسهيم في كلامه عن العلم والفلسفة في القرن الخامس بعد الميلاد[1] : « كان طلاّب الشرائع يؤمّون بيروت ، وطلاب الطبيعيات والكيمياء يؤمون الاسكندرية . وقد اشتهر معلمو القسطنطينية والرّها والاسكندرية في فن التعليم . على ان أساتذة البيان والشعر والفلسفة وسواها من الفنون لم ينحصروا في هذين المركزين بل انتشروا في كل الجهات وأنشأوا لأنفسهم نوادي ومدارس » .

فالشرق الادنى قبل الدعوة الاسلامية كان تحت تأثير الروح اليونانية الفلسفية . نعم ان تلك الروح كانت تتباين مظاهرها بالنسبة إلى أماكن ظهورها ، ففي مدارس القسطنطينية اليونانية ، وفي مدرسة حرّان الصابئية ، ومدرسة جنديسابور الفارسية ، والرّها السريانية ، وفي مدرسة الاسكندرية الوثنية كان الفكر اليوناني سائداً ولكن سيادته كانت على درجات متفاوتة .

في هذا الجو اليوناني نشأت حياة العرب الفكرية مستمدة من الشرق روحها وعواطفها الدينية التي يعكسهم لنا الشيخ السجستاني بقوله : « ان الشريعة مأخوذة من الله عزّ وجل بواسطة السفير بينه وبين الخلق من طريق الوحي وباب المناجـــاة وشهادة الآيات وظهور المعجزات . وفي أثنائها ما لا سبيل إلى البحث عنه والغوص فيه ، ولا بدّ من التسليم المدعوّ اليه ، وهناك يسقط لِمَ ويبطل كيف الخ ...[2] » ومستمدة من الغرب نظرياتها الفلسفية ومبادئها العلمية المبنية على المنطق والنواميس الطبيعية . وقد دخلت هذه النظريات إلى الآداب العربية عن طريق النقل أو الترجمة وكان لها

---

١ Mosheim - Ecc. Hist, 1 - 380

٢ الفهرست (ل) ٢٤٣ .

في حياة العرب الفكرية تأثير بعيد المدى . ومن المعلوم أن نقل العلوم أو الفلسفة بدأ منذ العصر الاموي[١] ، على ان العصر الاموي لم يتسع لتقدم هذه الحركة ، فلما انتقلت الخلافة إلى بغداد أخذت حركة النقل تنمو نمواً سريعاً ، وزادها نشاطاً تنظيم بيت الحكمة في بغداد والاهتمام بطلب الكتب العلمية من بلاد الروم[١] . وبرعاية الخلفاء ولا سيما المأمون أخذ جماعة من (السريان) يترجمونها الى العربية ، وقد اشتهر منهم جماعة كانوا من أركان النهضة العلمية في ذلك الحين ، وتبعهم سواهم حتى بلغت الترجمة أوجها في القرن الرابع الهجري . ومن أراد الاطلاع على أسماء النقلة والكتب التي نقلوها فليراجع كتاب الفهرست لابن النديم فانه جمع فأوعى . وقد تناول النقل الطب والرياضيات والفلك وأصناف العلوم الفلسفية .

ولم تقف النهضة عند هذا الحدّ بل أخذ العلماء من الناطقين بالعربية يدرسون هذه المنقولات ويشرحونها ويصنّفون الكتب في موضوعاتها ، وتوسعوا في بعض الفروع الى درجة بعيدة فجاءوا بما يذكر لهم في تاريخ الفكر العام .

ومع ان أكثر الناقلين عن اليونانية والسريانية كانوا من السريان وأكثر المصنفين يمتّون بانسابهم الى غير العرب ، فان اللسان العربي كان الأداة التي استُعملت في النقل والتصنيف ، فأصبح لغة العلم والثقافة في ظلمات القرون الوسطى ، وتسرب اليه كثير من الالفاظ الجديدة والمعاني الجديدة مما يعكسه لنا الشعر والنثر في العصر العبّاسي .

ولعلنا لا نخطىء اذا قلنا ان الذين تأثروا من أبناء العربية بالفكر اليوناني كانوا فرقتين : فرقة اعتمدت فلاسفة اليونان ، ولا سيما ارسطو ، فشرحت أقوالهم وانصرفت الى درس نظرياتهم استكشافاً لأسرار الحكمة وسعياً وراء

---

[١] الفهرست (ل) ٢٤٣ وأخبار الحكماء ١١٩ .

البحث العلمي ، وهؤلاء هم المعروفون بالفلاسفة كالفارابي وابن سينا وابن رشد وأضرابهم . وفرقة اعتمدت نظرياتهم وأساليبهم في النضال الروحي أو الكلامي وهم المتكلمون الذين سيمر بنا شيء من أقوالهم وآرائهم .

فلنتقدم من هنا إلى ذكر شيء عن المصادر الشرقية التي استمد منها العرب كثيراً من حركاتهم الفكرية .

المصدر الفارسي

قال الاستاذ جاكسون استاذ اللغات الايرانية الهندية في جامعة كولومبيا سابقاً : « ان فتح المسلمين لفارس أشبه بفتح النورمان لانكلترا . وما معركتا القادسية ونهاوند إلا مثال لمعركة هاستنغس »[1] . وكأنه بذلك يعني ان العرب وان كانوا اخضعوا فارس وحكموا العنصر الفارسي ، لم يستطيعوا ان يقتلوا الروح الفارسية الفكرية فبقيت متقدة في صدور الشعب تظهر كلما سنحت لها فرصة . ولا شك ان الآداب العربية ربحت شيئاً كثيراً من الفرس ، يدلك على ذلك العدد الكبير من رجالها الذين هم من أصل فارسي . قال ابن خلدون في مقدمته[2] : « ان حَمَلة العلم في الملة الاسلامية أكثرهم العجم ... وكان صاحب النحو سيبويه والفارسي والزّجّاج من بعدهما ، وكلهم عجم في انسابهم ، وكذا حملة الحديث . وكان علماء أصول الفقه كلهم عجم كما يعرف ، وكذا حملة علم الكلام ، وكذا أكثر المفسرين . ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الاعاجم وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم : « لو تعلّق العلم باكناف السماء لناله قوم من أهل فارس . » ولم يزل ذلك في الامصار (أي حمل العجم للعلم) ما دامت الحضارة في العجم وبلادهم من العراق وخراسان وما

---

١ Jackson, Early Persian Poetry (N. Y. 1920) , p. 14

٢ المقدمة ٥٤٣ و ٥٤٤ .

وراء النهر . فلما خربت تلك الامصار وذهبت منها الحضارة ذهب العلم من العجم ، ا هـ . والذي يحقق النظر في علاقة العجم بالعرب سياسياً ودينياً وفكرياً لا يستطيع إلا أن يرى ان التيار الفكري من قِبل العجم كان قوياً في حياة العرب ، واظهرُ ما يكون ذلك فيما يلي :

١ – في ان الاقطار العجمية هي الحقل الذي نمت فيه بذور الشيعة وبانتشار الشيعة بين العجم اكتسبت اللغة العربية كثيراً من العواطف والافكار الفارسية . قـــال الدكتور مور أستاذ التاريخ الديني في جامعة هارفرد سابقاً : « ان ما نراه من الغلوّ والتعصب عند بعض الطوائف الشيعية ناشئ بلا ريب عن أن كثيراً من أتباع زرادشت انضووا إلى الاسلام تحت لواء الشيعة [١] » . وفي ذلك إشارة إلى مـــا تسرب إلى اللغة العربية من ديانة العجم القديمـــة بانضمام المجوس إلى الاسلام وتعربهم .

٢ – في ان زعماء الحركة الفكرية العربية أكثرهم من العجم ، وقد تقدمت الاشارة إلى ما ذكره ابن خلدون من ذلك . ونزيد هنا ان ملوك بني ساسان ، ولا سيما كسرى انوشروان الذي سبق الدعوة الاسلامية بقليل من الزمن ، كانوا قد اهتموا جداً باحياء العلوم والآداب الايرانية ، وان العرب أنفسهم كانوا ينظرون إلى العجم نظرهم الى قوم متقدمين عليهم في الحضارة والعلم ، وعندهم لكسرى المذكور مقام فريد . وكان في البلاد العجمية قبل الاسلام مراكز مهمة للعلم أهمها جنديسابور حيث التقت تحت رعاية العرش الفارسي الفلسفة الهندية بالفلسفة اليونانية ، وقد مرّ الكلام على هذه المدرسة في كلامنا عن المصدر اليوناني .

٣ – في الكتب التي نقلت عن الفارسية . ذكر ابن النديم ما يزيد على اربعين كتاباً أكثرها يرجع الى أصل فارسي ، والباقي كُتِب تحت رعاية

---

١ Moor, Hist. of Religion (N. Y. 1919) 438

الفرس[1] . ومن أهم ما تسرّب من الفرس الى حياة العرب الأدبية الرسائل أو الكتب التي تبحث في الفلسفة الأدبية ككتاب مسكويه « أدب العرب والفرس » . قال العلامة الروسي انو سترانزف ان هذا الكتاب يرجع الى أصل فارسي . وكذلك كتاب الادب لابن المقفع وكتب أخرى في هذا الباب . ومن أراد معرفة أسمائها فليراجعها في الترجمة الانكليزية لكتابه : « تأثير ايران في آداب العرب »[2] .

وقد ذكر الفهرست اسماء الذين نقلوا من الفارسية الى العربية ، نخص منهم هنا ابن المقفع المشهور وآل نوبخت – موسى ويوسف ابني خالد – ابا الحسن علي بن يزيد التميمي – حسن بن سهل الفلكي – البلاذري – جبلة بن سالم كاتب هشام – اسحق بن زيد – عمر بن فرّخان وسواهم[3] . ولو ان المقام يقتضي الاسهاب في ذكر أعمالهم وشرح ما نقلوه لذكرنا هنا الكتب التي نقلوها كتاباً كتاباً ولكن ذلك ليس غرضنا هنا .

٤ – في العلاقة الجغرافية والتاريخية التي نراها بين الفرس والجاهلية . من ذلك ان مملكة الحيرة العربية كانت مركز النفوذ الفارسي بين عرب الجزيرة ، وان ذلك اقتضى أن يكون بين الجنسين احتكاك أدبي اجتماعي . ومما يشير الى هذا الاحتكاك ما ذكره القفطي[4] عن الحارث بن كلدة طبيب العرب ان أصله من ثقيف من أهل الطائف وقد رحل الى فارس وأخذ الطب عن أهل تلك الديار من أهل جنديسابور وغيرها . ومن يدري انه لم يكن غير الحارث من عرب الجاهلية الذين رحلوا الى فارس في طلب العلم ؟ وهذه الصلة الادبية لم تنقطع بظهور الاسلام فان

---

١ الفهرست (ل) ٣١٣ – ٣١٦ .

٢ Iranian Influence on Moslem Lit. (Tr. Nariman 1918) p. 53

٣ الفهرست ٢٤٤ .

٤ أخبار الحكماء ١١٣ .

انتشار العرب بالفتح في الاقطار الفارسية جعل احتكاكهم بالفرس أشد مما كان قبلاً . ومع ان القسم الكبير من كتب الفرس ذهب بعد انحلال دولتهم فقد حافظ المجوس على عدد مهمّ منها بقي في الدولة العباسية الى أيام عبد الله بن طاهر الذي أطلق يد التلف فيها[١] . والذي يدقق في تاريخ فارس يرى ان الآداب والعلوم والتقاليد الوطنية الفارسية بقيت سالمة بعد الفتح الاسلامي في الولايات الشرقية والجنوبية كخراسان وفارس ، ويدلنا على ذلك ان خراسان كانت بؤرة الحركات السياسية التي أدّت الى اسقاط الامويين .

أما ولاية فارس (وهي في جنوبي ايران) فقد كانت حصن المجوس . هناك حُفظت كتبهم ومعتقداتهم الدينية والفلسفية وكان بعض مؤرخي العرب يرجعون اليهم[٢] . وقد وصف جغرافيو العرب كالاصطخري وابن حوقل والمقدسي وياقوت واليعقوبي تلك البلاد وصفاً يدل على ان المجوس (اتباع زرادشت) كانوا ينعمون بالحرية الدينية في ولاية فارس ، وانهم كانوا لا يزالون محافظين على الشيء الكثير من الكتب الفارسية القديمة .

وهنا لا يسعنا الاّ أن نذكر « الشعوبية » وهي جماعة من أصل عجمي كانت طبعاً تتعصب للعجم وتفضلهم على العرب . ولا شك انها كانت من حملة الروح الفارسية الى اللغة العربية ، وكذلك كان الزنادقة الذين كان يُتّهم بمذهبهم بعض من أكابر الادباء والشعراء كبشّار وابن المقفع وسواهما . وكانت الزندقة تطلق بالاكثر على المجوس أو الثنَوية[٣] ، أي على اتباع زرادشت أو اتباع ماني الحكيم وكلاهما فارسيان .

---

١ Browne, Lit. Hist. of Persia (1928) I - 347

٢ Iranian Influence 21, 25, 26

٣ عن لسان العرب والقاموس .

يصعب تعيين السبيل الذي جرى فيه الفكر الهندي إلى نفوس الناطقين بالعربية ولكن مما لا ريب فيه انه كان للفلسفة وللعلوم الهندية تأثير شديد في تكوين الفلسفة العربية. وقد تقدم معنا ان مدرسة جنديسابور كانت قبل الاسلام، وخصوصاً في أيام كسرى انوشروان، مركزاً علمياً التقت فيه علوم الهند بعلوم اليونان، ومنه حمل الشيء الكثير إلى العرب. ونلمح شيئاً من العلاقة الفكرية بين الهند وأمم الشرق الادنى قديماً في ما القاه سكرتير المتحف التجاري في فيلادلفيا على الجمعية الفلسفية الاميركية حيث يقول ان الهنود كانوا يرسلون سفراء إلى سلوقية وانطاكية واسكندرية وغيرها، وكان هؤلاء السفراء أيضاً دعاة دينيين[1]. على ان احتكاك العربية بالعقلية الهندية لم يبلغ كماله إلا بعد الاسلام، فان امتداد العرب بالفتح قرّب العناصر الهندية من العناصر الساميّة العربية وجعل بينها علاقة كبيرة في التجارة والعلم والدين.

من أيام بني أمية إلى أيام محمود بن سبكتكين (أواخر القرن الرابع للهجرة) كان الفتح الاسلامي باباً لتسرّب المبادىء الفلسفية الهندية إلى نفوس العرب. وقوام الفلسفة الهندية التي ظهر أثرها في تاريخ الفكر العربي الزهد والفناء الروحي، وقد انتشرت هذه المبادىء الروحية بانتشار البوذية في ولايات ايران الشرقية واحتكاكها هناك بالاسلام بعد الفتح[2]. وإذا اعتبرنا ما أخذه افلاطون وفيثاغورس من فلسفة الهنود يحق لنا أن نقول ان شيئاً من فلسفة الهنود وتعاليمهم وصل إلى العرب عن طريق اليونان أيضاً.

وفي الفهرست لابن النديم ذكر الكتب الهندية المشهورة والذين نقلوا

---

١ Early Communication Between China and the Medit. (1921)

٢ Moore, Hist. of Religion 447

منها إلى العربية، ومنها كتب الطب والخرافات والأسمار والاحاديث، والتوهّم أو السحر، والمواعظ والحِكم، ومنها كتاب ملل الهند واديانها[1]. وجاء فيه نقلاً عن الكندي: «حكى بعض المتكلمين بأن يحيى بن خالد البرمكي بعث برجل إلى الهند ليأتيه بعقاقير موجودة في بلادهم وان يكتب له أديانهم فكتب له هذا الكتاب.» قال محمد بن اسحق: «الذي عني بأمر الهند في دولة العرب يحيى بن خالد وجماعة البرامكة، واهتمامها بأمر الهند واحضارها علماء طبها وحكمائها[2]». ويذكر الجاحظ عن لسان ابي الاشعث ان يحيى بن خالد اجتلب أطباء الهند مثل منكه وبازيكر وقلبرقل وسندبار وفلان وفلان[3].

والخلاصة ان مجرى الفكر العربي له روافد ثلاثة كبرى، اليونان وهو أهمها ثم الفرس والهند، وان ما اكتسبه العقل السامي العربي من هذه المصادر غير الساميّة أيقظ فيه حركة قوية ظهرت ثمارها الفلسفية والعلمية في إبّان التمدن الاسلامي. وسنشير إلى كل من هذه المصادر في سياق كلامنا على المجاري الرئيسية في حياة العرب الفكرية.

المجاري الفكرية العامة

للحركة الفكرية عند العرب ثلاثة مجارٍ كبرى: الفلسفة والكلام والتصوّف. وغاية الفلسفة التوصل إلى المبادىء الاولى عن طريق العلم، وأصحابها في الغالب اتباع اليونان، وتجد لهم في الشعر العربي نفثاتٍ تمّ على آرائهم كقصيدة ابن سينا في النفس التي يقول فيها[4]:

---

١ الفهرست (ل) ٣٠٥ و ٣١٥ – ٣١٧.

٢ الفهرست ٣٤٥.

٣ البيان والتبيين (س) ١ – ٩٠.

٤ راجعها في دائرة المعارف للبستاني تحت: ابن سينا.

هبطتْ اليك من المحلّ الأرفع ورقاء ذات تعزّزٍ وتمنّـــع
محجوبة عن كل مُقلة عارفٍ وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلتْ على كرهٍ اليكَ وربما كرهتْ فراقك وهي ذات توجّع
أنِفت وما ألِفت فلمّا واصلتْ ألِفتْ مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهوداً بالحمى ومنازلاً بفراقها لم تقنـــع

ومنها :

فلأيّ شيء أهبطت من شاهقٍ سامٍ إلى قعر الحضيض الأوضع
إن كان أهبطها الاله لحكمة طـُويت عن الفَطِن اللبيب الأروع
إذ عاقها الشرك الكثيف فصدّها قفصٌ عن الأوج الفسيح الأرفع
فكأنها برقٌ تــألـّق بالحمى ثم انطوى فكأنـّه لم يلمـــع

وفي الشعر العربي كثير من الاشارات الفلسفية والاوضاع العلمية التي كانت شائعة في العصر العباسي .

كقول ابي القاسم الاصفهاني يصف حمّاماً في دار صديق له[1] :

ودخلت جنـّته وزرت جحيمه وشكرت رضواناً ورأفة مالك
والبِـشْر في وجه الغلام نتيجة لمقدّمات ضياء وجه المالك

وقول ابي علي المهندس[2] :

تقسّم قلبي في محبّة معشرٍ بكل فتى منهم هواي منوط
كأنّ فؤادي مركز وهمُ له محيط وأهوائي لديه خطوط

ولم ينحصر ذلك في أقوال العلماء والفلاسفة بل تعدّاهم إلى أهل الادب ، كقول المتنبي مشيراً إلى اختلاف المفكرين في مصير النفس :

تخالف الناس حتى لا اتـّفاق لهم إلا على شجبٍ والخـُلف في الشجب

---

١ القفطي ٢٢٤ .
٢ القفطي ٢٦٧ .

فقيل تخلُص نفس المرء سالمةً وقيل تَشرك جسم المرء في العطب

وقوله ذاكراً فلاسفة الاقدمين :

مَن مبلغ الأعراب اني بعدها جالست رسطاليس والاسكندرا
وسمعت بطليموس دارسَ كتْبه متملكاً متبدّيـــاً متحضرا
ولقيت كلّ الفاضلين كأنما ردّ الإلـه نفوسهم والاعصُرا

وقول المعرّي في عالم الافلاك :

العالم العالي برأي معاشر كالعالم الهاوي يحسّ ويعلم
زعمت رجال ان سياراته تسِق العقول وانها تتكلم

وقوله — أركان دنيانا غرائز أربع جُملت لمن هي فوقنا أركانا

وقوله — في مصير الروح :

قد قيل ان الروح تأسف بعدما تنأى عن الجسد الذي غنيتْ به
ان كان يصحَبها الحجى فلعلّها تدري وتفطن للزمان وعتبه
أو لا فكم هذيان قوم غـــابر في الكتْب ضاع مداده في كتبه

وللمعرّي كثير من النفثات الفلسفية وسترى ذلك في حينه .

ولو تحرّينا جميع ما دخل الشعر العربي من هذا الباب لعرفنا ما كان للفلسفة والعلوم الطبيعية من التأثير في الأدب . وقد كنا نود ان نثبت هنا زبدة الآراء الفلسفية التي اقتبسها العرب عن سواهم ولا سيما عن افلاطون وأرسطو والافلاطونية الجديدة . ولكننا نكتفي هنا بالاشارة اليها ونحيل المتعمق إلى مصادرها الرئيسية .

أما الكلام فمجارٍ شتى نخص منها بالذكر المعتزلة والأشعرية .

المعـــتزلة

ظهر الاسلام فاعتنقه العرب وامتد بالفتوح الأولى إلى غير العرب ، ولم

يكن كل الذين اعتنقوه وقاموا بفروضه ونوافله في درجة واحدة من خلوص الايمان والاعتقاد ، بل كان شأنهم في ذلك شأن المسيحيين أيام قسطنطين الكبير . فان انقلاب الدولة الرومانية بغتة من الوثنية إلى المسيحية ليس بدليل على ان كل الذين دانوا يومئذ بالدين الجديد استأصلوا من أعماق نفوسهم مبادىء مذاهبهم الأولى ، بل بقي بعضهم محافظين باطناً على معتقدات غير مسيحية لم تلبث أن ظهرت في تاريخ المسيحية واشتد خطرها على المبادىء الحقيقية ، حتى كان ما كان من الاصلاح ، وما نجم عنه من التطوّرات الجديدة .

هكذا الاسلام اعتنقه كثيرون ممن بقي في نفوسهم أثر من غيره ، ولكن ذلك الأثر لم يظهر إلا بعد ان صلح له الجو ، ولا سيما بعد ان خرجت الدولة العربية تدريجياً من بساطتها الأولى إلى حياة الحضارة والعلم . هذه أمور ليس بالهين إقامة الدليل التاريخي عليها لأنها من قبيل العوامل الخفية التي ندركها بالاجتهاد والاستنتاج ، ولكن لا بد من ذكرها قبل التبسط في الحقائق الراهنة . والذي لا جدال فيه انه في الدولة الأموية بدأت تباشير حركة فكرية لم تعهد في أيام الراشدين ، وما ذلك إلا لأن العقل كان قد بدأ يستنير بأنوار جديدة . وصحِب هذه الاستنارة تطورات فكرية – منها حركة المعتزلة التي نحن بصددها . وأول معتزليٍّ حسب النص التاريخي هو واصل بن عطاء وكان من أتباع الحسن البصري ، ثم أخذ مذهبه في الانتشار حتى بلغ ابّانه في أيام المأمون العباسي ، ولكنه عاد إلى التقهقر والضعف حتى قضي عليه ، ولم يعد إلى الظهور كمذهب خاص .

والمعتزلة ، على اضطراب كثيرٍ من نظرياتها ، تحاول اخضاع النظريات الدينية لحكم العقل . وهي بلا ريب نتيجة منطقية لاحتكاك الفلسفة بالدين . فقد جاء الاسلام وتعاليمه واضحة ونصوصه محدودة ، وهي مبنية كسائر النصوص الدينية على التسليم لله والايمان بوحيه المنزّل . ولم يخامر قلوب المؤمنين الأولين شك فيها ولا شغلهم بحث عن أسرارها ، فلم يهمهم ازاء

تقواهم البسيطة الخالصة من شوائب الريب ان يحكّموا النقد العقلي في كل ما آمنت به قلوبهم واطمأنت اليه نفوسهم – وتلك مزية الايمان الراهن.

وانك إذا استقصيت أخبار الدعوات الدينية وجدته من الصفات الملازمة للدعاة الأولين. فلما لعبت في الجو الاسلامي رياح الفلسفة، وتسرّب إلى العقول شيء من نظريات الحكمة اليونانية[1] ولا سيما المشّائيّة شرع المفكرون يبحثون ويقيسون ويقولون علامَ ولِمَ؟ فقادهم ذلك إلى مسائل أبعدتهم عن بساطة المعتقد المبني على التنزيل[2]. من هذه المسائل – مسألة خلق القرآن ومسألة صفات الله، وحرية الارادة، وقدم العالم وكيفية المعاد وما شاكل.

وقد رفض المعتزلة أزلية القرآن وجعلوه مخلوقاً[3]، وكان من أهم أنصارهم في ذلك المأمون وأمره مشهور.

وكذلك نفوا الصفات الالهية وهي العلم والحياة والقدرة والارادة والسمع والبصر والكلام. قال ابن خلدون في كلامه عن المعتزلة: «فقضوا بنفي صفات المعاني لمـــا يلزم على ذلك من تعدد القديم بزعمهم[4] ذلك لأنهم نظروا إلى الصفات كموجودات يلزم عنها تحديد وجود الله المطلق وهذا عندهم منافٍ للأحكام العقلية».

على ان منهم من لم ينكر صفات الله وانها سرمدية بل ذهب مذهب العلاّف (المتوفى ٢٣٥ هـ) في ان صفات الله ليست بشيء خارج عن جوهر الله بل هي اشكال يتشكل فيها ذلك الجوهر. وكان يقول ان علم الله هو الله، وان قدرة الله هي الله[5]. فالارادة مثلاً ليست صفة خارجية يتصف بها الخالق بل هي صورة أخرى لعلمه، وهكذا جميع الصفات

---

١ راجع الكلام عن النظام في كتاب الفرق بين الفرق للبغدادي ١١٣. وعن الجاحظ في الملل والنحل للشهرستاني.

٢ نقد العلم والعلماء ٩٠ (مصر ١٣٤٠) والبغدادي ٩٤.

٣ مقدمة ابن خلدون ٤٦٤ وفلسفة ابن رشد ٥٧.

٤ راجع مقدمة ابن خلدون تحت: علم الكلام.

٥ نقد العلم والعلماء ٨٨.

مظاهر مختلفة لجوهر واحد . وقد زاد على ذلك أحد أئمتهم ابراهيم النظّام المتوفى ۲۳۱ ه ، فقال ان الله لعلمه السرمدي بالخير لا يريد غيره – ان ارادة الله هي علمه . فالمطلق عندهم (الله) لا يوصف بنفي ولا اثبات ، فلا يقال هو واحد أو أكثر . ولا يوصف بالقدم عندهم غير الله . ومع ان بعضهم أثبتوا لله أحوالاً أربعة هي العالمية والقادرية والحيثية والموجودية ، فقد فرقوا بين الثبوت والوجود بالذات وقالوا انها موجودات غير موجودة[١] : فكأنهم يعنون بذلك ان هذه الصفات حالات تظهر فيها الذات لا صفات زائدة عليها . وهذا قريب من مذهب ابي هاشم الجبّائي المتوفّى ۳۲۱ه ، إذ جعل لجوهر الله أحوالاً شتى يظهر فيها . ومع ان هذه الاحوال لا توجد بنفسها ولا تُتصور بدون الجوهر فهي تمتاز عنه وبها يعرف الجوهر[٢] . ومنهم من يذهب إلى أن الله يعلم جُمل الاشياء ولا يعلم تفاصيلها وانه لا يقدر ان يخلق الذات ، وإنما هو قادر أن يخرجها من العدم إلى الوجود[٣] .

فالمعتزلة في ذلك تخالف الصفاتية ، أي التي تثبت الصفات لله . والارادة عندهم حرة ، وقد فسّر الجاحظ (وهو معتزلي) الارادة بأنها حال من أحوال المعرفة ، وحرية العمل أو الارادة أن يعرف العمل من فاعله . فالانسان عند المعتزلة مخيّر لا مسيّر ، وهو مسؤول عن أعماله ، وانه على اكتسابه يترتب العقاب والثواب[٤] .

ويضادّهم في ذلك الجبرية . وهم يقولون لا علة ولا معلول في الاشياء التي نراها أو نشعر بها ، لأن كل شيء مسبّب مباشر عن الله . فاذا نعست فالنعاس وُضع فيّ بعمل خاص من الله ، وإذا كتبت فتحريك القلم وارادة الكتابة وما يتعلق بها قد اتصلت بي رأساً من الله . فلا

---

١ شرح تهذيب الكلام ۱۱۱ .

٢ الملل والنحل للشهرستاني هامش ابن حزم (مصر ۱۳۱۷) ۱ – ۱۰۲ .

٣ نقد العلم والعلماء ۸۸ .

٤ فلسفة ابن رشد ۱۰۵ .

دافع لما يريده الله ، وما الانسان إلا واسطة لتنفيذ ارادة الله [1] . وعلى ذلك الأشاعرة الذين يذهبون إلى ان الله يخلق كل عمل . وزاد عليهم الباقلاّني تطرفاً بقوله بل الله يجدد كل شيء (حتى اللون مثلاً) كل لحظة . فما يفعله الله الآن وما يخلقه قد يجيء في اللحظة التالية ما يناقضه – كل شيء ، كل عمل ، كل حركة في الكائنات متوقف مباشرة على ارادة الله .

هذه التعاليم التي تُرجع كل شيء إلى ارادة الله مباشرة تبرز لنا شريعة القضاء والقدر في أعظم مظاهرها . وليست المعتزلة على ذلك ، لأن القول بحرية الارادة وبمسؤولية الانسان يناقضه . وحجّتهم انه لو كان العبد غير خالق لأفعاله الاختيارية لكان القول بالثواب والعقاب لغواً .

قِدم العالم

وهذه المسألة نراها في كل نظام فلسفي ، فالفلسفة المادية مثلاً تجعل العالم قديماً (أي ازلياً لا بداءَة له) والروحية تجعله محدثاً . وواضح ان الدين والكلام يذهبان إلى حدوث الكون بقدرة الخالق المبدع المريد . فما قول المعتزلة في هذا الشأن ؟ قال ابن رشد في كلامه عن المعتزلة [2] : « واما المعتزلة فانه لم يصل الينا من كتبهم في هذه الجزيرة (الاندلس) شيء نقف منه على طريقهم في هذا المعنى ويشبه ان يكون طريقهم من جنس طرق الاشعرية » . فكأنه يقول ان المعتزلة والاشعرية سيّان في نظرهما إلى قدم العالم . فانهم وسائر المتكلمين سواء في هذا الصدد ، إلاّ ان نظرهم إلى الله غير نظر أهل السنّة . فهم أميل إلى جعله مصدراً للعقل الفعّال الذي تفيض منه عوالم النفس والطبيعة . وهذا يجعل الجنّة والخلود والجحيم في نظرهم غير الأحوال المحسوسة التي يصوّرها الدين . ولا ريب

---

١ الشهرستاني هامش ابن حزم ١ – ١١٠ .

٢ راجع فلسفته ٤٥ .

ان للفلسفة اليونانية تأثيراً ظاهراً في مبادئهم ، فالقول في أزلية صفات الله وتفسيرهم تلك الصفات بأنها هي نفس جوهر الله أو انها اعراض لجوهر واحد ، وقول شيخهم النظّام ان النفس بحجم الجسد وعلى شكله تتخلل دقائقه كما تتخلل الزبدة دقائق اللبن ، مأخوذ من قول ارسطو في المادة وصورتها . وقول معمر السلمي في صفـــات الله يقود إلى القول بالشمول (أي ان الله والعالم واحد) الذي هو أثر من آثار الافلاطونية الجديدة مصبوغ بالصبغة الهندية . واما نظرية بعضهم ان الله لمعرفته الكلية بالخير لا يستطيع ان يريد غيره لعباده فيقرب ان يكون نفس ما علّم به الرواقيون[1] . وللنظّام رأي في الخلق يكاد يكون نفس الافلاطونية الجديدة .

والخلاصة ان الاعتزال مبدأ فكري يحاول ان يستنير بالعقل ويُخضع كل شيء لأحكامه ، لكنه أراد ان يجمـــع بين العقل والنقل متمسكاً بكليهما فلم يوفق تماماً ، ولذلك كثر اضداده ومنتقدوه .

الأشعرية

وهم ينتسبون إلى أبي حسن الاشعري المتوفى ٩٥٣ م ، وكان من تلامذة المعتزلة في بغداد ولكنه لم يبق كذلك بل انقلب عليهم وصارت فرقته أشد الفرق في مناضلتهم[2] ، واليك بعض أوجه النضال بـــين الفرقتين .

في ماهية الله

كان الجمهور من المؤمنين ينظرون إلى ما ذكره الكتاب المنزل عن أعضاء الله الجسدية كاليد والعين والاذن نظراً حرفياً . أما المعتزلة فاتخذت

---

١ راجع النظامية في الفرق بين الفرق ١١٣ والبهشمية ١٦٩ .

٢ ابن خلكان ١ – ٣٢٦ .

ذلك من قبيل التأويل ، فقالوا لا يد حقيقية لله وإنما هي إشارة إلى قوتِه وبسطته ، وهكذا فسّروا سائر الاعضاء . فقام الاشعري وعلّم ان الله لا يمكن رؤيته في الآخرة وان له سمعاً وبصراً ويدين ووجهاً الخ ، ولكن ماهية تلك الاعضاء خارجة عن معقول الانسان أو هي وراء العلم[1] .

المعـــاد

ذهبت المعتزلة إلى ان الدليل العقلي هو الهادي الذي يهدينا إلى معرفة ما وراء الطبيعة[2] ، وان حالة النفس من عذاب أو نعيم إنما هي حالة عقلية لا جسدية . فقال الأشعري بل العقل لا يستطيع الهداية ، فما علينا إلا التصديق والايمان بالوحي المنزل وان الامور التي ذكرها الكتاب كجلوس الله على العرش والحوض والموقف والفردوس والملاكَين المنكر والنكير وما شاكل – كل ذلك حقيقة راهنة لا صور خيالية كما يدعي المعتزلة .

صفات الله

وفي هذا الباب يسلك الاشعري مسلكاً وسطاً بين السنّة والمعتزلة فهو يقول بصفات الله وقدَميتها على ان تلك الصفات اشكال أو تكيّفات لجوهره ، فلا هي عين ذاته ولا هي غيرها[3] .

رأيه في القرآن

سلك في ذلك مسلكاً أصبح معوّل أهل الكلام ، وهو ان القرآن

---

١ الشهرستاني هامش ابن حزم ١ – ١٣١ و ١٣٢ .
٢ راجع مناقشات ابن تيمية في ذيل فلسفة ابن رشد ٨ .
٣ أو كما يقولون هي منه بنسبة الواحد إلى العشرة فهو ليس بالعشرة ولا غيرها .

كلام نفسي قديم غير مخلوق ، وإنما المخلوق هو الصور اللفظية لذلك الكلام النفسي .

الجبر والاختيار

(القضاء والقدر وحرية الارادة) . ليس عند الاشاعرة من ارادة حرة . فالله (القديم الازلي) عندهم هو المطلق المدبّر لكل حركة – خالق الانسان واعماله وما الانسان إلاّ آلة في يد الله ، مسيّراً عقلاً وجسماً بارادته الالهية ، وليس له من عمل إلاّ الكسب – وهو كما في القاموس « تعلق قدرة العبد وارادته بالفعل المقدور » أي تطبيق ارادة الله على العمل . وهذا طبعاً يقود إلى الاعتقاد بأن الله خالق الخير والشر ، وهو مخالف لمبدأ النظام المعتزلي القائل بأن الله لا يستطيع ان يريد غير الخير ، وان الخير والشر يدركهما الانسان بالعقل وعلى ذلك فهو مسؤول عن أعماله .

ومبدأ الاشعرية ينفي نظام السببية المادية ، لأنه يجعل الله علة كل شيء ، صغيراً كان أم كبيراً ، جسدياً أم عقلياً . فاذا مسست النار مثلاً لم تحرقك النار لأن الحرق من طبيعتها ، بل لأن الله يخلقه عند مسّك إياها . وعليه لا يستغرب أو لا يستحيل ان يجعلك تشعر بالبرودة عند مسك النار . لان نوع الحس راجع رأساً إلى ارادته فما العجائب اذن بخوارق لنظام الكون ، بل هي من أعمال الله غير المألوفة عندنا .

قلنا ان المبدأ الاشعري معوّل أهل الكلام . والنضال الذي احتدم بين الاشعرية والمعتزلة انتهى بانتصار الاولى ، ولم ينقض القرن الرابع للهجرة حتى انقضى معه عصر المعتزلة .

التصوف

تباينت الآراء في أصل هذه الكلمة فذهب بعضهم إلى انها من صفاء النفس ، وهو قول المتصوفة . وقال غيرهم بل هي من أصل يوناني معناه

الحكمة . على ان ابن خلدون يرى كما يرى كثيرون غيره ان اشتقاق اسمهم من الصوف[1] .

كان المؤمنون الأولون من الصحابة والتابعين معروفين بالقناعة عاكفين على الصلاة والعبادة معرضين عن زخرف الدنيا وزينتها ، فلما تقدم المسلمون في الحضارة ومالوا إلى الترف في العصر الأموي وما بعده ، نشأت بين أهل الدين حركة مرماها الرجوع إلى بساطة الايمان الاولى ونبذ الشهوات العالمية . على ان هذه الحركة لم تكن إلاّ توطئة للتصوف الحقيقي الذي عرف بعدئذ . فاننا نراه في ابانه نظاماً روحياً خاصاً يمت بشيء من القرابة إلى أنظمة روحية سابقة . فما هي هذه الانظمة ؟ قال المستشرق فون كريمر[2] ان اصل الصوفية عربيّ يرجع إلى نظام الزهد والتنسك الذي كان شائعاً في المسيحية قبل الاسلام . والدليل على ان عرب الجاهلية احتكوا بزهاد المسيحيين وعرفوهم ، ما ورد في أشعارهم عنهم .

والذي يظهر لنا ان في كلام فون كريمر بعض الحقيقة لا كلها . فقد يكون نساك المسيحية المثال الذي تحداه متصوفو الاسلام ، ولكن النظام اللاهوتي الصوفي لا يقف عند ذلك ، بل يرجع إلى مصادر يونانية وهندية وفارسية . فالافلاطونية الجديدة التي مرّ ذكرها آنفاً كانت قد خمّرت الحركة الفكرية الشرقية بكثير من المبادىء اللاهوتية ، ومنها التجسّد ، وعودة النفس الى أصلها (العقل الفعال أو الله) . أما الاثر الهندي في التصوف فتراه واضحاً في فكرة الاتحاد الروحي . فالفلسفة الهندية تُعلـّم ان الروح الاعظم والعالم المادي واحد (وحدة الوجود) وكل ما في العالم يجري من ذلك الروح واليه يعود – هو الموجود الساطع الذي يرى في قرص الشمس

---

[1] راجع المقدمة الصوفية لابن الوردي ومقدمة ابن خلدون ٤٦٧ ودائرة المعارف البريطانية تحت Sufism . ويظهر ان لبس الصوف قديم في الاسلام فقد ذكره ابن قتيبة في عيون الاخبار وارجعه إلى زمن الحسن البصري .

[2] O'leary, Arabic Thought (1922) 185

كما يرى في عين الانسان . هو النور الوضّاء الذي يضيء في السماء وفي الارض وفي نفس الانسان ، وهو الذات العاقلة الخالدة السعيدة .

على ان الرجوع إلى الروح الأعظم يقتضي فهم اسفاره المقدسة (الفيدا) وممارسة الطقوس والعبادات الخاصة ، ولا سيما مراسيم التقوى والتوبة . وإنما يطهّر العقل من كل فساد بممارسة الفضيلة من غير النظر إلى ثواب . ولا يستحق الاتحاد بالروح الاعظم (برهما) الا الذي يتصف بالصفات التالية :

١ – التمييز بين ما يبقى وما يفنى .
٢ – عدم الاكتراث لثواب أو مسرة .
٣ – الحصول على السكوت التام وضبط النفس .
٤ – الرغبة في الخلاص .

فهناك شبه بين الاتحاد الصوفي والفناء الهندي « النرفانا » ، ولكن الاختلاف بينهما بيّن ، لأن الاول يقضي باستقلال ذاتية النفس في الوجود الاعظم ، وان يكن قد توغل بعضهم في القول بالوحدة[١] ، والثاني يقول بتلاشيها . وسترى في شرح الصوفية بعدُ أنّ فيها أثراً كبيراً من التعاليم الهندية التي كانت منتشرة في بلاد العجم والهند قبل الاسلام ، والتي جعلت للتصوّف صبغة غير الصبغة الزهدية التي عُرف بها أتقياء المسلمين الأولين . هؤلاء لم يؤسسوا لاهوتاً جديداً ولا خرجوا عن نصوص القرآن في ماهية الله وحالة النفس بعد الموت .

أما الأثر الفارسي فقد ذهب بعضهم إلى انه يرجع إلى المانويّة والمزدكية اللتين كان للزهد فيهما شأن يذكر[٢] . ولعل أهم أثر فارسي في الصوفية وفي سواها من الحركات الفكرية في الاسلام ان الذين قاموا

---

١ راجع مقدمة ابن خلدون ٤٧٢ و ٤٧٣ .
٢ Arabic Thought, p. 190

بهذه الحركات أكثرهم من أهل فارس ، فهم ورثة العقلية الفارسية التي كانت قد تأثرت من تعاليم الهند ومن تعاليم الزعماء الروحيين ، كماني الحكيم وسواه . وماني ثنوي ، وخلاصة تعليمه كما شرحه ابن النديم[١] : ان للكون مبدأين : النور والظلمة ، ولكل من هذين المبدأين أجزاء ، وباشتباك الاجزاء النورانية بالأخرى حدث الكون ، فالخلاص (أو السعادة) قائم على تطهير العالم من أجزاء الظلمة المشتبكة بأجزاء النور . وسيظهر أثر ذلك في الصوفية .

يؤخذ من تعاليم أئمة المتصوفين ان نقطة الدائرة في نظامهم هي الوحدة[٢] أي اتحاد النفس بالله . وهذا المبدأ يوافق المبدأ الهندي كما مرّ معنا ، والمبدأ اليوناني (الافلاطونية الجديدة) ، إلا انه يختلف عن هذا بأن الحصول على الوحدة لا يتوقف بالاكثر على العقل بل على التقوى وقمع الشهوات . قال الجُنيد البغدادي : « التوحيد معنىً تضمحل فيه الرسوم وتندرج العلوم ويكون فيه الله كما لم يزل »[٣] . وأخذ عنه الحلاّج المتوفى ٣٠٩ هـ وذهب مذهب الغلاة من الشيعة ، وقال بالحلول أي حلول الله في الاجسام وبالتناسخ ، وقد قُتل بافتاء أكثر علماء عصره[٤] .

وفكرة الحلول ظاهرة تماماً في كلام ابي زيد البسطامي وهو أول من قال بالفناء[٥] ، أو الذي خطا الخطوة الاولى من التصوف إلى الحلول[٦] . ومن مبادئهم ان الله هو الموجود الحقيقي – لا وجود حقيقي سواه (افلاطونية) ، ولكن في الانسان نفساً عاقلة هي صورة معكوسة عن

---

١ الفهرست (ل) ٣٢٧ – ٣٣٨ .

٢ ابن خلدون ٤١٣ .

٣ الرسالة القشيرية (مصر ١٣٣٠) ١٣٥ .

٤ ابن خلكان ، ١ – ٢٠٦ وابن النديم ، ١٩٠ .

٥ دائرة المعارف البريطانية تحت Sufism

٦ Nichelson, Lit. Hist. of Arabs, p. 390

نفس الله ، وهي قادرة ان تقترب من الحقيقة الالهية . وبما انه لا وجود حقيقي لغير الله فمعرفة الله لا تحصل بواسطةٍ مادية (بالكسب أو الدليل) بل بإلهام روحي ، ان هذا الالهام يحصل في حالة التجرد عن الدنيا . ومع انه لا وجود حقيقي لغير الله نجد هذا الوجود ممتزجاً بغير الحقيقي . وهذا الامتزاج أساس العالم المادي (قابل ذلك بالمانوية) . فالشر نتيجة لازمة لامتزاج هذين الوجودين . وغاية النفس الاتحاد بالله ، وكل ما يساعد على بلوغ هذه الغاية فهو صالح ، وكل ما يحول دونها فهو شرير (وبهذا تتفق جميع الاديان والمذاهب) . وهذا الشوق إلى الاتحاد بالحقيقة الالهية هو الحب الذي يتغنى به الصوفيون ، ويجعلونه أساس ايمانهم (راجع اشعار ابن الفارض أكبر شاعر متصوف عند العرب) .

ومن أكابر المتصوفين عند العرب محيي الدين بن العربي المتوفى سنة ٦٣٨ هـ . كان أولاً من أتباع ابن حزم المشهور . واما في تصوفه فيظهر مبدأ الحلول والوحدة تمام الظهور . فمن أقواله في الله :

« فلذلك قال تعالى أنا عند ظن عبدي بي – أي لا أظهر له إلاّ في صورة معتقَدهِ فان شاء اطلق وإن شاء قيّد . فإله المعتقدات تأخذه الحدود وهو الاله الذي وسعه قلب عبده ، فان الاله المطلق لا يسعه شيء ، لأنه عين الاشياء وعين نفسه . والشيء لا يقال فيه يَسَعُ نفسه ولا يسعها » اهـ[2] .

ومن شرّاح ابن العربي عبد الرزاق المتوفى ٧٣٠ هـ ، وهو يقول بحرية الارادة لأن النفس البشرية عنده فيض من روح الله ، فهي تشارك الله في القدرة على الاختيار ، وان العالم على أحسن ما يمكن أن يكون ، وان الاشياء ستفنى أخيراً في وجود الله الكائن الحقيقي الوحيد . ويقسم البشر

---

١ فلسفة ابن رشد ٤٤ ومقدمة ابن خلدون (التصوف) .

٢ خاتمة كتاب « نصوص الحِكَم » لابن العربي .

إلى ثلاثة أصناف وهم :

العالميون – أي محبّو الذات الذين تدور حياتهم حول نفوسهم وهؤلاء لا يكترثون للدين والمبادىء الروحية .

العقليون – وهم أهل الفكر الذين يرون الله بنور العقل في مظاهر الوجود .

الروحيون – وهم الذين يرون الله بالكشف أي بإلهام روحي يوافيهم من الحضرة الربانية .

* * *

والخلاصة ان الصوفية بدأت مظهراً من مظاهر الورع الديني ، ولكنها انتهت في غـُلاتها بتعاليم بعيدة عن تعاليم السنّة . ومحور مذهبهم الكشف الرباني بالتجرّد عن العالم وبالحب الالهي . وقد علق عليهم من تعاليم الهند والروم الوحدة والحلول والفناء في وجود الله ، على انهم تمادوا في مسألة الكشف والكرامات إلى حد انّ بعضهم صار يستعمل لذلك طرق الشعوذة والسحر والتدليس .

من أراد التوسع في درس الحركة الفكرية في هذا العصر فليراجع :

برون	Browne, Lit. Hist. of Persia
كولدزيهر	Le Dogme et la Loi
اوليري	O'Leary, Arabic Thought
كارا دي فو	Carra du Veau, Les Penseurs de l'Islam
نكلسون	Nichelson, The Mystics of Islam
ابن حزم	– الملل والنحل
الشهرستاني	– الملل والنحل
البغدادي	– الفرق بين الفرق
ابن الجوزي	– نقد العلم والعلماء
ابن خلدون	– المقدمة
دوائر المعارف المختلفة	

القسم الثاني

الشعر في العصر العباسي

•

مزاياه – أمراؤه (دراسات تحليلية وانتقادية) – المختار من دواوينهم

بحث تمهيدي

في

خصائص الشعر العباسي

إذا وازنت بين الشعر القديم والشعر المولّد فلا شك انك تجد في الاخير اثر التقدم ظاهراً للعيان ، على ان ذلك لم يبلغ به مبلغاً يخرجه عن المناهج التي اختطها الاقدمون . خذ الوصف مثلاً فانك تجده عريقاً في الشعر يرجع إلى ما قبل الاسلام . على انه كان قديماً ينحصر في البداوة وما يشاكلها ، فصار – بعد ان اتسع الأفق العمراني لدى المسلمين ، وبعد ان طما بحر الرفه على بغداد وسواها من حواضر العصر العباسي – يتفنن في نعت أسباب الحضارة كالقصور والبرك والجنائن والولائم والجيوش والمراكب . ومثل ذلك تفنّنه في الخمر وأنواع الغزل والمديح ، وما إلى ذلك من ضروب النظم . ولا ينكَر ان المولدين فاقوا الاقدمين في ذلك ، ولكنهم لم يبتدعوا أساليب جديدة أو مواضيع جديدة تجوّز لنا ان نقول ان الشعر طرأ عليه في زمانهم تطور كبير .

والشعر نوعان رئيسيان : وجداني وموضوعي . فالوجداني يدور على نفس الشاعر – على تأثره من أمرٍ ما ، واظهار ذلك التأثر بالكلام المنظوم .

ومن ذلك مدحه لأميره ، أو تغزّله بفتاته ، أو هجاؤه لعدوّه ، أو وصفه لما تقع عليه عينه ، أو تحريضه على ما يشعر بصلاحه .

أما الموضوعي فيدور على شيء خارجٍ عن نفسه – على صفات يتخيلها أو يراها فيما حوله من ظواهر الطبيعة أو النظر في حياة الانسان ، وما إلى ذلك من المواضيع الاخلاقية والادبية التي تمثل للجمهور ما يشعر به في الحياة ، أو تحملهم على أجنحة الخيال إلى ما وراء المحسوسات ، فتثير فيهم حب الجمال وتدفعهم في سبيل الكمال .

وأنت إذا رجعت إلى معظم دواوين الشعر في العصر العباسي ، ثم دققت في المقاييس الأدبية التي وضعها علماء البلاغة ونقَدة الشعر أمثال قدامة والاصفهاني والآمدي والعسكري والثعالبي والجرجاني وابن الاثير واضرابهم ، رأيت ان التجدد الشعري في العصر العباسي لم يتعدّ في الاغلب صناعة الشعر ، وانه منحصر في الوجداني منه . وهو يظهر لنا في ثلاثة مظاهر :

(١) رقة العبارة .

(٢) التفنن في المعاني .

(٣) التوفّر على البديع اللفظي .

وقد يضاف اليها التوسع في المصطلحات اللفظية .

على انه من الانصاف ان نقول ان الشعر المولّد يمثل لنا أيضاً تجديداً في الناحية الروحية من الشعر ، ناحية الزهد والورع والاصلاح – وتلك حركة خاصة سنتناولها في غير هذا المقام .

رقة العبارة

وحكمنا من هذا القبيل اجمالي لا حصر فيه . فلا العهد القديم يتفرّد بخشونة الاسلوب وضخامة الالفاظ ، ولا المولّد بالنعومة والسلامة وعذوبة العبارة . ومن البيّن ان العبارة كثيراً ما تتوقف على الموضوع . فالشاعر

القديم (بدوياً كان أم حضرياً) إذا تغزل أو رثى أو تأمل جاء بالرقيق الناعم ، كقول عروة يصف ما فعل به الوجد :

جعلت لعرّاف اليمامة حكمه وعرّافِ نجدٍ ان هما شفياني
فقالا نعم نشفي من الداء كله وقاما مع العوّاد يبتدران
فما تركا من رُقْـيَـةٍ يعلمانها ولا سلوةٍ الا وقد سقياني
فما شفيا الداء الذي بيَ كله ولا ذخرا نصحاً ولا ألـوَاني

وقول عمر بن ابي ربيعة من قصيدته المشهورة في فتاته نـُعم :

وبتّ اناجي النفس أين خباؤها وكيف لما آتي من الامر مصدرُ
فدلّ عليها القلب ريّا عرفتُها لها وهوى النفس الذي كاد يظهرُ

وقول ابي ذؤيب في رثاء بنيه :

والنفس راغبة إذا رغـّبتها وإذا تـُردّ إلى قليل تقنعُ
وإذا المنيّة أنشبت اظفارها ألفيتَ كل تميمةٍ لا تنفعُ

إلى ما يجري مجراه من الشعر العذب الذي لا يمكن حصره هنا . فإذا تعديت ذلك إلى ما يختص بمعيشة الاعراب ووصف منازلهم وأدواتهم أصبح الشعر خشناً متوعراً ، كالذي تجده في صفـــات الطلول والجِمال والقسيّ وأوابد القفر ، وما إلى ذلك مما يعجّ به الشعر القديم .

وكذلك الشعر المولد تجده في أدوار تختلف باختلاف مواضيعه وأحوال قائليه . فمنه الذي يسيل عذوبة ويبلغ الدرجة العليا من الاناقة ، وسيمر بنا كثير منه . ومنه ما يمتّ بنسب متين إلى العهد القديم ، تقرأه فتجد فيه عنجهية البداوة وتوعّرها كقول ابن دريد يصف حصانه :

ومشرف الاقطار خـاطٍ نحضُه حابي القصَيرى جُرشعٌ عرد النـّسا [1]
سامي التـّليل في دسيعٍ مُفعم رحب اللـّبان في أمينات العجى [2]

---

[1] حصان مرتفع الجوانب ضخم شديد العصب .
[2] مرتفع العنق واسع الصدر قوي الارساغ .

ومنها في وصف حاله :

ما خلتُ ان الدهر يثنيني على ضرّاءَ لا يرضى بها ضبّ الكُدى [1]
ارمّق العيش على برضٍ فان رمتُ ارتشافاً رمت صعب المرتقى
في كل يومٍ منزل مستوبل يشتفّ ماءَ مهجتي أو مجتوى

وقول المعري في سقط الزند :

لعلّ نواها ان تريع شَطونها وان يتجلّى عن شموس شُطونها [2]
إذا ما أخنا حُرّة فوق حَرّة بكى رحمة الوجناء فيها وَجينها [3]

وللمعري ولا سيما في شعر شبابه كثير من هذا الضرب .

ومثله أبو تمام ، وسنتناول ذلك في دراسته وتحليل شاعريته ، وانما نكتفي هنا بأبياته التالية في وصف قتال حدث في الشتاء :

لقد انصعتَ والشتاءُ له وجهٌ يراه الرجال جهماً قَطوبا
سَبَرَاتٌ [4] إذا الحروب أبيخت هاج صنّبرها فكانت حروبا
فضربتَ الشتاء في أخدعيه ضربة عاودتْه قوداً رَكوبا

وهذا أبو نواس وهو في طليعة المولدين ديباجة ورونقاً لا يخلو شعره أحياناً من النزعة الأعرابية كقوله :

إنّا اليك من الصليق فداسم طلعَ النجادَ بنا وجيفُ الأينُق
يتبعن مائرة الملاط [5] كأنما ترنو بعيني مُقلة لم تفرق

وسنرى ذلك في درس شعره .

فنحن إذن في نعتنا الشعر المولد بالرقة لا ننفي الخشونة البدوية من

---

١ الكدى الصخور .
٢ راع رجع . شطون بعيد . شطون دجون .
٣ حرة أي ناقة كريمة . حرة أرض سوداء . الوجناء الناقة . الوجين الأرض الغليظة .
٤ سبرات غدوات باردة . ابيخت خمدت .
٥ ناقة مضطربة الاعضاء .

بعضه ، ولا نحصر النعومة والسلامة فيه . على اننا برغم ذلك نجد ان التطور الاجتماعي قد انشأ في العصر العباسي جوّاً حضرياً رائقاً ، فقضى على الفاظ وتعابير وانشأ عوضها ما هو أشد ملاءَمة لروح العصر . ومن ذلك ميل الادباء عن اسلوب النظم القديم . وهو كما وصفه ابن قُتيبة : « ان يبتدىء الناظم بذكر الديار والدمن والآثار فيشكو ويبكي ويخاطب الربع ويستوقف الرفيق ... ثم يصل ذلك بالنسيب فيشكو شدة الشوق وألم الوجد والفراق ثم يرحل ويشكو النصَب والسهر وسُرى الليل وانضاء الراحلة الخ[1] » . ومع ان هذا الميل إلى التجدد لم يكن شاملاً ، فان له اثراً بيّناً في المباحث النقدية التي عني بها علماء الشعر في ذلك العصر . ويوضح لنا ذلك ما ذكره ابن رشيق يصف الحالة الشعرية في زمانه ، أي في القرن الخامس الهجري (وقد سبقه إلى ذلك نقدة الشعر منذ القرن الثالث) — قال :

« وليس بالمحدَث من الحاجة إلى أوصاف الإبل ونعوتها والقفار ومياهها وحمر الوحش والبقر والظلمات والوعول ومـــا بالاعراب وأهل البادية ، لرغبة الناس في هذا الوقت عن تلك الصفات ، وعلمهم ان الشاعر إنما يتكلفها تكلفاً ليجري على سنن الشعراء قديماً » ... إلى ان يقول : « والاولى بنا في هذا الوقت صفات الخمر والقيان وما شاكلها وما كان مناسباً لهما ، كالكؤوس والقناني والاباريق وتفّاح التحيّات وباقات الزهر ، إلى ما لا بد منه من صفات الخدود والقدود ... ثم صفات الرياض والبرك والقصور وما شاكل المولدين[2] » .

وله في العمدة مقابلة جيدة بين طريقة القدماء وطريقة المولدين في « باب المبدأ والخروج والنهاية » فلتراجع هناك[3] .

---

١ الشعر والشعراء (مصر ١٣٣٢) ص ٧ .

٢ العمدة (مصر ١٩٢٥) ٢ — ٢٢٧ .

٣ العمدة ١ ص ١٤٥ — ١٦١ .

ومن دلائل التجدد اللفظي في العصر العباسي ظهور النقد البياني الذي جعل أساس البلاغة في الالفاظ السهولة والحلاوة والجزالة . وأمثلة ذلك ما جاءَ لأبي هلال العسكري في كتابه « الصناعتين » إذ قال : « فإذا كان الكلام قد جمع العذوبة والجزالة ، والسهولة والرصانة ، مع السلاسة والنصاعة ، واشتمل على الرونق والطلاوة ، وسلم من حيف التأليف ، وبعد عن سماجة التركيب ، وورد على الفهم الثاقب قبله ولم يردّه ، وعلى السمع المصيب استوعبه ولم يمجّه . والنفس تقبل اللطيف وتنبو عن الغليظ وتقلق من الجاسي البشع ... والفهم يأنس من الكلام بالمعروف ويسكن إلى المألوف » إلى آخر كلامه [1] . ومثل ذلك قول الجرجاني : « واما رجوع الاستحسان إلى اللفظ فلا يكاد يعدو نمطاً واحداً وهو ان تكون اللفظة مما يتعارفه الناس في استعمالهم ويتداولونه في زمانهم ، ولا يكون وحشياً غريباً أو عامياً سخيفاً » [2] .

ولا ينكر ان « النقد البياني » لم يصبح فنّاً ذا قواعد مرعية إلاّ في القرن الرابع الهجري وما بعده ، بيد ان الروح النقدية التي تمثل التطور الصناعي في الشمر قديمة ترجع إلى أوائل العصر العباسي .

التفنن في المعاني

ويعنون بالمعاني الشعرية ضروب التمثيل والتشبيه والاستعارة .

أما التمثيل فيراد به أن يعمد الشاعر إلى حكمة عقلية ادركها الناس بالفطرة أو عرفوها بالاختبار ويسبكها في قالب لفظي جميل ، كقول المتنبي :

على قدْر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها ... وتصغر في عين العظيم العظائم

١ كتاب الصناعتين (الاستانة ١٣٢٠) ٤١ .

٢ أسرار البلاغة (تصحيح رشيد رضا ١٣٢٠) ٣ .

والمثل في الشعر العربي كثير ، وقد تفننوا في العصر العباسي ، فتركوا لنا من أقوالهم جواهر غالية . ويكثر ذلك في شعر ابي العتاهية وابي تمام وابن الرومي والمتنبي والمعري واضرابهم ، وسنلمّ بالكثير منها عند درسنا هؤلاء الشعراء ، وهو داخل عند الجرجاني في قسم المعاني المعقولة .. ويقابله عند ذلك الإمام القسمُ التخييلي ، وهو كما قال : « مفنّن المذاهب كثير المسالك لا يكاد يُحصر إلا تقريباً ولا يحاط به تقسيماً وتبويباً ، ثم انه يجيء طبقاتٍ ويأتي على درجات . فمنه ما يجيء مصنوعاً قد تُلطّف فيه واستعين عليه بالرفق والحذق حتى أعطي شبهاً من الحق وغُشي رونقاً من الصدق[١] » ... الى أن يقول : « وجملة الحديث الذي أريده بالتخييل ههنا ما يثبت فيه الشاعر أمراً هو غير ثابت أصلاً ويدّعي دعوى لا طريق الى تحصيلها ويقول قولاً يخدع فيه نفسه ويريها ما لا يرى »[٢] ، ومع انه يخرج الاستعارة من هذا الحد ترى معظم أمثلته تدور على ضروب من التشبيه والاستعارة والمجاز .

ولابن الأثير في المثل السائر بحث ضافٍ في توليد المعاني بسط فيه المراد بسطاً وافياً ، وخلاصته[٣] : ان المعاني على ضربين ، ما ينتزع من شاهد الحال ، وما ينشأ من غير شاهد الحال ، واليك أمثلة ذلك :

فمن القسم الأول :

بكروا وأسروا في متون ضوامرٍ ... قيدتْ لهم من مربط النجّار
لا يبرحون ومن رآهم خالهم ... أبداً على سفر من الاسفار

وهذا المعنى (أي تشبيه المصلوبين بالفوارس الراكبين ولا يبرحون مكانهم) استخلصه أبو تمام من رؤية بعض الثائرين على الخليفة المعتصم مصلوبين على أخشاب عالية .

---

١ راجع أسرار البلاغة ٢١٦ .
٢ أسرار البلاغة ٢٢٣ .
٣ المثل السائر (بولاق) ١٨٧ – ١٩٧ .

مثال ٢ :

وزائرتي كأنّ بها حياءً فليس تزور إلا في الظلام
بذلتُ لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت في عظامي
كأنّ الصبح يطردها فتجري مدامعها بأربعةٍ سِجام

شَعَرَ المتنبي بالحمّى ، وشاهد كيف كانت تزوره ليلا وتدبّ في جسمه ، وكيف كانت تهبط صباحاً ويبتلّ جسمه بالعرق من جراء ذلك ، فوصفها كزائرة ذات حياء لا تزور حبيبها إلاّ ليلاً ، وتخيّل الصبح يطردها فتهطل لذلك مدامعها .

مثال ٣ :

ضربت لسيف الدولة خيمة عظيمة ، فهبّت ريح شديدة فسقطت ، وكان المتنبي حاضراً فقال في ذلك :

أيقدح في الخيمة العُذّلُ وتشمل مَن دهرَها يشملُ

الى أن يقول :

رأت لون نورِك في لونها كلون الغزالة لا يغسلُ
وان لها شرفاً باذخاً وانّ الخيام بها تخجلُ
فلا تنكرنّ لها صرعة فمِن فرح النفس ما يقتل

فانظر كيف جعل سقوطها مسبَّباً عن شدة ما نالها من الفخار والزهو ثم ساق الكلام الى قوله :

ولما أمرتَ بتطنيبها أُشيع بانك لا ترحل
فما اعتمد الله تقويضها ولكن أشار بما تفعل

فجعل تقويض الله لها تكذيباً لما أشيع عند تطنيبها من انك لا تنوي غزواً لعدو . وقد أجاد المتنبي في انتزاع هذا المعنى والباسه ثوب المجاز والخيال .

ومن القسم الثاني (أي المعاني المبتكرة من غير شاهد حال) قول علي ابن جبلة مادحاً :

تكفّل ساكنَ الدنيا حُميدُ فقد أضحت له الدنيا عيالا
كأنّ اباه آدم كان أوصى اليه ان يَعولهمُ فـَعالا

أراد أن ينعت ممدوحه بالكرم العظيم الشامل ، فجعل العالم عياله وتخيّل ان آدم ابا البشر أوصاه بإعالتهم ففعل .

وقول أبي تمام يمدح اميراً أقام على بابه حاجباً يمنع الناس :

يا أيها الملك النائي برؤيته وجوده لمُراعي جوده كَثَب
ليس الحجاب بمقصٍ عنك لي املاً ان السماء تـُرجّى حين تحتجب

وقوله في الحاسد والمحسود :

واذا أراد الله نشرَ فضيلة طُويتْ ، اتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيبُ عَرف العود

ومثل ذلك في الحسن قول ابن الرومي :

كل امرىء مدح امرءاً لنواله واطال فيه فقد أساءَ هجاه
لو لم يقدّر ثـَمّ بعد المستقَى عند الورود لما اطال رِشاه

ومن لطيف المعاني قول ابن بقيّ الاندلسي :

بأبي غزالاً غازلتـْه مقلتي بين العُذَيب وبين شطـّي بارق
حتى اذا مالت به سِنة الكرى زحزحتـُه شيئاً وكان معانقي
ابعدته عن أضلـع تشتاقه كي لا ينام على وساد خافق

وأمثلة ذلك كثيرة في الشعر المولـّد . واذا تأملتها تجد أكثرها أو كلها من قبيل التفنن في المجاز والتشبيه ، ولعلّ للأخير النصيب الاوفر مما يدخل في باب المعاني . وقد خصه ابن رشيق بالذكر اذ قال : « ان المعاني انما اتسعت لاتساع الناس في الدنيا وانتشار العرب بالاسلام في أقطار

الارض ، فمصّروا الامصار وحضّروا الحواضر وتـأنقوا في الملابس والمطاعم ، وعرفوا بالعيان عاقبة ما دلتهم عليه بداهة العقول من فضل التشبيه وغيره . وانما خصصت التشبيه لأنه أصعب أنواع الشعر وأبعدها متماطى [1] » .

وقال في موضوع آخر يقابل المحدثين بالقدماء : « واذا تأملت ذلك تبيّن لك ما في اشعار جرير والفرزدق وأصحابهما من التوليدات والابداعات العجيبة ، ثم أتى بشار بن بُرد وأصحابه فزادوا معاني ما مرّت قط بخاطر جاهلي ولا مخضرم ولا اسلامي . والمعاني أبداً تتردّد وتتولد ، والكلام يفتح بعضه بعضاً » [2] . ولم يرد ابن رشيق بالمعنى الشعري غير ما ذكرنا من التصرف في وجو الصناعة المعنوية وأهمّها عنده التشبيه . والذي يطالع دواوين كبار الشعراء في العصر العباسي ، ويقابلها بما نُظم في العهد الاموي وما قبله ، يجد صحة ما ذهب اليه ابن رشيق وسواه من تفوّق المولـّدين في ذلك . ولا نظن الا ان هذه المعاني التخيلية أخذت تتضاءل بعد عصر الشعر الذهبي ، وقد ضعفت جداً بعد القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد وبقيت كذلك الى أواخر القرن التاسع عشر ، ثم أخذت بالانتعاش على يد شعراء القرن العشرين .

التوفر على البديع اللفظي

وما يقال عن رقة العبارة واختراع المعاني ، من حيث ان المولـّدين فاقوا بها الاقدمين ، يقال عن البديع اللفظي – فقد جعلوا الاخير فناً معروفاً وجروا فيه الى الغاية . وأنواع البديع كثيرة وقد أُلـّفت فيها كتب تدارسها الطلاب في كل جيل . وأول من صنّف فيها عبد الله بن المعتز الشاعر المشهور (في القرن الثالث الهجري) فجعل منها بضعة عشر نوعاً ، ثم قدامة بن جعفر فجمع منها نحو عشرين ، وجاء العسكري في القرن الرابع فجعلها

---

١ العمدة ٢ – ١٨٣ .

٢ العمدة ٢ – ١٨٥ .

خمسة وثلاثين . ثم أخذ البيانيّون والبديعيون يتفننون فيها حتى بلغت ما يزيد على المئة والخمسين . وأصبح للبديع في أواخر القرن العباسي سيطرة كبيرة لا على الشعر فقط بل على النثر ايضاً ، كما يتضح من الرسائل الديوانية والادبية في القرنين السادس والسابع .

على ان المولدين لم يبتكروا البديع ابتكاراً بل توسّعوا فيه حتى بزّوا سواهم : قال العسكري في كتاب الصناعتين ردّاً على الذين يعزون فضل ابتكاره للمحدثين (أي أدباء العصر العباسي) : « فهذه أنواع البديع التي ادّعى من لا رويّة ولا رواية عنده ان المحدثين ابتكروها وان القدماء لم يعرفوها ، وذلك لما أراد ان يفخّم أمر المحدثين ، لأن هذا النوع إذا سلم من التكلف وبرىء من العيوب كان في غاية الحسن ونهاية الجودة »[1] . والعسكري كما مر بنا من أهل القرن الرابع الهجري ، وكان الشائع في زمانه على ما يفهم من دفاعه ، ان ادباء العصر العباسي هم الذين ابتكروا أنواع البديع فنفى ذلك وقال بوجودها في الشعر القديم . وذلك معلوم ، ولكنه لا ينفي ان هذا الفن الكلامي لم ينظّم ولم ينضج إلا في العصر العباسي . ولا نعرف عصراً بلغ فيه ولوع المنشئين والشعراء بالبديع اللفظي كذلك العصر . فمنذ أيام مسلم وابي تمـــام إلى أيام ابن الفارض وصفي الدين الحلّي تجد ولع الناس بالبديع يزيد مع الاجيال . وبقي كذلك إلى أيام ابن معتوق ثم إلى مستهل النهضة الاخيرة ، ولم يقض عليه غير ما أصاب الادب في أواخر القرن التاسع عشر للميلاد وفي القرن العشرين من التطوّر اللفظي والخيالي .

ولا يتسع المقال لذكر كل أنواع البديع اللفظي والتمثيل عليها ، بيد انه لا بدّ من القول ان الطباق والجناس هما الركنان الاساسيان وعليهما يحوم أكثر الشعراء ، ويليهما رد العجز على الصدر ، والعكس ، والترصيع فسائر الانواع .

---

١ الصناعتين ٢٠٤ .

وقد تناول ابن رشيق أمر المقابلة بين القدماء والمحدثين فقال : « ان المحدثين أكثر ابتداعاً لأن الملك الاسلامي عظم في أيامهم » . وأكثر النقّاد يقولون ذلك ، ويعنون به ان اتساع الحضارة فتح للشعراء أبواباً جديدة للمعاني ، كأوصاف الخمر والنساء والغلمان والغناء وسائر أسباب اللهو والقصف ، وان ذلك انشأ في نفوس البعض شعوراً معاكساً مال بهم إلى الزهد والتصوف وانكار الملذات — وفي ذلك ما فيه .

على اننا عند التحقيق نجد ان هذا التجدد في المعاني انحصر بالاكثر في مجاري البديع لم يتعدّها إلى الفنون الخيالية العليا المبنيّة على معرفة أوسع في الكون والانسان ، وعلى نظرات أدق في الطبيعة والعمران . ولم تكن الاشعار الروحية والادبية عموماً تأملات فلسفية في الحياة ، بل خطرات تأتي في سياق وعظ أو انتقاد ، أو لغير ذلك من المناسبات .

التوسع في المصطلحات اللفظية

وهذا باب واسع يعسر الخوض فيه هنا ، وهو بمباحث تاريخ اللغة وتطورها أولى . على ان الناظر في تطور الشعر المولّد لا يسعه إلاّ أن يقف قليلاً عند هذه الظاهرة الادبية العامة ، وهي تمثّل أمرين : ١ — اختلاط العرب بالأعاجم . ٢ — الميل إلى التحرر من بعض القيود اللغوية . أما الاول فقد مرّ معنا في الكلام عن تطور الحياة الاجتماعية ، فلا لزوم لاعادته . ويكفي هنا أن نقول ان هذا الاختلاط كان له أثره في الالفاظ الشعرية : قال الجرجاني في الوساطة ، « ان المحدثين قد اتسعوا فيه حتى جاوزوا الحد لما احتاجوا إلى الإفهام ، وكانت تلك الالفاظ أغلب على أهل زمانهم وأقرب من أفهام من يقصدون ، وقد أفرط ابو نواس حتى استعمل زنمرده — ويازبنده — وباريكنده الخ[١] » .

ومن ذلك لابن الرومي شير وهي الاسد في الفارسية — زرياب أي ماء الذهب — الدوشاب وهو النبيذ الاسود — الكوش أي الأذن . وللمعري

١ الوساطة (تصيحح أحمد الزين) ٣٥١ و ٣٥٢ .

فرزان وفرازين وبياذق من أسماء الشطرنج – والزيج والاسطرلاب من أدوات الفلك وبعض الفاظ عامية مثل آرا بمعنى نعم وأمثالها .

وقد كان القدماء يستعملون الفاظ العجم عند الحاجة ولكنهم لم يبلغوا من ذلك ما بلغه المولدون [1] . وعن الجاحظ : « كان الشاعر يتملّح بها على عادة بعض الشعراء في ذلك الزمان [2] » .

* * *

وأما الخروج عن نصوص اللغة فمما يلفت النظر وقد اشتهر بذلك بعضهم كالمتنبي وابن الرومي فمن كلام الاول قوله :

ادلت له بدل ادلته من

اخاطره في روحي بدل اراهنه

فريص جمع فرائص

يتفارَسن أي كل يطلب افتراس الآخر

فرد رجل أي رجل واحدة

الحَدور والجلوب والتروك وما يشاكل هذه الصيغ

العلم المبرّح (ولعلّه أول من وصف العلم بالتبريح)

النُطق أي اللسن

وعشرات مثلها تجدها في تضاعيف ديوانه [3] .

ومن أمثلة الثاني :

مفاتش – يزندقون – الاشربات – الأذهاب – هجيج – نهارك انهر – الايام الاطاول – الملاجم – اللعباء جمع لاعب ، وكثير غيرها .

وليست هذه الظاهرة شاملة ولكنها تكاد تكون عامة في العصر العباسي ،

---

١ المصدر السابق .

٢ البيان والتبيين (س) ١ – ١٣١ .

٣ راجع ما أنكره العلماء من شعره في كتاب الوساطة للجرجاني ٣٢٩ – ٣٦١ .

ولها أسباب لا تدخل في بحثنا الآن . ويدخل فيها المصطلحات والمسمّيات الجديدة التي نشأت بتقدم الحضارة . ولا شك ان هذا التجدد اللفظي بدأ في اللغة منذ أقدم عهودها وجرى فيها مع الزمن ، حتى كانت النهضة العلمية الاجتماعية في العصر العباسي ، فظهر فيها بمظهر كبير ، كما ظهر في نهضتنا العلمية الحديثة . ومع تحرّج الشعر في المحافظة على الاوضاع اللغوية الصرفية لم يستطع التخلص من تأثير الاوضاع الاجنبية ، كما تشهد بذلك النصوص الشعرية في كل زمان .

امراء الشعر المولد

ابو نواس – ابو العتاهية – ابو تمام – البحتري – ابن الرومي – المتنبي – المعري – ابن الفارض

•

يختلف الباحثون في من المقدَّمُ من شعراء العصر العباسي . ولا سبيل الآن إلى البحث في اختلافاتهم والنظر في أسبابها فلكلٍّ نظره الخاص ، ولكل آراء يدعمها بحجج مقبولة . على اننا قد اخترنا منهم لدراستنا التحليلية هؤلاء الثمانية ، وهم بلا جدال من الطبقة الاولى بين المولّدين .

وقد كان معوّلنا في اختيارهم شهرتهم ، وانهم أعمق أثراً من سواهم في تاريخ الشعر العبّاسي . ولا نقصد بذلك انه لا يوجد بين سائر الشعراء من يرتفع إلى درجتهم أو يفوقهم في بعض المناحي كأبي فراس مثلاً أو الشريف الرضي ، بل انهم يمثلون العصر العباسي أفضل تمثيل ، وفي درسهم درسٌ لذلك العصر والروح الشعرية العامّة فيه .

ابو نواس

الحسن بن هاني

ولد بين (١٤١ و ١٤٥) هـ – وتوفي بين (١٩٦ و ٢٠٠ هـ)
حوالى (٧٦٠ – ٨١٦) م

●

مصادر دراسته – بيئته – ميله الشعوبي – مقامه الادبي – شخصيته الشعرية

مصادر دراسته

١ – ابن قتيبة توفي سنة ٢٧٦ هـ (٨٩٠ م) الشعر والشعراء ، المطبعة العمومية ، مصر ١٨٩٨ ليدن ١٩٠٢

٢ – ابن المعتز توفي ٢٩٦ هـ (٩١٠ م) طبقات الشعراء ، نشره عباس اقبال ، ١٩٣٩ ص ٨٧ – ٩٩

٣ – الطبري توفي سنة ٣١٠ هـ (٩٢٢ م) تاريخ الرسل والملوك ، ليدن ١٨٧٩ – ١٩٠١

٤ – الاصفهاني توفي سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م) الاغاني ، بولاق ج ١٨ ، ومتفرقات في ج ٦ و ١٦

٥ – الجرجاني توفي سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) الوساطة ، صيدا ١٢٣١

٦ – المرزباني توفي سنة ٣٨٤ هـ (٩٩٤ م) الموشح ، مصر ، ١٣٤٣ ، من ص ٢٤٢

٧ – ابن النديم توفي سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م) الفهرست ، ليبسك ص ١٦٠

٨ – ابن شرف القيرواني توفي سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٩ م) اعلام الكلام ، ص ٢٢ – ٢٣

٩ – الخطيب البغدادي توفي سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) تاريخ بغداد مج ٧ ، من ص ٤٣٦

١٠ – ابن عساكر ٥٧١ هـ (١١٧٦ م) تهذيب التاريخ الكبير مطبعة روضة

الشام ١٣٣٢ ، ج ٤ ص ٢٥٤ – ٢٧٩

١١ – الانباري توفي سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) طبقات الادباء من ص ٩٦

١٢ – ابن خلكان توفي سنة ٦٨١ هـ (١٢٨١ م) وفيات الاعيان (ميري) ج ١ ص ١٨٩ – ١٩٢

١٣ – ابن منظور توفي سنة ٧١١ هـ (١٣١١ م) اخبار ابي نواس (مصر ١٩٢٤ –)

١٤ – النويري توفي سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٣ م) نهاية الارب (دار الكتب المصرية ١٩٢٥) ٤ – ص ١١٩ – ١٢٣

١٥ – طاش كوبري زاده توفي سنة ٩٦٨ هـ (١٥٦١ م) مفتاح السعادة (حيدر آباد)

١٦ – البغدادي توفي سنة ١٠٩٣ هـ (١٦٨٢ م) خزانة الادب (بولاق) ١ – ١٦٨ .

وفي مواضع شتى من الكامل للمبرّد ، والعمدة لابن رشيق ، والفخري لابن الطِقطَقى ، وزهر الآداب للحصري ، ومختصر مقدمة الشعر لابن منقذ ، ومعاهد التنصيص للعبّاسي (تجد زبدة الاخيرين في ذيل ديوان مسلم للمستشرق دي غويه Goeji) .

وقد ترجم له مؤرخو الآداب المتأخرون كالبستاني في دائرة المعارف ، وزيدان في آداب اللغة ، وسواهما .

وممن تناوله في دراسات نقدية طه حسين في حديث الاربعاء ، وعباس مصطفى عمار في كتابه (ابو نواس حياته وشعره) وعمر فروخ في كتابه (ابو نواس) .

بيئته وعناصر شخصيته

ولد شاعرنا في خوزستان من بلاد العجم ، وانتقل به ذوو أمره وهو طفل إلى البصرة فنشأ فيها . ويظهر ان اباه مات وتركه صغيراً في كفالة أمه ، فسلمته إلى عطّار ليتعلم عنده مهنة العطارة . ولا نعرف شيئاً كثيراً عن عهده « العطّاري » ، فان التاريخ يتخطى ذلك سريعاً ويبرزه لنا في صحبة الشاعر والبة بن الحباب . ثم لا نلبث أن نراه حوالى الثلاثين من عمره ، وقد استقرّ في بغداد ومدح الرشيد واتصل ببلاطه . ويقول ابن رشيق انه كان نديم الامين طول خلافته[1] . أما كتاب الفخري فينقل لنا انه كان من شعراء الفضل بن الربيع المنقطعين اليه[2] . وليس من تناقض بين القولين : فان الفضل كان حاجب الرشيد ومن رجال دولته والوزير المقرب في دولة الامين ، فقد يكون اتصل به أولاً ثم نادم الامين ومدحه . وتوفّي في الفتنة قبل قدوم المأمون من خراسان .

نشأ ابو نواس في العصر الذهبي للخلافة العباسية — عصر القوة والرخاء . وقد رأينا في كلامنا عن تطور الحياة الاجتماعية كيف كانت بغداد في ذلك العصر ، من حيث غناها وعمرانها وبذخ المترفين فيها . ومن يطالع أخبار الامراء والوزراء ومن اليهم من أرباب الغنى ، وكيف كانوا يتمتعون بأسباب الحضارة من عبيد وجوار وقصور ، ويسترسلون في

---

١ العمدة ج ١ ص ٢٢ .

٢ الفخري (مصر ١٣١٧) ١٩٢ .

سبل اللهو من شرب وغناء ورقص ، يعرف شيئاً عن الجو الذي وجد فيه شاعرنا والذي أثر في اخلاقه ايّما تأثير .

طُبع ابو نواس على الظّرف والمجون ، وأوقعته الاقدار في صحبة ابن الحباب ، فأخذ عنه مذهبه في الشعر والحياة . وكان الشعر آنئذ في أيدي عصبة من أهـــل الاسراف والخلاعة ، نذكر منهم مطيع بن إياس – حمّاد عجرد – مسلم بن الوليد – داود بن رزين – الواسطي – الحسين ابن الضحاك – الفضل الرقاشي – عمر الورّاق – الحسين الخياط – علي ابن الخليل – اسماعيل القراطيسي وأمثالهم . وفي القراطيسي يقول الاصفهاني : « كان مألفاً للشعراء فكان ابو نواس وابو العتاهية (طبعاً قبل تزهده) ومسلم وطبقتهم يجتمعون عنده ويقصفون ويدعو لهم القيان وغيرهن من الغلمان [1] » .

في عصبة كهذه العصبة وقع شاعرنا . وليس شعره لدى التحقيق إلا مرآة لحياته وأحوال معاصريه . ولقد بلغ من التمادي في عبثه وتهتكه ان صار مثلاً في ذلك .

روى الحُصري « انه لما خلع المأمون أخاه الأمين ووجّه بطاهر بن الحسين لمحاربته كان يعمل كتباً بعيوب أخيه تقرأ على المنابر بخراسان . فكان مما عابه به ان قال انه استخلص رجلاً شاعراً ماجناً كافراً يقال له الحسن بن هاني ، استخلصه ليشرب معه الخمر ويرتكب المآثم ويهتك المحارم » ، ثم يقول : « ويقوم بين يديه رجل فينشد اشعار ابي نواس في المجون [2] » . واننا لنظلم أبا نواس إذا حصرنا حياته وأدبه في هذه الدائرة التي وضعته فيها كتب المأمون . فقد كان غير ذلك (كما سنذكر في كلامنا عن مقدرته اللغوية) ولكن المجون غلب عليه ، وصرف في سبيله مواهبه .

---

١ الاغاني ج ٢٠ ص ٨٨ .

٢ زهر الآداب (شرح زكي مبارك) ج ٢ – ١١١ .

قال ابو عبد الله الجمّاز يصف ابا نواس[1] :

« كان أظرف الناس منطقاً ، وأغزرهم أدباً وأقدرهم على الكلام ، وأسرعهم جواباً ، وأكثرهم حياءً » . وبعد أن يصف شكله ولونه يقول :

« كان فصيح اللسان ، جيد البيان ، عذب الالفاظ ، حلو الشمائل ، كثير النوادر ، وأعلم الناس كيف تكلمت العرب ، راوية للاشعار علّامة بالاخبار ، كأن كلامه شعر موزون » .

كان الرجل واسع المعرفة – متصلاً بحياة عصره السياسية والفكرية ولكن انصرافه إلى الخمر واسترساله في الموبقات حالا دون أن يترك لنا أثراً أدبياً كبيراً في غير سخائف الحياة .

ميله في أدبه إلى الشعوبية

قد تعجب من هذا الزعم بعد ان عرفت انه كان يلازم الفضل بن الربيع والأمين بن الرشيد ، وهما معقد العصبية العربية في ذلك الوقت . ولكن لا عجب فأبو نواس كما مر معنا من أم فارسية ، وقد ولد في بلاد فارس ، ونشأ لا تُعرف له عصبية واضحة في العرب . وهم ينسبونه إلى قبيلة حَكَم اليمنية فيقولون الحكمي ، ولكن ابن منظور صاحب أخباره يقول : « كان ابو نواس دعيّاً يخلط في دعوته[2] » اي انه لم يكن ثابت الانتساب إلى أصل من الاصول ، فهو تارة يدّعي النسب اليماني ، كقوله في حديث له مع الخمّار :

فلما ان رأى زقّـي أمامي   تكلم غير مذعور اللسان

وقال أمن تميمٍ ؟ قلت كلاّ   ولكني من الحيّ اليماني

وتارة يهجو اليمنية كقوله في هجاء هاشم بن حُديج وهو كِندي من

---

١ زهر الآداب ١ – ٢٠٤ .

٢ أخبار ابي نواس ١٦ .

صميم اليمن :

يا هاشم بن حُدَيج لو عددتَ أباً مثل القلمّس لم يعلق بك الدنس

والقلمّس أحد رؤساء كنانة ، وهي من غير اليمن كما هو معروف . وفي هذه القصيدة يعدد كرماء نزار الذين يفتخر بهم ، ويستغرب ذلك ممن له عصبية شديدة في اليمن . ونقل ابن منظور « انه كان يتنزّر ويدّعي للفرزدق ، ثم انقلب على النزارية وادعى انه من « حاء وحكم » فزجره يزيد بن منصور الحميري خال المهدي وقال له : « انت خوزي (أي من خوزستان) فما لك ولحاء وحكم » ، فقال : « انا مولى » فتركوه . وقال بعضهم لبعض انه ظريف اللسان غزير العلوم ، فدعوه ، وبهذا الولاء يتعصب لنا ويكايد عنا ويهجو النزارية » فكان كما قالوا . وكان يكنى أولاً بأبي فراس فعدل عن ذلك واكتنى بـأبي نواس تشبّهاً بكنية ذي نواس ، كما كانت اليمن تكني وقيل غير ذلك[1] . ويذكر في محل آخر انه كان في دعاويه يتماجن ويعبث ويخفي اسمه واسم أمه لئلا يهجى ، وذلك مشهور عنه . والمذكور من أمره انه كان مولى الحكميين يفتخر باليمن ويمدحهم لذلك ، ويمدح العجم ويذكرهم لأنه منهم[2] .

فما ذكر آنفاً نستدل ان أبا نواس كان من أصل وضيع وانه كان ينتسب إلى الحكميّين بالولاء . والأمر الراهن انه فارسي يـأخذ إخذ الشعوبية في الاستخفاف بالحياة العربية . ويزيدنا ثقة بذلك انه كان يأخذ العلم عن أبي عبيدة ويمدحه ويذم الاصمعي[3] . وإلى ذلـك ذهب ابن رشيق إذ يقول : « وكان شعوبي اللسان وما أدري ما وراء ذلك ، وإن في اللسان وكثرة ولوعه بالشيء لشاهداً عدلاً لا تردّ شهادته[4] » . ويروي له

---

١ أخبار ابي نواس لابن منظور ٣٧ وخزانة الادب ١ – ١٦٨ .

٢ أخبار ابي نواس لابن منظور ٤٧ . وقد عده الجاحظ (في كتاب الموالي) من الموالي – راجع العقد ٣ – ٢٦٩ .

٣ مفتاح السعادة ١ – ٩٣ .

٤ العمدة ج ١ – ١٥٥ .

ابن عبد ربه أبياتاً ويقول انه قالها على مذهب الشعوبية[١] . ونقل الطبري ان الرشيد حبسه لهجائه قريش[٢] . وانك لتلمس في شعره استهزاءه بالعرب كقوله :

عاج الشقيّ على رسمٍ يسائله — وبتّ اسأل عن خمّارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسدٍ — لا درّ درّك قلْ لي مَن بنو اسد
ومَن تميم ومن قيس ولفّهما — ليس الأعاريب عند الله من احد

سخرية أليمة تظهر فيها شعوبيته الشعرية . وهو يكثر من هجائه الاعراب والاعرابيات ، ولا سيما إذا قابل حالهم بحضارة الفرس الغابرة كقوله :

دع الرسم الذي دثرا — يقاسي الريح والمطرا
وكن رجلاً أضاع العلم — في اللذات والخطرا
ألم ترَ ما بنى كسرى — وسابورُ لمن غبرا
منازهَ بين دجلة (م) والفرات أخصها الشجرا
لأرضٍ باعد الرحمن — عنها الطلح والعُشرا[٣]
ولم يجعل مصايدها — يرابيعاً ولا وَحَرا[٤]
ولكنْ حُور غزلانٍ — تراعي بالفلا بقرا
فذاك العيش لا سِيْدٌ — بقفرتها ولا وبرا[٥]
إذا ما كنتَ بالاشياء — في الاعراب معتبرا
فانك ايّما رجلٍ — وردتَ فلم تجد صدَرا

ويأخذ من هنا بذمّ أهل البادية رجالاً ونساءً . وشعره يعجّ بما يدل على شغفه بتاريخ الفرس وأناقة الحضر ، ونفوره من الحياة البدوية التي

---

١ راجع العقد ٢ — ٨٧ .
٢ الطبري (ليدن) جم ٣ — ٩٥٩ .
٣ من أشجار القفر .
٤ الوحر من العظاء (كالحراذين وسام ابرص) .
٥ السيد : الذئب ، والوبر : حيوان اصغر من السنور .

كان يتغنّى بها الاقدمون . ومن ذلك أيضاً قوله :

دع المعلّى يبكي على طَـلَـلَهْ وخلِّ عَوفاً يقول في جَمَله
وقل لكلثوم[1] المفضّل بالشعر يطيل الإعراض عن حِلله
واغدُ على اللهو غير متـّئدٍ عنه فهذا أوانُ مقتبَله
أما ترى جِـدّة الزمان وما ابدع فيها الربيع من عمله
وافى وجوه الزمان غـادية عند اقتراب الشتاء من أجله
فاشرب على جدّة الزمان فقد وافى بطيب الهوى ومُعتدله
من قهوةٍ تُذكِر السرورَ وتُنسي الهمّ عند اعتراض مشتكله

وقوله :

لقد جُنّ من يبكي على رسم منزل ويندب أطلالاً عفونَ بمحولِ
فان قيل ما يبكيكَ قال حمامة تنوح على فرخٍ باصوات مُعولِ
تذكـّرني حيـّـا حِلالاً بقفرةٍ وآخيةً شُجّت بِفهر وجَندل[2]

ومما يشعر بميـله إلى الفرس وانحرافه عن مذاهب العرب قوله من قصيدة :

دع الاطلال تسفيها الجَنوبُ وتبكي عهد جدّتها الخطوبُ
وخلّ لراكب الوجناء ارضاً تُحثّ بها النجيبة والنجيب
ولا تأخذ عن الأعراب لهواً ولا عيشاً فعيشهمُ جـديب

ثم يصف خشونة عيشهم ويقابل ذلك بصفاء العيش في الحضارة والتمتع بالخمر ، إلى أن يقول :

فهذا العيش لا عيش البوادي وهذا العيش لا اللبن الحليب

---

١ هو العتابي الشاعر المشهور .

٢ آخية أي عود دقيق يوضع بين حجارة الحائط لتشد اليه الدابة ، والفهر الحجر ، وكذلك الجندل .

فأين البدو من إيوان كسرى وأين من الميـادين الزروب

* * *

كان النضال في عصره مستحرّاً بين المحافظين والمجددين – بين الذين يرون التمسك بمقاييس الشعر القديمة ، وبين الذين يرومون استبدالها بمقاييس أخرى ، فوقف إلى جانب هؤلاء . على انه لم يفعل ذلك في كل شعره ، وسنرى انه تابع المحافظين حيناً وجرى معهم بعض الاحيان في سبلهم المعهودة .

قلنا إن أبا نواس كان يأخذ في شعره إخذ الشعوبية . وعلى ذكر الشعوبية نقول انها حركة قام بها في صدر الدولة العباسية جماعة من المنتمين إلى أصل فارسي ، وغايتهم تعظيم الفرس وحضارتهم ومقاومة ما كان قد نشأ في نفوس العرب (ولا سيما أيام الأمويين) من روح التفوق والاستئثار بالمجد . وقد قام من الفريقين جماعة يناضلون عن مذهبهم ويرمون خصومهم بأليم سهامهم . نذكر من الفريق العربي ابن قتيبة والجاحظ وابن دريد ، ومن الفريق الشعوبي ابا عبيدة وسهل بن هرون والبيروني وحمزة الاصفهاني ، ولقد كان لهذه الحركة السياسية الاجتماعية تأثير ملموس في الأدب ، وقد اشرنا إلى تأثيرها في أبي نواس .

مقامه الأدبي واسلوبه الشعري

ذكرنا سابقاً انه كان واسع المعرفة متّصلاً بحياة عصره الفكرية . وفي شعره ما يُشعر باطلاعه على آراء الفلاسفة والمتكلمين . على ان أهمّ ما يذكر له هنا تبحّره في العلوم اللغوية والاسلامية ، حتى قال الجاحظ : « ما رأيت رجلاً أعلم باللغة من أبي نواس وأفصح لهجة مــع مجانبة الاستكراه »[١] . وقال بعض الرواة : « كان أقل ما في أبي نواس قول الشعر وكان فحلاً راوية عالماً »[٢] . وقال عن نفسه : « ما قلت الشعر

---

١ أخبار ابي نواس لابن منظور ٦ .

٢ أخبار ابي نواس لابن منظور ٥٣ .

حتى رويت لستين امرأةً من العرب غير الخنساء ، فما ظنك بالرجال ؟ واني لأروي مئة ارجوزة لا تعرف[1] » .

ولقد تزول دهشتنا واستنكارنا ذلك إذا عرفنا ان أساتذته كانوا من مشاهير العلماء والمحدّثين . منهم ابو زيد الانصاري وابو عبيدة ابن المثنّى وعبد الواحد بن زياد وازهر السمّان ويحيى القطّان . ومنهم خلف الأحمر الذي لزمه مدة غير يسيرة[2] . ولم يكتف بذلك بل قصد بادية بني أسد وأخذ اللغة عن أعرابها[3] وقد روى عنه جماعة من أدباء ذلك العصر وعلمائه .

أما النظم فيشهد بعلو كعبه فيه كبار أهل العربية . حدّث الآمدي عن المبرّد قال : « ما تعاطى الشعر أحد من المحدثين أحذق من ابي نواس » . وحكى ابن الجراح عن ابن عكرمة عامر الضبّي عن ابن السكّيت ان ابا عمر الشيباني قال : « لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الارفاث لاحتججت بشعره لأنه كان يُحكم القول ولا يخلطه[4] » . ولابن الاعرابي وابي عبيدة وابن خالويه شهادة كهذه الشهادة[5] . وإذا علمت ان الرواة وعلماء اللغة لم يكونوا يحتجون بما بعد العصر الاموي علمت منزلة شاعرنا في نفوسهم .

وقد نُقل عن العتابي قوله : « والله لو أدرك هذا الخبيث الجاهلية لما فضلت عليه أحداً[6] » . ولكي تعرف شيئاً عن نفسية اللغويين في ذلك العصر ونظرهم إلى المحدثين ننقل لك عن الحصري القصة التالية[7] :

---

١ أخبار ابي نواس لابن منظور ٥٤ .
٢ ابن منظور ٢٣ و ٢٧ .
٣ ابن منظور ١٢ .
٤ ابن منظور ص ٢ و ٥٨ .
٥ راجع هذه الشهادات أيضاً لحمزة الاصفهاني في مقدمة ديوان ابي فراس (مصر) .
٦ ابن منظور ٥٧ .
٧ زهر الآداب ١ — ٢١٨ .

كان ابو عبد الله بن زياد الاعرابي يطعن على ابي نواس ويعيب شعره ويضعّفه ويستلينه . فجمعه مع بعض رواة شعر أبي نواس مجلس، والشيخ لا يعرفه . فقال له صاحب ابي نواس : أتعرف أعزّك الله أحسن من هذا ، وأنشده شعراً ، فقال : لا والله . فلمن هو ؟ قـال : للذي يقول :

رسمُ الكرى بين الجفون محيلُ عفّى عليه بكاً عليك طويل
يا ناظراً مـا اقلعت نظراته حتى تشحّط بينهنّ قتيل

فطرب الشيخ وقال له : ويحك لمن هذا ؟ فوالله مـا سمعت أجود منه لقديم ولا لمحدث ؟ فقال : لا أخبرك أو تكتبه ، فكتبه . فقال : للذي يقول :

ركبٌ تساقَوا على الاكوار بينهم كأس الكرى فانتشى المسقيّ والساقي
ساروا فلم يقطعوا عقداً لراحلةٍ حتى اناخوا اليكم قبل اشراق
من كل جـائلة الطرفين ناجيةٍ مشتاقة حملت اوصال مشتـاق

فقال : لمن هذا ، وكتبه . فقال : للذي تذمّه وتعيب شعره أبي علي الحكمي . فقال الشيخ : اكتم عليّ ، فوالله لا أعود لذلك أبداً .

وهذه القصة إذا صحت تدل على تعصب « الأعرابيين » (أي الميالين إلى شعر الاعراب) على المحدثين كأبي نواس واضرابه .

وكان اسحق بن ابراهيم الموصلي يتعصّب على ابي نواس ويقول : « هو يخطىء » وكان اسحق في كل أحواله ينصر الاوائل ، فكنت أنشده جيّد أقوال ابي نواس ، فلم يحفل به ، لما في نفسه . فأنشدته :

وخيمة ناطور برأس منيفةٍ تهمّ يدا من رامها بزليلِ

فكان على أمره . فقلت : والله لو كانت لبعض أعراب هُذَيل لجعلتها أفضل شيء سمعته قط[1] .

---

[1] الموشح ٢٦٣ .

والغريب ان ما أصاب ابا نواس من تعصّب اسحق أصاب اسحق نفسه من تعصب أهل اللغة [1] . وهذا التعصب تجده في كل عصر وفي كل جيل .

فمن كل ما ذكر يؤخذ ان أبا نواس كان من كبار أهل اللغة وما منعهم من الاحتجاج بقوله الا إرفائه وانه من المحدثين . وقد وصف اسلوبه الفني بالسلاسة وبعده عن التكلف . قال محمد بن داود الجراح : « كان ابو نواس أجود الناس بديهة وارقـّهم حاشية ، لسِناً بالشعر يقوله في كل حال ، والرديء من شعره ما حفظ عنه في سكره [2] » . ومثل ذلك قول ابن رشيق : « لم يكن يؤثر التصنع ولا يراه فضيلة لما فيه من الكلفة ، وإنما يجيء بالشعر على سجيته [3] » . وقد انحى ابن عبد ربه على المبرّد باللائمة لسوء ما اختاره من شعر ابي نواس ، وقال : « قلما يأتي له بيت ضعيف لرقة فطنته ، وسبوطة بنيته ، وعذوبة الفاظه . وكل أشعاره الخمريات بديعة لا نظير لها » . ونقل ما ذكره الجاحظ في كتاب الموالي من ان أبا نواس أقدر الناس على الشّعر واطبعهم فيه [4] . على ان ابن شرف القيرواني يخالف من تقدم ويصف شعر ابي نواس بالضعف وانه نافـقٌ عند العوام كاسد عند النقاد [5] .

ومع ما في أقوال هؤلاء العلماء مما يهمنا في درس شاعرنا لا نستطيع أن نعتمد عليها كل الاعتماد ، لأنهم كثيراً ما يكيلون الكلام جزافاً ، وكثيراً ما يدفعهم إلى القول نكتة في شعر أو جمال وصف في عبارة . ولسنا نرى آراءهم – على صحة الكثير منها – مستندة إلى دراسة نقدية يصح قبولها . فلا بدّ إذن من الرجوع إلى ديوان الشاعر والتحقيق فيه . وقد

---

١ راجع حديثه مع الاصمعي في ابن عساكر ٢ – ٤٢٤ .
٢ عن حمزة الاصفهاني مقدمة الديوان (مصر ١٨٩٨) .
٣ العمدة ١ – ٢٠٠ .
٤ راجع تفصيل ذلك في العقد ٣ – ٢٦٨ و ٢٦٩ .
٥ راجع تفصيل ذلك في اعلام الكلام (مصر ١٩٢٦) ٢٢ .

ظهر لنـــا منه ان ابا نواس يقف في شعره موقفين متناقضين : موقف المقلّد وموقف المجدّد . ففي فئة من قصائده يسير على سنن القدماء، حتى كأنه أحدهم . وفي فئة أخرى ينزع إلى التجدد ، فينكر الاساليب القديمة ، ويذمّها ويحاول القضاء عليها . ولنتقدم إلى تأييد ذلك بأدلة من ديوانه :

الموقف الأول

وفيه (كما ترى في أكثر شعره المدحي والرثائي) يتكلف الاسلوب الأعرابي ، فيقف في مدحه على الطلول ، ويركب النياق ، ويقطـــع الهواجل ، ويأتي بمتوعّر الالفاظ ، مما يدل على سعة معرفته بأوابد اللغة وانه متأثر من محفوظاته الواسعة . وربما كان موقفه هذا هو الذي حمل الشيباني وسواه من علماء اللغة على التنويه بقدرته اللغوية واحلاله المحل الرفيع بين أربابها . قال من قصيدة يمدح بها الرشيد :

يا حبّذا سفوانُ من متربّع ... ولربمـا جمَع الهوى سفوانُ
وإذا مررت على الديار مسلـّماً ... فلغير دار أُميمة الهجران
انـّا نسبنا والمناسب ظنّة ... حتى رُميتِ بنا وانتِ حَصان[1]
لما نزعتُ عن الغواية والصبا ... وخدتْ بي الشّدنيّة المذعان[2]
سبطٌ مشافرها دقيق خطمها ... وكأنـ سائر خلقها بنيان
واحتازها لون جرى في جلدها ... يققٌ كقرطاس الوليد هجان

ثمّ يصل على هذه الناقة إلى الممدوح ويعدد فضائله .

وله من قصيدة في مدح الأمين :

أقول والعيس تعرَوري الفلاة بنا ... صُعر الأعنّة من مثنى ووحدان

---

١ نسبنا أي تغزلنا في الشعر .

٢ الشدنية المذعان أي الناقة السلسة الرأس .

لذات لَوثٍ عفرناةٍ عذافرة   كأن تضبيرها تضبير بنيان [1]
يا ناق لا تسألي أو تبلغي ملكاً   تقبيل راحته والركن سيّان

وقال يمدح العباس بن عبد الله بن ابي جعفر المنصور من قصيدة مطلعها : « ايها المنتاب من عُفُره » :

ذا ومغبرٌ مخارمهُ   تحسرُ الابصار عن قُطُره [2]
لا ترى عين البصير به   ما خلا الآجال من بقره
خاض بي لُجَّيْهِ ذو جَرَزٍ   يُفعم الفضلين من ضُفُره [3]
يكتسي عثنونه زبداً   فنصيلاه إلى نحَره [4]
ثم يعتمّ الحَجاج به   كاعتمام الفوف في عُشُره [5]
كل حاجاتي تناولها   وهو لم تنقص قوى أشره
ثم ادناني إلى ملك   يأمن الجاني لدى حُجُره

ومثل ذلك ارجوزته في الفضل بن الربيع وأولها « وبلدة فيها زَوَر » وهي طويلة يصف ركوبه ورحيله إلى الممدوح في عدة أبيات منها :

عسفتها على خطر   وغررٍ من الغَرر
ببازلٍ حين فَطَر   يهزّه جنّ الأشَر [6]
لا متشكٍّ من سَدَر   ولا قريب من خور [7]
كأنه بعد الضّمر   وبعدما جال الضّفر

---

١ ذات لوث أي ذات شدة . عفرناة شديدة كالاسد . تضبيرها أي اكتناز اللحم فيها .
٢ يصف اتساع الصحراء ويريد بمغبر المخارم أي قفر كالح الطرق تكل الابصار دونه .
٣ و ٤ ذو جرز أي جمل مكتنز اللحم شديد . الضفر جمع ضفار وهو حزام الرحل . العثنون: الذقن . النصيل ، الحنك .
٥ الحجاج، ما حول العين . والفوف القشر . والعشر شجر . ومعنى الابيات: قطعت إلى الممدوح صحراء واسعة لا يسكنها غير البقر الوحشي وكنت ممتطياً جملاً لقي من المشاق والحر ما لقي وهو مع ذلك لم يزل في نشاطه حتى بلغت به إلى ملك ... الخ .
٦ البازل الجمل الذي طلع نابه . جن الاشر عنفوان البطر .
٧ السدر تحير النظر من شدة الحر . والخور الضعف .

وانمجّ فيّ فحسر[1] جأب رباع المشّغر[2]

وكلها على هذا المنوال .

فأنت ترى في كل هذه القصائد محاكاته للشعراء الاعراب من وصف ناقة أو فرس يركبها توصلاً إلى أميره . وربما كان يقصد ذلك أحياناً تعزيزاً لمركزه الأدبي بين أدباء ذلك العصر . قال ابن رشيق بعد ان ذكر ان المولّد كان يتكلّف ذلك ليجري على سنن الاقدمين : « وقد صنع ابن المعتز وابو نواس قبله ، ومرت معهما في تلك الطرايق ما هو مشهور في اشعارهم[3] » .

ويظهر ذلك في رثائه لاستاذه خلف الاحمر ، ولراويته ابي البيداء الرباحي . فمن رثائه للأول :

لا تئل العصمُ في الهضاب ولا شغواء تغذو فرخين في لجفِ[4]
تحنو بجؤشوشها عـــلى ضرم كقعدة المنحني من الخرف[5]
ولا شَبوب باتت تؤرّقـــه النثرة منهـــا بوابل قصف[6]
غدا كوقف الهلوك ، ينهفت القطقط عن منبتيه والكتف[7]

وفي مرثاته لأبي البيداء يقول :

هل مخطىءٌ حتفه عفر بشاهقةٍ رعى باخيافها شثّاً وطبّاقا[8]
أو لقوة أمُّ انهيمين في لجف شبيهتيها شفا خطمٍ وآماقا[9]
أو ذو شياهٍ اغنّ الصوت ارّقه وبلٌ سرى ماخض الودقين غيداقا
أو ذو نحائض اشباه اذا نسقت مناسجاً وثنت ملطاً واطباقا

---

١ أي جرى فأعيا .

٢ حمار وحش فتي .

٣ العمدة ٢ — ٢٢٧ .

٤ — ٧ الشغواء العقاب . الجؤشوش الصدر . الضرم فرخ العقاب . الشبوب الثور . النثرة اسم لثلاثة كواكب . القطقط المطر . وقف الهلوك أي أسوار الغانية شبه به لملاسته .

٨ عفر أي وعل . والشث والطباق نباتان .

٩ لقوة عقاب . ام نهيمين أم فرخين . اللجف سرة الوادي . وما يلي وصف لبعض حيوانات القفر .

شتَون حتى إذا ما صِفن ذكـّرها من منهل مورداً فاشتقن واشتاقا
يؤمّ عيناً بها زرقـــاء طامية يرى عليها لجين الماء اطراقا[1]
زار الحِمام ابا البيداء مخترماً ولم يغادر له في الناس مطراقا[2]

إلى آخر هذه الابيات وهذا الكلام الاعرابي القحّ . تأمل ذكره في الرثاء للعفر ترعى الشثّ والطباق ، واللقوة أمّ الانهيمين في لجف عال ، والوبل الغيداق الماخض الودقين والشغواء تحنو بجؤشوشها على ضرم ، والشعوب (الثور) ينهفت القطقط عن كتفه فترى ان شاعرنا الظريف خرج هنا عن « حضارته البغدادية » إلى خشونة البداوة ، ولم يكتف بمجاراة الأولين في ألفاظهم بل أخذ إخذهم في تشابيههم وصورهم الشعرية . ولا نرى تعليلاً منطقياً لذلك إلا ان نقول : ان ابا نواس ، على ميله إلى الاسلوب الحضري الجديد وعلى كرهه للاعراب وحياتهم ، لم يتحرر حـــالاً من اسلوبهم إما لشدة ما علق في ذهنه من محفوظات الشعر القديم ، أو ليثبت للرواة واللغويين مقدرته في اللغة . والذي يطالع ديوانه بتدقيق ويعارض ذلك بآراء العلماء فيه يرى متانة النظم وحسن الصناعة في مدائحه ومراثيه ، ولكنه لا يراه هنـاك ذا شخصية شعرية مستقلة – في هذا الموقف من شعره يظهر لنا الشاعر مقيّداً بقيود الزمان خاضعاً لاحكام العادة سائراً في مجرى « التقليد » العام . وإنما ابو نواس ابو نواس في موقفه الثاني .

الموقف الثاني

وهو مجلى عواطفه الطبيعية ووجدانه الحقيقي . وأكثر ما يكون ذلك في مجالس اللهو والسرور . وقد صدق إذ قال عن نفسه : « لا أكاد أقول شعراً جيداً حتى تكون نفسي طيبة وأكون في بستان مؤنق وعلى حال ارتضيها من صلة أو وصل أو وعد بصلة . وقد قلت وأنا على غير هذه الحـال

---

١ مركباً بعضه فوق بعض .
٢ مطراق ، نظير .

أبياتاً لا أرضاها[1] » :

فالشاعر الذي يجيء بالوصف الشائق والظَّرف الساحر ، فيجري الكلام من قلمه بلا كلفة ولا تصنّع ، إنما يتجلى لنا عندما يجاري طبيعته ، كما يتجلى ابو نواس في خمرياته وملاهيه . هنا يترك التحذلق والتنطّس ويرسل عواطفه عبارات رائقة كقوله :

أترك الاطلال لا تعبأ بها ... انها من كل بؤس دانيه
واشرب الخمر على تحريمها ... انمـــا دنياك دارٌ فانيه
من عقار من رآها قال لي ... صِيدت الشمس لنا في باطيه

وقوله :

وخمّار أنخت اليه رَحلي ... إناخة قاطن والليل داج
فقلت له اسقني صهباء صرفاً ... إذا مُزجت توقّدُ كالسراج
فقال فان عندي بنت عشر ... فقلت له مقالة من يناجي
أذِقنيها لأعلم ذاك منها ... فأبرزَ قهوة ذات ارتجاج
كأن بنان مُمسِكها اشيمت ... خضاباً حين تلمع في الزجاج

فشاعرنا في هذا الموقف يخرج عن الطريقة القديمة ، طريقة الوقوف على الطلول وقطع المفاوز وتجشّم الاهوال توصّلاً إلى مدح المقصود ، وعلى ذلك قوله :

صفة الطلول بلاغة القدمِ ... فاجعل صفاتك لابنة الكرم

ولما سجنه الخليفة على اشتهاره بالخمر وأخذ عليه ان لا يذكرها في شعره قال :

أعِرْ شعرك الاطلال والمنزل القفرا ... فقد طالما أزرى به نعتُك الخمرا
دعاني إلى نعت الطلول مسلّطٌ ... تضيق ذراعي ان اردّ له امرا
فسمعاً أميرَ المؤمنين وطـــاعةً ... وان كنتَ قد جشّمتني مركباً وعرا

---

[1] ابن منظور ٥٥ .

« فهو يجاهر بأن وصفه الاطلال والقفر إنما هو خشية الامام والا فهو عنده فراغ وجهل[١] » .

ولم يكن ابو نواس على علو كعبه في وصف الخمر ومجالسها نسيج وحده في ذلك . فقد تقدمه في الجاهلية والاسلام مَن وصف الخمر وأحوال شاربيها ، نذكر منهم الاعشى وعديّ بن زيد ، ثم الاخطل والوليد بن يزيد . والذي يراجع اشعار الوليد يرى بينها وبين اشعار ابي نواس من أوجه الشبه ما يحملنا على الحكم بأن شاعرنا تأثر بطريقة الوليد . بل قد ذهب أبو الفرج الاصفهاني إلى أبعد من ذلك فقال : « انه سلخ معاني الوليد فجعلها في شعره وكررها في عدة مواضع[٢] » . ولتبيان ما نذهب اليه من تأثُّر ابي نواس بطريقة الوليد ننقل للأخير الابيات التالية ونترك للقارىء مقابلتها بالشعر النوّاسي ، وهي على حد قول الاصفهاني تنبىء عن نفسها[٣] . قال :

اصدعْ شجيّ الهموم بالطربِ ... وانعمْ على الدهر بابنة العنبِ
واستقبل العيش في غضارتهِ ... لا تقفُ منه آثار مُعْتَقِبِ
من قهوةٍ زانهـا تقادُمها ... فهيَ عجوزٌ تعلو على الحِقَبِ
أشهى إلى الشّرب يوم جلوتها ... من الفتـاة الكريمة النّسبِ
فقد تجلّت ورقّ جوهرها ... حتى تبدّت في منظرٍ عجبِ
فهي بغير المِزاج من شررٍ ... وهي لدى المزج سائل الذهبِ

وللوليد اشعار كثيرة في الخمر والغزل تتلمّس فيها روح شاعرنا وطبقته من مولّدي العصر العباسي[٤] .

* * *

ومع انصراف ابي نواس للعبث النسائي والغلماني لا نجد له في ذلك

---

١ العمدة ١ – ١٥٥ .
٢ و ٣ الاغاني ٦ – ١١٠ .
٤ راجع الاغاني ٦ ص ٩٨ – ١٣٦ .

من جمال الشعر ما يضارع شعره الخمري . فغزله ، على عذوبته أحياناً وظرفه ، متخنّث ضعيف . ولعله في الغزل الغلماني أصدق عاطفة منه في النسائي ، على انه في كليهما لا يجلو لنا غير الغرائز الحيوانية السفلى التي تمّ عن تحرّق شهواني يصل إلى درجة الاسفاف أحياناً وشتّان ما بينه في ذلك وبين كبار شعراء الغزل من عذريين وغير عذريين . ففي اشعار هؤلاء قد تجد ما يثير فيك عواطف النفس ، ويريك جمـــال الحب ، ويصور لك المرأة تصويراً يروقك أو يستهويك . أما في غزل شاعرنا النواسي فلا ترى غير جوارٍ متهتكات وغلمان فاسدين ، وأوصاف تدل على ما بلغه بعض القوم يومئذٍ من الانحطاط الاجتماعي .

أما خمرياته فتدل ، برغم ما يشوبها أحياناً من سوء المجون ، على خفة روح عرف بها ابو نواس في عصره . وقد وصفه بعض معاصريه بقوله : « بأنه كان أظرف الناس منطقاً . مليح الكلمة حسن الاشارة فصيح اللسان عذب الالفاظ حلو الشمائل [1] » . حتى قيل : « ولم يكن شاعر في عصره إلاّ وهو يحسده لميل الناس اليه وشهوتهم لمعاشرته » . ويقرن هذه الخفة الروحية بجمال فنّي يستهوي القارىء ، ويستثير فيه حاسة الطرب والاعجاب .

اتبعه إلى حانة وانظر كيف يدخلها مع رفاقه خفية . (والحانات عادة في ضاحية منزوية وأصحابها من اليهود والنصارى) ها هو يلاطف صاحبتها وقد تكون من اسمج النساء ، فيداعبها ويسترق منها قبلة أو يربت على ظهرها ، وفي يده الدنانير يضعها أمامها ، ويستخفّها إلى تقديم أفضل الخمور المعتقة . ثم انظر كيف يقودك معه إلى قبو قديم تحت الحانة فيريك نسيج العنكبوت على الدنان ، ثم يريك الخمّار وقد ضرب بالمبزل بعضها فخرجت الخمر صهباء مشرقة تطرد الظلام .

فجاءَ بهـــا زَيْلَيّةً ذهبية فلم نستطع دون السجود لها صبرا

---

[1] زهر الآداب للحصري ١ – ١٤٧ .

ولست أشكُّ ان الشاعر يصف حوادث واقعية في غراته الخمرية ، وان أكن أميل إلى الاعتقاد انه أحياناً يخترع الحديث إبهاجاً لزملائه . وفي كلتا الحالتين ترى شعر ابي نواس الحقيقي وترى تدفق شعوره الصريح . واليك تلخيص خمرية أخرى توضح ما نقصد اليه :

وليلة مظلمة قصدت ورفاقاً لي إلى بيت خمّار ، فأخذنا نسير من زقاق إلى زقاق حتى وصلنا اليه وقد هجع هو وأهل بيته . قرعنا الباب فاستيقظ مذعوراً وتوجّس شرّاً من ادلاجنا في مثل تلك الساعة فلم يشأ أن يجيبنا بل :

تناوم خوفاً ان تكون سعاية　　وعاوده بعد الرقاد وجيب
ولما دعونا باسمه طار خوفه　　وأيقن انّ الرحل منه خصيب
وبادر نحو الباب سعياً ملبّياً　　له طرب بالزائرين عجيب

ثم فتحه هاشّاً منحنياً أمامنا ، وهو يقول مرحباً بالكرام . وجاء بالمصباح فقلنا له : أسرع ، لم يبق من الليل إلا بقية قليلة . هات لنا خمرك الطيبة :

فأبدى لنا صهباء تم شبابها　　لها مرح في كأسها ووثوب
فلما اجتلاها للندامى بدا لها　　نسيم عبيرٍ ساطع ولهيب

ثم جاءَت جارية بيدها مِزهر فأخذت تغني لنا ونحن نشرب . وما زلنا على هذي الحال ، كأس تذهب وكأس تجيء ، حتى غنّت لنا « سرى البرق غربياً فحنّ غريب » ففاضت مدامع العشاق منا وأمسينا بين مسرور بنشوة الخمر وباكٍ من شدة الهوى ، حتى لاح الصباح

وقد غابت الشعرى العبور وأقبلت　　نجوم الثريا بالصباح تؤوب

* * *

ولنسمعه يقص علينا بلسانه الخاص حديث زيارة أخرى الى بعض هذه الحانات ، ويصف لنا الخمّار وامرأته وميزانها الغشوم وخمرها المعتقة ،

وكيف حمل الخمر إلى رفاق كانوا ينتظرونه في بستان ، فأقاموا ردحاً من الزمن يمتّعون النفس بين الرياحين بعيدين عن أعين الرقبـــاء والحاسدين . قال :

إذا خطرت منك الهموم فداوِها بكأسك حتى لا تكون هموم

إلى قوله :

فشمّرت أثوابي وهرولت مسرعاً وقلبيَ من شوق يكاد يهيم
إلى بيت خمّار افاد زحامه له ثروة والوجه منه بهيم
وفي بيته زقّ ودنّ ودورق وباطية تروي الفتى وتُنيم
ودهقانة ميزانها نصب عينهـا وميزانهـــا للمشترين غشوم
فاعطيتها صُفراً وقبّلت رأسها على انني فـــيما أتيت مُليم
وقلت لها هزّي الدنان قديمةً فقالت نعم اني بذاك زعيم

وبعد أن تحضر له الخمر من قبو قديم عتّقت فيه يقول :

فرحتُ بها في زورق قد كتمتها ومن أين للمسك الزكيّ كتوم
إلى فتية نادمتهم فحمدتهم وما في نِدامي ما علمت لئيم
فمتّعت نفسي والندامى بشربها فهذا شقـــاءٌ مرّ بي ونعيم
لعمري لئن لم يغفر الله ذنبها فانّ عذابي في الحساب أليم

ولو سألت نفسك ما الذي يستخفّك في حديث كهذا – حديث الخمر والعبث والمجون لصعُب عليك الجواب ، ولكنه في الحقيقة مستتر في تضاعيف الابيات – هو هذه الخفة الروحية في الشاعر – هذا الظرف الادبي الذي كان يحببه إلى الناس . ولو انه كان غير ذلك – لو كان سمج الروح واللسان ، لاستثقلته ولاشمأزت نفسك من استماع أحاديثه .

شخصيته في شعره

ليس لأبي نواس في غير شعره الطبيعي (الغزلي والطردي والخمري)

شخصية خاصة . وقد مرت بنا صورته في غزله ، وانه هناك يجلو لنا ضعف النفس والنزعات البهيمية السافلة . أما طردياته فاراجيز تصف الكلاب والفهود وطيور الباز ، وما إلى ذلك من أسباب الصيد والطرد . وهو فيها شاب مرح يتنعّم بقوة الشباب وعشرة أهل الرخاء ، ويقرن ذلك بجمال في الوصف ورشاقة في التعبير . وإليك مثالين من طردياته قال :

لما تجلّى الليل وابيضّ الأفُقْ ... وانجاب ستر الليل عن وجه الطرق[1]
باكرني سهل المحيّا والخلقْ ... ندبٌ إذا استندبته شهم لبق[2]
يدعو إلى الصيد ألا قلت انطلقْ ... بأكلُبٍ غُضف صحيحات الحدَق[3]
من اصفر اللون ومبيضٍّ يققْ ... كأنما اذناه من بعض الخِرَق
لو يلصق الخد باذن لالتصق

وقال ينعت كلباً اسمه خلاب لسعته حية فمات :

يا بؤس كلبي سيّد الكلاب ... قد كان اغناني عن العُقابِ
وكان قد اجزى عن القصّاب ... وعن شرائي جلب الجلاب[4]
يا عينُ جودي لي على « خلاّب » ... مَن للظباء العفر والذئابِ ؟
خرجت والدنيا إلى تباب ... به وكان عدّتي ونابي
اصفر قد خُرّج بالملابِ ... كأنما يدهن بالزرياب[5]
فبينما نحن به في الغاب ... اذ برزت كالحة الانياب
رقشاء جرداء من الثياب ... لم ترعَ لي حقاً ولم تحابي
فخرّ وانصاعت بلا ارتياب ... كأنما تنفخ من جراب

---

١ أي بدا النهار على الطريق .
٢ باكرني صديق شهم الخ .
٣ الغضف : المسترخية الآذان من الكلاب .
٤ جلب الجلاب أي العبيد .
٥ الزرياب ماء الذهب . والملاب طيب يشبه الزعفران .

لا أبتُ ان أبتِ بلا عقاب حتى تذوقي أوجع العذاب

وكل طردياته على هذا النمط ، يصف فيها ما كان يتسلـّى به أهل الرخاء من صيد الغزلان وسواها . وهي صورة رشيقة للبيئة التي كان يعيش فيها الشاعر .

* * *

قلنـــا انه في غزل ابي نواس تتجلى لنا « بهيميّته » ، وفي طردياته مرحه وترفه . على ان في شخصيته شيئاً أعمق من ذلك ننفذ اليه من خلال اقداحه ومجالس سكره . ففي شعره الخمري يقرن البهيمية والمرح بتشاؤم قاتم يذهب بأناقة الحياة ويجرّدها من كل قيمة وجمال . وانك إذا دققت في تحليل شعره لِتتعرّف به إلى نفسيته الحقيقية تجده – على حبه للحياة – مستخفاً بها . فهو من طلاّب اللذة السانحة ينصرف إلى الملاهي ليخدّر أعصابه فلا يرى آلام الحياة ومتاعبها قال :

غدوت إلى اللذات منهتك الستر وافضت بنات السرّ مني إلى الجهر
وهان عليّ الناس فيما أريده بما جئت فاستغنيت عن طلب العذر
رأيت الليـــالي مرصدات لمدتي فبادرت لذّاتي مبـــادرة الدهر

وقد نقل المرزباني القصة التالية عن الجمّاز قال :

كنت عند ابي نواس . قال (ابو نواس) اسمع ابياتاً حضرت . قلت هات ، فأنشدني :

وملحّة باللوم تحسب انني بالجهل أوثر صحبة الشطـّار[1]
بكرت عليّ تلومني فأجبتها اني لأعرف مذهب الابرار
فدعي الملام فقد أطعتُ غوايتي وصرفت معرفتي إلى الانـكار
ورأيت إتياني اللذاذة والهوى وتعجّلاً من طيب هذي الدار
أحرى واحزم من تنظـّر آجلٍ علمي به رجمٌ من الاخبار

---

١ أهل الخبث والدهاء .

ما جاءَنا أحدٌ يخبّر انه | في جنّةٍ مَن مات أو في نار

فلما بلغ إلى هذا البيت قلت له : يا هذا ان لك أعداء ، وهم ينتظرون مثل هذه السقطات ، فـاتق الله في نفسك ودع الافراط في المجون ، واكتمها . قال : لا والله ، لا اكتمها خوفاً ، وان قضي شيء كان . فنمي الخبر إلى الفضل بن الربيع ، ثم الى الرشيد ، فما كان بعد هذا إلاّ اسبوع حتى حُبس[1] .

ومن قوله :

أعاذلَ اقصري عن بعض لومي | فراجي توبتي عندي يخيب
تعيّرني الذنوب وأي حرٍ | من الفتيان ليس له ذنوب
غـُريتِ بتوبتي ولججت فيها | فشقـّي الآن جيبك لا اتوب

هذه هي روح ابي نواس يرى الدهر واقفاً له بالمرصاد – يرى الموت نهاية كل شيء فيقول لنفسه : وما نفع الحياة وماذا نجد فيها غير الشقاء ؟ ويشعر بقوته وشبابه فيلب إلى غمار المسرات الزائلة ويخوض فيهـا وهو يقول :

طربت إلى الصنج والمزهر | وشرب المدامة بالاكبر
والقيت عني ثياب الهدى | وخضت بحوراً من المنكر
واقبلت اسحب ذيل المجون | وأمشي إلى القصف في مئزر

ولا يقف عند الاستخفاف بقيمة الحياة بل يقرنه باستخفاف بنواهي الادب والشريعة كقوله :

ولاحٍ لحاني كي يجيء ببدعة | وتلك لعمري خطة لا اطيقها
لحانيَ كي لا أشرب الخمر انها | تورّث وزراً فادحاً من يذوقها
فما زادني اللاحون إلا لجاجةً | عليها لاني ما حييت رفيقها
أأرفضها والله لم يرفض اسمها | وهذا أمير المؤمنين صديقها

---

[1] الموشح ٢٧٨ .

فنحن وان لم نسكن الخلد عاجلا فما خلدنا في الدهر الا رحيقها

وقوله :

بكيت وما أبكي على دمنٍ قفر وما بي من عشق فابكي على الهجر
ولكن حديثاً جاءنا عن نبينا فذاك الذي اجرى دموعي على النحر
بتحريم شرب الخمر والنهي جاءنا فلما نهى عنها بكيت على الخمر
فأشربها صرفاً واعلم انني أُعزّر فيها بالثمانين في ظهري

ولم يقلل هذا الاستخفاف فيه تقدّمُه نحو المشيب ، فمثله لا يقف عن اعتبار أو نظر في العواقب بل عن ضعف أو كلال . اسمعه يذكر أيام الشباب ، وكأنك تشعر بأسفه ان الدهر لم يبقِ له غير القوة على معاقرة الخمر :

كان الشباب مطيّة الجهل ومحسّن الضحكات والهزل
كان الجمال إذا ارتديت به ومشيت اخطر صيّت النعل[1]
كان المشفّع في مآربه عند الفتاة ومدرك التبل[2]
والباعثي والناس قد رقدوا حتى أبيت خليفة البعل
والآمري حتى إذا عزمتْ نفسي أعانَ يديَّ بالفعل
فالآن صرت إلى مقاربةٍ وحططت عن ظهر الصبا رحلي[3]
والراح اهواها وان رزأت بُلغ المعاش وقللت فضلي

إلى ان يقول :

فاعذر أخاك فانه رجل مرنت مسامعه على العذل

* * *

ولكن هل ادرك الشاعر ما يتوخاه من الدنيا ؟ نحن هنا أمام مسألة

---

١ الصيت شديد الصوت .
٢ التبل أي الثأر .
٣ المقاربة ترك الغلو وقصد السداد .

عقلية لا يسعنا الاغضاء عنها. والجواب عليها يتناول أحد أمرين:

١ - ان الحياة اثمن ما في أيدينا، وان سعادتها قائمة على تفهم قيمتها الحقيقية والسعي لادراكها.

٢ - أو ان الحياة مهزلة لا قيمة لها، وما على العاقل الا ان يتناساها بالانغماس في الملذات الدنيوية.

ولسنا الآن في مقام يمكننا من تحليل هاتين النظريتين تحليلاً فلسفياً وافياً، على انه لا بد من القول ان الاولى منهما نظرة جدّية الى الحياة، نظرة إلى جمالها الحقيقي وفرصها الثمينة، وان الثانية نظرة استخفاف بها وانصراف الى سخائفها.

في الاولى يحاول الانسان ان يسعى نحو مرمى عالٍ قد لا يحصل عليه، ولكن السعادة كل السعادة في هذا السعي المتواصل، وبعبارة أخرى في شعور الانسان بالتقدم نحو المثل العليا. وفي الثانية يتملك الانسان خور العزيمة فيقف فشلاً ويحاول ان يستر فشله بمخدّرات الحياة الباطلة. ومن أفضل الامثلة على ذلك ما تراه في رباعيات عمر الخيام من ميل الشاعر المفكر الى نسيان الوجود وآلامه بالخمر. ولعلّ الخيام تأثر بشعر ابي نواس ومذهبه، وجرفه تيار التشاؤم إلى هذه الحياة السلبية. وانك لتجالس ابا نواس في مجالس لهوه فتسمع قهقهته ونكاته، ويطربك ظرفه وجمال حديثه، وتعجبك خفة روحه بين أقداحه وندمائه، ولكنك تستشفّ من وراء ذلك مرارة وتشاؤماً، ربما كانا سبب عبثه بحقائق الحياة واسترساله في اسباب الملاهي. ولا يظهر ذلك في ابّان قوته وريعان شبابه ظهوره بعد ان اضعفه الدهر وحط عن ظهر الصبا رحله كما قال. ذلك الاستخفاف الذي عرف به وهو في نشاط العمر تحوّل أيام الضعف إلى اسفٍ مؤلم، لا عن تقوى ولكن عن شعور بالفشل. كان يشرب الخمر ويقول غير مبالٍ:

الراح شيءٌ عجيب انت شاربه فاشرب وان حمّلتك الراح أوزارا
يا من يلوم على حمراء صافية صرْ في الجنان ودعني اسكن النارا

ثم خمدت فيه قوة الشباب وفارقته أيام الهناء والرخاء فرأى ماضياً متهتكاً وفرصاً ضائعة ونفساً شائبة بالمعاصي فصاح آسفاً :

دبّ فيَّ الفناء سفلاً وعلوا وأراني اموت عُضواً فعضوا
ليس من ساعة مضت لي الا نقصتني بمرّهـــا بي جزوا
ذهبت جدّتي بطاعة نفسي وتذكرت طاعة الله نضوا
لهف نفسي على ليـــالٍ وأيامٍ تمليتهنّ لعبـــاً ولهوا
قد أسأنا كل الاساءَة فاللهمّ صفحاً عنّـــا وغفراً وعفوا

قابل هذه الابيات بما ذكرناه سابقاً وقابلها بقوله :

ردّا عليّ الكأس انكما لا تدريان الكأس ما تجدي
خوّفـــتماني الله ربكما وكخيفتيه رجاؤه عندي
لا تعذلا في الراح انكما في غفلة عن كنه ما تسدي
ان كنتما لا تشربان معي خوف العقاب شربتها وحدي

وقوله من قصيدة :

ألم ترني ابحت الراح عِرضي وعضّ مراشف الظبي المليح
وأني عالم ان سوف تنأى مسافة بين جثماني وروحي

وانظر كيف تحوّل اشره إلى ضعف واستخفافه إلى شعور بالفشل . وقد ذهب بعضهم انه كان يقترف ما يقترف اتكالاً على الله ، ويستشهدون على ذلك بقوله :

لا تحظر العفو ان كنت امرءاً حرجاً فان حظركه بالدين إزراء

وقوله :

حتى إذا الشيب فاجاني بطلعته أقبح بطلعة شيب غير مبخوت

عند الغواني إذا ابصرن طلعته | اذ ّنّ بالصرم من ردّ وتشتيت
فقد ندمت على ما كان من خَطَـَل | ومن إضاعة مكتوب المواقيت
ادعوك سبحانك اللهمّ فاعف كما | عفوت ياذا العلى عن صاحب الحوت

أو قوله من قصيدة :

بادر شبابك قبل الشيب والعار | وحثحث الكاس من بكر لابكار

إلى قوله :

فذاك قبل نزول الشيب عادتنا | لكننا نرتجي غفران غفّار

إلى آخر ما نراه من كلامه الزهدي . وليس ذلك بأدلّ على التوبة وحب التزهد والتجدد مما هو على الشعور بالضعف والخور والخوف .

جاء في الاغاني عن محمد بن ابراهيم الصوفي قال :

« دخلنا على ابي نواس نعوده في علته التي مات فيها ، فقال له علي ابن صالح الهاشمي : يا أبا علي ، أنت في أول يوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا ، وبينك وبين الله هنات ، فتب إلى الله عزّ وجل . فبكى ساعة ثم قال ساندوني ساندوني . ثم قال أأخوّف بالله عزّ وجل ، وقد حدثني حماد بن مسلم عن زيد الرقاشي عن انس بن مالك ، قال : قال رسول الله (صلعم) : لكل نبيّ شفاعة ، واني اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من امتي يوم القيامة . أفتراني لا أكون منهم ؟ »

هذا الشعور بفشل الاباطيل هو الذي كان يدفع شاعرنا في أواخر أيامه إلى الندم والتحسر ، وقد صدق الجرجاني إذ قال : « فلو كانت الديانة عاراً على الشعر ، وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخُّر الشاعر ، لوجب ان يمحى اسم ابي نواس من الدواوين ويحذف ذكره إذا عدّت الطبقات[1] » .

على انه لا يجوز ان نحصر الحكم على فنّ الشاعر في منطقة الشرائع

---

١ الوساطة ٥٨ .

الروحية والاجتماعية التي اتفق عليها المصلحون والمهذّبون . فالشعر لا يتقيد بذلك ، وما جماله قائماً فقط على ما فيه من عبر وارشاد ، بل على ما يتجلـّى فيه من شعور وحياة . الادب فنّ تتجلى فيه خوالج النفس ، وعلى هذا التجلـّي تتوقف منزلة الشاعر الفنية .

نعم ان ابا نواس لم يزهد لتجدّد في طبيعته ، بل مات كما عاش . وقد ترك لنا شعراً يحفظ لا لسموّ عواطفه ، ولكن لخفـّة روحه ، وجمال صنعته ، ولتمثيله الخلاب لحياته وحياة بيئته .

المختار من شعر ابي نواس

١ ـــ خمرياته ومجالس لهوه

وداوني بالتي

دع عنك لومي فإن اللوم اغراءُ　　وداوني بالتي كانت هي الداءُ
صفراء لا تنزل الاحزان ساحتها　　لو مسّها حجرٌ مسّته سرّاءُ

* * *

قامت بابريقها والليل معتكرٌ　　فلاح من وجهها في البيت لألاءُ [١]
فارسلت من فم الابريق صافية　　كأنما اخذها بالعين اغفــاءُ
رقّت عن الماء حتى ما يلائمها　　لطافةً وجفا عن شكلها المــاءُ
فلو مزجتَ بها نوراً لمازجها　　حتى تَـولّـدَ انوارٌ واضواءُ
دارت على فتية دار الزمان بهم [٢]　　فما يصيبهمُ الا بمـــا شاءوا
لتلك ابكي ولا ابكي لمنزلةٍ　　كانت تحلّ بها هند واسماءُ [٣]
حاشا لدُرّةَ ان تُـبنى الخيام لها　　وان تروح عليها الابْل والشاءُ [٤]

---

١ قبل هذا البيت بيت محذوف يصف به فتاة ساقية .
٢ وفي رواية ـ دان الزمان لهم .
٣ أي أنا ابكي عليها لا على الطلول البالية .
٤ درة ، كناية عن الحبيبة .

فقل لمن يدعي في العلم فلسفة حفظتَ شيئاً وغابت عنك أشياءُ[1]
لاتحظر العفو إنْ كنت امرءاً حرجاً فان حظركه في الدين إزراءُ

لها مرح في كأسها

دع الربع ما للربع فيك نصيبُ وما ان سبتني زينبٌ وكعوبُ
ولكنْ سبتني البابليّة انها لمثليَ في طول الزمان سلوب
جفا الماء عنها في المزاج لأنها خيال لها بين العظام دبيب
إذا ذاقها من ذاقها حلّقت به فليس له عقل يعدّ أديب[2]
وليلة دجنٍ قد سريت بفتيةٍ تنازعها نحو المدام قلوب
إلى بيت خمّار ودون محلّه قصور منيفات لنا ودروب[3]
ففزّع من إدلاجنا بعد هجعة وليس سوى ذي الكبرياء رقيب[4]
تناوم خوفاً ان تكون سعاية وعاوده بعد الرقاد وجيب
ولما دعونا باسمهِ طار ذُعره وايقن ان الرحل منه خصيب
وبادر نحو الباب سعياً ملبّياً له طرب بالزائرين عجيب
فاطلق عن نابيه وانكبّ ساجداً لنا وهو فيما قد يظنّ مصيب
وقال ادخلوا حُيّيتمُ من عصابةٍ فمنزلكم سهلٌ لديّ رحيب
وجاءَ بمصباح له فأناره وكلّ الذي يبغي لديه قريب
فقلنا أرحْنا هاتِ ان كنت بائعاً فان الدجى عن مُلكه سيغيب
فابدى لنا صهباء تمّ شبابها لها مرح في كأسها ووثوب
فلما اجتلاها للندامى بدا لها نسيم عبيرٍ ساطع ولهيب
فجاء بها تحدو بها ذات مِزهر يتوق اليها الناظرون ربيب[5]

١ تعريض بالنظام احد رؤساء المعتزلة المتوفى ٢٣١هـ، والمعتزلة تشدد النكير على مرتكبي المعاصي .
٢ أديب نعت عقل أي ليس له عقل أديب يعد في العقول .
٣ كانت الحانات عادة في محلات بعيدة عن أعين الناس .
٤ ذو الكبرياء أي الله ذو الكبر . والادلاج السير ليلاً .
٥ أي مغنية تحمل عوداً . والربيب المطيبة أو المنعمة .

فما زال يسقينا بكأس مجـــدّة تـولـّي واخرى بعد ذاك تؤوب
وغنـّى لنا صوتاً بحسن ترجّع «سرى البرق غربيّاً فحنّ غريب»
فمن كان منا عاشقاً فاض دمعه وعـــاوده بعد السرور نحيب
فمن بين مسرور وباكٍ من الهوى وقد لاح من ثوب الظلام غيوب
وقدغابت الشعرى العَبور واقبلت نجوم الثريّـــا بالصباح تثوب

وحسبك ضوؤها مصباحا

ذكر الصَّبوحَ بسحرة فارتاحا وأملـّه ديك الصباح صياحا
أوفى على شرف الجدار بسَدفة غَـرداً يصفـّق بالجناح جناحا [1]
بادرْ صباحَك بالصّبوح ولا تكن كمسوّفين غدوا عليك شحاحا
ان الصَّبوح جلاء كل مخمّر بدرت يديه بكأسه الاصباحا
وخدينِ لذّات معلـّل صاحبٍ يقتات منه فكاهة ومزاحا
نبّهته والليل ملتبس بـــه وأزحت عنه نقابه فانزاحا
قال ابغني المصباح قلت له اتئد حسبي وحسبك ضوؤها مصباحا
فسكبت منها في الزجاجة شُربة كانت له حتى الصباح صباحا
من قهوة [2] جاءتك قبل مزاجها عُطلاً فألبسها المزاج وشاحا
صهباءَ تفترس النفوس فما ترى منها بهنّ سوى السُّبات جراحا
شكّ البَزال [3] فؤادها فكأنما اهدت اليك بريحها تفـّاحا
عَمرَت يكاتمك الزمان حديثها حتى إذا بلغ السآمة باحـــا
فاشاع من اسرارها مستودعاً لولا الملامة لم يكن ليُباحا
فأتتك في صُوَر تداخلها البلا فازالهنّ واثبـــتَ الأشباحا
فكأنها والكأس ساطعة بها صبحٌ تقارب امره فانصاحا

---

١ بسدفة أي قبيل الفجر .
٢ القهوة من أسماء الخمر .
٣ حديدة يفتح بها الدن .

روحان في جسد

ما زلت استلُّ روح الدنّ في لُطفٍ   واستقي دمـه من جوف مجروح
حتى انثنيت ولي روحان في جسدٍ   والدنّ منطرح جسماً بلا روح

لا جفَّ دمع الذي يبكي على حجر

عاج الشقيّ على رسم يسائله   وعجت اسأل عن خمّارة البلدِ [1]
يبكي على طلل الماضين من أسدٍ   لا درّ درّك قل لي من بنو اسد
ومَن تميمٌ ومن قيسٌ ولفّهما ؟   ليس الاعاريب عند الله من احد
لا جفّ دمع الذي يبكي على حجرٍ   ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد
كم بين ناعت خمرٍ في دساكرها   وبين باكٍ على نُؤْيٍ ومنتَضدِ [2]
دع ذا عدمتك واشربها معتّقةً   صفراءَ تفرق بين الروح والجسد
من كف مضطمر الزنّار معتدل   كأنه غصن بانٍ غير ذي أوَدِ
أما رأيت وجوه الارض قد نضُرت   وألبستها الزرابي نثرةُ الاسد [3]
حاك الربيع بها وشياً وجلّلها   ببانع الزهر من مثنى ومن وَحَد
واستوفت الخمر احوالاً مجرّمةً   وافترّ عيشك عن لذاتك الجدد
فاشرب وجد بالذي تحوي يداك لها   لا تدّخر اليوم شيئاً خوف فقرِ غد
يا عاذلي قد أتتني منك بادرةٌ   فان تغمّدها عفوي فلا تَعُدِ
لو كان لومك نُصحاً كنت أقبله   لكنّ لومك موضوعٌ على الحسد

تفتر عن در

خفيتْ عليك محاسن الخمر   أم غيّرتك نوائب الدهر

---

١ يريد بالشقي هنا الشاعر الذي يبكي على الطلول .

٢ ما أعظم الفرق بين من يصف الخمر ومواطنها وبين من يبكي على الآثار . والنؤي الحفرة حول الخيمة . والمنتضد المقام أو ما نضد من متاع الخيمة .

٣ نثرة الاسد اسم لثلاثة كواكب ، يريد بذلك أن مطرها البس الارض بسطاً من الازهار .

فصرفت وجهك عن معتّقةٍ ... تفترّ عن دُرٍّ وعن شذر[1]
يسعى بها ذو غُنّةٍ غنجٌ ... متكحّل اللّحَظات بالسحر
ونسيت قولك حين تشربها ... فتزول مثل كواكب النّسر[2]
« لا تحسبنّ عُقــار خابيةٍ ... والهمّ يجتمعان في صدر »

اقمنا بها

ودارِ ندامي عطّلوها وادلجوا ... بها أثرٌ منهم جديد ودارسُ
مساحب من جر الزقاق على الثرى ... واضغاث رَيحان جني ويابس
ولم ارَ منهم غير ما شهدت به ... بشرقيّ ساباط الديار البسابس[3]
حبست بها صحبي فجدّدت عهدهم ... واني على امثال تلك لحابس
اقمنا بها يومــاً ويومين بعده ... ويوماً له يوم الترحّل خامس
تدار علينا الراح في عسجديّةٍ ... حبتْها بأنواع التصاوير فارس[4]
قرارتها كسرى وفي جنبــاتها ... مهى تدّريها بالقسيّ الفوارس
فللخمر ما زُرّت عليه جيوبها ... وللماء ما دارت عليه القلانس

اجدت ابا عمرو فجوّد لنا الخمرا

وفتيانِ صدق قد صرفت مَطيّهم ... إلى بيت خمّار نزلنا به ظهرا
فلما حكى الزنّار ان ليس مسلما ... ظننا به خيراً فظنّ بنا شرّا
فقلنا على دين المسيح ابن مريم ؟ ... فاعرض مزوّراً وقال لنا هُجرا
ولكن يهوديّ يحبّك ظاهراً ... ويضمر في المكنون منه لك الغدرا

---

١ الشذر قطع الذهب .
٢ كوكب النسر اسم نجم ، أي فتغيب في الفم غياب ضوء النجم وراء الأفق .
٣ ساباط مكان بالمدائن ، وهذه الابيات قيلت في مجلس لهو هنــاك (زهر الآداب للحصري ، ٣ – ١٧٥) .
٤ عسجدية أي كأس ذهبية عليها صور فارسية .

فقلت له ما الاسم قال سمَوأل ولكنني أُكنى بعمروٍ ولا عمرا [1]
ومـــا شرّفتني كنية عربية ولا اكسبتني لا ثناءً ولا فخرا
ولكنها خفّت وقلّ حروفها وليس كأخرى إنما جعلت وقرا [2]
فقلنا له عُجباً بظرف لسانه اجدت ابا عمرو فجوّد لنا الخمرا
فـــأدبر كالمزورّ يقسم طرفه لأرجلنا شطراً واوجهنا شطرا
وقال لعمري لو نزلتم بغيرنا للُمناكمُ لكن سنوسعكم عذرا
فجاء بهـــا زيليّةً ذهبيةً فلم نستطع دون السجود لها صبرا
خرجنا على ان المقام ثلاثة فطابت لنا حتى اقمنا بها شهرا
عصابةُ سوء لا ترى الدهر مثلهم وان كنتُ منهم لا بريئاً ولا صفرا
إذا ما دنا وقت الصلاة رأيتهم يحثّونها حتى تفوتهم سكرا

رضيت من الدنيا بكأس وشادن

غدوتُ على اللذات منتهك السترِ وافضت بنات السرّ مني إلى الجهر
وهان عليّ الناس فيما اريده بما جئت فاستغنيت عن طلب العذر
رأيت الليالي مُرصداتٍ لمدّتي فبادرت لذّاتي مبادرة الدهر
رضيت من الدنيا بكأس وشادن تحيّر في تفصيله فَطِن الفكر
مُدام ربت في حِجر نوح يديرها عليّ ثقيل الردف مطّمر الخصر
صحيح مريض الجفن مُدنٍ مباعد يميت ويحيي بالوصـــال وبالهجر
كأنّ ضياء الشمس نيط بوجهه وبدر الدجى بين الترائب والنحر
إذا ما بدت ازرار جيب قميصه تطلّع منه صورة القمر البدر
فاحسن من ركض إلى حومة الوغى واحسن عندي من خروج إلى النحر [3]
فلا خير في قوم تدور عليهم كؤوس المنايا بالمثقّفة السُمر

---

١ أي أدعى ابا عمرو وليس لي ولد بهذا الاسم .
٢ وليست كالكنية الأخرى الثقيلة .
٣ ذاك عندي أفضل من جهاد الحرب وأفضل من أن اخرج إلى نحر الذبائح .

تحيّاتهم في كل يوم وليـــلة ظـُبى المشرفيّات المـُزيرة للقبر

واهتدى ساري الظلام بها

يا شقيق النفس من حـَكـَمِ نمتَّ عن ليلي ولم أنـَم[1]
فاسقني البكر التي اختمرت بخمار الشيب في الرَّحِمِ[2]
ثـُمّت انصات الشباب لهـا بعد ما جازت مدى الهرم
فهي لليوم الـــتي بُزلت وهي تِرب الدهر في القِدم
عـُتـّقت حتى لو اتصلت بلسانٍ ناطق وفــم
لاحتبت في القوم مـــاثلة ثم قصّت قصـة الامم[3]
فرعتهـا بالمـزاج يـد خـُلقت للسيف والقلمِ
في ندامى سادةٍ زُهـُـرٍ أخذوا اللذّات من أممِ[4]
فتمشّت في مفـاصلهم كتمشّي الـبرء في السـّقمِ
فعلت في البيت إذ مزجت مثل فعل الصبح في الظـُلـَمِ
واهتدى ساري الظلام بهــا كاهتداء السـّفْر بالعـــلمِ[5]

فهذا شقاء مر بي ونعيم

إذا خطرت منك الهموم فداوها بكأسك حتى لا تكون هموم
أدرْها وخذهــا قهوةً بابليّة لها بين بُصرى والعراق كروم
ولا عرفت ناراً ولا قِدر طابخ سوى حرّ شمس إذ تهيج سَموم

١ حكم اسم القبيلة التي كان ينتمي اليها .
٢ لهذا البيت عدة تفاسير منها: ان خمار الشيب هو نسج العنكبوت الذي حول الدن . وقد كنى عن الدن بالرحم . ومنها ان الشيب اشارة إلى ما يعلو الكرم من الوبر الابيض . والكرمة رحم الخمر على المجاز .
٣ أي جلست القرفصاء وأخذت تقص عليهم أخبار الاقدمين .
٤ من أمم أي من أقرب الطرق .
٥ كما يهتدي المسافرون بأعلام الطريق .

لها من ذكيّ المسك ريح زكيّة ... ومن طيب ريح الزعفران نسيمُ
فشمّرت أثوابي وهرولت مسرعاً ... وقلبيَ من شوق يكاد يهيم
إلى بيت خمّار افاد زِحامه[1] ... له ثروة والوجه منه بهيم
وفي بيته زِقّ ودنّ ودورق ... وباطية تروي الفتى وتُنيم
فأزقاقه سود وحمرٌ دنانه ... ففي البيت حبشان لديه وروم
ودهقانةٌ ميزانها نصب عينها ... وميزانها للمشترين غشوم[2]
فاعطيتها صُفراً وقبّلت رأسها ... على انني فيما اتيت مُليم
وقلت لها هزّي الدنان قديمةً ... فقالت نعم انني بذاك زعيم
الست تراها قد تعفّت رسومها ... كما قد تعفّت للديار رسوم[3]
ذخيرة دهقان[4] حواها لنفسه ... إذا ملك اخنى عليه غشوم
فقلت بكم رطلٌ؟ فقالت باصفرٍ ... فحزت زقاقاً وزرهنّ عظيم
فرحت بها في زورق قد كتمتها ... ومن أين المسك الزكيّ كتوم
إلى فتيةٍ نادمتهم فحمِدتهم ... وما في نِدامي ما علمت لئيم
فمتّعت نفسي والنّدامى بشربها ... فهذا شقاءٌ مرّ بي ونعيم
لعمري لئن لم يغفر الله ذنبها ... فانّ عذابي في الحساب أليم

فسلها بالروح والريحان

لا تخشعنّ لطارق الحدثان ... وادفع همومك بالشراب القاني
او َما ترى ايدي السحائب رقّشت ... حلل الثرى ببدائع الريحان
من سوسن غض القطاف وأخزُمٍ ... وبنفسج وشقائق النعمان
وجنيّ ورد يستبيك بحسنه ... مثل الشموس طلعن من اغصان

---

١ افاده أي أربحه مالاً .

٢ دهقانة أي سيدة وهي البائعة هنا .

٣ هذا البيت وما بعده يصف قدم هذه الخمرة وانها كانت محفوظة لدهقان في دنان نسج عليها العنكبوت نسيجه فأصبحت لا يميز أحدها من الآخر .

٤ الدهقان كلمة فارسية معناها رئيس الاقليم .

حمراً وبيضاً يُجتنَين وأصفراً ... وملوّناً ببدائع الألوان
كعقود ياقوت نُظمن ولؤلؤ ... اوساطُهنّ قلائد العقيان
ومن الزَبرجد حولهن ممثّلاً ... سِمطاً يلوح بجانب البستان
فاذا الهموم تعاورتك فسلّها ... بالراح والريحان والندمان

ديني لنفسي ودين الناس للناس

إني عشقت وما بالعشق من باس ... ما مرّ مثل الهوى شيءٌ على راسي
ما لي وللناسِ لمْ يلحونني سفَهاً ... ديني لنفسي ودين الناس للناس
ما للعداة إذا ما زرت مالكتي ... كأنّ اوجههم تطلى بأنقاس[1]
الله يعلم ما تركي زيارتكم ... الا مخافة اعدائي وحراسي
ولو قدرت على الاتيان جئتكم ... سعياً على الوجه أو مشياً على الراس
وقد قرأت كتاباً من صحائفكم ... لا يرحم اللهُ الا راحم الناس

نشقى ويلتذ خيالانا

إذا التقى في النوم طيْفانا ... عاد لنا الوصل كما كانا
يا قرّة العين فما بالنا ... نشقى ويلتذّ خيالانا
لو شئتِ اذ احسنت لي نائماً ... اتممت احسانك يقظانا
يا عاشقيْن التقيا في الكرى ... فأصبحا غضبى وغضبانا
كذلك الاحلام غرّارة ... وانما تصدق أحيانا

ومن أقواله في جنان :

غضبتْ لمحوٍ في الكتاب كثير ... قالت أراد خيانتي وغروري
كتبَ الكتاب على خلاف ضميره ... فالمحو فيه لكثرة التغيير
لا والذي ان شاء صيّرنا معاً ... فاداكِ من حزن هناك مروري

---

١ انقاس جمع نقس وهو الحبر الاسود .

ما كان ذاك لما أتى من قولها | مني ولا للسهو والتقصير
كتبت يميني والدموع سواكب | صفةَ اللسان بما يكنّ ضميري
فالمحو من قِبَل الدموع وانما | تجري دموع العاشق المهجور

وقال :

أين الجواب وأين ردّ رسائلي | قالت ستنظر ردَّها من قابل
فمددت كفي ثم قلت تصدّقوا | قالت نعم بحجارة وجنادل
ان كنت مسكيناً فجاوز بابنا | وارجع فما لك عندنا من نائل
يا ناهر المسكين عند سؤاله | الله عاتب في انتهار السائل

٢ — من مدائحه واوصافه

وهو لا يخرج في معظمها عن مذاهب الشعراء المتقدمين

قال يمدح الأمين

يا دارُ ما فعلت بك الأيام ؟ | ضامتكِ والايام ليس تضام
عَرِمَ الزمان على الـذين عهدتهم | بك قاطنين ، وللزمان عُرام
أيامَ لا أغشى لأهلك منزلاً | الا مراقبةً عـليّ ظلام
ولقد نهزت مع الغواة بدلوِهم | وأسمت سرح اللهو حيث اساموا[١]
وبلغت ما بلغ امرؤٌ بشبابه | فاذا عُصارة كل ذاك إثام
وإذا المطيّ بنا بلغن محمداً | فظهورهن على الرجال حرام
قرّبننا من خير من وطىء الثرى | فلها علينـا حرمة وذمام

---

١ نهز بالدلو أي ضرب بهـا الماء لتمتلىء . ومعنى البيت انه شارك الغواة في لهوهم وماشاهم في ضلالهم .

رَفع الحجاب لنا فلاح لناظرٍ قمر تقطّعُ دونه الأوهام
مَلِكٌ إذا علِقتْ يداك بحبله لا يعتريك البؤس والاعدام
فالبهو[1] مشتمل ببدر خلافة لبس الشبابَ بنوره الاسلام
ان الذي يُرضي الاله بهديه ملك تردّى الملكَ وهو غلام
ملك إذا اعتسر الأمور مضى به رأي يفلّ السيف وهو حسام
فسلمتَ للأمر الذي ترجى له وتقاعستْ عن يومك الايام

وقال يمدح الفضل بن الربيع

وعظتك واعظة القتيرِ ونهتك ابّهة الكبيرِ[2]
ورددت ما كنت استعر ت من الشباب إلى المُعير
فالآن صرت إلى النهى وبلوت عاقبة السرور[3]
هذا وبحر تنائفٍ وعر الاجازة والعبور[4]
للجنّ فيه حاضر جمّ المجالس والسمير[5]
قاربتُ من مبسوطه بالعنتريس العيسجور[6]
لأزورَ صَفْوَ الله في الـ دنيا من الكرم الخطير[7]
يا فضلُ جاوزت المدى فجللت عن شبه النظير
انت المعظّم والمكبّر في العيون وفي الصدور
فاذا العقول تفاطنتك عرضن في كرم وخِير[8]

١ البهو البيت المقدم امام البيوت ويراد به هنا قصر الخلافة .
٢ القتير الشيب أو أوله ، والابهة العظمة والبهجة والكبر والنخوة .
٣ النهى العقل . وبلوت اختبرت .
٤ التنائف جمع تنوفة وهي المفازة .
٥ الحاضر من معانيه الحي العظيم . والسمير المسامر ولا يكون إلا بالليل .
٦ العنتريس الناقة الغليظة الوثيقة . والعيسجور الناقة السريعة .
٧ من الكرم متعلق بصفو . والخطير الرفيع .
٨ تفاطنتك تصورتك بفطنة . والخير (بالكسر) الكرم والشرف .

وإذا العيون تأمّلتك صدرن عن طرف حسير
ما زلت في عقل الكبيرِ وانت في سنّ الصغير
حتى تعصّرتَ الشبيبة واكتسبت من القتير [1]
عفّ المداخل والمخا رج والغريزة والضمير
والله خصّ بك الخليـ فة فاصطفاك على بصير
فاذا ألاث بك الامو ر كفيته قُحمَ الامور [2]
من قاس غيركمُ بكم قاس الثماد على البحور [3]
أين القليل بنو القليل من الكثير بني الكثير
قوم كفوا ابنـــاء مكـّة نازل الخطب الكبير
فتداركوا جزَرَ الخلا فة وهي شاسعة النصير [4]
لولا مقامهمُ بهـــا هوت الرواسي من ثبير

ومن لطائفه قوله يصف بعض سفن الأمين

سخّر الله للأمين مطـايا لم تسخّر لصاحب المحرابِ [5]
فاذا ما ركابه سرن برّاً سار في الماء راكباً ليث غاب [6]
اسداً باسطاً ذراعيه يعدو اهرتَ الشـّدق كالح الانياب [7]
لا يعانيه باللجام ولا السو ط ولا غمزِ رجله في الركاب
عجب الناس إذ رأوه على صو رة ليث يمرّ مرّ السحاب

---

١ تعصرت أي عصرت مرة بعد مرة . والقتير الشيب .
٢ الاث بك الامور : استودعك إياها . والقحم جمع قحمة وهي المهالك والمصاعب .
٣ الثماد الماء القليل .
٤ الجزر قطع الشاة المذبوحة ، أي تداركوا الخلافة من التجزؤ .
٥ صاحب المحراب هو سليمان الحكيم .
٦ كان للأمين ثلاث من السفن المعروفة بالحراقات لركوبه خاصة وهي الليث والعقاب والدلفين كما هو ظاهر في هذه الابيات .
٧ أهرت الشدق أي واسعه .

سبّحوا إذْ رأوك سرت عليه
كيف لو ابصروك فوق العُقاب

ذات زَور ومنسر وجناحين تشقّ العُباب بعد العباب

تسبق الطير في السماء إذا ما استعجلوها بجيئةٍ وذهاب

بارك الله للأمين وابقـا ه وأبقى له رداء الشباب

ملك تقصُر المدائح عنه هاشميّ موفّقٌ للصواب

وقوله متظارفاً يخاطب الفضل

أنت يا ابن الربيع ألزمتني النسك وعوّدتنيه والخير عاده

فارعوى باطلي وأقصر حالي وتبدّلتُ عفّـة وزهـاده

لو تراني أذكرتَ بالحسن البصري في حسن سَمْتِهِ أو قتاده[1]

المسابيح في ذراعيّ والمصحف في لبّتي مكان القلاده

فادعُ بي لا عدمتَ تقويم مثلي وتفطنْ لموعـد السجاده

تر إثراً من الصلاة بوجهي تـُوقن النفس انها من عباده

لو رآها بعض المرائين يوماً لاشتراها يُعدُّهـا للشهاده

ولقد طالما شقيت ولكن ادركتني على يديك السعاده

وله مدائح مشهورة في العبّاس بن عبيد الله، وابن ابي جعفر المنصور، وفي الخصيب بن عبد الحميد المرادي أمير خراج مصر. فلتراجع في ديوانه.

من شعره الجدي

وهو يمثل شعوره وقد عجز وسئم حياة الخلاعة والمجون

اذا امتحن الدنيا لبيب

ايا رُبّ وجه في التراب عتيقٍ ويا رُبّ حسن في التراب رقيقٍ

---

١ الحسن البصري وقتادة امامان معروفان من أهل القرن الاول .

ويا رب حزم في التراب ونجدة ويا رب رأي في التراب وثيق
أرى كل حيّ هالكاً وابن هالك وذا حسب في الهالكين عريق
فقل لقريب الدار انك ظاعن إلى منزل نائي المحل سحيق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشّفت له عن عدوٍّ في ثياب صديق

وعليك القصد

خلِّ جنبيك لرامٍ وامض عنه بسلامٍ
متْ بداءِ الصمت خير لك من داء الكلامِ
ربما استفتحت بالمزح مغاليق الحِمامِ
ربّ لفظ ساق آجا لَ نيام وقيامِ
إنما السالم منْ ألجم فاه بلجامِ
فالبس الناس على الصحة منهم والسقامِ
وعليك القصدَ ان القصد ابقى للجَمامِ[1]
شِبت يا هذا وما تترك اخلاق الغلامِ
والمنايا آكلات شاربات للأنامِ

كأني لا أعود

ألم ترني أبَحْتُ اللهو نفسي وديني واعتكفت على المعاصي
كأني لا أعود إلى معاد ولا أخشى هنالك من قصاص

فاني قد شبعت[2]

ايا من بين باطية وزقٍّ وعودٍ في يدَي غان مغنّي
إذا لم تنهَ نفسك عن هواها وتُحسن صوْنها فإليك عني

١ أي اعتدل ان الاعتدال ابقى للقوة .
٢ وتروى هذه الابيات ايضاً لأبي العتاهية .

فاني قد شبعت من المعاصي ومن إدمانها وشبعن مني
ومَن اسوا واقبح من لبيبٍ يرى متطرّباً في مثل سني

وقال يرثي نفسه وقد شارف الموت

دب فيَّ الفناء سُفلاً وعلوا وأراني اموت عُضواً فعضوا
ليس من ساعة مضت لي الاّ نقصتني بمرّها بي جُزوا
ذهبت جدّتي بطاعة نفسي وتذكرت طاعة الله نِضوا [1]
لهف نفسي على ليالٍ وأيام تملَّيتهن لعبـــاً ولهوا
قد أسأنا كل الاساءة فاللهمّ صفحاً عنا وغفراً وعفوا

[1] النضو الثوب البالي ، اي بعد ان اصبحت عاجزاً .

ابو العتاهية

اسماعيل بن القاسم

١٣٠ - ٢١١ او ٢١٢ هـ

(٧٤٨ - ٨٢٨ م)

●

مصادر دراسته - كلمة في نسبه واتهامه بالزندقة - حياته الادبية - رسالته الشعرية - مقابلته بأبي نواس - شاعريته - حسناته وسيئاته الفنية

مصادر دراسته

طبقات الشعراء لابن المعتز (١٩٣٩) ص ١٠٥ — ١٠٨
الشعر والشعراء لابن قتيبة (ليدن) ص ٤٩٧ — ٥٠١
مروج الذهب للمسعودي ج ٢ في أخبار المهدي والرشيد
الاغاني (بولاق) ج ٣ ص ١٢٦ — ١٨٣
ج ٦ ص ١٨٦
ج ٨ ص ٢٤
ج ١٦ ص ١٤٩ — ١٥٠
الموشح للمرزباني ص ١٥٤ — ٢٦٣
زهر الآداب للحصري ج ٢ ص ٣٥ — ٣٩
العمدة (هندية) ٢ — ١٠٦
تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (مصر) ج ٦ ص ٢٥٠ — ٢٦٠
وفيات الاعيان ج ١ ص ١٠٠ — ١٠٣
مقدمة ديوان ابي العتاهية ، رواية النمري (طبع الآباء اليسوعيين، بيروت)
وأخبار متفرقة في الكامل والفهرست والعمدة وغيرها .

نسبهُ ونشأته

في كل عصر وفي كل قطر ، إذا كثرت أسباب الغنى والترف ، نشأ في المجتمع البشري مجريان متطرفان ، الاول مجرى العبث والخلاعة ، والثاني مجرى الحرص والتقشف .

في الاول ترى المسترسلين في الموبقات والشهوات الجارين مع الاهواء إلى أقصى الغايات ، وفي الثاني ترى الذين عافت نفوسهم ملذّات الدنيا ، فنكـّبوا عنها إلى زوايا الزهد ينعون إلى الناس زخارفها ، ويدعونهم الى نبذها والنظر الى ما وراءها . وكما يمثل ابو نواس في عصره الفئة الاولى ويعكس لنا حياتهم وعواطفهم ، يمثل زميله ومعاصره ابو العتاهية الفئة الثـانية ويعكس لنـا في ديوانه عواطف المتطرفين من الروحيين والاخلاقيين .

* * *

نشأ شاعرنا في الكوفة ، حتى اذا نضجت صناعة الشعر فيه أمّ بغداد فاتـّصل ببلاط العباسيين ومدح المهدي والهادي والرشيد ، ومات في خلافة المأمون وقد بلغ الثمانين . وقبل البحث في شعره نذكر نقطتين لم يوضحها مؤرخوه تمام الايضاح وهما نسبه وزندقته . فقد ذكر بعض المؤرخين وتبعهم المستشرقان نكـلسون وهوار[١] ان ابا العتاهية عربي الاصل . واذا راجعت ما أورده الاصفهاني وابن خلكان ومن نقل عنهما رأيتهم يتفقون على نسبته الى عنزة بالولاء . ففي الاغاني عن محمد بن موسى قوله : « ولاء ابي العتاهية من قبل أبيه لعنزة ، ومن قبل أمه لبني زُهرة[٢] » .

١ Nicholson, Lit. Hist. 296 - Huart. Hist. of Ar. Lit. 74

٢ الاغاني ٣ – ١٢٧ .

ولعلّ في اسم بلدته التي ولد فيها ما حداهم الى ذلك القول ، فقد ولد في «عين التمر» وهي على ما ذكروا بلدة في الحجاز . والحقيقة ان في العراق بلدة تعرف بهذا الاسم [١] . والاصح ان تكون هي مسقط رأس الشاعر . فانه نشأ في الكوفة والكوفة وعين التمر كلاهما من سقي الفرات . ومما قد يؤيد صحة هذا القول ان بعضهم كان يتهمه بالزندقة [٢] ، ولم يكن يُتّهم بها عادة الا الذين يمتّون بنسب الى الفرس . ولم يكن ابو العتاهية شديد التمسك بنسبه فكان طول حياة يزيد بن منصور الحِميري يدّعي انه مولى لليمن وينتفي من عنزة . فلما مات يزيد رجع الى ولائه الأول [٣] ، وما ذلك فعل من ينتسب نسباً صريحاً الى العرب .

أما زندقته واتهامه بمذهب الفلاسفة فليس في شعره ما يثبتها ، ولم يذكره ابن النديم في جملة شعراء الزنادقة الذين عاصروا ابا العتاهية . وكل ما رأينا من هذا القبيل ان قوماً من أهل عصره كانوا ينسبونه الى القول بمذهب الفلاسفة ويحتجّون بأن شعره انما هو في ذكر الموت دون الآخرة [٤] وهو ليس بصحيح . وقد توهّم المستشرق كولدزيهر من البيت التالي :

اذا أردت شريف الناس كلّهم   فانظر الى ملك في زي مسكين

ان الشاعر ينوّه بفضل بوذا . والحق ما ذكره نكلسون من ان ذلك لا يراد به غير وصف التقي الزاهد ، دون الاشارة الى شخص خاص [٥] .

ومما نسب فيه الى الزندقة الابيات التالية [٦] :

---

١ ابن خلكان ١ — ١٠٠ ومعجم البلدان لياقوت .

٢ ابن قتيبة (ليدن) ٤٩٧ .

٣ الاغاني ٣ — ١٤١ .

٤ الاغاني ٣ — ١٢٦ ، راجع ايضاً وفيات الاعيان تحت ترجمة ابن المعتز .

٥ Lit. Hist. of the Arabs 297

٦ ابن قتيبة (ليدن) ٥٠١ .

اذا ما استجزت الشك في بعض ما ترى فما لا تراه الدهر أمضى واجوز

* * *

وقوله في عتبة [1] :

يا رب لو انسيتنيها بما في جنّة الفردوس لم انسها

* * *

ان المليك رآكِ احسن خَلقهِ ورأى جمالك
فحذا بقدرة نفسه حور الجنان على مثالك

وليس في هذه الابيات عند التحقيق غير مبالغات خيالية قد تجري على لسان المؤمن لتقرير أو إيضاح معنى شعري . ونقلوا عن الصولي قوله بالجوهرين المتضادين كالتنوية ، وقوله بالجبر وما شاكل [2] . وقد جاراهم العلامة زيدان فقال في تاريخه : « وكان ابو العتاهية سوداوي المزاج كثير التردد في أمر الدين فتقلّب على اطوار شتى شأن الذين يحلّون أنفسهم من قيود الدين وينظرون فيه نظر الناقد [3] » . على ان الناظر في شعره لا يجد فيه غير رجل متزيٍّ بزي الفقراء متغنٍّ بأناشيد الزهد . وليس فيه أثر لنظر نقدي في الكون أو لنزعة فلسفية في الدين .

حياته الأدبية

تظهر لنا حياة ابي العتاهية في مظهرين : حياة الغزل والمنادمة ، وحياة الوعظ والتقشف . فقد اجمع المؤرخون على ان شاعرنا كان في أول أمره يعيش كسائر شعراء عصره فيمدح ويرثي ويتغزل . وفي القصيدة التي أنشدها يوم تولّى المهدي الخلافة ما يدلُّ على علو كعبه في باب المديح ، فقد روي أن الشاعر بشاراً سمعه ينشد هذه القصيدة التي يقول فيها :

---

١ الاغاني ٣ — ١٥١ .
٢ الاغاني ٣ — ١٢٨ .
٣ تاريخ آداب اللغة ٢ — ٦٨ .

أتته الخلافـــة منقادةً   اليه تجرّر أذيالهـــا
ولم تك تصلح إلا له   ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيره   لزلزلت الارض زلزالها
ولو لم تطعه بنات القلوب   لمـا قبل الله أعمالها

فاهتزّ بشّار طرباً وقال لمن حوله : « ويحكم انظروا ألم يطر الخليفة عن أعواده » .

وله في الغزل أيضاً لطائف تذكر . ولقد انصرف في أول عهده إلى حياة اللهو والتهتك واشتهر بها حتى زعموا انه كني بأبي العتاهية لانه كان يحب التهتّك والمجون والتَعَتّه[1] .

ولكنه لم يكد يبلغ الخمسين حتى تحوّل عن سبيلهم . وكان ذلك على ما رواه صاحب الاغاني في خلافة الرشيد . قال : « وكان ابو العتاهية لا يفارق الرشيد في سفر ولا حضر إلا في طريق الحج ، وكان يُجري عليه في كل سنة خمسين الف درهم سوى الجوائز والمعادن . فلما قدم الرشيد الرقّة (وذلك سنة ١٨١ هـ) لبس الشاعر الصوف وتزهد ، وترك حضور المنادمة والقول في الغزل[2] » . فما الذي دفعه إلى ترك ما كان عليه الشعراء والتزام طريقة الزهد والتنسك ؟ سؤال جدير بالنظر . ولا بد لنا قبل الاجابة عليه من ان ننظر فيما يلي :

١ – حالته النفسية واستعداده الفطري لذلك
٢ – تأثر نفسه بتهتّك معاصريه وتماديهم في أسباب الترف
٣ – فشله في حبه لفتاة من جواري المهدي
٤ – ميله إلى الطريقة الزهدية في الشعر .

أما استعداده الفطري فليس لنا من دليل صريح عليه ولكننا نستنتج مما عرف عن ابي العتاهية من حب المال والحرص على الدنيا ، انه كان

---

١ راجع مجلسه مع ابي نواس وصريع الغواني في العقد ٣ – ١٦٤ وراجع الاغاني ٣ – ١٢٧ .
٢ الاغاني ٣ – ١٥٧ .

ذا نظر في العواقب وعلى شيء – حتى في ابّان شبابه – من ضبط النفس مما لا نراه عادة في متهتكي عصره فلم يكن شديد الميل إلى الانفاق في سبيل الشهوات ، وبكلمة أخرى لم تكن مشاركته لزملائه في مجونهم أيام شبابه لتقتل فيه ميله إلى الحرص والرزانة . جاراهم ولكن إلى حين ، واندفع في تيار الحياة ولكنه لم يرخ لنفسه العنان . ولم يلبث ان رأيناه يتراجع عنه مشمئزاً ، مهيباً بالآخرين ان يسلكوا سبيل الرشاد ، وان يعتبروا بظروف الزمان . ولا نشك انه كان لعصره تأثير عليه ، وان ذلك التأثير تحوّل إلى عاطفة شعرية مغايرة لعواطف زملائه يومئذ . فترك الغزل والمنادمة ، واختط لنفسه اسلوباً آخر أحبّ ان ينفرد فيه . وانّا لنلمح ذلك مما نقله لنا ابن منظور عن أبي مخلد الطائي قال : « جاءني أبو العتاهية فقال لي ان أبا نواس لا يخالفك ، وقد أحببت ان تسأله الاّ يقول في الزهد شيئاً ، فاني قد تركت له المديح والهجاء والخمر والرقيق وما فيه الشعراء ، وللزهد شوقي . فبعثت إلى ابي نواس فجاءَ إليّ وأخذنا في شأننا . فقلت لابي نواس ان ابا اسحق [1] (ابا العتاهية) من قد عرفت جلالته وتقدمه ، وقد أحب انك لا تقول في الزهد شيئاً . فوجم ابو نواس عند ذلك وقال : يا ابا مخلد قد قطعت عليّ ما كنت احب ان ابلغه من هذا . . . ولا اخالف ابا اسحق فيما رغب اليه [2] » . فأبو العتاهية اذن اصطنع الزهد واتخذه طريقة فنية مندفعاً اليه بشوق نفسه إلى هذا النوع من الشعر . واذا صح ما زعمناه لشاعرنا من الاستعداد الفطري ، وانه مجاراةً لهذا الاستعداد رأى ان ينفرد بالزهد دون سائر ابواب الشعر ، بقي ان ننظر في المحرّك المباشر الذي حرّك في نفسه شهوتها الزهدية وحبّب اليه ترك حياته الأولى . هذا المحرّك هو على ما يقول المؤرخون فشله في حبه لعتبة جارية الخيزران امّ الرشيد . وفي ذلك يقول المعرّي [3] :

١ كنيته الحقيقية ابو اسحق وانما ابو العتاهية لقب له .
٢ أخبار أبي نواس ٧٠ .
٣ اللزوميات ١ – ١١٨ .

الله ينقل من شا ءَ رتبةً بعد رتبه
ابدى العتاهيّ نسكاً وتاب عن حبّ عُتبه

وعن المسعودي ان ابا العتاهية لبس الصوف ليأسه من عتبة [1] . وكان ذلك أيام الرشيد ، وقد آثر السجن على ان يرجع بعدها الى قول الغزل [2] . أما انه احب هذه الجارية حباً شديداً فذلك ما اجمع عليه المؤرخون ، واليك بعضاً من غزله فيها :

يا عتب سيّدتي اما لك دينُ حتى متى قلبي لديك رهينُ
وانا الذلول لكل ما حمّلتني وانا الشقي البائس المسكين
وانا الغداة لكل باكٍ مسعدٌ ولكل حبٍّ صاحب وخدين
لا بأس إنّ لذاك عندي راحة للصب ان يلقى الحزين حزين
يا عتب اين افرّ منك اميرتي وعليّ حصن من هواك حصين

وقال من قصيدة :

كأنها من حسنها درّة اخرجها اليمّ إلى الساحل
كأنما فيها وفي طرفها سواحرٌ اقبلن من بابل
لم يبق مني حبّها ما خلا حُشاشةً في بدن ناحل

ويذكر الحصري ان ابا العتاهية ضرب مئة سوط ونفي إلى الكوفة من اجل غزله بعتبة ، وان المهدي قال حين نفاه : « ابي يتمرّس وبحرمي يتعرّض وبنسائي يعبث [3] ! » وجاءَ لابن قتيبة انه حبسه ، ثم تشفّع له يزيد بن منصور خال المهدي فاطلقه [4] . والظاهر انه خاف المهدي فانقطع عن ذكر الجارية . فلما مات عاد امله فطلبها من الرشيد كما روى المسعودي ولكنه باء بالفشل . وبين اول حبه لعتبة ويأسه من الحصول عليها

---

١ المسعودي ج ٧ — ٣٣٦ .
٢ الاغاني ٣ — ١٤٠ .
٣ زهر الآداب ٢ — ٣٦ .
٤ الشعر والشعراء (ليدن) ٤٩٨ .

نحو من عشرين سنة بقيت فيها شرارة الحب مشتعلة برغم كل الموانع ، وبرغم انه كان متزوجاً . وهو حب شديد وغريب في عصر كعصره ، يذكـّرنا بحب شاعر ايطاليا لفتاته بياتريس وما كان له من التأثير في نفسه كل حياته .

من فشل دانتي نشأت الكوميديا الالهية . فهل من فشل ابي العتاهية نشأ شعره الزهدي ؟ قد يكون ذلك .

على ان في مسلكه الزهدي ما راب بعض اهل زمانه . وتحدّر هذا الريب بصحة زهده إلى الاجيال التالية . هذا ابو العلاء المعري يقول في البيتين الآنفي الذكر « ابدى العتاهي نسكاً » . وفي العبارة ما فيها من الشك في ذلك النسك . وهناك حكايات لمعاصريه تنمّ على روح الاستخفاف بتزهده ، وتتـّهمه بالادعاء والتظاهر . من ذلك ما رواه الاصفهاني عن ثمامة بن أشرس قال : « انشدني ابو العتاهية :

إذا المرء لم يُعتق من المال نفسه تملـّكه المال الذي هو مالكه
الا انما مالي الذي انا منفق وليس لي المال الذي انا تاركه
إذا كنت ذا مال فبادره بالذي يحقّ والا استهلكته مهالكه

فقلت له من اين قضيت بهذا ؟ فقال من قول رسول الله (ص) : انما لك من مالك ما اكلت فافنيت ، او لبست فأبليت ، او تصدقت فامضيت . » فقلت له اتؤمن ان هذا قول رسول الله (ص) وانه الحق ؟ قال نعم . قلت فلِمَ تحبس عندك سبعاً وعشرين بدرة في دارك ، ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تزكـّي ، ولا تقدّمها ذخراً ليوم فقرك ؟ فقال : يا ابا معن ، والله ما قلت لهو الحق ، ولكني اخاف الفقر والحاجة إلى الناس . فقلت وبما تزيد حال من افتقر على حالك ، وانت دائم الحرص ، دائم الجمع شحيح على نفسك لا تشتري اللحم إلا من عيد إلى عيد ؟ فترك جواب كلامي كله ، ثم قال لي : والله لقد اشتريت في يوم عاشوراء لحماً وتوابله وما يتبعه بخمسة دراهم . فلما قال هذا القول اضحكني حتى اذهلني عن

جوابه ومعاتبته ، فامسكت عنه وعلمت انه ليس ممن شرح الله صدره للاسلام »[1] .

وروى الحصري عنه الحديث التالي قال : « دخل ابو العتاهية على ابنه محمد وقد تصوّف : فقال ، الم أكن قد نهيتك عن هذا ؟ (أي عن التصوّف) ، فقال ابنه : وما عليك ان اتعوّد الخير ؟ فأخذ ابو العتاهية يؤنبه ويقرّعه ، ثم قال له : اقبل على سوقك فانها أعود اليك . وكان ابنه بزّازاً[2] » . وامثال هذه الحكايات كثيرة تجدها في الاغاني وسواه . ولعل ذلك ما حمل سلم ابن عمرو الملقب بالخاسر ان يغضب حين انشد ابو العتاهية قصيدته التي يقول فيها مخاطباً سلماً بهذين البيتين :

تعالى الله يا سلمَ بن عمرو　　اذلّ الحرص أعناق الرجال
هب الدنيا تساق اليك عفواً　　أليس مصير ذاك إلى الزوال

فقال سلم : « ويلي على الجرّار الزنديق ، جمع الاموال وكنزها وعبأ البدر في بيته ثم تزهد مراآة ونفاقاً ، فأخذ يهتف بي إذا تصدّيت للطلب . »[3] وقال الجمّاز ابن اخت سلم ويرويها ياقوت لسلم نفسه :

ما أقبح التزهيد من واعظ　　يزهّد الناس ولا يزهد
لو كان في تزهيده صادقاً　　اضحى وامسى بيتَه المسجد
يخاف ان تنفد ارزاقه　　والرزق عند الله لا ينفد

وانك إذا تحريت الحكايات الكثيرة التي ينقلونها عن ابي العتاهية تجد اساسها شك معاصريه بصدق تزهده . وهذا الشك مبني عندهم على ما يلي : ١ – سيرته الاولى ٢ – حرصه على المال ٣ – تبرّم الناس من الوعظ والانذار . وجل ما يقال هنا ان الرجل صدف عن سيرته الاولى ، وانه

---

١ الاغاني ٣ – ١٣٣ .

٢ زهر الآداب ٣ – ٢٢٥ .

٣ معجم الادباء لياقوت ٤ – ٢٤٨ .

لزم جانب التديّن واتخذ الشعر الزهدي فناً فأجاد فيه [1] . ولم يكن زهده انقطاعاً عن الدنيا وترفعاً عن حطامها ، ولكن تقبيحاً لمسلك مترفيها وانذاراً بسوء مصيرها ، واشباعاً لشهوة فنية لم يستطع الا اشباعها . وكان برغم ما يحكونه محترماً من معاصريه حتى ابي نواس [2] .

رسالة ابي العتاهية في شعره

لا يحمل شاعرنا في شعره رسالة جديدة ، ولا يضع مبادىء فلسفية خاصة . وإنما هو يعكس لنا روح الشرق الدينية : احتقار الحياة الدنيا وتعظيم الآخرة . اقرأ كل ديوانه لا ترى فيه إلا دعوة الى ترك الجهاد في سبيل التقدم ، والتحرر من قيود المطامع .

حتى متى يستفزّني الطمع أليس لي بالكفاف متّسعُ
ما افضل الصبر والقناعـــة للناس جميعاً لو انهم قنعوا
واخدعَ الليل والنهار لاقوام اراهم في الغيّ قد رتعوا
لله درّ الدنى فقد لعبت قبلي بقوم فما ترى صنعوا
اثروا فلم يدخلوا قبورهم شيئاً من الثروة التي جمعوا
وكان ما قدّموا لانفسهم أعظم نفعاً من الذي ودعوا

وقال :

طلبت الغنى في كل وجه فلم اجد سبيل الغنى الا سبيل التعفّفِ
خليليّ ما اكفى اليسير من الذي نحاول ان كنا بما عفّ نكتفي
وما اكرم العبد الحريص على النّدى واشرف نفس الصابر المتعفّف

فانت في ذلك وفي سائر شعره امام منبر واعظ يرشدك الى سبل القناعة ،

---

١ قال الخطيب البغدادي : كان يقول في الغزل والمديح والهجاء قديماً ثم تنسك وعدل عن ذلك الى الشعر في الزهد وطريقة الوعظ – تاريخ بغداد ٦ – ٢٥١ .

٢ راجع في المصدر نفسه حديث ابي نواس واجلاله لابي العتاهية حتى قال : ما رأيته قط إلا توهمت انه سماوي وانا أرضي .

سبل الخير كما ينص عليها الدين . ولكن في وعظه شاعرية جليلة ولحناً شجياً يخفف عليك مشقّة الاصغاء إلى الوعظ ولا سيما من واعظ يُعرف فيه الحرص وحب المال . وهو واعظ الموت والظلام ولكن في نبراته ما يجذبك اليه .

واي شيء أدلّ على شاعريته من ان يحملك الى المقابر فيقف بك هناك أمام الجثث البالية والعظام النخرة ، ثم يصف لك ظلام القبور واهوال الحمام ، ويندد بمطامع الانسان وأباطيل الحياة في شعر يثير شجونك ويزيل بهجة الدنيا من أمامك . وانت مع كل ذلك تسمع في أبياته ايقاعاً يحلو لأذنيك ، فتصغي اليه مسروراً ، وتشعر منه بنشوة خفية تملأ قلبك وتحرّك عواطفك .

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى تباب
لمن نبني ونحن إلى تراب نصير كما خلقنا من تراب

صوت شجيّ تقف لديه معتبراً خاشعاً ، ولكنك لا تلبث ان تعيده لنفسك فتنسى بجماله قتام الموت وعبوسة القبر . ثم تسمعه يقول :

ألا يا موت لم أرَ منك بدأ أتيت وما تحيف وما تحابي
كأنك قد هجمت على مشيبي كما هجم المشيب على الشباب
وانك يا زمان لذو صروف وانك يا زمان لذو انقلاب
أراك وان طليت بكل وجه كحلم النوم أو ظلّ السحاب

فتنظر الى الموت نظرك إلى صديق مؤاس يأتي ليخلصك من الزمان، وينقلك الى ظلال الجنان . ولماذا ترى الموت كذلك وهو الرهيب المخوف ؟ لأن الشاعر يضرب على وتر شجيّ يهيج فيك حاسة الاستحسان ، فيطربك ويلقي على ما حولك من فساد ورعب مسحة من جمال الفن الشعري الذي يحول الظلام الى نور ، والرعب الى أمن وطمأنينة .

ولتتثبّت ذلك في نفسك اسمع الابيات التي يصف بها طمع الانسان

ووجوب القناعة وزوال الدنيا – وما تلك بمواضيع تلذ الانسان عادة ، ثم اشرح شعورك لدى سماعها .

ألم ترَ ريب الدهر في كل ساعة   له عارض فيه المنيّة تلمع
ايا بانيَ الدنيا لغيرك تبتني   ويا جامع الدنيا لغيرك تجمع
أرى المرء وثّاباً إلى كل فرصة   وللمرء يوماً لا محالة مصرع
تبارك من لا يملك الملك غيره   متى تنقضي حاجات من ليس يشبع
واي امرىء في غاية ليس نفسه   الى غاية أخرى سواها تطلع

وقوله :

خليلي كم من ميت قد حضرته   ولكنني لم انتفع بحضوري
ومن لم يزده السن ما عاش عبرة   فذاك الذي لا يستنير بنور
أصبت من الأيام لينَ أعنة   فاجريتها ركضاً ، ولينَ ظهور
متى دام للدنيا سرور لأهلها   فأصبح منها واثقاً بسرور

وقوله :

رجعت الى نفسي بفكري لعلها   تفارق ما قد غرها وأذلها
فقلت لها يا نفس ما كنت آخذاً   من الارض لو اصبحت املك كلها ؟
فهل هي الا شبعة بعد جوعةٍ   والا منى قد حان لي ان أملها
أرى لك نفساً تبتغي ان تُعزها   ولست تعز النفس حتى تذلها

الى غير ذلك من العظات الروحية البالغة ، مما يستهوي النفس برغم ما يتراءى فيه من أهوال الموت وكلاحة الورع والزهد . وكل ديوانه على هذا النمط العالي ولا يعيبه الا انه على وتيرة واحدة – موضوع واحد يردده في قصائد مختلفة الوزن والروي .

ولا بد لنا في هذا المقام من ان نقف هنيهة نقابل الروح «النُواسية» بالروح «العتاهية» فانما الشاعر روحه ، وما شعره الحقيقي الا مجلى لعواطفه الداخلية .

كلاهما متشائم : هذا في زهوه وسروره ، وذاك في تزهده وتقتيره . ابو نواس لم يدرك قيمة الحياة ولم يفهم مراميها العالية فانفق نفسه وهواه في سخائفها ، وابو العتاهيــة اخطأ الغاية من وجود الفرد ومن علاقته بالمجتمع ، فنعى عليه ذلك ودعاه الى نبذ الدنيا والاهتمام بالآخرة . وكلاهما مخطىء : ذاك لافراطه في أباطيلها ، وهذا لافراطه في التزهيد بها . ولو اننا جارينا شاعرنا في أقواله وقمنا بما يطلبه في عظاته لتحتم علينا ان نقف كل جهاد وكل سعي ، ونعيش عيشة الخمول والقناعة . واين هـــذا من الرقي الاجتماعي الذي يتطلب من كل فرد ان يسعى ويجد ليدرك أقصى ما يستطيع ادراكه .

سأقنع ما بقيت بقوت يومٍ ولا ابغي مكاثرة بمـالِ
تعالى الله يا سلم بن عمرو اذل الحرص اعناق الرجال
فما ترجو لشيء ليس يبقى وشيكاً مـــا تغيره الليالي

هي الروح الشرقية القديمـــة التي تحتقر الدنيا وتنظر اليها كممرّ زائل لحياة عليا . نظرٌ تعكسه لنا كتب الدين ، وأقوال الأنبياء والاتقياء وقادة الحياة الدينية في كل جيل . واننا اذا فسرنا القناعة (أو الزهد) بانها لجام الشهوات الفاسدة والاطماع الثائرة والتعالي عن الطبيعة الحيوانية التي تدعونا الى التعدي وحب الاثرة ، كانت القناعة حكمة اجتماعية عالية ، بل صدق الداعون اليها انها باب السعادة الدنيوية . وامـــا إذا كانت كما يصفونها الوقوف عن الجهاد ، والبعد عن أسباب التقدم ، وطلب الراحة في زوايا المناسك ، والظهور بمظهر الفقر والتصوّف ، فهي الخمول الذي يزيـــد اكدار الانسان ويبعده عن سعادته المنشودة . وهنا وجه الضعف في رسالة ابي العتاهية : انه قام ينشد لنا اناشيد الدين دون ان يتفنن في تطبيقها على الحياة العملية ، وكان في شعره يقلد الزهاد ورجـــال الدين تقليداً .

والا ففي وسع من كان في مقدرته الشعرية ان يستخلص من حياة عصره صوراً اجتماعيّة عالية يصوّرها فيرينا بها جمال الفضائل الدينية والآداب القومية ، او قباحة اضدادها ، على نحو ما يفعل الاجتماعيون من شعراء وناثرين .

حكمه

ولأبي العتاهية في هذا الضرب من المنظوم مكانة عالية – فهو قدير بضرب الأمثال وعقد جوامع الحكمة في أبيات شعرية جميلة : واليك أمثلة من ذلك :

أخوك الذي من نفسه لك منصف إذا المرء لم ينصفك ليس اخاكا

* * *

وليس امرؤٌ لم يرعَ منك بجهده جميع الذي ترعاه منـــه بمنصف

* * *

هب الدنيـــا تساق اليك عفواً أليس مصير ذاك إلى الزوال

* * *

وذقت مرارة الأشيـــاء طرّا فما طعمٌ أمـــرّ من السؤال

* * *

أجلـّك قوم حين صرت إلى الغنى وكلّ غنيٍّ في العيون جليل
وليس الغنى الّا غنى زيّن الفتى عشيّة يَقري أو غداة ينيل
إذا مالت الدنيا إلى المرء رغـّبت اليه ومال الناس حيث يميل

* * *

توقّ يداً تكون عليك فضلاً فصانعها اليك عليك عـــالِ

طلبت المستقرّ بكل ارض فلم أرَ لي بأرض مستقرّا
اطعتُ مطامعي فاستعبدتني ولو اني قنعت لكنت حرّا

* * *

لقد حلبت الزمان اشطُره فكان فيهنّ الصاب والسّلع
مالي بما قد اتى به فرح ولا على ما ولى به جزع

* * *

صاحب البغي ليس يسلم منه وعلى نفسه بغى كل باغ

* * *

لله دنيا اناس دائبين لها قد أرتعوا في رياض الغيّ والفتن
كسائمات رتاعٍ تبتغي سِمناً وحتفها لو درت في ذلك السمن

* * *

واي امرىء في غاية ليس نفسه إلى غاية اخرى سواها تَطلّع

* * *

وابَلائي من دعاوي أملٍ كلما قلت تدانى بعُدا
كم امنّى بغدٍ بعد غدٍ ينفد العمر ولا القى غدا

* * *

ألم ترَ ان الفقر يرجى له الغنى وأن الغنى يخشى عليه من الفقر

* * *

فتّشت ذي الدنيا فليس بها احد أراه لآخر حامدْ
حتى كأنّ الناس كلّهم قد أفرغوا في قالب واحدْ

* * *

ما اختلف الليل والنهار ولا دارت نجوم السماء في الفلكِ
الا لنقل السلطان عن ملك قد انقضى ملكه إلى ملكِ

* * *

انت ما استغنيت عن صاحبك الدهرَ اخوه
فاذا احتجت اليه ساعة ً مجّك فوه

وله ارجوزة حكمية جمع فيها كثيراً من الامثال البليغة .

وقد ذكر صاحب الاغاني انها تبلغ نحو أربعة آلاف مثل ، على انه لم يُثبت منها غير بضعة وعشرين مثلاً . أما في ديوان ابي العتاهية فقد نقل منها ما يقارب الخمسين ، ولم نعثر عليها كلها أو على معظمها في كتاب ما ، ولعلها ضاعت في جملة ما ضاع من كتب الاولين .

وأكثر حكمها عاديّ على ان فيها كثيراً مما يبلغ الدرجة الاولى من الجمال .

كقوله :

ان كان لا يغنيك ما يكفيكا فكل ما في الارض لا يغنيكا

وقوله :

لن يصلح الناسُ وانت فاسدُ هيهات ما أبعد ما تكابد

وهو معنى في غاية الجمال يريد بذلك ان المجتمع لا يصلح ما لم يصلح كل فرد ذاته .

وقوله :

من جعل النمّام عيناً هلكا مُبلغك الشر كباغيه لكا

وهو معنى متداول مألوف ولكنه جميل .

ومن أجمل معانيه قوله :

يوسّع الضيق الرضا بالضيق وإنما الرشد من التوفيق

ولو أردنا التوسع في الشطر الاول من هذا البيت لضاق بنا المقام وهو من أثبت الحقائق العقلية والاجتماعية .

وهناك كثير من أمثال هذه الأبيات وهي تدل على مقدرة الشاعر على سبك الحقائق في قوالب شعرية جميلة . وعلى ان حكمه عموماً محدودة المعنى فهو يحصرها في منحى واحد من مناحي الحياة ، ويظهر فيها بمظهر المُرشد المُنذر ، والحكيم الواعظ . ولو قابلتها بحكم المتنبي مثلاً لوجدت هذه أوثق علاقة بماجريات الحياة ، وبالتالي أكثر شيوعاً بين جميع الطبقات . وما الفرق بين أبي العتاهية والمتنبي في هذا الباب إلاّ ان الاول بنى حكمَه على ما تتطلبه حياة الزهد ، فجاءَت على حسن نظمها مقيدة بغايتها . وأما الثاني فخاض غمار الحياة ، وعرف حلوها ومرّها . وقد ترك لنا اختباراته في ابيات يستهوي القلوب جمالها ، لصدق ما ترسمه من أحوال العمران ، ولشدة مماثلتها لما يشعر به كل انسان .

شاعريته وشعره

قال صاحب الاغاني : « ويقال اطبع الناس بشّار والسيّد وابو العتاهية . وكان أبو العتاهية غزير البحر لطيف المعاني سهل الالفاظ كثير الافتنان قليل التكلف إلاّ انه كثير الساقط المرذول مع ذلك . وأكثر شعره في الزهد والامثال » . على انه برغم ذلك كان من الطبقة الاولى في النظم .

قال احمد بن زهير : سمعت مصعب بن عبدالله يقول ، ابو العتاهية اشعر الناس فقلت بأي شيء استحق ذلك فقال بقوله :

تعلّقتُ بآمال طوال أيّ آمال
واقبلت على الدنيا ملحّاً أيّ اقبال
ايا هذا تجهّز لِـ فراق الأهل والمال
فلا بدّ من الموت على حال من الحال

ثم قال مصعب : « هذا كلام سهل لا حشو فيه ولا نقصان [1] يعرفه العاقل ويقرّ به الجاهل » . وقال ابن الاعرابي وقد أثاره رجل رمى ابا العتاهية بالضعف « فوالله ما رأيت شاعراً قط اطبع ولا اقدر على بيت منه ، وما احسب مذهبه الّا ضرباً من السحر » [2] .

وسمع الجاحظ مرّة مَن ينشد ارجوزة ابي العتاهية التي سماها ذوات الأمثال حتى أتى على قوله :

يا للشباب المرِح التصابي روائح الجنّة في الشباب

فقال للمنشد قف . ثم قال أنظر إلى قوله « روائح الجنة في الشباب » فإن له معنى كمعنى الطرب لا يقدر على معرفته إلا القلوب ، وتعجز عن ترجمته الألسنة الا بعد التطويل وادامة التفكير . وخير المعاني ما كان القلب الى قبوله أسرع من اللسان الى وصفه [3] .

وكان الأصمعي يقول شعر أبي العتاهية كساحة الملوك يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف والنوى .

وفي الأغاني سئل ابن مناذر عن أشعر أهل الاسلام فقال : من إذا شئت هزل واذا شئت جدّ فمثل جرير ، ومن المحدثين هـذا الخبيث (أي أبو العتاهية) الذي يتناول شعره من كمه [4] .

وقال المبرّد كان اسماعيل بن القاسم (أبو العتاهية) لا يكاد يخلي شعره مما تقدم من الاخبار والآثار ، فينظم ذلك الكلام المشهور ، ويتناوله أقرب متناول ، ويسرقه أخفى سرقة [5] .

والمتأمل شعر أبي العتاهية يثبت لديه جلّ ما ذكرناه من وصف واصفيه

---

١ الاغاني (بولاق) ٣ — ١٣٠ .
٢ الاغاني (بولاق) ٣ — ١٣١ .
٣ الاغاني ٣ — ١٤٣ .
٤ الاغاني ٣ — ١٥٤ .
٥ الكامل ١ — ٢٣٨ .

وأهم خصائصه الفنيّة ثلاث :

١ – سهولة الألفاظ وهي مذهبه في جميع قصائده .

نقل الاصفهاني قوله لابن أبي الأبيض وقد جاءَ يستزيده من شعره . « فالصواب ان تكون ألفاظه مما لا تخفى على جمهور الناس مثل شعري ، ولا سيما الأشعار التي في الزهد . وهو مذهب أشغف الناس به الزهّاد وأصحاب الحديث والفقهاء ، وأصحاب الرياء (كذا) والعامة ، وأعجب الاشياء اليهم ما فهموه [١] . » وأنشد مرة أبياتاً أمام سلم الخاسر فقال سلم لقد جوّدتها لو لم تكن سوقيّة . فقال أبو العتاهية والله ما يرغبني فيها الا الذي زهدت فيه [٢] . وقد عرف له نقدة الشعر ذلك . قال ابن رشيق : ومنهم من ذهب الى سهولة اللفظ واغتفر فيها الركاكة واللين المفرط كأبي العتاهية والعباس بن الاحنف ومن تابعهما [٣] وهم يرون الغاية قول أبي العتاهية :

يا اخوتي ان الهوى قاتلي فسيّروا الأكفان من عاجل
ولا تلوموا في اتبّاع الهوى فإنني في شغل شاغل
عيني على عتبة منهلّة بدمعها المنسكب السائل
يا من رأى قبلي قتيلا بكى من شدة الوجد على القاتل
بسطت كفي نحوكم سائلا ماذا تردّون على السائل

وقد ذُكر ان أبا العتاهية وأبا نواس والحسن بن الضحاك اجتمعوا يوماً فقال أبو نواس لينشد كل واحد منكم قصيدة لنفسه في مراده من غير مدح ولا هجاء فأنشد أبو العتاهية هذه القصيدة فسلّما له وامتنعا عن الانشاد بعده وقالا اما مع سهولة هذه الألفاظ وملاحة هذا القصد وحسن هذه الاشارات فلا ننشد شيئاً .

---

١ الاغاني ٣ – ١٦١ .
٢ الاغاني ٣ – ١٧٣ .
٣ العمدة ١ – ٨١ .

٢ – رشاقة التعبير : وهي من مزايا الشعراء المطبوعين ويراد بها البعد عن التكلف والتعقيد . تقرأ قصائد ابي العتاهية فتجدها رشيقة المبنى تسيل عذوبة وطلاوة . وقد صدق الخطيب البغدادي اذ قال : « وكان سهل القول قريب المأخذ بعيداً عن التكلّف متقدماً في الطبع [1] . تأمل هذه الأبيات التي قالها أمام المهدي يعزيه في بنت له ماتت فحزن عليها حزناً شديداً . قال شاعرنا فوافيته وقد سلا وضحك وأكل وهو يقول : لا بد من الصبر على ما لا بد منه . ولئن سلونا عمن فقدنا ليسلونّ عنـا من يفقدنا . وما يأتي الليل والنهار على شيء إلّا أبلياه » . فلما سمعت هذا منه قلت يا أمير المؤمنين أتأذن لي ان أنشدك . قال هات ، فأنشدته :

ما للجديدين لا يبلى اختلافهما ... وكل غضٍّ جديد فيهما بالِ
يا من سلا عن حبيب بعد موتته ... كم بعد موتك أيضاً عنك من سال
كأنّ كلّ نعيم أنت ذائقــهُ ... من لذة العيش يحكي لمعة الآل
لا تلعبنّ بك الدنيا وأنت ترى ... ما شئت من عِبرٍ فيها وأمثال
مــا حيلة الموت إلا كل صالحة ... او لا فما حيــلة فيها لمحتال

وروي ان أبا العتاهية مرّ بأبي نواس في السكة ومعه بعض الرفاق ، فسلّم ثم أومأ برأسه الى نواس وأنشأ يقول :

لا ترقدنّ – لعينك السهرُ – ... وانظر الى ما تصنع الغِيَرُ
واذا سألت فلم تجـد أحداً ... فسل الزمان فعنده الخبرُ
أنت الذي لا شيء تملكــه ... واحق منك بمالك القــدَرُ

فنظر ابو نواس الى من حوله وقال : « أفسحر هــذا أم أنتم لا تبصرون » [2] .

ومثل هذه الشهادة شهدها بشار يوم أنشد شاعرنا قصيدته في المهدي :

---

١ تاريخ بغداد (مصر) ٦ – ٢٥١ .

٢ تاريخ بغداد ٦ – ٢٥٩ .

ألا ما لسيّدتي ما لها   أدلاً فاحمــل ادلالها

وقد مرّ معنا ذكرها .

وفي رشاقة شعره يقول ابن الأثير [1] : « وهذا ابو العتاهية كان في عزّ الدولة العبّاسية ، وشعراء العرب إذ ذاك موجودون كثيراً . واذا تأملت شعره وجدته كالمــاء الجاري رقة ألفاظٍ ولطافة سبك ، وليس بركيك ولا واه » . وحكم ابن الاثير فيه حكم خبير الا انه تغاضى عن بعض ركاكته كما سترى بعد .

٣ – سرعة الخاطر وما يقترن بذلك أحياناً من الركاكة ، قيل له كيف تقول الشعر ؟ قال ما أردته قط الا مثّل لي فأقول ما أريد وأترك ما لا أريد . وكان يقول لو شئت أن أجعل كلامي كله شعراً لفعلت [2] . ووصفه ابن قتيبة بقوله : « وكان احد المطبوعين وممن يكاد يكون كلامه كله شعراً » .

فهو سريع الخاطر واذا صح ما ذكرناه من وصف الأصمعي له لم يكن من الذين يعتنون بغربلة أبياتهم وطرح ما يجب طرحه . وقد تناول المرزباني هــذه الناحية من شعر أبي العتاهية وذكر اقوال الناس فيها وأورد له بعض ما يعيبونه من شعره كقوله في عُتبة :

الا يا عتبة الساعهْ   أموت الساعةَ الساعهْ

وقوله في رثاء سعيد بن وهب :

---

١ المثل السائر ١٠٥ .

٢ الاغاني ٣ – ١٣١ .

مات والله سعيدُ بن وهبِ رحم الله سعيد بن وهب
يا ابا عثمان ابكيت عيني يا ابا عثمان أوجعت قلبي

وغير ذلك من القول السخيف الذي تناقله الرواة من شعره [1] .

فكان كثيراً ما تأتي ألفاظه مكررة لا فائدة منها كقوله :

مَن أحسّ لي أهل القبور ومن رأى من احسّهم لي بين طباق الثرى
من أحسّ لي ما كنت آلفه ويألفني فقد انكرتُ بعد الملتقى
من أحسه لي اذ بمالج غُصّةً متشاغلاً بعلاجهـا عمّن دعا
من أحسه لي فوق ظهر سريره يمشي به نفر الى بيت البـلى
يا أيها الحيّ الذي هو ميت أفنيت عمرك في التعلّل والمنى

فلو وثبتَ فوق البيت الثالث والبيت الرابع ، حتى وفوق الثاني أيضاً لكان الاتصال بين الاول والأخير أشد ولم يخسر المعنى شيئاً يذكر . ناهيك بركاكة الفعل أحسّ واستعمال الوصل بعد القطع فيه . وكذلك قوله :

أين الحماة الصابرون حميّةً يوم الهياج لحرّ مختلف القنا
وذوو المنابر والعساكر والدسا كر والحضائر والمدائن والقرى
وذوو المواكب والكتائب والنجائب والمراتب والمناصب في العلى
أفناهم ملك الملوك فأصبحوا ما منهم أحد يحسّ ولا يرى
وهو الخفيّ الظاهر الملك الذي هو لم يزل ملكاً على العرش استوى
وهو المقدّر والمدبّر خلقه وهو الذي في الملك ليس له سوى
وهو الذي يقضي بما هو أهله فينا ولا يقضى عليه اذا قضى

فانظر التكرار غير المفيد في البيت الثاني والثالث ، ثم تأمل تكريره لصفات الله في الابيات الثلاثة الاخيرة . وكله من قبيل سرعة الخاطر وتزاحم الالفاظ على المعنى الواحد .

---

[1] راجع ذلك في الموشح ٢٥٦ – ٢٦١ .

واقرأ هذه الابيات من قصيدته التي مطلعها « لمن طلل اسائله معطّلة منازله » واحكم لنفسك فيما نحن بصدده من ميله الى الاطالة والتكرار وعدم الغربلة :

أأيتها المقابر فيك من كنّا ننـازلهُ
ومن كنا نتاجره ومن كنا نعامله
ومن كنا نعاشره ومن كنا نداخله
ومن كنا نفاخره ومن كنا نطاوله
ومن كنا نشاربه ومن كنا نؤاكله
ومن كنا نرافقه ومن كنا ننازله
ومن كنا نكارمه ومن كنا نجامله
ومن كنا له إلفاً قليلاً ما نزاوله
ومن كنـا له بالأمس اخواناً نواصلـه

وقوله يتعجب ممن لا يهتم بآخرته :

سبحان ربّكَ ما أراك تتوبُ والرأس منك بشيبة مخضوبُ
سبحان ربك ذي الجلال أما ترى نـُوب الزمان عليك كيف تنوبُ
سبحان ربك كيف يغلبك الهوى سبحانه ان الهوى لغلوبُ
سبحان ربكَ ما تزال وفيك عن اصلاح نفسك فترةٌ ونكوبُ
سبحان ربك كيف يلتذّ امرؤٌ بالعيش وهو بنفسه مطلوبُ

ومن ذلك قصيدة يذكر فيها الانسان وموته ونسيان الناس له قال فيها :

فاذا ما استودعوه الارض وهناً تركوهُ
خلـّفوهُ تحت رمس اوقروهُ أثقـلوهُ
ابعدوهُ اسحقوهُ اوحدوهُ افردوهُ
ودّعوهُ فارقوهُ اسلـموهُ خلـّفوهُ
وانثنوا عنـه وخلـّوهُ كأنْ لم يعرفوهُ

وله مثل هذا كثير في ديوانه ، وهو راجع كما أسلفنا الى سرعة خاطره وتزاحم الالفاظ حول المعنى الواحد من معانيه وعدم اهتمامه بطرح الغث منها .

٤ – عدم التفنن في الخيال . ولا أريد بالخيال هنا اللطائف الشعرية فقط من تشبيه واستعارة وكناية وما شاكل ، بل اعني الخطة او الصورة التي يتخيلها الشاعر فيحمل الناس عليها الى غرضه . فأنت إذا طالعت ديوان ابي العتاهية لا تجد فيه الا موضوعاً واحداً يحوم حوله ويعرضه علينا عرضاً يكاد يكون واحداً – وصف القبور وأهوالها – فناء الاعراض الدنيوية ، فساد الانسان وعقاب الآخرة . ولقد تقرأ بضع قصائد منه فتستغني بها عن سائر الديوان . وإذا كان لك جلَد الباحث وتحملت عناءَ قراءَته ألفيت نفسك أمام موسيقيٍّ شرقي يكرر عليك لحناً واحداً يكيّفه على « تقاسيم » شتى فيؤثر فيك ، ولكنك لا تلبث بعد مدة ان تشعر بملل من ذلك التكرار ، وبرغبة في استماع شيء جديد على تلك الأوتار . ليس لأبي العتاهية قلم الفنّان الاجتماعي الذي يرى الحياة بطولها وبعرضها فيستخلص منها مواضيع شائقة يتفنن في عرضها على الجمهور . نعم ان العصور تختلف من حيث السياسة وأسباب العمران ولكن الدوافع النفسية هي هي ، وما يحدث الآن كان يحدث في كل أوان .

لم يكن شاعرنا كثير الافتنان في انشاده ، بل كان له وتر واحد ينقر عليه نغمات متماثلة مؤثرة ولكنها خالية من سعة التخيل والنفوذ الى مناطق الحياة الحقيقية .

فاذا قرنت ذلك بمزاياه الاخرى من سهولة المعنى وسلاسة المبنى فهمت لماذا يختلف النظر في حقيقته ، ولماذا يجمع في شعره بين السمو والاسفاف والبلاغة والركاكة .

المختار من شعر ابي العتاهية

يقف على المقابر فينشد لنا نغمات الموت والآخرة . وبرغم انه
يكررها ويرجّعها على وتر واحد نجد فيها ايقاعاً
يلذّ نفوسنا ويؤثر فيها

في غرور الدنيا

نصبتِ لنا دونَ التفكـّر يا دنيا   امانيّ يفنى العمر من قبل ان تفنى
متى تنقضي حاجاتُ من ليس واصلاً   الى حاجةٍ حتى تكون له أخرى
لكل امرىء فيما قضى الله خطـّةٌ   من الأمر فيها يستوي العبدُ والمولى
وإنّ امرءاً يسعى لغيرِ نهايةٍ   لمنغمسٌ في لجـّةِ الفاقةِ الكبرى

في ذكرى الشباب

بكيتُ على الشباب بدمع عيني   فلم يغنِ البكاءُ ولا النحيبُ
فيا أسفاً اسفتُ عـــلى شباب   نعاهُ الشيبُ والرأسُ الخضيب
عريتُ منَ الشباب وكان غضّاً   كما يعرى من الورق القضيب

في زوال الدنيا

لِدوا للموت وابنوا للخرابِ فكلُّكمُ يصيرُ الى تَبابِ
لمن نبني ونحن الى ترابٍ نصيرُ كما خُلقنا منْ ترابِ
ألا يا موتُ لم أرَ منك بدّاً أتيت وما تحيفُ وما تحابي
كأنّك قد هجمتَ على مشيبي كما هجم المشيب على شبابي
أيا دُنيايَ ما ليَ لا أراني اسومكِ منزلاً الاّ نبا بي
وانكَ يا زمانُ لذو صروف وانك يا زمان لذو انقلابِ
فما لي لستُ احلبُ منك شطراً فاحمد منك عاقبةَ الحلابِ
وما لي لا ألحّ عليكَ الاّ بعثتَ الهمّ لي من كل بابِ
اراكَ وان طليتَ بكلّ وجهٍ كحُلم النوم او طلّ السحابِ
أو الامس الذي ولّى ذهاباً وليس يعودُ أو لمع السرابِ
وهذا الخَلق منك على وفاةٍ وأرجلهم جميعاً في الركابِ
وموعد كل ذي عملٍ وسعيٍ بما أسدى غداً دار الثوابِ
تقلّدْتُ العظامَ من الخطايا كأني قد أمنت من العقابِ
ومهما دمتُ في الدنيا حريصاً فإني لا أوفّق للصوابِ
سأسأل عن أمور كنت فيها فما عذري هناك وما جوابي
بأيّةِ حُجّةٍ أحتجّ يومَ الحسابِ اذا دُعيتُ الى الحسابِ
هما أمران يوضحُ عنهما لي كتابي حين أنظر في كتابي
فإمّا أن أخلّدَ في نعيمٍ وإما أن أخلّدَ في عذابِ

في الحرية الحقيقية

طلبت المستقرّ بكل أرض فلم أرَ لي بأرض مستقرّا
أطعت مطامعي فاستعبدتني ولو اني قنعت لكنت حرّا

في أهل القبور

اخويّ مرّا بالقبو ر وسلّما قبل المسير
ثم ادعوا من عادها من ماجدٍ قرمٍ فخور
ومسوّدٍ رحبِ الفناء اغرّ كالقمر المنيرِ
يا من تضمّنه المقابر من كبـيرٍ أو صغيرِ
هل فيكم أو منكمُ من مستجار أو مجيرِ
أو ناطق أو سامـع يوماً بعُرف أو نكيرِ
أهلَ القبورِ أحبتي بعد الجذالة والسرور
بعد الغضارة والنضارة والتنعّم والحبـور
بعد المشاهد والمجا لس والعساكر والقصور
بعد الحسان المسمعا ت وبعد ربّات الخدور
أصبحتمُ تحت الثرى بين الصفائح والصخور
اهلَ القبور اليكمُ لا بدّ عاقبة الامور

في غرور المطامع

حتى متى يستفزّني الطمعُ أليس لي بالكفاف متّسعُ
ما افضل الصبرَ والقناعة للناس جميعـاً لو انهم قنعوا
واخدعَ الليل والنهار لأقوام أراهم في الغيّ قد رتعوا
أمّا المنايا فغـير غافلة لكل حيّ من كأسها جُرَعُ
أيّ لبيب تصفو الحياة لهُ والموت وِردٌ له ومنتجعُ
يا نفس ما لي اراك آمنة حيث يكون الروعات والفزع
ما عُدّ للناس في تصرّف حالاتهم من حوادثٍ تقعُ
لقد حلبت الزمان اشطـُرهُ فكان فيهنّ الصاب والسلَمُ[١]

---

١ نباتان مران .

ما لي بما قد أتى به فرحٌ   ولا على ما ولى به جزعُ
لله درّ الدنى لقد لعبت   قبلي بقوم فما ترى صنعوا
بادوا ووفّتهم الأهلّة ما   كان لهم والايام والجمُع
أثروا فلم يدخلوا قبورهم   شيئاً من الثروة التي جمعوا
وكان ما قدّموا لانفسهم   أعظم نفعاً من الذي ودعوا [١]
غداً ينادى من القبور الى   هول حساب عليه يُجتمع
غداً توفّى النفوس ما كسبت   ويحصد الزارعون ما زرعوا
تبارك الله كيف قد لعبت   بالناس هذي الأهواءُ والبدعُ
شلّت حبُّ الدنى جماعتهم   فيها فقد أصبحوا وهم شيعُ

في شرف العفاف والرضى

متى تتقضّى حاجة المتكلّفِ   ولا سيما من مترف النفس مسرفِ
طلبت الغنى في كل وجه فلم أجد   سبيل الغنى إلا سبيل التعفّف
اذا كنت لا ترضى بشيء تنالُه   وكنتَ على ما فات جمّ التلهّفِ
فلستَ من الهمّ العريض بخارج   ولست من الغيظ الطويل بمشتف
أراني بنفسي معجباً متعزّزاً   كأني على الآفات لست بمشرف
وإني لعينُ البائس الواهن القوى   وعين الضعيف البائسِ المتطرّف
وليس امرؤٌ لم يرعَ منك بجهده   جميع الذي ترعاه منه بمنصف
خليليّ ما أكفى اليسيرَ من الذي   نحاول إنْ كنّا بما عفّ نكتفي
وما أكرمَ العبدَ الحريص على الندى   وأشرفَ نفس الصابر المتعفّف

في ضرورة التقى

بليت وما تبلى ثياب صباكا   كفاك من اللهو المضرّ كفاكا

---

١ ودعوا تركوا .

ألم ترَ ان الشيب قد قام ناعياً ... مقام الشباب الغضّ ثم نعاكا
تسمّع ودع من أغلق الغيّ سمعه ... كأني بداعٍ قد أتى فدعاكا
ألا ليت شعري كيف أنت اذا القوى ... وهت واذا الكرب الشديد علاكا
تمنيتَ حتى نلتَ ثم تركتها [1] ... تنقّل بين الوارثين مناكا
اذا لم تكن في متجر البر والتقى ... خسرت نجاة واكتسبت هلاكا
اذا أنت لم تعزم على الصبر للاذى ... رميت الذي منه الأذى ورماكا
اذا كنت تبغي البرّ فاكفف عن الأذى ... وما البرّ إلا ان تكفّ أذاكا
أخوك الذي من نفسه لك منصف ... اذا المرء لم ينصفك ليس أخاكا

في فناء الحياة ومرارة الحرص

نعى نفسي إليّ من الليالي [2] ... تصرُّفهنّ حالاً بعد حالِ
فما لي لست مشغولاً بنفسي ... وما لي لا أخاف الموت ما لي
لقد أيقنت اني غير باقٍ ... ولكني أراني لا أبالي
أما لي عِبرة في ذكر قوم ... تفانوا ربما خطروا ببالي
كأن ممرّضي قد قام يمشي ... بنعشي بين أربعة عجال
وخلفي نسوة يبكين شجواً ... كأن قلوبهنّ على مقال
سأقنع ما بقيتُ بقوت يوم ... ولا أبغي مكاثرة بمال
تعالى الله يا سلْم بن عمروٍ ... اذلّ الحرصُ أعناق الرجال [3]
هب الدنيا تساق اليك عفواً ... أليس مصير ذاك الى الزوال
فما ترجو لشيء ليس يبقى ... وشيكاً ما تغيّره الليالي
خبرت الناس قِرناً بعد قرن ... فلم أرَ غير ختّال وقال
وذقت مرارة الأشياء طرّاً ... فما طعمٌ أمرّ من السؤالِ

---

١ الضمير يرجع الى الدنيا .

٢ وفي رواية — إلى مر الليالي .

٣ يخاطب الشاعر المعروف بسلم الخاسر ، وقد مر ذكره .

في المنية وبطشها

لمن طللٌ اسائلهُ معطّلة منــازلهُ
غداة رأيته تنعى اعاليَهُ اسافـلهُ
وكنت أراه مأهولاً ولكن باد آهــلهُ
وكلّ لاعتساف الدهر مُعرضة مقاتله
فيصرع من يصارعه وينضُل من يناضله
ينازل من يهمّ به وأحيانـاً يخاتله
وأحياناً يؤخّره وتاراتٍ يعاجـله
وكم قد عزّ من ملك تحف بـــه قنابله
يخاف الناس صولتهُ ويرجى منه نائـله
ويَثني عِطفه مرحاً وتعجبه شمائـله
فلما ان اتاه الحقّ ولـّى عنه باطله
فغمّض عينه للموت واسترخت مفاصله
رأيت الحقّ لا يخفى ولا تخفى شواكله
ألا فانظر لنفسك أيّ زادٍ انت حامله
لمنزل وحدة بـــين المقابر انت نازله
قصير السمك قدرصت عليك به جنادله
بعيد تزاور الجيران ضيّقة مداخله
ألا إنــّ المنية منهلٌ والخلق ناهله
اواخر من ترى تفنى كما فنيت أوائله
لعمرك ما استوى في الامر عالمه وجاهله
ليعلمْ كل ذي عمل بأن الله سائله
فاسرعَ فائزاً بالخـــير قائله وفاعله

في قصر العمر وحقيقة الغنى

ألا هل الى طول الحياة سبيلُ وأنّى وهذا الموتُ ليس يُقيلُ
واني وان أصبحت بالموت موقناً فلي املٌ دون اليقين طويلُ
وللدهر الوانٌ تروح وتغتدي وإنّ نفوساً بينهنّ تسيلُ
ومنزل حقٍّ لا معرّجَ دونه لكلّ امرىء يوماً اليه رحيلُ
أرى علل الدنيا عليّ كثيرةً وصاحبها حق المماتِ عليلُ
إذا انقطعت عني من العيش مدّتي فانّ غناءَ الباكياتِ قليلُ
سُيعرضُ عن ذكري وتُنسى مودتي ويحدثُ بعدي للخليل خليلُ
وللحقّ أحياناً لعمري مرارةٌ وثِقلٌ على بعضِ الرجالِ ثقيلُ
ولم أرَ انساناً يرى عيبَ نفسه وان كان لا يخفى عليه جميلُ
ومن ذا الذي ينجو من الناس سالماً وللناسِ قالٌ بالظنون وقيلُ
اجلـّك قومٌ حين صرت الى الغنى وكل غنيٍّ في العيون جليلُ
وليسَ الغنى إلا غنىً زيّن الفتى عشيّةَ يقري أو غداة يُنيلُ
ولم يفتقرْ يوماً وان كان معدماً جوادٌ ولمْ يستغنِ قطّ بخيلُ
إذا مالت الدنيا الى الناس رغبت اليه ومالَ الناسُ حيث يميلُ

في ذل السؤال

أتدري أي ذلّ في السؤالِ وفي بذل الوجوه الى الرجالِ
يعزّ – على التنزه – من رعاه ويستغني العفيفُ بغير مالِ
إذا كان النـّوالُ ببذل وجهي فلا قـُرّبتُ من ذاك النـّوالِ
معاذَ الله من خَلقٍ دنيٍّ يكون الفضلُ فيه عليّ لا لي
توقّ يداً تكون عليك فضلاً فصانعها اليكَ عليك عالِ
يداً تعلو يداً بجميل فعلٍ كما علت اليمينُ على الشمالِ
أتنكرُ ان تكون اخا نعيمٍ وانت تصيفُ في فيءِ الظلالِ

وأنتَ تروم قوتك في عفاف ... وربّاً ان ظمئتَ من الزّلالِ
متى تُمسي وتُصبحُ مستريحاً ... وأنتَ الدهرَ لا ترضى بحالِ
تكابدُ جمع شيء بعد شيء ... وتبغي ان تكون رخيّ بالِ
وقد يجري قليل المال مجرى ... كثيرِ المالِ في سدّ الخلالِ
إذا كان القليل يسدّ فقري ... ولمْ أجدِ الكثيرَ فلا أبالي
هيَ الدنيا رأيتُ الحبّ فيها ... عواقبهُ التفرّقُ عن ثِقالِ

عبر الزمان

نادت بوشك رحيلك الايامُ ... أفلستَ تسمع أو بك استصامُ
ومضى أمامك من رأيتَ وأنتَ (م) للباقين حتى يلحقوكَ إمامُ
ما لي أراك كأن عينك لا ترى ... عِبراً تمرّ كأنهنّ سهامُ
تأتي الخطوبُ وأنتَ منتبهٌ لها ... فاذا مضت فكأنها أحلامُ
قد ودعتك من الصِّباءِ نزاوةٌ ... فاحذر فما لك بعدهنّ مقامُ
عرَضُ[1] المشيب من الشباب خليفةٌ ... وكلاهما نِعَمٌ عليك جسامُ
أهلاً وسهلاً بالمشيب مؤدِباً ... وعلى الشباب تحيةٌ وسلامُ
ولقد غُشيت[2] من الشباب بغبطةٍ ... ولقد وَقاكَ عثاره الأحكامُ
للهِ ازمنةٌ عهدت رجالها ... في النائبات وانهم لكرامُ
ايامَ اعطيةُ الأكفّ جزيلةٌ ... إذ لا يضيع لذي الذّمام ذمامُ[3]
فلعِبرةٍ أخرتَ للزّمن الذي ... هلَكَ الأرامل فيه والأيتامُ
زمنٍ مكاسب أهله مدخولةٌ ... دخلاً فروعُ اصوله الآثامُ
زمنٍ تحامى المكرمات سراته ... حتى كأنّ المكرمات حرامُ
زمن هوَت أعلامه وتقطعت ... قطعاً فليس لأهله أعلامُ

---

١ وفي نسخة : عوض .
٢ وفي رواية : غنيت .
٣ وفي نسخة : افلا يضيع لدى الزمان ذمام .

ولقد رأيت الطاعمين[1] لما اشتهوا وهمُ لاطباق التراب طعامُ
ما زخرف الدنيا وزِبرج أهلها إلَّا غرورٌ كلـّه وحطامُ
ولـَرُبّ اقوام مضوا لسبيلهم ولنمضيَنّ كما مضى الاقوامُ
ولـَرُبّ ذي فـُرُش مُمهّدةٍ له أمسى عليه من التراب ركامُ
وعجبتُ إذ علل الحتوف كثيرةٌ والناس من علل الحتوف نيامُ
والغيّ مزدحمٌ عليه وعورةٌ والرشد سهلٌ ما عليه زحامُ
والموت يعمل والعيون قريرةٌ تلهو وتلعب بالمنى وتنامُ
والله يقضي في الأمور بعلمه والمرء يُحمد مرّةً ويلامُ
والخلق يقدُمُ بعضُهُ بعضاً يقود الخلفَ منه إلى البلى القـَدّامُ
كلّ يدور على البقاء مؤمّلا وعلى الفناء تديره الايّامُ

في الذكر الطيب

سكَنٌ يبقى له سكَنُ ما بهذا يؤذن الزمنُ
نحن في دارٍ يخبّرنا عن بلاها ناطقٌ لسِنُ
دار سوء لم يدُمْ فرحٌ لامرىء فيها ولا حزَنُ
ما نرى من أهلها أحداً لم تـَغُل فيها به الفتنُ
عجباً من معشرٍ سلفوا أيّ غبنٍ بيّنٍ غـُبنوا
وفـَرُّوا الدنيا لغيرهمِ وابتنوا فيها وما سكنوا
تركوها بعدما اشتبكت بينهم في حبـّها الإحنُ
كلّ حيٍّ عند ميلته حظـُّهُ من ماله الكفنُ
إنّ مال المرء ليسَ لـَه منه الا ذكرُهُ الحسنُ
في سبيل الله أنفسنا كلـّنا بالموت مرتهنُ

---

[1] الآكلين .

خداع الاماني

الدّهرُ ذو دولٍ والموتُ ذو عِلَلٍ والمرءُ ذو املٍ والناس اشباهُ
ولم تزل عِـــبرٌ فيهنّ معتبرٌ يجري بها قدَرٌ واللهُ اجراهُ
والمُبتلَى فهوَ المهجور جانبـه والناس حيث يكون المال والجاهُ
يبكي ويضحكُ ذو نفسٍ مصرّفة والله اضحكه والله ابكاهُ
يا بائعَ الدينِ بالدنيـا وباطلهـا ترضى بدينك شيئاً ليس يسواهُ
حتى متى أنت في لهوٍ وفي لَعِبٍ والموت نحوك يهوي فاغراً فاهُ
ما كلّ ما يتمنى المرء يدركه رُبّ امرىء حتفه فيـما تمنّاهُ
والناس في رقدةٍ عما يُراد بهم وللحوادث تحريكٌ وإنبـاهُ
أنصفْ هديت إذا ما كنت منتصفاً لا ترضَ للناس شيئاً لستَ ترضاهُ
يا رُبّ يوم اتت بشراه مقبلةً ثم استحالت بصوت النّعي بشراهُ
لا تحقرنّ من المعروف اصغره أحسنْ فعاقبـة الاحسان حُسناهُ
وكلّ امرٍ له لا بـدّ عاقبةٌ وخيرُ أمرك ما احمدتَ عُقباهُ
نلهو وللموت مُمسانا ومصبحنـا من لم يصبّحه وجه الموت مسّاهُ
ما أقربَ الموتَ في الدنيا وأبعده ومـا أمرّ جنى الدّنيا واحلاهُ
كم نافس المرء في شيء وكابر فيـه الناس ثم مضى عنـه وخلاّهُ
بينا الشقيق على إلفٍ يُسَرّ به إذ صار اغمضه يومـاً وسجّاهُ
يبكي عليه قليلاً ثم يُخرجـه فيسكن الارض منه ثمّ ينساهُ
وكلّ ذي اجلٍ يومـاً سيبلغه وكلّ ذي عملٍ يوماً سيلقاهُ

ابو تمام

حبيب بن أوس الطائي

ولد بين ١٨٨ و ١٩٢ هـ وتوفي ٢٣٠ أو ٢٣١

(حوالى ٨٠٤ م – ٨٤٥ م)

•

توطئة تاريخية – ممدوحوه – شخصيته في شعره – خصائصه الفنية

التأنق البديعي – التفنن المعنوي – الشغف بالإغراب

مصادر دراسته

طبقات الشعراء لابن المعتز (١٩٣٩) ص ١٣٣ — ١٣٥
مروج الذهب للمسعودي (اوروبا) ج ٧ ص ١٦٠ — ١٦٧
الأغاني (بولاق تصحيح الهوريني) ج ١٥ ص ١٠٠ — ١٠٨
وفي سيرة ديك الجن
الوساطة للجرجاني (تصحيح أحمد الزين) ص ٢٤ — ٢٨ و ٦٢ — ٧٢
الموازنة للآمدي (الاستانة ١٣٨٧)
الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء للمرزباني (مصر ١٣٤٣) ص ٣٠٣ — ٣٢٩
أخبار أبي تمام للصولي (نشر لجنة التأليف والنشر ١٩٣٧)
تهذيب التاريخ الكبير لابن عساكر (١٣٣١) ج ٤ ص ١٨ — ٢٦
نزهة الألبّاء للانباري ص ٢١٣
وفيات الأعيان ج ١ — تحت « حبيب » ص ١٦٩ — ١٧٣
حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ — ٢٤٠
خزانة الأدب للبغدادي (بولاق) ج ١ ص ١٧٠ — ١٧٢
هبة الأيام للبديعي (نشر محمود مصطفى ١٩٣٤)
ديوان أبي تمام للخياط
ديوان أبي تمام (نشر ملحم الأسود)
ومواضع شتى في كتب الأدب الحديثة كدائرة المعارف للبستاني ومجلة الكلية ومجلة المجمع العلمي ودائرة المعارف الاسلامية ، ودراسات عمر فروخ وعبد العزيز سيد الأهل وسواها .

مولده ونشأته

يؤخذ من المصادر التاريخية ان أبا تمـام ولد أواخر القرن الثاني في قرية يقال لها جاسم . وهي على ما ذكر ياقوت قرية تبعد عن دمشق ثمانية فراسخ على يمين الطريق الأعظم الى طبريا . ولا يعرف عن حداثته فيها شيء يذكر ، الا انه قد يلاحظ مما نقله ابن خلكان وابن عساكر انه كان في صغره يعمل عند حائك او قزّاز في دمشق .

وكل ما يمكن استخلاصه من شتى الروايات انّ والده رجل مسيحي اسمه تدوس العطّار ، فحرّف بعد اسلام الشاعر إلى أوس . ويرجعون نسبه الى قبيلة طي ولذلك لقّب بالطائي . وفي ديوانه مواقف يفاخر فيها بهذا النسب نذكر منها قصيدته التي مطلعها : « تصدّت وحبل البين مستحصد شزرُ » ومنها :

وهل خاب من جِذماه في أصل طيّىء عديُّ العـديّين القلمّسُ أو عمرو
لنا جوهر لو خالط الأرض أصبحت وبطنانها منـه وظهرانها تِبرُ
مقاماتنا وقفٌ على العلم والحجى فأمردنا كهل وأشيبنا حَـبرُ

ويأخذ فيها بذكر كرام الطائيين وأبطالهم وما كان لهم من غرر الوقائع ويختمها بقوله :

مساعٍ يضلّ الشعر في كنه وصفها فما يهتدي الا لأصغرهـا الشعر

والمجتمع عليه انه انتقل وهو فتى إلى مصر . وكان يلازم مسجدها يخدم فيه أهل العلم والأدب ، فنشأ هناك . ثم جاب الاقطار فزار بغداد وخراسان ونيسابور وبلاد الجبل والحجاز وأرمينيا والموصـل وسواها .

وفيات الاعيان ١ – ١٥٣ وتهذيب التاريخ الكبير (١٣٣١) ٤ – ١٩ .

وشعره مفعم بما يدل على كثرة تجواله في الاقطار ، وتحمله للمشاق والاخطار .

وإذا دققنا في ديوانه وسيرته ترجّح لدينا انه هبط مصر يافعاً . ففي قصيدته التي قالها في مصر مادحاً آل الرسول ومطلعها « اظبيةُ حيث استنّت الكُثب العفرُ » ما يشير الى انه قالها وهو في السابعة عشرة : واليك هذه الأبيات منها :

وانّ نكيراً ان يضيق بمن له　　عشيرةُ مثلي أو وسيلته مصر
وما لامرىء من قائل يوم عثرة　　لعاً وخديناه الحـــداثة والفقر
وان الذي أحذاني الشيب للتي　　رأيت ولم تكمل لي السبع والعشر

فاذا تأملت البيت الاول شعرت ان قائله حديث العهد بمصر ، وانه انما أمّها وسيلة للارتزاق . ويثبت لنا ذلك ما جاءَ في حسن المحاضرة للسيوطي من أنه هبط « وهو في شبيبته[١] » ، وكذلك ما أشار اليه عرضاً ابن خلكان وابن عساكر انه كان في دمشق يعمل عند حايك . ويقول المرزباني ان أول نبوغه كان بدمشق[٢] .

وفي شعره ما يدل على ان حياته في مصر لم تكن على ما يرام ، فأكثر شعره فيها نفثات متبرّم يستثقل الاقامة في وادي النيل . وهذه قصيدته اللامية شاهدة بذلك ، نظمها وقد مرّ عليـــه خمسة أحوال في مصر فقال فيها :

بنفسيَ أرض الشام لا أيمن الحمى-　　ولا أيسر الدهنا ولا أوسط الرملِ
عدتنيَ عنكم مكرهاً غربة النوى　　لها وطرٌ في ان تُمِرّ ولا تحلي

الى أن يقول :

أخمسةُ أحوالٍ مضت لمغيبه　　وشهران بل يومان ثُكل من الثكل

---

١ حسن المحاضرة ١ — ٢٤٠ .
٢ الموشح ٣٢٤ .

ويمنعه من أن يبيت زَمــاعه على عجلٍ ان القضاءَ على رسلِ
لقد طلعتْ في وجه مصرٍ بوجهه بلا طالع سعدٍ ولا طائر سهلِ
وساوسُ آمال ومذهب همّــــة مخيَّمة بــين المطيّة والرّحلِ
نأيتُ فلا مالاً حويت ولم أقمْ فامتّع اذ فجّعت بالمال والأهلِ
وكان ورائي من صريمة طيّىء ومعن ووهب عن أماميَ ما يسلي
فلم يك ما جرّعت نفسي من الأسى ولم يك ما جرّعت قومي من الثكلِ

والذي يحصّل من هذه الأبيات انه كان قبل خمسة أحوال ترك قومه وجاء مصر منتجعاً الرزق ، فلم يلق ما يتوخّاه ، ولم يحمله على البقاء فيها حتى الآن إلا القضاء المعاكس. ويفهم من ذلك ضمناً انه ترك أهله وفيه مطامع . ولا تكون المطامع عادةً قبل أن يشرف المرء على البلوغ . فشاعرنا على ما يظهر حسّن اليه الاسلام وهو في الشام ففعل ذلك مندفعاً بما فيه من الطموح وطلب العلى[١] ، وظن انه ينال غايته في مصر فأمّها . ولضيق ذات يده وميله الى الأدب لزم المسجد يخدم أهل العلم ويأخذ عنهم .

وما زال كذلك حتى نبغ واشتهر فهجر مصر قاصداً كبار الرجال في العالم الاسلامي . وبلغ المعتصم خبره فحمله اليه الى سامرّا (سرّ من رأى) فلزمه ومدحه ، وكان في زمانه أمير الشعراء وحامل رايتهم .

ثم عيّنه الحسن بن وهب على بريد الموصل ، فقضى في هذا المنصب السنتين الأخيرتين من حياته ، وتوفي هناك . وقد رأينا تمهيداً لدراسته ان نثبت هنا قائمة بأهم ممدوحيه مرتّبة بحسب عدد القصائد التي قيلت فيهم .

---

١ وقد فعل ذلك بعض من كبار النصارى في عصره وبعده كآل الفيض وآل ثوابة وآل وهب، وكانوا من رؤساء الناس وكانت دولتهم ناضرة وأيامهم مشرقة – الفخري ١٣٧ و ١٨٢ ، والفهرست ١٣٥ .

أهم ممدوحي أبي تمام

أبو سعيد محمد بن يوسف الثغري وآله (٢٩ قصيدة) وهو (من طيّ) وكان من كبار القادة .

آل وهب وزراء الدولة (١٣ قصيدة) ينسبهم البعض في بني الحارث ابن كعب ولكن الصحيح انهم من الموالي [١] .

الخلفاء العباسيون	المعتصم	٨	
	المأمون	٢	١٢
	الواثق	٢	

القاضي أحمد بن أبي دؤاد (الايادي الجهمي) (١٢ قصيدة) كان قاضي الدولة ومن أكبر المتنفذين فيها .

خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني (١٢ قصيدة) من الامراء والقادة .

مالك بن طوق (التغلبي)	١٠	أمير عرب الشام
محمد بن الهيثم بن شيانة	٨	من أهل مرو (من الموالي) [٢]
آل حُميد الطوسي (طائي)	٦	ومنهم محمد بن حميد وقد اشتهر في حرب بابك
ابو المغيث الرافقي وآله	٥	أمير الشام
عبدالله بن طاهر بن الحسين	٤	فارسي الاصل (خزاعي الولاء) أحد كبار رجال الدولة وأمير خراسان
أبو دلف القاسم بن عيسى (العجلي)	٤	قائد عربي كبير وصاحب الكرخ
محمد بن الزيات الكاتب المشهور	٤	وزير المعتصم
اسحق بن ابرهيم المصعبي (الخزاعي)	٤	نائب بغداد

١ راجع قصيدة ابي تمام « هل اثر من ديارهم دعس » ومختارات البارودي ٢ ٣٧٢ قول ابن الرومي عن ابن وهب « وذو لسب من آل ساسان شابك » .

٢ راجع داليته « تجرع أسى قد اقفر الجرع الفرد » .

عبد الحميد بن غالب الصفدي	٤	
محمد بن حسان (الضي)	٤	
آل سهل	٤	الوزراء والكتاب وهم من الفرس
الافشين	٢	القائد التركي الكبير
علي بن مرّ	٢	من كبراء طي

شخصيته في شعره

لأبي تمام مزيتان بارزتان : صبره على المشاق لبلوغ المنى ، وشدّة عنفوانه واعجابه بنفسه . يضاف الى ذلك ميله الى الاسراف في المال والقوى . فاذا قرأت ديوانه رأيته مفعماً بما يدل على انه نشأ مغامراً في سبيل الجاه والمال . وقد زادته كثرة اسفاره عزماً ومضاءً ، فليس إذن من الغريب ان تسمعه يقول :

دعيني على اخلاقي الصمِّ للتي   هي الوفر أو سرب ترنّ نوادبه

أي دعيني – على ما فيّ من خلق شديد – اخوض غمرات الحياة فإما الغنى أو الموت . وقوله من قصيدة أخرى :

ولكنني لم احو وفراً مجمّعا   ففزت به الا بشملٍ مبدّدِ

نزعة في نفس الشاعر تعبّر لنا عمّا يختلج في نفوس البسلاء المغامرين الذين يأبون حياة الخمول ، فيقتحمون الأهوال ويخوضون الغمار طلباً للعلى والمجد . ومنها :

أليس بأكناف الجرير وفارس   وقُمٍّ واصطخرٍ قرارٌ لروّد
بلى ان أرض الله فيها ندوحة   ومضطَرب للفاتك المتجرّد

تلك روح قلقة كثيرة المطامع ، وهي التي حملت شاعرنا على ترك قومه في الشام ، ثم على ترك مصر والضرب في اجواز الأرض . وقد صدق في وصف حاله إذ قال :

ذاتَ الثنايا الغرّ لا تتعرّضي عند الفراق بمقلتين وجيد
ما ابيضّ وجه المرء في طلب العلى حتى يسوّدَ وجهه في البيد

وانك لتكاد تلمس صلابة نفسه في أبياته التالية :

لا أفقَر الطربَ القلاصَ ولا أرى مع زير نسوان اشدّ قيودي
شوقٌ ضَرحت قذاته عن مشربي وهوى اطرت لحاءَهُ عن عودي
عامي وعام العيس بين وديقةٍ مسجورة وتنوفــة صيخود
حتى أغادر كل يوم بالفلا للطير عيداً من بنات العيد

وملخّص هذه الأبيات : انني لست من الذين يركبون العيس توصلاً إلى طرب أو للهى غرامي ، ولكنني رجل أسفار متمرس بقطع الفلوات المحرقة ، وكم تركت لطيورها نصيباً وافراً من نياقي . يشير بذلك الى صلابته واحتماله وشوقه الى العظائم . والكثير في شعره ينضح بهذه الروح المغامرة ، حتى شعره في مصر – وهو في أول عهده وقد قيده الدهر بقيود الفقر – نراه برغم ذلك ينمّ على نفس مرّة طمّاحة . ومن قوله في ذلك :

وطال قطوني أرض مصرَ لحاجة يقال لها أقبح بهاتي وأسمجِ
اقلّب في أقطارها الطرف كي أرى ولست براءٍ ذاك عصمة ملتجي
فقنّعني بأسي وأعــلم انني مقود بحبل للمقادير مدمج

أما عنفوانه فظاهر فيما رووه عنه يوم قصد عبد الله بن طاهر أمير خراسان . قالوا لما فرغ من انشاده بائيته التي مطلعها « اهنّ عوادي يوسف وصواحبه » نثر عليه ألف درهم ، فاستقلها الشاعر ولم يمس منها شيئاً ، بل تركها للغلمان يلتقطونها . فوجد عليه الامير وقال : يترفع عن برّي ، ويتهاون بما أكرمته . فلم يبلغ ما أراده منه بعد ذلك . وأي عنفوان أشد من ان يقصد شاعر أميراً جليلاً كابن طاهر فيمدحه ، ثم هو يرى هبة الامير اقلّ من قدره ، فيترفع عن أن يمسها بيده . وهذه الظاهرة الخلقية

في شاعرنا تتجلى لنا أيضاً في خلق أبي الطيب المتنبي كما سنرى عند درسنا هذا الشاعر ، وهي قد تهيب بالشاعر إلى وزن نفسه بميزان ممدوحيه أو الى التفاخر والتعاظم على زملائه ومناوئيه . خذ قصيدة أبي تمام التي قالها يمدح قاضي الدولة العباسية أحمد ابن أبي دؤاد ويعتذر اليه عن اساءةٍ ، وأولها :

أرأيت أيّ سوالف وخدود   عنّت لنا بين اللوى فزرود

وفيها يذكر فضل الممدوح وفضل قومه (إياد) ويقرن ذلك بمدح طيّ (قبيلة الشاعر) ويجعل اياداً وطيّاً متساويتين في المحامد فيقول :

كعب وحاتمٌ اللذان تقاسما   خطط العلى من طارف وتليدِ
هذا الذي خلف السحاب ومات ذا   في الحمد ميتة خضرم صنديدِ

ثم يتقدم الى الاعتذار بأبيات تدل على شدة نفسه ومنها :

فاسمع مقالة زائرٍ لم تشتبه   آراؤه عند اشتباه البيدِ
أسرى طريداً للحياء من التي   زعموا وليس لرهبة بطريد
كنتَ الربيعَ أمامه ، ووراءه   قمرُ القبائل خالد بن يزيد
ما خالد لي دون أيوب ولا   عبد العزيز ولست دون يزيد

والمتأمل في هذه الأبيات يعجب من هذه العواطف التي تملي عليه ان يقول لممدوح عظيم يعتذر اليه . لم آتك رهبة منك بل خجلاً مما اتهمت به ، وان مثلي في الاعتذار اليك مثل يزيد بن المهلب لما استجار من الوليد بأيوب بن سليمان بن عبد الملك وبعبد العزيز بن الوليد فشفعا له . وما خالد الذي يشفع لي بأقل منهما ، ولا أنا بأقل من يزيد بن المهلب .

ومثل ذلك قوله من قصيدة يمدح بها محمد بن يوسف :

وكنت إذا ما زرتُ يوماً مسوّداً   سرحت رجائي في مسارح سؤددِ
فإن يجزل النعمى تثبهُ قصائدي   وان يأبَ لم أقنع بأصوات معبد
أليس بأكناف الجرير وفارس   وقمٍّ واصطخر قرار لروّد

فكأنه يقول اني شاعر كبير النفس أقصد الامير العظيم فإن كافأني بما يستحق مقالي كافأته بما يستحقه من القصائد ، وإلا فإني أتحول عنه الى الضرب في آفاق الأرض .

أما تعاظمه بشعره فهو كثير كقوله يصف قصائده :

وسيّارة في الارض ليس بنازحٍ   على وخدها حَزنٌ سحيق ولا سهبُ
تذرّ ذرور الشمس في كل بلدة   وتمسي جموحاً ما يردّ لها غربُ
إذا أنشدت في القوم ظلّت كأنها   مُسرّة كبرٍ أو تداخلها عجب
مفصّلة باللؤلؤِ المنتقى لها   من الشعر إلا انها اللؤلؤ الرطب

وقوله :

خذها مغرّبة في الارض آنسةً   بكل فهم غريب حين تغترب
لا يستقي من حفير الكتب رونقها   ولم تزل تستقي من بحرها الكتب
حسيبة في صميم المدح منصبها   إذ أكثر الشعر ملقى ما له حسب

وقس على ذلك ما لا يسعه هذا المقام .

على ان أبا تمام كان – على صلابة نفسه – موصوفاً بكرم النفس وحسن الأخلاق [١] . وكان محباً للشراب والغناء ، لا يكاد يحصل على المال حتى ينفقه في سبيل المسرات . فهو في ذلك كأكثر شعراء عصره . وبرغم ما تجده في شعره من التعصب الديني عند ذكره للروم لا تجد في سيرته أو في شعره تمسكاً شديداً بفروض الدين . قال المسعودي : « كان أبو تمام ماجناً خليعاً ، وربما أدّاه ذلك الى ترك موجبات فرضه تماجناً لا اعتقاداً » [٢] . وبكلمة أخرى كان مستهتراً قليل المبالاة بما يتطلبه حسن الاعتقاد .

---

١ نزهة الالباب للانباري ٢١٤ وابن عساكر ٤ – ١٨ الى ٢٦ .
٢ مروج الذهب ٧ – ١٥١ .

قال ابن رشيق القيرواني : « لا بد لكل شاعر من طريقة تغلب عليه كأبي نواس في الخمر ، وأبي تمام في التصنيع ، والبحتري في الطيف الخ[1] » . وقال الجرجاني في الوساطة : « كانت الشعراء تجري على نهج من الاستعارة قريب من الاقتصاد حتى استرسل فيه أبو تمام ومال إلى الرخصة ، فأخرجه إلى التعدي وتبعه أكثر المحدثين[2] » . وقال أبو الفرج الاصفهاني : « وله مذهب في المطابق هو كالسابق اليه جميع الشعراء وان كانوا قد فتحوه قبله وقالوا القليل منه ، فان له فضل الاكثار والسلوك في جميع طرقه[3] » . ووصفه الآمدي بقوله : « وشعره لا يشبه اشعار الاوائل ولا على طريقتهم لما فيه من الاستعارات والمعاني المولدة » ثم يقول : « فان كنت تميل إلى الصنعة والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة ولا تلوي على غير ذلك فأبو تمام اشعر[4] » .

هذا هو رأي جمهور العلماء النقادين في شعر أبي تمام . والذي يطالع ديوانه ويدقق في تفهُّم معانيه يرى فيه ثلاث مزايا بارزة ، وهي :

١ — تأنقه البديعي (واكثر ما يظهر ذلك في الاستعارة والطباق والجناس).
٢ — تفننه المعنوي وهو ما يسميه البعض بالاختراع .
٣ — شغفه بالإغراب — أو الغوص على ما يستصعب من الالفاظ والمعاني .

ولنبسط لك هذه المزايا واحدة واحدة :

التأنق البديعي

لم يخلُ الشعر العربي في عصر من العصور من الأخذ باسباب البديع

---

١ العمدة ١ — ١٩٤ .
٢ الوساطة ٢٤ .
٣ الاغاني ١٥ — ١٠٠
٤ الموازنة ٣ .

أو الصناعة اللفظية والمعنوية . كان ذلك منذ أيام الجاهلية ، فقد عرف امرؤ القيس بسبقه إلى الكثير من لطائف الوصف والتشبيه ، وعرف زهير بتثقيف قصائده وتكرير النظر فيها وتنقيحها « وربما رصد اوقات نشاطه فتباطأ عمله » . ولذلك سميت الحوليات مبالغة في تأنقه وتصنعه ، ومثله الحطيئة .

وإذا راجعت شعر النابغة والاعشى وجرير والاخطل والفرزدق وأبي نواس وبشار ومروان ومسلم وسواهم من امراء الشعر الذين تقدموا أبا تمام ، تجد في جميعهم أثر الميل إلى الصناعة يتفاوت فيهم بالنسبة الى الشاعر وأحواله . قال ابن رشيق عن صنّاع الشعر القدماء : « واستطرفوا ما جاء من الصنعة نحو البيت أو البيتين في القصيدة بين القصائد ، يستدل بذلك على جودة شعر الرجل وصدق حسه وصفاء خاطره . فاما اذا كثر ذلك فهو عيب يشهد بخلاف الطبع وايثار الكلفة . وليس يتجه البتة ان يتأتى من الشاعر قصيدة كلها او اكثرها متصنع من غير قصد ، كالذي يأتي من اشعار حبيب والبحتري وغيرهما ، وقد كانا يطلبان الصنعة ويولعان بها[١] » .

وقد كادوا يجمعون على ان مسلم بن الوليد هو اول من توسع في البديع ، وتبعه فيه جماعة منهم أبو تمام — روى ذلك الاصفهاني في سيرة مسلم ابن الوليد وقال ان أبا تمام جعل شعره كله مذهباً واحداً فيه . ونقل عن محمد بن يزيد قوله : « كان مسلم أول من عقد هذه المعاني الظريفة واستخرجها » . وعن القاسم بن مهرويه أول من أفسد الشعر مسلم بن الوليد ، جاءَ بهذا الفن الذي سمّاه البديع ، ثم جاءَ الطائي بعده فتفنن فيه[٢] .

والحقيقة ما ذكرنا من ان انواع البديع منثورة متفرقة في اشعار المتقدمين ولكن مسلم بن الوليد أكثر منها وكان يحتذي حذو العتابي ، وكان هذا

١ العمدة ١ — ٨٤ .

٢ راجع الموازنة ص ٩ وريحانة الالباء (مصر ١٣٠٦) ٢٣١ .

يحتذي حذو بشار[1] ، ثم قام أبو تمام فزاد على مسلم . وكان العصر الذي نشأ فيه شاعرنا (اعني صدر الدولة العباسية) عصر انتقال في الأدب من الطريقة البدوية القديمة التي عرف بهـا صدر الاسلام الى الطريقة الحضرية المولدة ، طريقة التبسط والتأنق . والظاهر ان أبا تمام كان من الشعراء الذين تأثروا بهذه الطريقة فجرى فيها شوطاً بعيداً وصار على ما يرى بعضهم امام هذه الصناعة . وفي شعره من الشواهد على ذلك ما لا يحتمل المقام الاسهاب به فنكتفي هنا بالقليل منها – قال من قصيدة :

تلومين ان لم اطو منشور همّةٍ ... طوت عن لساني مدح كل مزبّد[2]
لبزّتكِ أثواب البصائر عزّةً ... كستك ثياب الزجر من كل مرشد
كأنك لا تدرين طعم معيشة ... تمجّ دماً من طعم ذل التعبّد
فصوني قناع الصبر اني لراحل ... الى بحر جود غامر الفضل مزبد
امات حياة الوعد منه نوافل ... من الجود اضحت للعفاة بمرصد

وقال مادحاً احمد بن أبي دؤاد :

ما زلت ارقب تحت افياء المنى ... يوماً بوجهٍ مثل وجهك أبيضا
لولاك عزّ لقـاؤه[3] فيما بقي ... اضعاف ما قد عزّني فيما مضى
أوردتني العِدّ الخسيف وقد أرى ... اتبرّض الثمد البكيّ تبرّضا[4]
اما القريض فقد جذبت بضبعه ... جذب الرشاء مصرّحاً ومعرّضا
أحببته اذ كان فيك محبّباً ... وازددت حبّاً حين صار مبغّضا
قد كانت الحال اشتكت فأسوتها ... اسواً أبى امراره أن ينقصا
ما عذرها الاّ تفيق ولم تزل ... لمريضها بالمكرمات ممرّضا

وله متغزلاً :

---

١ البيان والتبيين ١ – ٢٤ .
٢ المزبد اللئيم .
٣ الضمير يرجع إلى الخليفة .
٤ العد الخسيف أي النبع الوافر الماء . اتبرض الثمد البكي أي أطلب الماء القليل هنا وهناك .

لا أنتَ انت ولا الديار ديارُ ... خفّ الهوى وتولّت الاوطارُ
كانت مجاورة الطلول وأهلها ... زمناً عذاب الورد فهي بحار
أيام تدمي عينه تلك الدمى ... فيها وتغمر لبّه الاقمار
إذ لا صَدوف ولا كنود اسماهما ... كالمعنيين ولا نوار نوار[1]
بيض فهنّ إذا رُمقن سوافراً ... صُوَرٌ، وهنّ إذا رَمقن صوار[2]

وقال من قصيدة في أبي دلف العجلي :

تكاد مغانيه تهشّ عراصها ... فتركب من شوق الى كل راكبِ
اذا ما غدا اغدى كريمة ماله ... هديّاً ولو زفّت لالأم خاطب
يرى اقبح الاشياء أوبة آملٍ ... كسته يد المأمول حلّة خائب
واحسن من نور تفتّحه الصبا ... بياض العطايا في سواد المطالب
اذا الجمتْ يوماً لُجيم وحولها ... بنوالحصن نجلُ المحصنات النجائب
فان المنايا والصوارم والقنا ... اقاربهم في الروع دون الاقارب
جحافل لا يتركن ذا جبريّة ... سليماً ولا يَحربن من لم يحارب
يمدّون من أيدٍ عواصٍ عواصمٍ ... تصول باسياف قواضٍ قواضب

وأمثال ذلك كثيرة في شعره بل هي مذهبه العام . وقد قاده شغفه بذلك الى الاسراف والخروج عن جادة المعقول ، حتى رماه الكثيرون باسهم النقد الحادة . قال الجرجاني : « ان أبا تمام اسلم نفسه للتكلف ، يرى انه ان مرّ على اسم موضع يحتاج الى ذكره او يتصل بقصة يذكرها في شعره من دون ان يشتقّ منه تجنيساً او يعمل فيه بديعاً ، فقد باء بإثم واخلّ بفرض حتم[3] » . وقال الآمدي في الموازنة بعد ان ذكر آراء المنحرفين عن أبي تمام : « كأنهم يريدون اسرافه في طلب الطباق والتجنيس والاستعارات واسرافه في التماس هذه الابواب وتوشيح شعره بها ، حتى صار كثير مما أتى من المعاني لا

---

١ صدوف وكنود ونوار اسماء .
٢ الصوار القطيع من بقر الوحش .
٣ اسرار البلاغة ١٠ .

يعرف ولا يعلم غرضه فيها إلا مع الكد والفكر وطول التأمل ، ومنه ما لا يعرف معناه إلا بالظن . ولو كان أخذ عفو هذه الاشياء ولم يوغل فيها ولم يجاذب الالفاظ والمعاني مجاذبة ويقتسرها مكارهة ، وتناول ما يسمح به خاطره وهو بجهامه غير متعب ولا مكدود ، وأورد من الاستعارات ما قرب في حسن ولم يفحش ، واقتصر من القول على ما كان محذواً حذو الشعراء المحسنين ليسلم من هذه الاشياء التي تهجّن الشعر وتذهب ماءه ورونقه – ولعل ذلك ان يكون ثلث شعره أو أكثر – لظننته كان يتقدم عند أهل العلم بالشعر أكثر الشعراء المتأخرين[1] » . وقال الباقلاني بعد ان ذكر بضعة أمثال على تصنع أبي تمام : « فهذا وما أشبه إنما يحدث من غلوّه في الصنعة حتى يعميه عن وجه الصواب ، وربما اسرف في المطابق والمجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها حتى استثقل نظمه واستُوخم رصفه ، وكان التكلف بارداً والتصرف جامداً[2] » .

والذي يطالع ديوانه تحرّياً لهذه التهم يتضح له ان أكثر ما ذكروه حق وان أبا تمام كثيراً ما يأتي بالاستعارة أو الكناية دون أن يراعي التناسب بين الحقيقة والمجاز كقوله :

وركبٍ يساقون الركاب زجاجةً من السير لم تقصد لها كفّ قاطب

يقصد بذلك ان المسافرين يشاركون ركائبهم في السير الشديد الذي لا لين فيه ولا تؤدة . فاستعار للسير الشديد الخمر التي لم تمزج بماء وجعل تشارُك الركب بالركائب فيه عبارة عن تساقيهم تلك الخمر الصرف . وانت لا تحتاج إلى تأمل كثير لترى شدة التعسف في هذه الاستعارة .

ومثل ذلك قوله :

---

١ الموازنة ٥٥ – ٥٦ .

٢ اعجاز القرآن (مصر ١٣١٥) ٥٣ .

ضاحي المحيّا للهجير وللقنا   تحت العجاج تخاله محراثا

فالشطر الأول جميل ، جعل الممدوح من ذوي الاقدام والتعرض للمشاق ، ولكنه افحش في الشطر الثاني اذ جعله محراثاً يشق غبار الحرب وافسد جمال البيت .

وقوله :

آثرني إذ جعلته سنـــداً   كل امرىء لاجىء إلى سندهْ
ايثار شزْر القوى رأى جسد المعروف أولى بالطبّ من جسده

والشاهد في البيت الثاني وهو يريد ان يقول آثرني ايثار القوي وقد غار للمعروف وقام يناصره . فتأمل استعارته الجسد للمعروف ، وايثار القوي له بالتطبيب !

لعمري لقد حرّرت يوم لقيته   لو ان القضاءَ وحده لم يبرّد

وانك لتشعر بقشعريرة البرد في هذا البيت . وهو يقصد ان يقول ان حميّة ممدوحه قد ثارت يوم لقي العدو وكادت تفتك به لولا ان القضاءَ حال دون ذلك : فكدّ نفسه حتى جاءَ بالطباق ، ولكنه جاءَ غثاً بارداً .

وانظر إلى تعسّفه إذ يقول :

نوى كانقضاض النجم كانت نتيجةً   من الهزل يوماً ان هزْل النوى جدّ

أي ان النوى فاجأته مفاجأة فلم يصدّق أولاً ، ولكن ألم وقوعها أراه الحقيقة وعلمه ان هزل الحبيب جد .

وقوله :

فكأن افئدة النوى مصدوعة   حتى تصدّع بالفراق فؤادي
فاذا فضضت من الليالي فرجت   خـالفنها فسددنها ببعـــاد

ومعناها ان فؤاد النوى بقي مصدوعاً حتى صدع بفراق الاحبة فكلما

فتحت لنفسي منفرجاً خالفتني الأيام فسدتْ ذلك المنفرج بالبعاد . فانظر كيف تكلف تصديع افئدة النوى ، وكيف استعمل البعاد كحجر يسد به ثغرة الفرَج .

وقوله :

أهُيَسُ اليس لجّاء إلى همم   تغرّق الاسد في آذيّها الليسا

انظر إلى هذه الهمم التي ترى الاسود غرقى في غمارها وكل ما يريد ان يقولهُ ان الممدوح شجاع همته تفوق همة الاسود الشديدة .

وقوله :

هدأتْ على تأميل احمد همتي   واطاف تقليدي به وقياسي

معناه رأيت الناس يسعون إلى الممدوح فقلدتهم ووجدته بالقياس أفضلهم ، فهدأت همتي المضطربة عنده . قابل هذا المعنى بما استعاره من هدوء الهمة وطواف التقليد والقياس فترى شدة اسرافه في الصناعة .

ومثل ذلك قوله :

لو لم تفتْ مِسَنُّ المجد من زمن   بالجود والبأس كان المجد قد خرِفا

ومعناه ان المجد قد هرم ، ولولا ان ارجعت اليه فتوّته بجودك وبأسك لكان قد أدركه الخرف :

ومن الاسراف الممقوت قوله :

فلويت بالمعروف أعناق الورى   وحطمت بالانجاز ظهر الموعد

وقوله :

قرّت بقرّان عين الدين وانشترت   بالأشترين عيون الشرك فاصطُلما

والاشتران قائدان للروم .

قال العسكري: «وهذا مع غثاثة لفظه وسوء التجنيس فيه يشتمل على عيب

آخر وهو ان انشتار العين لا يوجب الاصطلام .

واليك هذه الابيات يصف سفينة حملته إلى الممدوح ، وانظر كيف يتعسف في تشبيهها بالجمال وكيف يخرج به التكلف عن حدود الجمال .

حملت رجاي اليك بنت حديقة علباء لم تلقح لفحلٍ مُقرِفِ
فنجت وقد حوت الهنيدة وابتنت في شطرها وتبوّءت في النيّف

في البيت الأول يريد بابنة الحديقة الغلباء السفينة لانها تصنع من خشب الحديقة ، وشبه السماء بالفحل ، ولم يلقحها أي لم يصبها بمطر . فتأمل هذه السماجة الصناعية . وفي البيت الثاني – اسرعت هذه السفينة وهي بنت مئة ولكنها في نشاط الخمسين ، وسارت غايتها في بحر كالصحراء .

إلى أن يقول :

فاعتامها ذو خبرة بفحولها ندْس بحيلة خَلقها متلطف

أي فاختارها من فحول الشجر خبير حاذق ببنائها .

ثم اجتنت شِلوي فصرت جنينها متمكناً بقرار بطن مُسدف

أي ثم حملتني فكنت في بطنها كما يكون الجنين في بطن أمه .

واني ارجع القارىء إلى هذه القصيدة ليراجعها ويحكم بنفسه على هذه المجازات . وامثال ذلك كثير في شعر أبي تمام ، فانك لا تكاد تقرأ له قصيدة حتى تمر ببيت أو بضعة أبيات من هذا الشعر المكدود الذي ينفر منه الذوق السليم ، لما فيه من تكلف الصناعة والاهتمام بالقشور دون اللباب .

تفننه المعنوي

على ان لأبي تمام مع كل اسرافه في الشعر الصناعي مكانة عالية في

الشعر العربي . وما ذلك إلاّ لدقة تصوره وحسن اختراعه . ففي شعره كثير من الصور البليغة التي تشهد له بجودة الخيال وبعد مرامي النظر . والذي يراجع ديوانه بروية ويصبر على تحليل معانيه ، يجد من بدائعه الشعرية ما لطف من وصف أو مجاز أو حكمة أو لبس لباساً قشيباً من البلاغة . واليك أمثلة ذلك من شعره :

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت اتاح لها لسان حسودِ
لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يُعرف طيبُ عَرف العود

وجودة البيتين في جمال الصورة التي نرى فيها الحسود ناشراً فضل المحسود ، وفي التمثيل على ذلك من العالم الطبيعي تمثيلاً يوضحها ويقررها في الذهن . وقد قرن كل ذلك برقة العبارة وجودة الالفاظ . ومثل ذلك قوله متقرباً من أمير أقام الحجاب على بابه وهو في غاية البلاغة :

ليس الحجاب بمقصٍ عنك لي أملاً ... ان السماء ترجّى حين تحتجب

وقوله يصف عدم اجتماع المال والكرم في شخصه ·

لا تنكري عطل الكريم من الغنى ... فالسيل حربٌ للمكان العالي

ومن أجمل صوره الشعرية قوله يرثي ولدين صغيرين لأحد الأمراء والبلاغة ناطقة فيه :

لهفي على تلك الشواهد منهما ... لو امهلت حتى تكون شمائلا
لغدا سكوتهما حجىً وصباهما ... حلماً وتلك الاريحيّة نائلا
ان الهلال إذا رأيت نموّه ... ايقنت انْ سيصير بدراً كاملاً

وهذا البيت الاخير الذي أتى به تمثيلاً لما كان يرجى من ذينك الراحلين هو من أبدع الامثال وأبلغها . ومثله بلاغة وجمالاً قوله المشهور يصف بلوغ الأرب عن سبيل المشقات :

ولكنني لم أحوِ وفراً مجمّعاً ... ففزت به الا بشملٍ مبدّدِ

ولم تعطني الأيام نوماً مسكّناً   الذّ به الا بنـــوم مشرّدِ
وطول مقام المرء في الحي مخلق   لديباجتيه فـاغترب تتجددِ
فاني رأيت الشمس زيدت محبة   إلى الناس ان ليست عليهم بسرمدِ

وقد أجاد في هذه الأبيات كل الاجادة ، وابرز هذه المعاني البديعة بقالب يـأخذ بمجامع القلوب . ومن حسن اختراعه قوله يصف مشيبه الباكر :

ستّ وعشرون تدعوني فأتبعها   إلى المشيب فـلم تظلم ولم تحبِ
فأصغري انّ شيباً لاح بي حدثاً   واكبري انني في المهد لم اشب

يعذر المشيب ويقول ليس الغريب انني شبت في السادسة والعشرين ، ولكن الغريب انني لم أشب وأنا طفل : يشير بذلك إلى ما في نفسه من عزم وهمة ، وإلى ما أصـابه منذ طفولته من مقـارعة الاهوال والخطوب .

وقال يصف كرم الممدوح وازدحام الشعراء على بابه :

ولو كان يفنى الشعر أفناه ما قرت   حياضك منه في العصور الذواهب
ولكنه صوب العقول اذا انجلت   سحائب منه اعقبت بسحائب

والصور الشعرية في البيت الثـاني خلاّبة ، لأحكام التشبيه فيها وجمال التركيب .

ومن هذه الصور الخلاّبة قوله من مرثاته المشهورة :

وقد كان فوت الموت سهلاً فردّه   اليه الحفـاظ المرّ والخلق الوعرُ
ونفسٌ تعاف العـار حتى كأنما   هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر
فاثبت في مستنقع الموت رجله   وقال لها من تحت أخمَصك الحشر

وقوله يصف أميراً أنعم الله عليه بنعم عظيمة ، ولكنه كفرها ونقض عهد الولاء والوفاء :

كم نعمةٍ لله كانت عنده فكأنها في غربة واسارِ
كُسيت سبائب لؤمه فتضاءلت كتضاؤل الحسناء في الاطمار

وقد شهد البلغاء لابي تمام بالتقدم في ذلك . قال ابن الاثير في كلامه عن المعاني التي تستخرج من غير شاهد الحال « ان لابكارها سرّاً لا يهجم على مكامنه الاّ جَنان الشهم ، ولا يفوز بمحاسنه الاّ من دق فهمه حتى جل عن دقة الفهم » . ثم يقول : « قد قيل ان أبا تمام أكثر الشعراء المتأخرين ابتداعاً للمعاني ، وقد عددت معانيه المبتدعة (أي التي لم يسبق اليها) فوجدت ما يزيد عن عشرين معنى . وأهل هذه الصناعة يكبرون ذلك ، وما هذا على مثل أبي تمام بكبير[1] » .

وقد أصاب الاستاذ جبر ضومط إذ قال : « الحق يقال ان أبا تمام هو كما قال فيه واصفوه شاعر واسع الخيال دقيق التصور بعيد مرامي النظر ، واقدّر انه لو عاش فوق الاربعين ، ولم يمنعه الانهماك في الشهوات من ترتيب محفوظاته ومدركاته ، بل لو عاد عليها بالتهذيب والتشذيب ، فاطّرح منها ما حقه ان يطرح ، وأبقى منها مـــا هو جدير بالبقاء ، ثم جمع الاشباه والنظائر — لو عاش حتى فعل كل ذلك — لكان شعره بعدها لا يتعلق به متعلق ، ولبزّ على الارجح الشعراء قاطبة حتى أبا الطيب المتنبي في كثير من حكمه وأمثاله وبُعد مطارح نظره[2] » .

وكما اننا ننعي على أبي تمام ميله إلى تكلف البديع نمدحه لمـــا نجد في شعره من نفَس عال في النظم يؤثـّر في النفس فيحملها إلى الطبقات العليا . اقرأ ايّاً شئت من عيون قصائده ، وانظر إلى تلك الهزّة التي تعتريك لقراءتها . فاذا حللتها وجدتها مزيجاً من جمال النظم ومتـــانة التركيب وسمو الفكر . ونجتزىء هنا بمثلين أو ثلاثة من ذلك :

راجع قصيدته المشهورة في فتح عمورية وتأمل مقدمتها : تلك الوقفة

---

١ المثل السائر ١٩٣ .

٢ مجلة الكلية مج ٥ ص ٨٧ .

الشعرية العالية التي يرينا فيها الشاعر « المذنّب الغربي » ويسمعنا أحاديث الجمهور عنه ، ثم يستخلص من كل ذلـــك تمهيداً ساحراً للتوصل الى الممدوح ، ووصف الواقعة العظيمة التي فتح فيها حصون الاعداء . كل ذلك باسلوب شديد الأسر بديع الخيال يملأ الاسماع ويحرك أوتار القلوب . وإذا استثنيت بعض ما ذكرناه من تصنّعه فان معظم القصيدة من هذا النمط العالي ، كقوله يصف فشل قائد الروم ومحاولته اغراء المنتصرين بالمال وترفّع الخليفة عن ذلك :

لما رأى الحرب رأي العين توفلسٌ والحرب مشتقة المعنى من الحرب
غدا يصرّف بالأموال جريتها فعزّه البحر ذو التيّار والحدب
هيهات زعزعت الارض الوقور به عن غزو محتسب لا غزو مكتسب
لم ينفق الذهب المُربي بكثرته على الحصا وبه فقر إلى الذهب
ان الاسود اسودَ الغاب همتها يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

ومن هذا النمط العالي قوله :

ستصبح العيس في ذا الليل عند فتى كثير ذكر الرضى في ساعة الغضب
صدفتُ عنه فلم تصدف مودته عني وعاوده ظني ولم يخب
كالغيث ان جئته وافاك ريّقه وان ترحّلت عنه لجّ في الطلب
كأنما هو في أخلاقه ابداً وان ثوى وحده في جحفل لجب

وقوله :

ويومٍ أمام الموت دحض وقفته ولو خرّ فيه الدين لانهال كاثبه
جلوتَ به وجه الخليفة والقنا قد اتسعت بين الضلوع مذاهبه
فلو نطقت حرب لقالت محقّة ألا هكذا فليكسب المجد كاسبه

فانت ترى في كل ذلك نزعته الفنية الشديدة ، ولو قلّبت ديوانــه لوجدتها في اكثر شعره . وهذه النزعة وما فيها من عنف وشدة أسر هي التي حدت بمريديه إلى التغالي بمدحه وعدّه امــام هذه الصناعة ، حتى

قال أبو الفرج الاصفهاني : «وفي عصرنا هذا (القرن الرابع الهجري) من يعصّب له فيفرط حتى يفضله على كل سالف وخالف[1] » . بل هي التي دفعت أبا دلف العجلي ان يصيح وقد أنشده أبو تمام قصيدته التي مطلعها :

على مثلها من أربُع وملاعب أذيلت مصونات الدموع السواكب

« يا معشر ربيعة ! ما مُدحتم قط بمثل هذا الشعر ، فما عندكم لقائله ؟ فبادروه بمطارفهم يرمون بها اليه . فقال أبو دلف قد قبلها منكم وأعاركم لبسها ، وسأنوب عنكم في ثوابه . ثم أمر له بخمسين الف درهم وقال : والله ما هي بازاء استحقاقك وقدرك فاعذرنا[2] » . ولم يكن ذلك مجرد اهتزاز للمديح ، ولكن الرجل تأثر بنفس الشاعر وجلال اسلوبه .

ونلحظ ذلك في مجلس عبد الله بن طاهر أمير خراسان ، فانه لما قصده وأنشده قصيدته « اهنّ عوادي يوسف وصواحبه » لم يتمالك الشعراء الحاضرون من أن يصيحوا : ما يستحق هذا الشعر غير الأمير حفظه الله . وبلغ التأثر بأحدهم ان قال : لي عند الأمير أعزّه الله جائزة وعدني بها ، وقد جعلتها لهذا الرجل جزاءً على قوله للأمير[3] . ومثل ذلك ما جاء في الأغاني عن محمد بن سعد كاتب الحسن بن رجاء ان أبا تمام مدح الحسن بلاميته التي يقول فيها :

أنا من عرفت فان عرتك جهالة فأنا المقيم قيامة العذّال

فلما وصل إلى قوله :

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي
وتنظري خبب الركاب ينصّها محيي القريض إلى مميت المال

صاح الممدوح متأثراً : والله لا اتممتها الا وأنا قائم . فلما انتهى من

---

١ و ٢ الاغاني ١٥ – ١٠٠ و ١٠٣ .
٣ الاغاني ١٥ – ١٠٣ .

انشادها عانقه . قـــال محمد بن سعد : « وأخذ منه على يدي عشرة آلاف درهم وأخذ غير ذلك مما لم أعلم به على بخل كان في الحسن ابن رجاء[1] » .

ولا شك ان في شعر شاعرنا روعة خاصة ، فهو يجمع بين الفخامة اللفظية وجزالة المعنى جمعاً يهزّ النفس ، ويفعل بها ما فعل بمعاصره ومناوئه دعبل يوم سمع بعضهم ينشد بيتي أبي تمام :

شهدتُ لقد اقوت مغانيكمُ بعدي ... ومحّت كما محّت وشائع من بردِ
وانجدتمُ من بعد اتهام داركم ... فيا دمعُ انجدني على ساكني نجد

فتأثر دعبل – على كرهه لأبي تمام – وصاح احسن والله وجعل يردد : « فيا دمع انجدني على ساكني نجد[2] » .

ولولا كثرة تصنعه وما سنذكره له من التعقيد والاغراب لاحلـّته هذه الروعة الفنية أعلى محل في الشعر العربي .

شغفه بالاغراب

« يذهب الى حزونة اللفظ وما يملأ الاسماع منه مع التصنيع المحـكم طوعاً وكرهاً . يأتي للاشياء من بعد ويطلبها بكلفة ويأخذها بقوة[3] » . ذلك رأي ابن رشيق القيرواني فيه ، وقد أصاب كل الاصابة في قوله « يأتي للاشياء من بعد » ويراد بذلك هيامه بالغريب من المعاني التي يُحتاج في تفهمها الى تأمل ومشقـّة .

وممّن سبقه الى هذا النقد أبو الحسن الجرجاني اذ قال بعد ان ذكر اغرابه اللفظي وتطلبه البديـع[4] « ولم يرض بهاتين الخلـّتين حتى اجتلب

---

١ الاغاني ١٥ – ١٠٤ .
٢ الاغاني ١٥ – ١٠٧ .
٣ العمدة ١ – ٨٥ .
٤ الوساطة ٢٤ و ٢٥ .

المعاني الغامضة ، وقصد الاغراض الخفيّة ، فاحتمل فيها كل غث ثقيل ، وارصد لها الافكار بكل سبيل ، فصار هذا الجنس من شعره اذا قرع السمع لم يصل الى القلب الاّ بعد اتعاب الفكر وكد الخاطر والحمل على القريحة » . فهو كما قالا « لا يغطي مقاصده بشيء من الابهام » . ومن هنا هذه الصعوبة التي يعانيها من يطالع ديوانه اذ يقف حائراً أمام طلاسمه وغموض معانيه ، ولكن اذا راضت له بالدرس والتفكّر رأى فيها ما يلذّه من صور جميلة ومعان رشيقة . وقد وصف الشاعر قصائده بقوله :

فكأنما هي في السّماع جنادل وكأنما هي في القلوب كواكب
وغرائب تأتيك الاّ انهـــا لصنيعك الحسن الجميل اقارب

تـُقبل على شعره فتصدمك وعورته ، فتحاول التغلب عليها وتكدّ نفسك في تذليل عقباتها ، ولكنك لا تلبث ان تشعر بتعب قد يحملك على النكوص . على انك اذا صبرت وتابعت الشاعر في أساليبه وغرائبه وأخذت تجلو لنفسك معانيه ، حمدت عاقبة هذا العمل وشعرت بما يستهويك من بديع تخيلاته وجزالة الفاظه . ولنضرب لك بعض الأمثلة على ذلك . قال في مطلع قصيدته لعبد الله بن طاهر :

اهنّ عوادي يوسف وصواحبه فعزماً فقِدماً ادرك السؤل طالبه
اعاذلتي ما اخشن الليل مركباً واخشن منه في الملمات راكبه
دعيني على اخلاقي الصمّ للتي هي الوفرُ أو سربٌ ترنّ نوادبه
فان الحسام الهندوانيّ انمـــا خشونته ما لم تفلّل مضاربه

ذكروا انه لما بدأ في انشاد هذه القصيدة في مجلس الأمير قيل له لِمَ تقول ما لا يفهم ؟ فأجاب السائل : لِمَ لا تفهم ما يقال ؟ نكتة جميلة تبيّن ما نقصد اليه . ومعنى هذه الابيات عموماً : هل تريد الغواني ان تشغلني وتثني عزيمتي عن السفر ، وان تخدعني كما حاولت ان تخدع

يوسف بن يعقوب ؟ فلأتذرّعْ بالعزم ، لا بدّ لكل طالب مواظب من ادراك طلبه . ويا ايتها العاذلة ان الليل مركب خشن ، ولكن الذي يركبه أشد منه وأخشن . فاتركيني على أخلاقي الشديدة اسعى في طلب العلى ، فاما ان أنالها أو أموت وتندبني النوادب . فان الحسام الهندواني القاطع انما خشونته (عدم مضائه) ما لم يستعمل (أي انما مضاء الرجل بالعمل والاقدام) .

وقوله يصف أماني الروم واعتمادهم على مناعة حصونهم :

وقال ذو أمرهم لا مرتع صدَدٌ   للسارحين وليس الورِد من كَثَبِ
ان الحِمامين من بيض ومن سمر   دلوا الحياتين من ماء ومن عشب

أي قال قادتهم لأنفسهم لا مرتع قريب للاعداء (إذا راموا الحصار) ولا ماء فلا يمكنهم البقاء طويلاً . على ان أمانيهم هذه قد فشلت لان السيوف والرماح (الحمامين) هي سبيلنا الى الماء والعشب .

وقوله يصف — كيد الممدوح للاعداء وحسن رأيه — :

قد رأوه وهو القريب بعيدا   ورأوه وهو البعيد قريبا
سكن الكيد فيهم ِ انّ من أعظم إربٍ ان لا تكون اريبا
مكرهم عنده فصيح وان هم   خاطبوا مكره رأوه جليبا
لقد انصعتَ والشتاء له وجه يراه الرجال جهماً قطوبا
طاعناً منحر الشمال متيحاً   لبلاد العدو موتاً جنوبا
فضربت الشتاء في اخدعيه   ضربةً غادرته قوداً ركوبا

أي ان الاعداء رأوا الممدوح على قربه منهم بعيداً بمناعته ، ورأوه على بعده قريباً منهم لعزمه وهجومه الشديد . وقد خفيت سياسته عليهم — وان من أعظم فنون السياسة ان لا يظهر الدهاء للاعداء — فلم يدركوا خططه مع ان خططهم كانت لديه واضحة . ولقد عدتَ اليهم والشتاء في إبّانه فطعنت منحر الشمال (يكني بذلك عن العدو لأنه من جهة الشمال) حاملاً

اليهم الموت من الجنوب ، وضربت الشتاء فأذلته حتى اصبح لديـــك كالجمل الركوب :

ومن هذ القبيل :

يقولون ان الليث ليثُ خفيّة نواجذهُ مطرورةٌ ومخالبه
وما الليث كلّ الليث إلّا ابن عَثّرٍ يعيش فواقَ ناقةٍ وهو راهبه

ويحلّ هذا الطلسم بقولنـا : ليس الاسد سبع الغاب ولكن الأسد الحقيقي هو الذي يحتمل بأس الممدوح ولو قليلاً (فواق ناقة) .

وقوله للعاذل الخليّ وهو بين الطلول :

وما صار في ذا اليوم عذلك كله عدوّي حتى صار جهلك صاحبي
وما بك إركابي من الرشد مركباً ألا انما حاولتَ رشد الركائب

لم يصر عذلك عدواً لي ، حتى صار جهلك صاحبي : أي كرهتك لعذلك إياي ولكنني ما لبثت ان رضيت عنك لجهلك لوعة الحب ، إذ انك بجهلك تستطيع مساعدتي فتمنعني مثلاً من شدة الوجد وكثرة البكاء . ولكن ما لك تحملني على اتباع سبل الرشاد وترك الوقوف بين الطلول — ليس ذلك رشادي بل رشاد ركائبي التي ترغب في متابعة السير .

* * *

ومن أسباب اغرابه وغموضه شغفه الزائد بالطباق والجناس كقوله :

فالشمس طالعة من ذا وقد افلت والشمس واجبة في ذا ولم تجب

* * *

فهو مدنٍ للجود وهو بغيض وهو مقصٍ للمال وهو حبيب

* * *

فأنت لديه حاضر غير حاضر بذكر وعنه غائب غير غالب

* * *

غربت خلائقه وأغرب شاعر فيه فأحسن مُغرِب في مغرب

ومن طلاسمه في ذلك قوله :

وركب يساقون الركاب زجاجة من السير لم تقصد لها كفّ قاطب
فقد أكلوا منها الغوارب بالسرى وصارت لها أشباحهم كالغوارب
يصرّف مسراها جُذيل مشارق إذا آبه همّ عُذيقُ مغارب
يرى بالكَعاب الرّود طلعةَ ثائر وبالعِرمس الوجناء غرّة آيب

ومعناها : وربّ ركب شاركوا نياقهم بالسير الشديد حتى أذابوا اسنمتها وكواهلها ، ويقود هؤلاء الركب رجـــل خبير بالاسفار شرقاً وغرباً ، شغوف بالسفر على النياق حتى انه ليرى في وجه الناقة جمالاً ، ويكره المكوث في المنازل فلا يرى في وجوه الحسان ما يغريه على ذلك .

ومن دواعي غموضه اغراقه في استعمال الغريب من الألفاظ . جاءَ في كتاب الموازنة : « كان أبو تمام يتتبّع حُوشيّ الكلام ويتعمّد ادخاله في شعره [١] » . ولعل ذلك راجع بالاكثر الى كثرة محفوظه ودرسه لأشعار الأقدمين . قال الآمدي : « كان أبو تمام مشغوفاً بالشعر مشغولاً مدّة عمره بتخيّره ودراسته ، وله كتب اختيارات فيه مشهورة : منها الاختيار القبائلي الاكبر ، وقد مرّ على يديّ هذا الاختيار . ومنها اختيار آخر ترجمته القبائلي ، ومنها الاختيار الذي تلقـّط فيه محاسن شعر الجاهلية والاسلام وأخذ من كل قصيدة شيئاً حتى انتهى الى ابراهيم بن هرمة ، وهو اختيار مشهور معروف باختيار شعراء الفحول . ومنها اختيار تلقـّط فيه أشياء من الشعراء المقلـّين والشعراء المغمورين ويلقب بالحماسة ، وهو أشهر اختياراته . ومنها اختيارات المقطـّعات يذكر فيه اشعار المشهورين وغيرهم والمتقدمين والمتأخرين ، وهذه الاختيارات تدل على عنايته بالشعر ، وانه اشتغل به وجعله وكده ، واقتصر من كل الآداب والعلوم عليه : فإنه ما من شيء كبير من شعر جاهلي ولا اسلامي ولا محدث إلّا قرأه

١ الموازنة (الاستانة ١٢٨٧) ١٢٠ .

واطّلع عليه [1] . وقيل انه كان يحفظ أربعة عشر ألف ارجوزة غير القصائد والمقاطيع ، وقال هو عن نفسه لم أنظم الشعر حتى حفظت سبعة عشر ديواناً للنساء خاصة دون الرجال [2] » .

ولا ريب ان للحفظ تأثيراً على أسلوب الشاعر او الناثر ، ولا سيما في إبّان قوّة الحافظة . ويظهر ذلك في ميل شاعرنا الى استعمال غير المألوف من الاوصاف والعبارات . انظر الى هذا البيت وقد ذكر قبلاً :

أهيَس أليَسُ لجاءٌ الى همم تغرّق الاسد في آذيّها الليسا

أي شجاع تغرّق بحور همته الاسود الجريئة .

وقوله :

الواردين حياض الموت مُتأقةً ثُباً ثُباً وكراديساً كراديسا

ويريد بمتأقة مترعة . وثُباً ثباً أي جماعات جماعات .

وقوله في مطلع قصيدة :

أما انه لولا الهوى ومعاهده مواعيسه قد اقفرت وأجالده

لأعطيت هذا الصبر مني طاعة ليعلم دهري أيّ قرن يكايده

أي لولا ان نأي الاحباب عن الديار قد أفقدني صبري لعلّمت الدهر بثباتي على مصائبه أي رجل أنا .

وقوله :

غل المروراةَ الصحاصح عزمه بالعيس ان قصدت وان لم تقصد

أي طوى السهول والقفار عزمه .

وقوله :

سهاد يرجحنّ الطرف منه ويولع كلّ طيفٍ بالصدود

---

١ الموازنة ٢٣ و ٢٤ (بتصرف) .

٢ ابن خلكان ١ – ١٧٠ .

أي سهاد تثقل فيه الجفون :

وقوله :

تقلقل بي أدم المهارى وشؤمها   على كل نشز متلئبّ وفدفد

أي تضطرب بي النياق الرمادية والسوداء على كل فلاة سوداء الحجارة .

وفي قوله :

صَهْصَلقٌ في الصهيل تحسبه   أشرج حلقومه على جرس

يصف حصانه بشدة الصوت حتى كأنما حلقومه شد الى جرس .

ومن هذا القبيل :

عططتَ على رغم العدى عزم بابك   بعزمك عطّ الاتحمي المرعبل

الكلام استعارة معناه : شققت عزم « بابك » بعزمك كما تشق الثوب المخطط .

وقوله :

كأن بابكَ بالبذّين بعدهم   نؤيٌ أقام خلاف الحي أو وتد
بكل منعرج من فارس بطل   جناجنٌ فلُقٌ فيها قنا قَصد

والمعنى كأن بابك ، وقد فني جيشه ، أثر نؤي أو وتد باق في الحي ، فأنت لا ترى إلّا أشلاء جيشه مبعثرة ، وفي كل ناحية ومنعطف آثار الرماح المتكسرة .

وقال :

مقابل في الجديل صلب القرا   لو حكّ من عُجبه الى كتده

أي كريم النسب قوي الظهر لو امتحن من عجزه الى كتفه لوجد كذلك .

وأراد مرّة ان يطلب فرواً من ممدوحه فوصفه بهذه الابيات الغريبة :

ولا بد من فرو اذا اجتابه امرؤ   غدا وهو سام في الصنابر أغلب
اثيث اذا استعتبت مصقعةً به   تملأتَ علماً انها سوف تُعتب

يراه الشفيف المرتعنّ فينثني   حسيراً فتغشاه الصبا فتنكّب

أي اذا لبّسه الانسان تغلب فيه على البرد . وهو كثيف الشعر اذا استرضيت البرد به رضي ، واذا رآه المطر البارد المنهمر انثنى عنه كليلاً ومالت عنه ريح الصبا .

ونختم هذه الامثلة على ميله لاستعمال المتوعر من الالفاظ ببيتين من همزيته المعروفة ، قال في مطلعها :

قدكَ اتّئب أربيت في الغلواء   كم تعذلون وأنتم سُجرائي

أي استحي يا لائمي يكفيك غلواً في تعنيفي . وكيف تلومونني وأنتم مثلي مصابون بالغرام .

ومنها يصف البيد والنياق :

بيدٌ لنسل الفيد في امليدها   ما ارتيدَ من هَيد ومن عُدواء

أي قفار قطعتها على ناقة ذلول ، فيها كل ما يتطلبه الراكب من عزم ومضاء ومن فرج للهموم .

وأمثال هذه الألفاظ في شعر ابي تمام كثيرة فاشية . وقد انكر المتقدمون ذلك عليه ، وقالوا اذا جاز للاعرابي القحّ فهو مستهجن من المحدث الذي ليس هو لغته ، ولا من كلامه الذي تجري عادته به [1] . ولقد ذكرنا ان أكثر ذلك راجع الى شغفه بالقديم كثرة محفوظه منه . على ان هناك سبباً آخر وهو شدة اعجابه بشعره ، حتى لم يكن ليرضى أن يمسه بأدنى تهذيب . قال ابو الهلال العسكري : « كان ابو تمام يرضى بأول خاطر فنعي عليه عيب كثير » . وعن الاغاني : روي عن بعض الشعراء ان أبا تمام أنشده قصيدة له أحسن في جمعها الا في بيت واحد ، فقال له : يا أبا تمام لو ألقيت هذا البيت ما كان في قصيدتك عيب . فقال له : أنا والله اعلم منه مثل ما تعلم ولكن مَثَل شعر الرجل عنده

---

١ الموازنة ١٢١ .

مثل أولاده ، فيهم الجميل والقبيح والرشيد والساقط وكلهم حلو في نفسه [1] » . فكان شاعرنا كما وصفه الآمدي شرهاً الى إيراد كل ما جاش به خاطره ، ولجلجه فكره ، فخلط الجيد بالرديء ، والعين النادر بالرذل الساقط ، والصواب بالخطأ [2] . على ان لشعره طابعاً من الجزالة أو الفخامة عُرف فيه . وعليه قال ابن الاثير يصف ألفاظه :

« كأنها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم وتأهبوا للطراد [3] » .

بقي أن نقول ان أبا تمام كسائر الفحول من الشعراء المتقدمين قد طرق كل أبواب الشعر فمدح ورثى وتغزل وأجاد الحكمة والوصف . وقد ترك لنا من شعره وخصوصاً في المدح والرثاء والحكمة ما يعدّ من أبلغ ما جادت به قرائح الشعراء ، ويكفي أن نشير الى مدائحه في المعتصم وأبي سعيد محمد بن يوسف ومرثاته الشهيرة في محمد بن حُميد الطوسي وما له من بدائع الحكم التي تتخلل قصائده ؛ ففي هذه وسواها تبرز لك شاعريته القوية ، وسنلمس ذلك في ما أثبتناه من مختار شعره .

---

١ الاغاني ١٥ – ١٠٠ .

٢ الموازنة ٥٦ .

٣ المثل السائر ١٠٦ .

المختار من شعر ابي تمام

وادٍ بعيد الغور كثير الجنادل يرده الناهل فلا يبلغه إلا بعد أن تكلّ قدماه وينقطع نفَسه ، على انه إذا وصل وجد فيه ما ينسيه أهوال الطريق ومتاعب الرحيل . ذلك هو ابو تمام في شعره – هدّارٌ كثير التأنق ولوعٌ بسلوك أغرب السبل الى المعاني .

فتح عمورية [1]

قيلت في المعتصم سنة ٢٢٣ هـ وكان الشاعر قد صحبه في هذه المعركة فشهد بنفسه وقائعها [2] :

السيف أصدق أنباءً من الكتبِ في حدّه الحدّ بين الجِدّ واللعبِ
بيضُ الصفائح لا سود الصحائف في متونهنّ جــلاء الشكّ والرِّيبِ
والعلم في شُهُبِ الأرماح لامعةً بين الخميسين [3] لا في السبعة الشهبِ
أين الروايةُ بل أين النجومُ وما صاغوه من زُخرف فيها ومن كذبِ
تخرّصاً وأحــاديثاً ملفـّقةً ليست بنبعٍ إذا عدّت ولا غرَبِ [4]

---

١ عمورية بلدة حصينة في الاناضول كانت بيد الروم .

٢ الفخري ١٧١ .

٣ الخميسين أي الجيشين .

٤ النبع شجر صلب تعمل منه القسي . والغرب شجر هش . والمعنى ان اقوالهم ليست من الحقيقة في شيء .

عجائباً زعمـوا الايام مجفلةً عنهنّ في صفر الأصفار أو رجبِ
وخوّفوا الناس من دهياء مظلمة اذا بدا الكوكب الغربيّ ذو الذنبِ [١]
وصيّروا الأبرُج العليا مرتّبةً ما كان منقلباً أو غير منقلبِ
يقضون بالامر عنها وهي غافلةٌ ما دار في فَلَك منها وفي قطُبِ
لو بيّنت قط أمراً قبل موقعهِ لم يخفَ ما حلّ بالاوثان والصلبِ [٢]
فتحُ الفتوحِ تعالى ان يحيط به نظمٌ من الشعر او نثرٌ من الخطبِ
فتحٌ تفتّحُ أبواب السماء له وتبرُزُ الارض في أثوابها القُشُبِ
يا يومَ وقعةِ عموريّة انصرفت منك المنى حُفّلاً معسولة الحلبِ [٣]
أبقيتَ جدّ بني الاسلام في صُعُدٍ والمشركين ودار الشّرك في صَبَبِ
أمٌّ لهم لو رجوا ان تفتدى جعلوا فداءَها كلّ أمٍّ برّة وأبِ
وبرزةُ الوجه قد أعيت رياضتها كسرى وصدّت صدوداً عن أبي كربِ [٤]
من عهد إسكندر أو قبل ذلك قد شابت نواصي الليالي وهي لم تشبِ
حتى اذا مخض الله السنين لها مخضَ البخيلة كانت زبدة الحقبِ [٥]

* * *

أتتهمُ الكربةُ السوداءُ سادرةً منها وكان اسمها فرّاجة الكربِ [٦]
كم بين حيطانها من فارس بطلٍ قاني الذوائب من آني دمٍ سَربِ
بسنّة السيف والخطيِّ من دمهِ لا سنّة الدين والاسلام مختضبِ [٧]

---

١ إشارة إلى مذنب ظهر في تلك الايام ولعله مذنب «هالي» راجع المقتطف مج ٣٥ ج ٦ – ١ .
٢ كنى بالاوثان والصلب عن الروم . ويريد بهذا البيت انه لو كان التنجيم يفيد لعرف الروم ما سيحل بهم فاتقوه .
٣ شبه بلوغ الأماني بحلب الضرع الملآن بالحليب اللذيذ .
٤ شبه المدينة بامرأة بارزة المحاسن رامها الملوك الفاتحون فامتنعت عليهم .
٥ أي كما ان الامرأة الحريصة تمخض الحليب لتستخرج زبدته هكذا مخضت الايام فكانت عمورية أفضل ما خرج منها .
٦ أتتهم المصيبة من المدينة وكانوا لمناعتها يتوقعون الفرج منها .
٧ أي كم من فارس قتل فيها فسال دمه قانياً حتى خضب شعره ولكن تخضيب السيف لا التخضيب الذي تقتضيه السنة .

لقد تركتَ أمير المؤمنين بها ... للنار يوماً ذليل الصخر والخشب
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى ... يشلّهُ وسطها صبحٌ من اللهب
حتى كأنّ جلابيب الدّجى رغبت ... عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
ضوءٌ من النار والظلماء عاكفةٌ ... وظلمةٌ من دخان في ضحى شحب
فالشمسُ طالعةٌ من ذا وقد أفلت ... والشمس واجبةٌ في ذا ولم تجب [1]
تصرّح الدهر تصريحَ الغمام لها ... عن يوم هيجاءَ منها طاهر جُنُب [2]
لم تطلع الشمس فيه يوم ذاك على ... بانٍ بأهلٍ [3] ولم تغرب على عزَبِ
ما ربعُ ميّة معموراً يُطيف به ... غيلان ابهى ربى من ربعها الخربِ [4]
ولا الخدود وقد أُدمين من خجلٍ ... أشهى إلى ناظري من خدّها الترِب
سماجةٌ غنيت منا العيون بها ... عن كل حسنٍ بدا أو منظر عَجَب
وحسنُ منقلَب تبدو عواقبه ... جاءت بشاشتهُ من سوء منقلب

* * *

لو يعلم الكفر كم من أعصر كَمنت ... له المنيّة بين السّمر والقضُب
تدبيرِ معتصمٍ بالله منتقمٍ ... لله مرتقب في الله مرتغب [5]
ومُطعَمُ النصر لم تكهم اسنته ... يوماً ولا حجبت عن روح محتجب [6]
لم يغزُ قوماً ولم ينهد [7] إلى بلد ... الا تقدّمه جيش من الرُّعُب
لو لم يقُدْ جحفلاً يوم الوغى لغزا ... من نفسه وحدها في جحفل لجب
رمى بك الله بُرَجيها فهدّمها ... ولو رمى بك غير الله لم تُصب
من بعد ما أشبوها واثقين بها ... والله فتّاح باب المعقل الأشِبِ

---

١ في هذا البيت والابيات الاربعة السابقة يذكر حريق المدينة ويتفنن في وصف الدخان واللهب .
٢ جنب نجس . أي طاهر لنا نجس لأعدائنا – أو طاهر بالجهاد نجس باستباحة الاعراض .
٣ بان بأهل أي متزوج .
٤ غيلان هو الشاعر ذو الرمة ، ومية فتاته . وفي هذا البيت وما بعده يقول ان النصر أجمل لدينا من كل الجمال وان خراب المدينة الدال على ظفرنا أبهى من كل منظر حسن .
٥ وفي رواية مرتهب .
٦ الضمير راجع إلى الخليفة المعتصم . وتكهم الاسنة أي تكل عن القطع .
٧ نهد بمعنى نهض أو ارتفع .

وقال ذو أمرهم لا مرتع صدَدٌ   للسارحين وليس الورد من كثَبِ [1]
أمانياً سلبتهم نُجحَ هاجسها   ظبى السيوف وأطراف القنا السُلُبُ
إنّ الحِمامين من بيضٍ ومن سُمُرٍ   دلوا الحياتين من ماءٍ ومن عشب

* * *

لما رأى الحرب رأيَ العين توفلسٌ   والحرب مشتقّة المعنى من الحرَبِ
غدا يصرّف بالأموال جريتها   فعزّه البحر ذو التيار والحدَبِ
هيهات زُعزعت الأرض الوقور به   عن غزو محتسبٍ لا غزو مكتسب [2]
لم يُنفق الذّهبَ المرْبي بكثرته   على الحصى وبه فقرٌ إلى الذّهب
انّ الاسودَ اسودَ الغاب همّتُها   يوم الكريهة في المسلوب لا السّلَب
ولّى وقد ألجمَ الخطيّ منطقهُ   بسكتةٍ خلفها الاحشاء في صخَب
موكّلا بيفاع الارض يشرفُهُ   من خفّة الخوف لا من خفة الطرب
تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت   أعمارهم قبل نضْج التين والعنب [3]
يا رُبّ حوباء [4] لما اجتُثّ دابرهم   طابت ولو ضمّختْ بالمسك لم تطب
ومعضَبٍ رجعت بيض السيوفِ به   حيّ الرضى من رداهم ميّت الغضب
والحرب قائمةٌ في مأزق لحجٍ   تجثو الكماةُ به صُعراً على الرّكب

---

١ في هذا البيت والبيتين التاليين يذكر ان الروم لما حصنوا المدينة وتهيأوا للحصار قال أولو الأمر منهم لن يستطيع المسلمون حصرنا إذ ليس لهم خارجها مراتع ولا مياه . ولكن تلك الأماني كذبتها سيوفنا ورماحنا فكانا (أي السيوف والرماح) الوسيلتين للوصول إلى الماء والعشب .

٢ يريد بهذا البيت وما سبقه ان قائد الروم « تيوفيلوس » لما رأى شدة الحرب عليه أراد أن يحول مجراها عنه بارشاء الخليفة بالمال . ولكن هيهات ذلك والخليفة إنما يحارب حباً بالجهاد لا حباً بالمال .

٣ يقصد جيش الروم وفيه اشارة إلى ان منجمي الروم كانوا قد قالوا ان المدينة لا تؤخذ قبل الصيف ولكن المسلمين كذبوهم وأخذوها قبل ذلك .

٤ الحوباء النفس . أي كم من نفس لم تكن تطيب بالمسك طابت الآن بفناء الاعداء .

كم نيل تحت سناها من سنى قمر وتحت عارضها من عارض شَنِبِ [1]
كم كان في قطع أسباب الرقاب بها إلى المخدّرة العذراء من سبب
كم أحرزتْ قضبُ الهنديّ مصلتةً تهتزّ من قـُضب تهتزّ في كـُثب [2]
بيضٌ إذا انتضيت من حجبها رجعت أحقّ بالبيض ابداناً من الحجب [3]

* * *

خليفةَ الله جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والاسلام والحسب
بصُرت بالراحة الكبرى فلم ترَها تنـال إلا على جسر من التعب
ان كان بين صروف الدهر من رحمٍ موصولةٍ أو ذمامٍ غير منقضب
فبين ايامك اللاتي نـُصرْتَ بهـا وبـين ايام بدر أقرب النسب [4]
أبقت بني الأصفر المراض كاسمهم صفر الوجوه وجلـّت أوجه العرب [5]

وقال في أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري

يذكر بعض وقائعه في الشمال

من سجايا الطلول ألاّ تجيبا فصوابٌ من مقلتي ان تصوبا
فاسألـْنها واجعل بكاك جواباً تجدِ الشوق سائـلاً ومجيبا
قد عهدنا الرسوم وهي عكاظٌ للصـّبا تزدهيك حسناً وطيبا [6]
أكثر الأرض زائراً ومزوراً وصعوداً من الهوى وصبوبا
وكـَعاباً كأنمـا ألبستها غفلاتُ الشباب برْداً قشيبا

---

١ و ٢ يكني بسنا قمر وبالعارض الشنب عن الحسان اللواتي سبوهن . وبالقضب التي تهتز في الكثب عن قامات اولئك الحسان .

٣ أي سيوف إذا سلت من أغمادها كانت أحق بأن تحتفظ بالحسان من خدورهن .

٤ أي إذا كان من قرابة بين الايام فيومك هذا أشدها قرابة بيوم بدر الذي انتصر فيه النبي عل المشركين .

٥ بنو الاصفر أي الروم .

٦ يريد بهذا البيت وما بعده ان هذه الرسوم قد كانت قبلاً سوق الصبـا يرتادها العشاق من كل جانب .

بينَ البيْنِ فقدَها قلّما تعـ ـرف فقداً للشمس حتى تغيبا
لعبَ الشيب بالمفارق بل جـدّ فابكى تماضراً ولعوبا [1]
خضبت خدّها إلى لؤلؤِ العقـ ـدِ دماً أن رأت شواتي خضيبا [2]
كل داءٍ يرجى الدواء لـه إلا الفظيعين ميتةً ومشيبا
يا نسيب الثغام ذنبك أبقى حسناتي عند الغواني ذنوبا [3]
ولئن عبنَ ما رأين لقد أنكرن مستنكراً وعبن معيبا
أو تصدّعن عن قلى لكفى بالشيب بيني وبينهنّ حسيبا
لو رأى الله ان للشيب خيراً جاورته الأبرار في الخلد شيبا
كلّ يوم تبدي صروف الليالي خُلُقاً من أبي سعيدٍ عجيبا
طاب فيه المديح والتذّ حتى فاق وصف الديار والتشبيبا
غرّبته العلى على كثرة الأهل فأضحى في الأقربين جنيبا
فليطل عمرهُ فلو مات في مرْوٍ مقيماً بها لمات غريبا [4]
سبقَ الدهرَ بالتّلاد ولم ينـ ـتظرِ النائبات حتى تنوبا [5]
وإذا ما الخطوب أعفته كانت راحتاهُ حوادثاً وخطوبا
وعِرُ الدين بالجلادِ ولكنّ وعور العدوّ صارت سهوبا
فدروب الاشراك تدعى فضاء وفضاء الاسلام يدعى دروبا
قد رأوه وهو القريب بعيداً ورأوه وهو البعيد قريبا
سكن الكيدُ فيهم إنّ من أعظمِ إرْب أن لا تسمّى أريبا [6]
مكرهم عنده فصيح وان همْ خاطبوا مكرَه رأوه جليبا [7]

---

١ تماضر ولعوب فتاتان .
٢ أي بكت دماً إذ رأت شعري مخضباً لظهور الشيب فيه .
٣ الثغام نبات يبيض إذا يبس . ويريد بنسيب الثغام الشيب .
٤ مرو حاضرة خراسان وهي بلدة الممدوح .
٥ أي سبق نوائب الدهر بمكارمه .
٦ ان كيده لم يظهر لها . وأعظم الدهاء ان لا يعرف صاحبه به .
٧ الجليب الغريب . ويريد بالبيت ان مكرهم ظاهر اما مكره فغير مفهوم لشدة دهائه . فشبه مكرهم بفصيح المنطق ومكره بمن لا يفهم كلامه .

ولعمرُ القنا الشوارعِ تَمري من تلاع الطّلى نجيعاً صبيبا
في مَكرٍّ للروع كنتَ أكيلاً للمنـــايا في ظله وشريبا
لقد انصعتَ والشتاء له وجهٌ يراه الرجـــال جهماً قطوبا
طاعناً منحرَ الشمال متيحاً لبلاد العدو موتـــاً جَنوبا[1]
في ليالٍ تكاد تُبقي بخد الشمس من ريحهـــا البليل شحوبا
فضربتَ الشتاءَ في أخدعيه ضربةً غادرته قوداً ركوبا[2]
لو أصخنا من بعدها لسمعنا لقلوب الأيام منك وجيبـا
غزوةٌ متبـعٌ ولو كان رأيٌ لم تفرّدْ به لكانت سَلوبا[3]
يوم فتحٍ سقى سواد الضواحي كثَبَ الموت رائباً وحليبا
فإذا ما الايام أصبحنَ خُرساً كُظُماً في الفخار قام خطيبا
كان داءَ الاشراك سيفك واشتدت شكاة الهُدى فكنتَ طبيبا
أنضرتْ أيكتي عطاياك حتى صار ساقاً عودي وكان قضيبا
ممطراً لي بالجاه والمـــال ما ألقاكَ إلاّ مستوهَباً أو وَهوبا
باسطاً بالنّدى سحائبَ كفٍّ بنداها أمسى حبيبٌ حبيبا[4]

وقال يمدح القاسم أبا دُلف العجلي
واصفاً جوده وحسن رأيه في الحرب

على مثلها من أربُعٍ وملاعبٍ أُذيلت مصونات الدموع السواكبِ[5]
أقولُ لقرحان من البين لم يُضِفْ رسيس الهوى بين الحشا والترائب[6]
أعنّي أفرّق شمل دمعي فإنني أرى الشملَ منهم ليس بالمتقارب

---

١ اشارة الى انه غزا العدو (في الشمال) بجيش من الجنوب .
٢ هنا جعل الشتاء كالجمل وقال ضربته فانقاد لك .
٣ الغزوة المتبع التي تبعها سواها والسلوب عكس ذلك .
٤ حبيب الاولى اسم الشاعر . أي صرت محبوباً ومحترماً .
٥ أي على مثل هذه الربوع تهان الدموع فتسكب من المآقي .
٦ أقول لمن خلا قلبه من ألم البعد وحرقة الهوى في الصدر .

وما صار يوم الدار عذلك كلّهُ عدوّيَ حتى صار جهلك صاحبي [1]
وما بك إركابي من الرشد مركبا إلا انما حاولتَ رُشدَ الركائب
فكِلني إلى شوقي وسرْ يسِرِ الهوى إلى حرقـاتي بالدموع السوارب

* * *

أميدانَ لهوي من أتاح لك البلى فأصبحت مَيدان الصبا والجنائب
اصابتك ابـكار الخطوب فشتّتت هوايَ بأبكار الظباء الكواعب
إذا العيس لاقت بي أبا دُلف فقد تقطّعَ مـا بيني وبين النوائب
هنالك تلقى الجدَ حيث تقطّعت تمائِمهُ والجود مرخى الذوائب [2]
تكادُ عطـاياه يُجَنّ جنونها إذا لم يعوّذهـا بنغمة طالب
إذا حرّكته هِزّةُ المجدِ غيّرت عطاياه أسماء الأماني الكواذب
تكادُ مغـانيه تهشّ عراصها فتركب من شوق الى كل راكب
اذا ما غدا أغدى كريمة مـاله هديّاً ولو زفّتْ لألأم خاطب
يرى أقبحَ الاشياء أوبـة آملٍ كستهُ يد المأمول حلّة خـائب
وأحسنُ من نَـور تفتّحه الصبا بياض العطـايا في سواد المطالب

* * *

اذا ألجمتْ يوماً لُجيم وحولها بنو الحصن نجل المحصنات النجائب [3]
فإنّ المنايا والصوارم والقنا أقاربهم في الروع دون الاقارب
جحافل لا يتركنَ ذا جبَرية سليماً ولا يحربْنَ من لم يحارب
يمدّون من أيدٍ عواصٍ عواصمٍ تصول بأسيافٍ قواضٍ قواضب
اذا الخيل جابت قسطل الحرب صدّعوا صدورَ العوالي في صدور الكتائب
اذا افتخرتْ يوماً تميمٌ بقوسها وزادتْ على ما وطّدت من مناقب

---

[1] وفي نسخة وما صار في ذا اليوم . وقد مر تفسير هذا البيت والذي بعده .
[2] يريد بتقطيـع التمائم وارخاء الذوائب ان الجود والمجد قد نشأا وبلغا أشدهما عنده .
[3] في هذا البيت وما بعده يقول إذا ركبت قوم الممدوح (لجيم وبنو الحصن) لعمل عظيم فان المنايا والسيوف هي أقاربهم التي تحارب حربهم .

فأنتم بذي قارٍ امالت سيوفكم عروش الذين استرهنوا قوس حاجب[1]
محاسن من مجدٍ متى تقرنوا بها محاسنَ اقوامٍ تكن كالمعائب
معالٍ تمادت في العلوّ كأنما تحاول ثأراً عند بعض الكواكب

* * *

وقد علم الافشين وهو الذي به يصانُ رداء الملك عن كل جاذب[2]
بأنك لما استخذل النصر واكتسى أهابيّ تسفي في وجوه التجارب[3]
تجلّلته بالرأي حتى أريتهُ به ملءَ عينيه مكان العواقب
بأرشقَ إذ سالت عليهم غمامةٌ جرت بالعوالي والعتاق الشوازب[4]
سللت لهم سيفين رأياً ومُنصلاً وكل كنجمٍ في الدّجنّةِ ثاقب
وكنتَ متى تُهزَزْ لخطبٍ تغشّه ضرائب امضى من رقاق المضارب
فذكرك في قلب الخليفة بعدها خليفتكَ المُقفى بأعلى المراتب
فان تُنسَ يُذكرْ، أو يقل فيك حاسدٌ
يُفنّدْ قوله، أو تنأ دارٌ يصاقب[5]
فأنت لديه حاضرٌ غيرُ حاضر بذكر وعنه غائب غير غائب
إليك أرحنا عازبَ الشعر بعد ما تمهّلَ في روض المعاني العجائب
غرائب لاقت في فنائك أنسها من المجدِ فهي الآن غير غرائب
ولو كان يفنى الشعر أفناه ما قرتْ حياضك منه في العصور الذواهب

---

١ اشارة الى قوس حاجب بن زرارة التي استرهنها ملك الفرس والى وفاء حاجب وما ناله من الفخر بذلك . يقول إذا افتخرت تميم بحاجب فان سيوفكم في يوم ذي قار قد غلبت الفرس الذين استرهنوا قوس حاجب .

٢ الافشين قائد تركي كبير كان المعتصم قد عقد له لواء الحرب ضد بابك .

٣ لما انخذل النصر واكتسى بما أفسد عليه التجارب أي أظلمت في وجهه الامور .

٤ ارشق : اسم مكان . وقوله : سالت عليهم غمامة الخ ... معناه غمرتهم الحرب بالرماح والخيول الكريمة .

٥ فبعملك هذا أنت مذكور دائماً عند الخليفة، وبه تقرب منه مها ابتعدت ويهلك قول حسادك.

ولكنه صوب العقول إذا انجلت   سحائب منه أُعقبت بسحائب
أقول لأصحابي هو القاسم الذي   به شرح الجودُ التباسَ المذاهب
واني لأرجو عاجـلا ان تردني   مواهبه بحراً ترجّى مواهبي

وقال يمدح عبدالله بن طاهر

وكان قد قصده الى خراسان

أهنّ عوادي يوسفٍ وصواحبه   فعزماً فقدماً ادرك السؤل طالبُه[1]
إذا المرء لم تستخلص الحزمَ نفسُهُ   فذُرْوتُه للحـادثات وغاربه
أعاذلتي ما أخشنَ الليلَ مركباً   واخشنُ منه في الملمات راكبه[2]
ذريني وأهوالَ الزمانِ أفانِها   فأهوالهُ العظمى تليها رغائبه
ألم تعلمي انّ الزّماع على السّرى   اخو النّجح عند الحادثات وصاحبه
دعيني على اخـلاقي الصمّ للتي   هيَ الوفرُ او سربٌ ترنّ نوادبه[3]
فانّ الحسام الهندوانيّ إنما   خشونتُهُ ما لم تُفلّل مضاربه[4]

* * *

وقلقلَ ناسٌ من خُراسان جأشها   فقلت اطمئنّي انضرُ الروض عازبه
وركبٍ كأطراف الأسنّة عرّسوا   على مثلها والليل تسطو غياهبه[5]
لأمرٍ عليهم ان تتمّ صدورُهُ   وليس عليهم ان تتمّ عواقبه
إلى ملكٍ لم يُلقِ كلكلَ بأسه   على ملكٍ الّا وللـذلّ جانبه
إلى سالب الجبّار بيضة مُلكهِ   وآملُهُ غادٍ عليـه فسالبه
سما للعـلى من جانبيها كليهما   سموّ عباب الماء جاشت غواربه
فنوّل حتى لم يجد من ينيلُهُ   وحاربَ حتى لم يجد من يحاربه
وذو يقظات مستمرٍّ مريرهـا   إذا الخطب لاقاه اضمحلت نوائبه[6]
فوالله لو لم يُلبس الدهرَ فعلَهُ   لأفسدت الماءَ القراحَ معائبه

---

١ و ٢ و ٣ و ٤ قد مر تفسير هذه الابيات سابقاً .
٥ وركب كأطراف الرماح مضاء أقاموا على نياق مثلهم مضاء وعزماً .
٦ مستمر مريرها أي مستمرة شدتها .

فيا أيها الساري آسرٍ غير محاذرٍ جَنان ظلامٍ أو ردى أنت هائبه
فقد بثّ عبدالله خوف انتقامه على الليل حتى ما تدبّ عقاربه

* * *

ويومٍ أمام الموت دحْضٍ وقفتَه ولو خرّ فيه الدين لانهال كاثبه
جلوتَ به وجه الخليفة ، والقنا قد اتّسعت بين الضلوع مذاهبه
سقيت صداه والصفيحُ من الطّلى رواءٌ نواحيه عذابٌ مشاربه ١
فلو نطَقت حرب لقالت محقّةً ألا هكذا فليكسب المجد كاسبه
ويا أيها الساعي ليدرك شأوهُ تزحزحْ قصيّاً أسوأُ الظن كاذبه
فحسبك من نيل المراتب ان ترى عليماً بأن ليست تُنالُ مناقبه
إذا ما امرؤٌ ألقى بربعك رحله فقـــد طالبته بالنجاح مطالبه

وقال يمدح محمد بن عبد الملك الزيات

ديمةٌ سمحة القياد سكوبُ مستغيثٌ بها الثرى المكروبُ
لو سعت بقعةٌ لإعظام نعمى لسعى نحوها المكان الجديب
لذّ شؤبوبها وطاب فلو تسطيع قامت فعانقتها القلوب
فهي ماءٌ يجري وماءٌ يليه وعَزالى تنشا وأخرى تذوب ٢
كشف الروضُ رأسه واستسرّ المحل منها كما استسرّ المريب ٣
فإذا الرّيّ بعد محلٍ وجرجا نُ لديها يبرينُ او ملحوب ٤
أيها الغيثُ حيّ أهلاً بمغدا كَ وعند السّرى وحين تؤوب ٥

١ أي سقيت القنا فاطفأت عطشه والسيف من الرقاب قد عذبت مشاربه وسالت نواحيه. ويروى « والصفيح من الطلى رواء نواحيه » .

٢ أي كان من جراء هذه الغمامة الماطرة ان سالت المياه مجرى بعد مجرى . والعزالى مصاب مياه المطر .

٣ استسر اختفى . أي اختفى المحل كما يحتجب صاحب التهمة عن أعين النظار .

٤ أصبحت جرجان وهي في الخصب كأنها يبرين او ملحوب – وهما محلان في بلاد العرب معروفان بوفرة مياهها وشجرهما .

٥ ويروى حيهلا وهي بمعنى أهلاً وسهلاً .

لأبي جعفر خـلائقُ تحكيهنّ قــد يشبه النجيبَ النجيبُ
انتَ فينا في ذا الاوان غريبٌ وهو فينا في كل وقتٍ غريب
ضاحكٌ في نوائب الدهر طلقٌ وملوكٌ يبكون حين تنوب
فاذا الخطبُ طالَ نالَ الندى والبذل منه ما لا تنالُ الخطوب
خُلُقٌ مشرقٌ ورأي حسامٌ ووِدادٌ عذبٌ وريحٌ جنوب
كلَّ يوم له وكلّ أوانٍ خُلُقٌ ضاحكٌ ومالٌ كئيب
إن تقاربْهُ أو تباعـــده ما لم تأتِ فحشاء فهو منك قريب
ما التقى وفرُهُ ونائلُهُ مــذْ كانَ الا ووفرُهُ المغلوب
فهو مدنٍ للجود وهو بغيضٌ وهو مُقصٍ للمال وهو حبيب[1]
يأخذ المعتفينَ قسراً ولو كفّ دعــاهم اليه وادٍ خصيب
غيرَ أنّ الرّامي المسدّد يحتاط مــع العلم انه سيصيب [2]

وقال في أبي سعيد محمد بن يوسف

ذاكراً بعض وقائعه في حروب بابك

غدت تستجيرُ الدمع خوفَ نوى غدٍ وعادَ قتاداً عندها كل مرقــد
وانقــذها من غمرة الموت انه صُدودُ فراق لا صدود تعمّدِ
فأجرى لها الاشفاق دمعاً مورّداً من الدّم يجري فوق خدّ موردِ
هيَ البــدرُ يغنيها تودّدُ وجهها إلى كلّ من لاقت وان لم تودّدِ
ولكنني لم أحــو وفراً مجمّعاً ففزتُ به إلّا بشمــلٍ مبدّدِ
ولم تعطني الايامُ نومــاً مسـكّناً ألذّ بــه الّا بنــومٍ مشرّدِ
وطولُ مقام المرء في الحيّ مخلقٌ لديباجتيهِ فاغـــترب تتجدّدِ

---

١ يصف شدة كرمه ويقول فهو مدن للجود والجود بغيض من أصحاب المال . وهو مقص للمال والمال محبوب من الجميع .

٢ يجر المعتفين الى نواله مع علمه بأنهم سيقصدونه . يفعل ذلك احتياطاً كما يحتاط الرامي مــع علمه انه سيصيب .

فاني رأيتُ الشمسَ زيدت محبّةً ... إلى الناس أن ليست عليهم بسرمدِ

* * *

حلفتُ بربِّ البيض تدمى متونها ... وربِّ القنا المنآد والمتقصّدِ [1]
لقد كفَّ سيفُ الصامتيِّ محمّد ... تباريح ثــأر الصامتيِّ محمّدِ [2]
رمى الله منه بابكاً وولاتهُ ... بقاصمة الأصلاب في كل مشهدِ
بأسمحَ من صوب الغمام سماحةً ... وأشجعَ من صرف الزمان وأنجدِ
وفي « ارشقَ » الهيجاء والخيل ترتمي ... بأبطالها في جاحم متوقّدِ
عططت على رغم العدى عزم بابكٍ ... بعزمك عطّ الاتحميّ المعضّدِ [3]
فان لم يكن ولّى بشلوٍ مقدّدٍ ... هناك فقد ولّى بعزم مقدّدِ
وقد كانت الارماح أبصرنَ قلبه ... فأرمدها سترُ القضاء الممدّدِ
وموْقان كانت دارَ هجرته فقد ... توردتها بالخيل أي توردِ [4]
حططتَ بها يوم العروبة عزّه ... وكان مقيماً بين نسر وفرقدِ [5]
رآك سديد الرأي والرمح في الوغى ... تأزرُ بالإقدام فيه وترتدي
وليس يجلّي الكرب رمح مسدّد ... إذا هو لم يؤنس برأي مسدّد
فمرّ مطيعاً للعوالي معوّداً ... من الخوف والاحجام ما لم يعوّدِ
وكان هو الجلد القوى فسلبتهُ ... بحسن الجلادِ المحض حسن التجلّدِ
افادتك فيها المرهفات مكارماً ... تعمّر عمرَ الدهر ان لم تخلّدِ

* * *

وليلةَ أبليتَ البَياتَ بلاءهُ ... من الصبر في وقت من الصبر مجمدِ [6]

---

١ حلفت برب السيوف الدامية والقنا الملتوي او المتكسر .
٢ أي لقد ثار محمد (المدوح) لمحمد بن حميد الطوسي الذي قتل قبلاً ، والصامتي لقب .
٣ شققت عزم بابك كما يشق الثوب المخطط .
٤ موقان اسم مكان كانت حصن بابك الحصين حتى دخلتها بالخيل .
٥ يوم العروبة أي يوم الجمعة . يقول انزلت عزه ذلك اليوم وكان بين هذين النجمين سمواً .
٦ مجمد (ويروى خطأ مجحد) أي قليل الخير .

فيا جولةً لا تجحديه وقارهُ ويا سيف لا تكفر ويا ظلمة اشهدي
ويا ليلُ لو أني مكانك بعدها لما بتَّ في الدنيا بيومٍ مسهَّدِ
وقائعُ أصلُ النصر فيها وفرعُهُ إذا عُدِّد الاحسانُ أو لم يعدَّدِ
فمهما تكن من وقعةٍ بعدُ لا تكن سوى حسنٍ مما فعلتَ مردَّدِ
محاسن اصناف المغنّينَ جمّةٌ وما قصباتُ السبقِ الا لِمَعْبَدِ [1]
جلوت الدجى عن أذربيجان بعدما تردَّتْ بلونٍ كالغمامة اربدِ [2]
وكانت وليس الصبحُ فيها بأبيضٍ فأمست وليس الليل فيها بأسودِ
رأى بابكٌ منك التي طلعت له بنحسٍ وللدين الحنيف بأسعُدِ
هزرتَ له سيفاً من الكيد انما تجذّ به الاعناق ما لم تجرَّدِ [3]
يسرّ الذي يسطو به وهو مغمدٌ ويفضح من يسطو به غير مغمدِ
تلافى جداك المجتدينَ فاصبحوا ولم يبقَ مذخور ولم يبقَ مجتدِ
إذا ما رحى دارت ادرْت سماحةً رحى كلّ إنجاز على كل موعدِ [4]
أتيتك لم افزعْ الى غير مفزعٍ ولم أنشد الحاجات في غير منشدِ
ومن يرجُ معروف البعيد فانما يدي عوّلت في النائبات على يدي

وقال في المعتصم وبطشه بالافشين

وكان الافشين اولاً قائد جيشه ثم خرج عليه

الحقّ أبلجُ والسيوفُ عوارِ فحذارِ من اسد العرين حذارِ
ملكٌ غدا جارَ الخلافةِ منكمُ والله قد أوصى بحفظ الجارِ
يا رُبّ فتنةٍ أمّةٍ قد بزّها جبّارُها في طاعةِ الجبّارِ

---

١ معبد اسم مغن مشهور .
٢ اذربيجان مقاطعة في بلاد فارس .
٣ أي هزرت سيفاً من المكر . والمكر إنما ينفع اذا لم يفتضح ـ يشير الى درايته وحسن سياسته.
٤ سماحة مفعول لأجله . أي اذا رحى الشدائد دارت ادرت من سماحتك رحى الوفاء والكرم .

جالت بحيدرَ جولة المقدارِ … فأحلّهُ الطغيان دار بوارِ [1]
كم نعمةٍ لله كانت عنده … فكأنها في غربة وإسارِ
كسيتْ سبائبَ لؤمه فتضاءلت … كتضاؤل الحسناء في الأطمارِ [2]
موتورةً طلبَ الإلهُ بثأرها … وكفى بربِّ الثأر مدركَ ثار
صادى أميرَ المؤمنين بزبرجٍ … في طيّه حمَةُ الشجاعِ الضاري [3]
مكراً بنى ركنيهِ إلّا أنهُ … وطدَ الأساسَ على شفيرٍ هارِ
حتى إذا ما الله شقّ ضميره … عن مستكنّ الكفر والاصرارِ
ونحا لهذا الدين شفرتهُ انثنى … والحقّ منه قانىء الأظفارِ [4]
ما كان لولا فحش غدرة حيدرٍ … ليكونَ في الاسلام عامُ فِجارِ [5]
ما زال سرّ الكفر بين ضلوعهِ … حتى اصطلى سرّ الزناد الواري
ناراً يساورُ جسمه من حرّها … لهبٌ كما عصفرتَ شقّ إزارِ [6]
طارت لها شُعَلٌ يهدّم لفحها … أركانه هــدماً بغير غبارِ
لله من نار رأيت ضياءَهـــا … ضاق الفضاء به عن النظّارِ
مشبوبةً رُفعت لأعظم مشركٍ … ما كان يَرفعُ ضوءها للساري
صلّى لها حيّاً وكان وقودها … ميتاً ويدخلها مع الفجّارِ [7]
وكذاك أهل النار في الدنيا همُ … يوم القيامة جلّ أهلِ النارِ
يا مشهداً صدرتْ بفرحته إلى … أمصارها القصوى بنو الأمصارِ
رمقــوا أعالي جــذعه فكأنما … وجدوا الهلال عشيّة الإفطارِ
واستنشقوا منه قتاراً نشرهُ … من عنبرٍ ذَفِرٍ ومسك داري [8]

---

١ حيدر بن كاوس هو الافشين .
٢ سبائب اللؤم أي اثوابه . والاطمار اكسية بالية .
٣ تظاهر بطاعة تحتها سم الحية القتّال .
٤ أي بعد ان أعد شفرة الغدر للدين عاد الدين ففتك به .
٥ فجار : من حروب الجاهلية ، سميت كذلك لأنها كانت في الاشهر الحرم .
٦ هذا البيت وما قبله اشارة الى احراق الافشين وهو مصلوب .
٧ يشير الى ان الافشين كان مجوسياً يعبد النار .
٨ نسبة الى دارين ، وهي بلدة في الشام معروفة بعطرها .

قد كان بوّأه الخليفةُ جانباً ... من قلبه حرَماً على الأقدارِ
فسقاه ماء الخفض غير مصرّدٍ ... وأنامه في الأمن غير غرارِ
فإذا ابنُ كافرةٍ يُسرّ بسرّهم ... وجداً كوجد فرزدقٍ بنُوارِ [1]
وإذا تذكّره بكاه كما بكى ... كعبٌ زمانَ رثى أبا المغوارِ [2]
دلّت زخارفُهُ الخليفة أنه ... ما كلّ عودٍ ناضرٍ بنُضارِ
يا قابضاً يدَ آل كاوُس عادلاً ... أتبع يميناً منهم بيسارِ
ألحِقْ جبيناً دامياً رمّلته ... بقفاً وصدراً خائناً بصُدارِ [3]
واعلم بأنك إنما تلقيهمِ ... في بعض ما حفروا من الآبارِ
كادوا النبوّة والهدى فتقطّعت ... أعناقهم في ذلك المضمارِ
جهلوا فلم يستكثروا من طاعة ... معروفة بعمارة الأعمارِ
فاشدُدْ بهارون الخلافة إنه ... سكَنٌ لوحشتها ودار قرارِ [4]
بفتى بني العباس والقمر الذي ... حفّته أنجمُ يعربٍ ونزارِ
كرم الخؤولة والعمومة مجّه ... سلفاً قريش فيه والأنصارِ
هوَ نوء يُمن فيهم وسعادة ... وسراج ليل فيهم ونهارِ
فاقمع شياطين الفساد بمهتدٍ ... ترضى البريّة هديه والباري
ليسيرَ في الآفاق سيرةَ رأفةٍ ... ويسوسها بسكينة ووقارِ
فالصين منظوم بأندلسٍ الى ... حيطان روميةٍ فملك ذمارِ [5]
ولقد علمتَ بأن ذلك معصم ... ما كنت تتركه بغير سوارِ
فالأرض دار أقفرت ما لم يكن ... من هاشم ربٌّ لتلك الدارِ
سور القرآن الغرّ فيكم أنزلت ... ولكم تصاغ محاسن الأشعارِ

---

١ الضمير في بسرهم يرجع الى المجوس ، ونوار امرأة الفرزدق طلقها ثم ندم ووجد لذلك .
٢ كعب الغنوي شاعر قديم . له شعر يرثي به اخاه ابا المغوار .
٣ في هذا البيت وما قبله يقول : ايها الخليفة قد قبضت على ايدي آل كاوس بقتله فاقتل من بقي منهم .
٤ هارون هو الواثق بن المعتصم .
٥ يقصد بذمار اليمن . ويريد بما مرّ من الابيات ان الواثق خير ولي للعهد فهو قد جمع شرف الخؤولة والعمومة وقرن في نفسه الهداية وحسن الرأي .

ومن مدائحه في المعتصم

أجلْ ايها الربعُ الذي خفّ آهله لقد ادركتْ فيك النوى ما تحاوله
وقفتُ وأحشائي منازل للأسى به وهو قفرٌ قد تعفّت منازله
اسائلكم ما باله حكَم البلى عليه والّا فاتركوني اسائله
دعا شوقهُ يا ناصرَ الشوقِ دعوةً فلبّاه طلّ الدمع يجري ووابله
بيومٍ يريك الموت في صورة النّوى اواخرُهُ من حسرةٍ وأوائله

الى أن يقول :

إلى قُطب الدنيا الذي لو بفضله مدحت بني الدنيا كفتهم فضائله
مَن البأسُ والمعروف والدين والتقى عيالٌ عليه رزقهنّ شمائله
جلا ظلمات الظلم عن وجه أمّةٍ اضاء لها من كوكب الحق آفله
ولاذت بحقويه الخلافةُ فالتقت على خدرها أرماحه ومناصله
بمعتصمٍ باللهِ قد عُصمتْ به عُرى الدينِ والتفّت عليه وسائله
رعى الله فيهِ للرعيّةِ رأفة ورحمتهُ فيهم تفيضُ ونائله
وقام فقامَ العدلُ في كل بلدة خطيباً وأضحى الملك قد شقّ بازله[1]
بيُمن أبي اسحق طالت يد الهوى وقامت قناةُ الملك واشتدّ كاهله[2]
هو البحرُ من أيِّ النواحي أتيته فلجّتهُ المعروفُ والجود ساحله
تعوّدَ بسط الكفّ حتى لو أنّهُ ثناها لقبضٍ لم تطعه أنامله
ولو لم يكن في كفّهِ غيرُ روحه لجاد بها فليتّق الله سائله
إمام الهدى وابن الهدى أيّ فرحة تعجّلها منك القريضُ وقائله
رجاؤك للباغي الغنى عاجلُ الغنى وأول يوم من لقائك آجله

---

١ شق بازله أي طلع ناب جمله ، والكلام مجاز يراد به قد اكتمل .

٢ ابو اسحق كنية المعتصم . اشتد كاهله أي امتنع جانبه .

مرثاته في محمد بن حميد الطوسي

وكان المرثي من كبار القادة وقد قتل في حرب بابك ٢١٤ هـ

كذا فليجلّ الخطب وليفدحِ الأمر ... فليس لعين لم يفض ماؤها عذرُ
تـُوفـّيت الآمال بعد محمّدٍ ... وأصبح في شغل عن السفر السفر
وما كان الا مال من قلّ ماله ... وذخراً لمن أمسى وليس له ذخر
وما كان يدري مجتدي جودِ كفـّه ... إذا ما استهلـّت انـّهُ خُلق العسر
الا في سبيل الله من عطِلـّت له ... فجاج سبيل الله وانثغر الثغر
فتى كلما فاضت عيون قبيلة ... دماً ضحكت عنه الاحاديث والذكر
فتى دهره شطران فيما ينوبه ... ففي بأسه شطر وفي جوده شطر
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة ... تقوم مقام النصر ان فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه ... من الضرب واعتلـّت عليه القنا السمر
وقد كان فوتُ الموت سهلاً فردّه ... اليه الحفاظ المرّ والخلق الوعر
ونفس تعاف العار حتى كأنما ... هو الكفر يوم الروع او دونه الكفر
فأثبت في مستنقع الموت رجله ... وقال لها من تحت أخمَصك الحشر
غدا غدوةً والحمد نسج ردائه ... فـلم ينصرف الا وأكفـانه الاجر
تردّى ثياب الموت حمراً فما دجا ... لها الليل الا وهي من سندس خضر[1]
كأنّ بني نبهان يوم وفاته ... نجوم سماء خرّ من بينها البدر
يُعزّون عن ثاوٍ تعزّى به العلى ... ويبكي عليه البأس والجود والشعر
وأنـّى لهم صبر عليه وقد مضى ... إلى الموت حتى استـُشهدا هو والصبر
فتى كان عذب الروح لا من غضاضة ... ولكنّ كبراً ان يقال به كبر
فتى سلبته الخيل وهو حمى لها ... وبزّته نار الحرب وهو لها جمر
وقد كانت البيض المآثير في الوغى ... بواتر فهي الآن من بعده بُتر[2]

١ أي قتل في ساحة الجهاد فلبس بعد الموت الثياب الخضر التي هي لباس أهل الجنة .

٢ في هذا البيت وما قبله يقول قتل في الحرب وقد كان هو الذي يثيرها فأصبحت السيوف القاطعة بعده مبتورة لا خير فيها .

أمن بعد طيٍّ الحادثات محمّداً ... يكون لأثواب الندى أبداً نشرُ
إذا شجرات العُرف جُذّت أصولها ... ففي أي فرع يوجد الورق النضرُ
لَئن أبغض الدهر الخؤون لفقده ... لعهدي به ممن يُحبّ له الدهرُ [1]
لَئن غدرت في الروع ايامه به ... فما زالت الأيام شيمتها الغدرُ
كذلك ما ننفكّ نفقد هالكاً ... يشاركنا في فقده البدو والحضرُ
سقى الغيث غيثاً وارت الارض شخصه ... وان لم يكن فيه سحاب ولا قطرُ
وكيف احتمالي للغيوث صنيعةً ... باسقائها قبراً وفي لحده البحرُ [2]
مضى طاهر الأثواب لم تبق روضة ... غداة ثوى الا اشتهت انها قبرُ
ثوي في الثرى من كان يحيا به الثرى ... ويغمر صرفَ الدهر نائله الغمرُ
عليك سلام الله وقفاً فانني ... رأيت الكريم الحرّ ليس له عمرُ

وقال من قصيدة يرثي بها ادريس بن بدر السامي

دموع أجابت داعيَ الحزن همّعُ ... تَوصّلُ منّا عن قلوب تقطّعُ
عفاءٌ على الدنيا طويلٌ فانها ... تَفرّقُ من حيث ابتدت تتجمّع
تبدّلت الاشياء حتى لخلتها ... ستثني غروب الشمس من حيث تطلع
لها صيحة في كل روح ومهجة ... وليست بشيء ما خلا القلب تسمع
لإدريس يومٌ ما تزال لذكره ... دموعي وإن سكّنتها تتفرّع
ولما نضى ثوبَ الحياة وأوقعت ... به نائباتُ الدهرِ ما يُتوقّع
غدا ليس يدري كيف يصنع معدم ... ذرى دمعهُ من وجده كيف يصنع
وماتت نفوس الغالبيّين كلهم ... والاّ فصبر الغالبيين أجمع [3]
غدوا في زوايا نعشه وكأنما ... قريشٌ قريشٌ يوم مات مجمّع

---

١ اذا ابغض الدهر لفقده فقد كان يحمد سابقاً لكرمه ومآثره .

٢ يطلب من الغيث (المطر) ان يسقي غيث الجود (المرثي) ثم يقول وكيف أطلب من المطر ان يسقي قبراً فيه بحر الجود والعلى .

٣ يريد بالغالبيين عشيرته أي ماتوا بموته أو مات صبرهم أجمع .

ولم أنسَ سعيَ الجودِ خلفَ سريره بأكسفِ بالٍ يستقيم ويظلعُ
ألم تكُ ترعانا من الدهر إن سطا وتحفظ من أموالنا ما يضيّع
وتلبس أخلاقاً كراماً كأنها على العِرض من فرطِ الحصانة أدرع
وتبسط كفّاً في الحقوق كأنما أناملها في البأس والجود أذرع
وتربط جأشاً والكماة قلوبها تزعزع خوفاً من قناً تتزعزع
إلا إنّ في ظفر المنيّةِ مهجةً تظلّ لها عين العلى وهي تدمع
هي النفس ان تبكِ المكارم فقدها فمن بين احشاء المكارم تنزع

البحتري

ابو عبادة الوليد بن عبيد الله

٢٠٥ هـ – ٢٨٤ هـ

٨٢٢ م – ٨٩٨ م

●

مصادر دراسته – توطئة تاريخية – نظرة في ديوانه

مزيته الفنية – شعره الغزلي

مصادر دراسته

طبقات الشعراء لابن المعتز (١٩٣٩) ص ١٨٦ — ١٨٧
الأغاني ج ١٨ ص ١٦٧ — ١٧٥
الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي (الاستانة ١٢٨٧)
الموشح للمرزباني ص ٣٣٠ — ٣٤٣
الفهرست ص ١٦٥
أخبار البحتري للصولي (دمشق)
معجم الأدباء لياقوت ج ٧ ص ٢٢٦ — ٢٣٢
وفيات الأعيان ج ٢ تحت اسم الوليد (حرف الواو)
مفتاح السعادة ص ج ١ — ١٩٣ (طبع الهند)
ومتفرقات في مروج الذهب وتاريخ ابن عساكر والعمدة وغيرها .
وتجد سيرته في كل الكتب الحديثة التي تتناول الآداب العربية وتاريخها ، نذكر منها :
دائرة المعارف الاسلامية
مجلة الضياء المجلد السادس (ج ١ — ج ١٥) سلسلة مقالات (لأمين حداد)
شعراء الشام لخليل مردم .
اعلام النبلاء للطباخ ج ٤ ص ٦ — ١٤
عبقرية البحتري لعبد العزيز سيد الاهل
البحتري لنديم مرعشلي (سلسلة أعلام الفكر العربي) عدد ٩

نشأته وحياته

يؤخذ من دراسة المصادر التاريخية ان البحتري ولد في منبج بجوار حلب ، (وعلى رأي أحدهم في قرية قريبة منها تدعى زردفنه) وهناك نشأ وقال الشعر . وتقع حياته الشعرية في ثلاثة أطوار :

(الاول) طور نشأته الأدبية ومعظمه كان في منبج ، على أنه زار بعض المدن السورية كحلب وحمص والمعرّة . وفي حمص على ما يقال لقي أبا تمام وأخذ عنه .

(الثاني) طور العراق : وهو طور شهرته وفيه اتصل بالخلفاء وكبار رجال الخلافة فمدحهم ونال جوائزهم . وهذا الطور عهدان :

عهد المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان ثمّ عهد من تبعه من الخلفاء ، وبين العهدين فترة اقام فيها في منبج .

(الثالث) طور الرجوع الى أرض الوطن والاقامة فيه .

فالبحتري نشأ في جوار حلب ، حتى اذا ادرك وحذق صناعة الشعر قصد العراق واتصل ببلاط المتوكل ولازمه . ولما حدثت الفتنة التي قتل فيها المتوكل ووزيره الفتح وذلك ٢٤٧ ﻫ كره البقاء فعاد إلى وطنه . ولكنه على ما يظهر لم يقم هناك طويلاً . نستنتج ذلك من قائمة ممدوحيه ومن قصائده فيهم . فعاد الى العراق وإلى سالف عهده من مدح الخلفاء والامراء هناك – ولا سيما المعتز – وبقي الى آخر حكم المعتمد [١] ، ثم رجع الى سوريا واستقر في منبج حيث أدركته الوفاة وهو يناهز الثمانين .

اتصل شاعرنا بسبعة من كبار الخلفاء العباسيين وبعدد أوفر من رؤساء

---

١ ومن مرثاته في غلامه قيصر يظهر انه كان لا يزال بعيداً عن وطنه وهو ابن ٦٦ سنة .

القوم فبلغ منزلة عالية ، ولم يكن مسرفاً فجمع مالاً وفيراً . قال ابن رشيق : « وكان البحتري ملياً فاض كسبه من الشعر وكان يركب في موكب من عبيده[1] » . وفي شعره ما يشير الى انه كان ذا عقار واسع ، كقوله لأحد الرؤساء في أمر ضيعة له – والظاهر ان بعضهم اعتدى عليها واغتصب غلتها فقال مستجيراً به :

وقد غدت ضيعتي منوّطة　　بحيث نيطت للناظر الزُّهَرَه
اروم بالشعر ان تعود فما　　اقطع فيما ارومه شَعَره

وفي بعض قصائده للمعتز يستأذنه في الذهاب الى الشام لينظر في املاكه ، قال :

هل اطلعنّ على الشآم مبجّلاً　　في عزّ دولتك الجديد المونق
فارمّ خلة ضيعة تصف اسمها　　والمّ ثَمّ بصبية لي دردق[2]
شهران ان يسّرت إذني فيهما　　كفلا بإلفة شملي المتفرّق

ويذكر ابن خلكان انه كان يحتاج للترداد الى الوالي بسبب مصالح أملاكه[3] .

* * *

وفي أيام البحتري كانت الخلافة العباسية في حال انتقال من طور القوة الى طور الضعف ، وكان المتوكل حلقة الاتصال بين هذين الطورين . وقد شهد الشاعر أيام عزه وبأسه كما شهد الفتنة عليه وما كان من مقتله واستبداد امراء الجند التركي بالذين جاءوا بعده .

ومن الظواهر التاريخية التي تتجلى في شعره وشعر معاصريه (كما سنرى في كلامنا عن ابن الرومي) اعتلاء العناصر الاعجمية في الدولة على العنصر

---

١ العمدة ٢ – ١٢٥٠ – وفي ١ – ٦ يذكر انه كان له قهارمة وكتاب .
٢ أي اطفال .
٣ وفيات الاعيان ترجمة البحتري في ج ٢ حرف الواو .

العربي (حتى كان الشاعر ينوّه بفضل الموالي) كما قال البحتري من قصيدة للمعتز:

يا من له أول العليا وآخرها ... ومن يجود يديه يُضرب المثل
أما الموالي فجند الله حمّلهم ... ان ينصروك فقد قاموا بما احتملوا
بقاؤهم عصمة الدنيا وعزّهم ... ستر على بيضة الاسلام منسدل

ومن قوله في ذلك يصف ما قام به قادة المعتز من قهر الاعداء والقائمين عليه:

مراة رجالٍ من مواليك أكّدوا ... عرى الدين إحكاماً وبتّوا قوى الكفر
إذا فتحوا أرضاً أعدّوا لمثلها ... كتائب تفري في أعاديك ما تفري
ففي الشرق إفلاحٌ لموسى ومُفلحٍ ... وفي الغرب نصر يرتجى لأبي نصر [1]

وإذا قابلت ممدوحيه (من غير الخلفاء) بممدوحي أبي تمام مثلاً ترى أن الأخير كانت مدائحه في العرب تفوق مدائحه في سواهم؛ أما البحتري فعلى خلاف ذلك. وانك لتتثبت ذلك من مراجعة القائمة التالية ودرس رجالها واحداً واحداً. وقد أغفلنا فيها ذكر من لم تبلغ مدائحه القصيدتين وجمعنا أفراد الاسرة الواحدة تحت اسم واحد كآل سهل وآل المدبر وسواهم. ومع ذكرنا للخلفاء لم ندخلهم في هذه الموازنة العنصرية.

الخلفاء

المتوكل	٣٥ قصيدة
المعتز	٣٠ قصيدة
المعتمد	٥ قصائد
المهتدي	٤ »
المستعين	٤ »

---

[1] موسى ومفلح وابو نصر من قادة الاتراك.

من كبار العرب

أبو سعيد محمد بن يوسف الثغري وآله	٢٣	(طي) من كبار القادة
آل حميد الطوسي	١٨	نبهان (طي) من كبار القادة
أحمد بن محمد الطائي	٧	طي
أبو صالح بن عمار	٥	
محمد بن القمي	٥	طلحة
الخضر بن أحمد	٥	
أبو نوح عيسى بن ابراهيم	٤	
أبو الحسن الهاشمي	٤	هشام
علي بن مرّ	٤	طي
مالك بن طوق	٢	من تغلب أمير عرب الشام
محمد بن بدر	٢	من بني سعد على ان أخواله من الموالي

ومن كبار الممدوحين الذين لم نثبتهم في إحدى القائمتين اسماعيل بن بلبل ٢٠ قصيدة . ونسبه في شيبان ولكن صاحب الفخري (١٨٧) يقول ان في نسبه ريباً .

واسحق بن ابراهيم المصعبي	٢	نائب بغداد وابن عم طاهر بن الحسين

من كبار الموالي

الفتح بن خاقان وآله	٢٦	وزير المتوكل (من الاتراك)
الحسن بن مَخلد وآله	٢٦	وزير المعتمد (من الفرس)[1]
ابراهيم بن المدبر وآله	١٥	من رجال الدولة أدباً وادارةً (من الفرس)[2]
آل سهل	١٢	وزراء (من الفرس)

١ راجع ديوان البحتري (عطيه) ٥٧٩ — ٥٨٢ و ٣٢٠ و ٣٢٥ و ٤٧٢ و ٥٤٩ .

٢ الديوان ٥٨٠ و ٥٩٥ و ٥٩٩ وفي معجم الادباء انه كان يدعي انه من ضبه .

علي وعبدالله بن يحيى بن خاقان	٩	من وزراء المتوكل	(من الاتراك)
ابو صالح بن يزداد	٨	وزير المستعين	(من الفرس)
آل طاهر	٧	من أعيان الامراء	« «
ابو العباس بن بسطام	٦	من الاعيان	« «[1]
الشاه ابن ميكال	٥	من امراء الفرس	
علي بن الفياض	٤	من الوجهاء والرؤساء	« «
أحمد بن ثوابه	٤	وزير وكاتب[2]	« «
وصيف وآله	٤	من امراء الترك	
اسحق بن كنداج	٣	من الاتراك وهو الذي ردّ المعتمد الى سامرا وسمي ذا السيفين[3]	
اسمعيل بن نوبخت	٣	من اعيان القادة	
آل دينار	٣	من رؤساء الفرس[4]	

* * *

وكان البحتري كأكثر شعراء عصره مولعاً بالخمر . وفي الابيات التالية التي كتبها الى المبرّد (اللغوي المشهور صاحب الكامل) ما يدلك على شيء من أحواله ونسق معيشته . قال :

يوم سبتٍ وعندنا ما كفى الحُرّ طعاماً والوردُ منا قريب
ولنا مجلس على النهر فيّاح فسيح ترتاح فيه القلوب
ودوام المُدام يدنيك ممن كنت تهوى وان جفاك الحبيب
فأتنا يا محمد بن يزيد في استتار كي لا يراك الرقيب
نطرد الهم باصطباح ثلاثٍ مترعات تنفى بهن الكروب

---

١ ديوان القسطنطينية ١ – ١٢٨ وعطيه ٦٠٦ .
٢ في معجم الادباء ان أصلهم نصارى .
٣ راجع الطبري في أخبار ٢٦٩ .
٤ ديوان البحتري (عطيه) ٤٠٠ و ٤٠٤ .

انّ في الراح راحة من جوى الحب وقلبي الى الاديب طروب
لا يرُعْك المشيب مني فاني ما ثناني عن التصابي المشيب

وفي ديوانه مواطن كثيرة يذكر فيها ولعه بالخمر واللهو نقتصر منها على ما يلي، وفيه يقترب من روح أبي نواس :

كل ماضٍ انساه غير ليال ماضيات لنا ببارا وبنّا[1]
مغرم بالمدام أترع كاساً ساطعاً ضوءها وانسف دنّا
حيث لا أرهب الزمان ولا ألقي الى العاذل المكثّر اذنا
يزعم البِرّ في التشدّد والأسمح اولى بأن يُبرّ ويُدنى

* * *

أما مذهبه السياسي فمن الطبيعي ان يكون عبّاسياً. وقد توهم الاستاذ مرغوليوث في الابيات التالية :

يا ضيعة الدنيا وضيعة أهلها والمسلمين وضيعة الاسلام
هذا ابن يوسف في يدي اعدائه يجزى على الايام بالايام
نامت بنو العباس عنه ولم تكن عنه اميّة لو رعت بنيام

ان الشاعر يتمنى رجوع بني أميّة[2]. والحقيقة ان هذه الابيات قيلت وقد سُلّم محمد بن يوسف الثغري لكاتب نصراني وأمر بتعذيبه، فشق على الشاعر ان يرى مسلماً كبيراً تحت يد كاتب نصراني، وقال هذه الابيات بدافع الغيرة محاولاً ان يستفزّ شعور القوم لتخليص الرجل، وليس في هذه الابيات ادنى صبغة سياسية .

خصائصه الشعرية

اجمع نقدة الشعر القدماء على وصف البحتري بسلاسة العبارة وحسن

---

١ بارا وبنا مكانان .

٢ راجع مقاله في دائرة المعارف الاسلامية تحت Buhturi .

الديباجة واليك آراء بعض من كبار الأقدمين فيه :

قال الثعالبي : «يضرب به المثل لان الاجماع واقع على انه في الشعر أطبع المحدثين والمولّدين ، وان كلامه يجمع الجزالة والحلاوة والفصاحة والسلاسة . ويقال ان شعره كتابة معقودة بالقوافي [1] » . وقال ابن رشيق : « واما البحتري فكان أملح صنعة (من أبي تمام) وأحسن مذهباً في الكلام يسلك فيه دماثةً وسهولة مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ ، لا يظهر عليه كلفة ولا مشقّة [2] » . ووصفه ابن الاثير بقوله : « فإن مكانه من الشعراء لا يجهل . وشعره هو السهل الممتنع الذي تراه كالشمس قريباً ضوءها بعيداً مكانها ، وكالقناة ليّناً مسها خشناً سنانها . وهو على الحقيقة قينة الشعراء في الإطراب ، وعنقاؤهم في الإغراب [3] » ويصف ألفاظه في موضع آخر فيقول :

« وترى ألفاظ البحتري كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات ، وقد تحلّين بأصناف الحليّ [4] » .

ومن أقوال الآمدي في الصفحتين الاوليين من الموازنة : « البحتري اعرابي الشعر مطبوع على مذهب الاوائل ، ما فارق عمود الشعر المعروف وكان يتجنب التعقيد ومستكره الالفاظ ووحشي الكلام » ... الى ان يقول : « فان كنت ممن يفضّل سهل الكلام وقريبه ويؤثر صحة السبك وحسن العبارة وحلو اللفظ فالبحتري أشعر . » وعلى هذا يفسرون ما يروونه عن أبي العلاء : « المتنبي وأبو تمام حكيمان والشاعر البحتري » . ويذكره الباقلاني في « اعجازه » ويذكر تفضيله له بديباجة شعره على ابن الرومي وسواه ، وتقدّمه بحسن عبارته وسلاسة كلامه

---

١ ثمار القلوب ١٧٩ .

٢ العمدة ١ – ٨٥ .

٣ المثل السائر ٤٢٠ .

٤ المثل السائر ١٠٦ .

وعذوبة ألفاظه وقلّة تعقّد قوله[1] .

ولا نكير ان الذي يرجع الى ديوانه فيدرسه يجد هذه الصفات العامة فيه . انه لا يمتاز في ذلك عن بعض كبار الشعراء في العصر العباسي ، كأبي نواس وأبي العتاهية ومسلم وعباس بن الاحنف واضرابهم ، ممن أطاعتهم الالفاظ وسلست لهم المعاني . والذي نرجحه ان البحتري لم يوصف بما ذكرناه له الا لمقابلته بالشاعرين الكبيرين أبي تمام والمتنبي . وذلك لما في شعره عموماً بالنسبة اليهما من السهولة والدماثة . فبيناهما يفوقانه بالغوص على المعاني وسداد الحكمة تراه يفوقهما في صوغ الالفاظ وطلاوة السبك . واذا لم تجد في شعره ذلك الاغراب الذي في شعر أبي تمام أو تلك الفخامة التي عرف بها المتنبي ، تجد فيه رشاقة وصفٍ ودماثة اسلوب لا تجدهما عادة في شعريهما .

* * *

اما ديوانه فلا يختلف من حيث مواضيعه عن أكثر الدواوين الشعرية في زمانه . فهو ، كسواه من الشعراء ، قد صرف أدبه في التزلف الى رجال الدولة العباسية . ولذلك كان جل شعره المديح . وليست طريقته غير الطريقة التي درج عليها الجمهور من مطلع غزلي يتخلص منه الشاعر الى الممدوح ، فيصف أعماله ويمدح أخلاقه ومكارمه ويفتنّ في ذلك ما شاء فنّه وأدبه . وسنرى ذلك في مختاراته .

* * *

وليس البحتري من المشهورين في الرثاء وان يكن له فيه ما يستطاب كمرثاته في طاهر بن عبد الله بن الحسين التي مطلعها :

عذيريَ من صرف الليالي الغوادر ووقع رزايا كالسيوف البواتر

ومرثاته في المتوكل يوم قتله الأتراك ، وقد وصفها أبو العباس ثعلب بقوله : « ما لقيت هاشميّة أحسن منها » ، وقد صرّح بها تصريح من

---

[1] اعجاز القرآن ١١٣ .

أذهلته المصائب عن تخوّف العواقب »[1] . فقال فيها يصف شعوره بعد مقتل الخليفة ويشير الى ان ابنه المنتصر كان من المتآمرين عليه :

صريع تقاضاه السيوف حشاشةً يجود بها والموت حمر أظافره
حرام عليّ الراح بعدك أو أرى دماً بدم يجري على الارض مائره
وهل يرتجى ان يطلب الدم طالب مدى الدهر والموتور بالدم واتره
فلا مُلّي الباقي تراث الذي مضى ولا حملت ذاك الدعاء منابره
ولا وأل المشكوك فيه ولا نجا من السيف ناضي السيف غدراً وشاهره

ومن مراثيه التي قد تذكر له مرثاته في سليمان بن وهب ومطلعها :

أأخيّ نهنه دمعك المسفوكا ان الحوادث ينصرمْن وشيكا
ما اذكرتك بترحٍ صرف الجوى الا ثنتــه بفرح يُنسيكا

على انها ليست من الطبقة الاولى في هذا الباب وليس للبحتري فيه ما اصاحبيه ابي تمام والمتنبي . ولقد تراه أحياناً يسفّ الى درجة الغثاثة كقوله لابي نهشل محمد بن حميد الطوسي يحاول ان يعزيه عن فقد ابنته ، فيذكر له انها غير جديرة بالبكاء لانها فتاة ، وطالما كانت الفتيات سبباً في الشقاء ويضرب على ذلك الامثال السمجة ومنها :

قد ولدن الاعداء قدماً وورّثن البلاد الاقاصي البعداءَ
لم يئد كثرهنّ قيس تميم غيلةً بل حميّةً واباءَ
واستزلّ الشيطان آدم في الجنّة لمّا أغوى به حوّاءَ
ولعمري ما العجز عندي الا ان تبيت الرجال تبكي النساءَ

واكثر القصيدة في هذه المعاني التي تدل على انحطاط المرأة يومئذ في نظر الرجل . ومثلها في الغثاثة ابيات يعزّي فيها موسى بن عبد الملك عن ابنة له . قال :

---

[1] زهر الآداب للحصري ١ – ١٩٥ .

ابا حسنٍ انّ حسن العزاء عند المصيبات والنائباتِ
يضاعف فيه الإله الثواب للصابرين والصابراتِ
ومن نعم الله لا شكّ فيه حياة البنين وموت البناتِ

* * *

أما العتاب فله فيه يدٌ طولى . ويرى ابن رشيق انه أحسن الناس طريقاً في عتاب الاشراف ويلقّبه بشيخ الصناعة الشعرية وسيد الجماعة [1] . وقد أصاب ابن رشيق ففي عتابه نعومة حريرية قلما تجدها في سواه . ومن أمثلة ذلك قصيدة يعتذر فيها الى يعقوب بن احمد بن صالح . وهي تبدأ كالعادة بالغزل ثم ينتقل من ذلك الى نفسه وذكر اخلاقه ومن هنا يتقدم الى المعتذر اليه فيقول بنغمة مغرية :

ندمت على أمر مضى لم يُشرْ به نصيح ولم يجمع قواه نظام
وقد خبّروا ان الندامة توبة يصلّى لها ان تقتنى ويصام
وان جحودي سوء ظنٍّ بنعم وعدّي معاذيري عليه خصام
تجرّح أقوالُ الوشاة فريصتي وأكثر أقوال الوشاة سهام
ولما نبتْ بي الارض عدت اليكم امتّ بحبل الودّ وهو رمام
وما كل ما بُلّغتمُ صدق قائل وفي البعض ازراءٌ عليّ وذام
ولا عذرَ الا ان بدءَ اساءَة له من زيادات الوشاة تمام

وهذه النعومة لا تفارقه حتى عند معاتبته من اساءَ اليه ، كالابيات التالية من قصيدة يخاطب فيها أبا عبد الله بن حمدون ويعاتبه على محاولته ان يثير كراهة الخليفة له :

هل ابن حمدون مردود الى كرم عهدته مرّةً عند ابن حمدونِ
أخ شكرت له نعمى أخي ثقةٍ زكتْ لديّ ومنّاً غير ممنونِ
طاف الوشاة به بعدي وغيّره معاشر كلهم بالسوء يعنيني

---

[1] العمدة ٢ – ١٢٩ .

أصبحت أرفعه حمداً ويخفضني ذمّاً وأمدحه طوراً ويهجوني
تدعو الامام إلى شتمي ومنقصتي بئس الحباء على مدحيك تحبوني
أين الوداد الذي قد كنت تمنحني أو الصفاء الذي قد كنت تصفوني
ان كان ذنب فأهل الصفح أنت وان لم آت ذنباً ففيم اللوم يعروني

* * *

ومن بديع العتاب قوله للحسن بن وهب من قصيدة وقد جفاه الحسن وأعرض عنه :

هل تصغينْ لأخ يقول بحاله مستعتباً إذ لم يقل بلسانه
ما كان غرواً ان يضيع ذمامه لو لم تكن في عصره وزمانه
هذا وأنت الحجّة العلياء في اكرامه من وافد وهوانه
ومتى رآك الناس تحرمه اقتدوا بك غير مرتابين في حرمانه
فتكون أوّل مانع من نفسه ما أمّل العافي ومن جيرانه
والارض تبذل في الربيع نباتها وكذاك بذل الحرّ في سلطانه
واعلم بأن الغيث ليس بنافع للناس ما لم يأت في إبّانه

وفي ديوانه كثير من هذه الطرائف العتابية .

* * *

وله في الفخر بضاعة جيدة . على ان أهم فخره هو في مكارم قومه يعدّد مناقبهم ويذكر شرف اليمن وعزّها مقابلاً ذلك بخشونة عرب الشمال وسوء حالهم . وأفضل ما له في ذلك دالية مطلعها :

انما الغيّ ان يكون رشيدا فانقصا من ملامه او فزيدا

وهي طويلة تجد أكثرها في باب المختار من شعره .

معشرٌ أمسكت حلومُهم الارض وكادت من عزهم ان تميدا
نزلوا كاهل الحجاز فأضحى لهمُ ساكنوه طرّاً عبيدا

ملكوا الارض قبل ان تملك الارض وقادوا في حافتيها الجنودا
فهمُ قوم تبّع خير قوم لهمُ الله بالفخار شهيدا

ومن بين أبياتها يلمح إلى ما كان في الصدور من كوامن العصبيّة التي جعلت اليمنية والمضرية حزبين متعاديين ، والتي كان لها في تاريخ العرب تأثير شديد .

ومن أمثلة فخره قوله في معاتبة قوم من أهل بلده :

ومعيّري بالدهر يعلم في غدٍ ان الحصاد وراء كل نبات
ابنيّ اني قد نضوت بطالتي فتحسّرت وصحوت من سكراتي
نظرت إليّ الاربعون فاصرحت شيبي وهزّت للحنوّ قناتي
ومن الاقارب من يسرّ بميتتي سفهاً وعزّ حياتهم بحياتي
ان ابقَ أو أهلك فقد نلت التي ملأتْ صدور أقاربي وعداتي

ثم يذكر فضله وسؤدد آبائه وأجداده ومآثرهم في منبج وتقدمهم هناك على سائر الناس .

* * *

وأقل بضاعة البحتري في ديوانه الهجاء . وهنا يختلف صاحب الاغاني عن المرزباني . فالاول يقصّ علينا سبباً لذلك القصة التالية[١] نقلا عن الاخفش عن أبي الغوث (ابن البحتري) : ان الشاعر لما حضرته الوفاة دعا ابنه وقال له اجمع كل شيء قلته في الهجاء ، ففعل . فأمره بإحراقه ثم قال له يا بنيّ هذا شيء قلته في وقت فشفيت به غيظي ، وكافأت به قبيحاً فُعل بي . وقد انقضى أربي في ذلك ، وان بقي روي . وللناس أعقاب يورثونهم العداوة والمودّة وأخشى ان يعود عليك من هذا شيء في نفسك أو معاشك لا فائدة لك فيه . قال فعلمت انه نصحني وأشفق علي فأحرقته . ويعقّب على ذلك الاصفهاني بأن « أكثر هجائه

١ راجع القصة في الاغاني ١٨ – ١٦٧ .

ساقط ركيك لا يشاكل طبعه ولا يليق بمذهبه ، ولا يعرف له هجاء جيد إلاّ قصيدتين احداهمـــا في ابن أبي قماش والثانية في يعقوب بن الفرج » .

ولا نعلم مبلغ هذه القصة من الصحة ، ولكنّ الذي نعلمه ان الشاعر ترك لنا شيئاً من هجائه ، وما تركه يجوّز لنا القول انه لم يكن فيه ميل ابن الرومي ودعبل واضرابهما إلى الهجاء ، بل كان على ما يظهر يتجنبه ما أمكن . وانك لتلمح ذلك مما رواه ابن رشيق قال : « هجــا ابن الرومي البحتري — وابن الرومي من علمت — فأهدى اليه (البحتري) تخت متاع وكيس دراهم ، وكتب اليه بيتين ليريه ان الهدية ليست تقيّة ولكن رأفة عليه وانه لم يحمله على ما فعل إلا الفقر والحسد المفرط[1] » .

وأما المرزباني فينسب إلى البحتري سوء العهد وخبث الطريقة في الهجاء . قال[2] : « وكثير من أهل الادب ينكر خبث لسان علي بن العباس الرومي ويُضربون عن اضافة البحتري اليه والحاقه به ، مع احسان ابن الرومي في اساءَته وقصور البحتري عن مداه فيه ، وانه لم يبلغ في دقة معانيه وجودة ألفاظه وبدائع اختراعاته . أعني الهجاء خاصة » .

ثم يذكر قلة وفائه لانه هجا نحواً من أربعين رئيساً ممّن مدحهم ، منهم خليفتان .

ومهما قلنا في مذهبه الهجائي فهو ولا شك ضئيل في ديوانه . ولا يمنع ذلك ان يكون الشاعر قد استعمل الهجاء لبعض مآربه من مقارعة شاعر أو الانتقام من كبير ، ولكن هذا الضرب من الشعر لم يشتهر بـــه ، والذي وصل الينا منه لا يدل على علو كعب الشاعر فيه .

مزيته الفنية

على ان الناظر في شعر البحتري المدقق في فهم شاعريته يرى له مزية

---

١ العمدة ١ – ٧٠ .

٢ الموشح ٣٣٦ .

جديرة بالذكر ، هي رشاقة الوصف الذي طبع بها شعره فعرف بها ، وجعلت له بين الشعراء مقاماً عالياً . وقبل النظر في فن شاعرنا الوصفي نقول ان الوصف نوعان ، حسّي وخيالي . ولنوضح الفرق بينهما ببعض الامثلة :

تقف إلى نهر في وادٍ كبير وترى تدفـّق المياه بين تلك الشواهق العظيمة فتأخذك روعة ذلك المنظر ، وتستفزّ فيك الميل إن كنت شاعراً الى وصف ما تراه من جمال وجلال . فإذا أنت تصف أسناد الوادي وما عليها من الاشجار والكروم ، وتصف تلك الصخور القائمة وانقضاض الميـــاه من بينها . وقد ترسم ما يتراءى لك في ذلك الوادي من ألوان تلقيها عليه ظلال المساء أو أشعة الفجر ، وربما تعديت ذلك الى ما تراه من حيوان هناك : بقراً رابضاً تحت الشجر ، او غنماً يرعى في المروج ، او ماعزاً منتشراً فوق المنحدرات . ولعلك ترى الفلاح يحرث الحقل ، او تنظر الى السماء من أعماق الوادي فترى « قطعان الغيم يسوقها راعي الريح » ، أو قوافل الضباب تنيخ فوق قمم الضباب . يؤثر كل ذلك فيك فترسمه بأشكال خلاّبة تستفزّ في القارىء عواطف الطرب ، وتحبّب اليه رؤية ذلك الجمال — كما فعل أحدهم في وصف وادٍ ظليل اذ قال :

نزلنا دوحه فحنا علينا ‏ ‏ ‏ ‏ حنوّ المرضعات على الفطيم
وارشفنا على ظمأ زلالاً ‏ ‏ ‏ ‏ ألذّ من المدامـــة للنديم
تروع حصاه حالية العذارى ‏ ‏ ‏ ‏ فتلمس جانب العقد النظيم

هذا هو الوصف الحسي الذي يتناول المحسوسات فيصوّرها بصور رائعة ، وهو عين ما يفعله الرسام الماهر الذي يقتنص بريشته جمال الطبيعة ويجسّمها بالالوان على الورق ، فتبدو فتانة تميل اليها النفوس الحساسة ، ويتفانى في اقتنائها أهل الذوق والخبرة .

وكذلك أنت تفعل اذا وقفت مثلاً أمام البحر العظيم ورأيت أمواجه

المتلاطمة وهي تتكسر مزبدة فوق الصخور ، أو رأيته في يوم رائق وهو رهوٌ مستنيم وقد انتشرت فوقه قوارب الصيادين وألقت ظلالها فوق سطح الماء وخرج الناس مساء يتنزهون على رمال الشاطىء . وفي وسط البحر باخرة عظيمة تشقّ الماء بحيزومها ويعقد البخار سرادقاً فوق مداخنها ، فتمر أمامك محاذية للتلال المنحدرة نحو البحر ، وترى من ورائها القرى الجبلية تتغامز عيونها عند غروب الشمس .

ولو وقفت اليوم تنظر الى معركة التحمت فيها الابطال بالابطال : وقد برقت الاسنة والسيوف ، وسالت الدماء من بين الصفوف . أو الى حرب بين الخنادق وقد قصفت المدافع فتساقطت قذائفها على الصعيد تنسف التراب والصخور ، وتطايرت شظاياها تفتك بالمئات والالوف ، ثم ظهرت سحائب الغاز القتال تتقدم نحو مكامن العدو ، وتبع ذلك هجوم عام . والطيارات تحوم فترشق العدوّ بالمتفجرات الجهنمية ، ثم لا تلبث أن ترى سرباً معادياً فتنهزم أمامه أو تصمد له في لوح الجو ، وهناك الهول الكبير . مناظر هائلة يأخذها الشاعر فيرسمها كما يراها فتحرك النفوس وتلعب بالعواطف . وقس على ما ذكرنا من الاوصاف ، وصف المدن والآثار والقصور والجنائن والصيد والحيوان والانسان وغير ذلك مما يقع تحت حسّك ويؤثر في نفسك ، فتبرزه في حلة قشيبة تحرّك في سواك أوتار الطرب . وقد أجاد العرب في هذا الفن من الوصف الحسي ، فانصرف الاقدمون منهم الى ما له علاقة بحياتهم البدوية كالجمل والصحراء والسيف وآثار الحبيب الراحل وشكله وما الى ذلك ، وبالغوا في بعضها مبالغة عظيمة كما فعل طرفة في وصف ناقته . وأمثال طرفة كثيرون بين الشعراء الاقدمين . وجاءَ العصر العباسي فتحول الوصف الى الرياض والقصور ومجالس اللهو والسرور ، وللمولـّدين في ذلك بدائع لا يتسع المقام لذكرها هنا .

* * *

أما الوصف الخيالي فنظر فني الى ما وراء المحسوسات . فإذا كان

الشاعر واسع الخيال لا يقف عند ما يراه ، بل يتعداه الى مناطق يفتحها أمامه الخيال الواسع . فيجعل المرئيات أساساً لغير المرئيات ، ويولـّد من المحسوسات صوراً مجرّدة يرسمها للبشر تأمّلات وذكريات . يقف في قلب الوادي مثلاً فيسمع فيه نبضات الحياة ، وتمر أمامه على صفحات الماء حوادث الايام ، فيذكر الامم الغابرة والوقائع الماضية . وقد يحمله ذلك الى النظر في الحياة والانسان ، وكم تتسع الحياة والانسان لخواطر يشعر بها لرؤيته بعض المشاهد الطبيعية . فالوصف الخيالي هو وصف تأثرك من النظر الحسّي وما يثيره فيك من وحي داخلي . قف أمام البحر تتجسم لك عظمة الكون وجلال الطبيعة ، وقد يحملك المنظر الى ذكر الاسفار والهجرة في طلب العلى . ولعلك تذكر الامم التي كانت على شواطىء هذا البحر ، وكيف عظمت ثم سقطت ، وعلاقة ذلك بالبلاد التي أنت فيها .

وفي الحرب مجال واسع للخيال ، هناك علاقة الانسان بالانسان وما يتفرّع عنها من عوامل أساسية في بناء العمران . ومثله اذا وقفت أمام الآثار كبعلبك وتدمر ، أو أمام الانهار التاريخية كدجلة والفرات والنيل ، أو أمام تماثيل العظماء ومآثر العلماء . فأنت في كل ذلك تستخدم الحس توصلاً الى صور الخيال البعيدة ، وهذا هو الوصف الخيالي العالي الذي تلكـّأ الشعر العربي قديماً عن الاهتمام به ، فلم يترك لنـــا السلف من آثارهم فيه الا النزر اليسير .

وشاعرنا البحتري وصّاف ماهر . وهو كسواه من شعراء العرب أميل الى الوصف الحسّي : يتناول المحسوسات فيدقق في رسمها ، كقوله في دمشق يوم انتقل اليها المتوكل :

أما دمشق فقد أبدت محاسنها ... وقد وفى لك مطريها بما وعدا
اذا أردت ملأت العين من بلد ... مستحسن وزمان يشبه البلدا
يمسي السحاب على اجبالها فرقاً ... ويسبح النبت في صحرائها بَددا

فليس تبصر الا واكفاً خضِلا أو يانعاً خضراً أو طائراً غرِدا
كأنما القيظ ولـّى بعد جيئته أو الربيع دنا من بعد ما بعدا

على ان له أحياناً ما يقرب ان يكون نظراً خيالياً . أهمّه وقفته أمام إيوان كسرى ففيها يقف الشاعر لدى قصور الفرس الدارسة يصفها وصفاً حسيّاً رائعاً ، ثم يحاول الانتقال الى المعنويات – الى تاريخهم وعظمتهم ، ولكنه لا يكاد يفعل ذلك الا الماماً . وهذه القصيدة من عيون الشعر العربي تقع في ٥٦ بيتاً ، عشرة منها في ذكر حاله وشكوى دهره ، وستة في السبب التاريخي لهذه الوقفة ، ثم خمسة أو ستة في ذكر عظمة الفرس ، وستة في أحوال خاصة . وما بقي فوصف للايوان . وقد تفنن فيه الشاعر ما شاء . واليك شيئاً منها : قال في صورة معركة رسمت على أحد جدران القصر :

لو تراه علمت ان الليالي جعلتْ فيه مأتماً بعد عرس
وهو ينبيك عن عجائب قوم لا يشاب البيان فيهم بلَبْس
فاذا ما رأيت صورة انطاكيّة ارتعت بين روم وفرس
والمنايا مواثلٌ وأنو شروان يُزجي الصفوف تحت الدِّرَفس
في اخضرار من اللباس على اصفر يختال في صبيغة ورس
وعراك الرجال بين يديه في خفوت منهم واغماض جَرس
من مُشيح يهوي بعامل رمح ومُليح من السنان بترس

ثم يلتفت الى القصر ويرى ما أصابه من الزمان فيقول :

يتظنّى من الكآبة ان يبدو لعينيْ مصبّح أو ممسي
عكست حظـّه الليالي وبات المشتري فيه وهو كوكب نحس
فهو يبدي تجلـّداً وعليه كلكل من كلاكل الدهر مرسي

فانظر الى هذا النمط النّفيس الذي يشهد للبحتري بالبراعة الفائقة في تصوير المرئيات وعرضها بالالوان الخلاّبة ، ولا سيما وصفه لمعركة انطاكية

وصورة كسرى يدفع صفوفه تحت العلم الكبير ، والرجال يتطاحنون أمامه من مهاجم يهوي بسيفه على العدو ومدافع يتقي الضربات بترسه . وتأمل هذا التصوير الدقيق اذ يقول :

تصف العين انهم جِدّ احياءٍ   لهم بينهم اشارة خرس
يغتلي فيهم ارتيابي حتى   تتقرّاهم يداي بلمس

* * *

ومن قصائده البديعة التي يقرن فيها الحس بالخيال قرناً جميلاً قصيدته الفخرية في وصف ذئب لقيه في القفر . وليست هذه القصيدة عند التحقيق الا وصف نفسه في سَورة من سورات العزيمة . فقد ذكر فيها اعداءه وحرصهم على هلاكه ، فوقف أمامهم وقفة الباسل يصوّر نفسه لهم تصويراً تكاد تلمس الشعور المتدفق فيه . ومن قوله :

فقل لبني الضحّاك مهلاً فانني   انا الافعوان الصلّ والضيغم الورد
متى هجتموه لا تهيجوا سوى الردى   وان كان خرقاً ما يحل له عقد
مهيباً كنصل السيف لو ضُربت به   ذرى اجأ ظلت واعلامها وُهد [1]
يودّ رجال انني كنت بعض من   طوته الليالي لا أروح ولا أغدو
ولولا احتمالي ثقل كل ملمّةٍ   تسوء الاعادي لم يودّوا الذي ودّوا

ثم يأخذ في وصف صرامته وسيفه ، ويتقدم من ذلك إلى وصف الذئب وكيف هاجمه ، ثم يعود إلى نفسه وجور الدهر عليه ، وان عزمه يدفعه الى ركوب المشاق في طلب الغنى . ويختم ذلك بقوله :

سأحمل نفسي عند كل ملمّةٍ   على مثل حد السيف اخلصه الهند
فان عشت محموداً فمثلي بغى الغنى   ليكسب مالاً أو يُنثّ له حمد
وان متّ لم اظفر فليس على امرىء   غدا طالباً الا تقصّيه والجهد

* * *

---

١ اجأ اسم جبل .

ومما يذكر للبحتري في دقة الرسم واناقة العبارة قصيدته التي يصف بها موكب المتوكل وقد خرج في عيد الفطر إلى المسجد ، وهي من أفضل الامثلة على أسلوب البحتري الرشيق قال منها :

أظهرتَ عز الملك فيه بجحفل   لجب يحاط الدين فيه وينصر
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت   عُدداً يسير بها العديد الاكثر
فالخيل تصهل والفوارس تدّعي   والبيض تلمع والاسنة تزهر
والارض خاشعة تميد بثقلها   والجوّ معتكر الجوانب أغبر
والشمس ماتعة تَوقّد بالضحى   طوراً ويطفئها العجاج الاكدر
حتى انتهيت إلى المصلّى لابساً   نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع   لله لا يُزهى ولا يتكبّر
فلو ان مشتاقاً تكلّف غير ما   في وسعه لسعى اليك المنبر

* * *

ومثل ذلك وصف القصر المعروف بالكامل . بناه الخليفة المعتز بالله ابن المتوكل . فقال البحتري من قصيدة يمدح بهـــا المعتز ويذكر بناءَه للقصر :

ذُعر الحمام وقد ترنّم فوقه   من منظر خطر المزلّة هائل
رُفعت لمخترق الرياح سموكه   وزهت عجائب حسنه المتخايل
وكأن حيطان الزجاج بجوّه   لجج يمجن على جنوب سواحل
وكأن تفويف الرخام إذا التقى   تــأليفه بالمنظر المتقــابل
حُبُكُ الغمام رصفن بين منمّر   ومسيّر ومقــارب ومشاكل
لبست من الذهب الصقيل سقوفه   نوراً يضيء على الظلام الحافل
فترى العيون يجلن في ذي رونق   متلهّب العالي أنيق السافل
وكأنما نشرت على بستانه   سِيَراء وشي اليمنة المتواصل
أغنته دجلة إذ تلاحق فيضها   عن صوب منسجم الرباب الهاطل

وتنفّست فيه الصبا فتعطّفت أشجاره من حُيّل وحوامل
مشي العذارى الغيد رحن عشية من بين حالية اليدين وعاطل

* * *

وكذلك وصفه الفرس من قصيدة في محمد بن علي القمّي الكاتب ، والوصف يقع في نحو عشرين بيتاً نذكر منها هنا :

وأغرّ في الزمن البهيم محجّلٍ قد رحت منه على أغرّ محجّل[1]
كالهيكل المبنيّ إلا انـــه في الحسن جاء كصورة في هيكل
يهوي كما تهوي العقاب وقد رأت صيداً وينتصب انتصاب الاجدل
جذلان ينفض عذرةً في غرّة يققٍ تسيل حجولها في جندل
كالرائح النشوان أكثر مشيه عرضاً على السّنن البعيد الاطول
هزِجُ الصهيل كأن في نغماته نبرات معبدَ في الثقيل الاول[2]
ملك العيون فإن بدا أعطيته نظر المحبّ إلى الحبيب الاول

إلى غير ذلك من الوشي الجميل الذي عرف به البحتري . وسنرى في باب المختار له كثيراً من ذلك .

غزل البحتري

إذا قلنا غزل البحتري فقولنا هذا يصدق على كل شاعر من مدّاحي العصر العباسي ، وهو على الغالب نوع من الفن الكلامي يصدرون به قصائدهم تمهيداً لما يقصدون . ومع ما قد تجده فيه من رشاقة لا ينظم عادة بثّاً لوجد متقد أو تصويراً لخوالج شخصية صادقة ، على ان الشعراء يتفاوتون في ذلك . وفي غزل شاعرنا البحتري حلاوة ولطف يحببانه إلى النفوس .

---

١ وكريم اغر ركبت من فضله جواداً اغر محجل .
٢ معبد اسم مغن مشهور .

كان الاقدمون يجعلون لقصائدهم مقدّمات من الوقوف على ديار الحبيب والبكاء على آثارها ، ثم الرحيل عنها الى حيث يقصدون . فحوّل المولّدون ذلك الى مقدمات غزلية يصفون بها الحبيب ويذكرون أشواقهم ، ثم يتخلصون الى المدح او سواه . وقد لا يكون بين المقدمة الغزلية وسائر القصيدة من رابطة فكرية أو حسن تخلص . وعلى هذا كثير من شعر البحتري . وفيه يقول ابن الاثير « انه لم يوفّق في التخلص من الغزل الى المديح بل اقتضبه اقتضاباً ، ولقد حفظت شعره فلم أجد له من ذلك شيئاً مرضياً الا اليسير [1] » .

وقد سبق الى هذا النقد ابو بكر الباقلّاني فقال [2] : « الا ترى ان كثيراً من الشعراء قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى الى غيره والخروج من باب الى سواه ، حتى ان اهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحتري – مع جودة نظمه وحسن وصفه – في الخروج من النسيب الى المديح ، واطبقوا على انه لا يحسنه ولا يأتي فيه بشيء . وإنما اتفق له في مواضع محدودة خروج يرتضى وتنقّل يستحسن » .

ومن امثلة تقصيره قوله يخاطب الحبيب من قصيدة مطلعها « كنت الى وصل سعدى جدّ محتاج » :

اسقى ديارَك والسقيا تقلّ لها ... إغزارُ كل مُلثّ الودق ثجّاج
يلقي على الارض من حلْي ومن حلل ... ما يُمتع العين من حسن وابهاج
فصاغ ما صاغ من تبر ومن ورق ... وحاك ما حاك من وشي وديباج
الى عليّ بني الفيّاض بلّغني ... مسراي من حيث لا يُسرى وادلاج
الى فتى يتبع النعمى نظائرها ... كالبحر يتبع امواجاً بأمواج

فأنت ترى كيف ينتقل بغتة الى المديح مما يدل على ان الغزل لم يكن الا لحاجة فنية متكلفة . ومثل ذلك غزله في قصيدة قالها في المتوكل

---

١ المثل السائر ٤٢٠ .
٢ اعجاز القرآن ص ٢١ .

وأولها :

عذيري فيك من لاحٍ اذا ما   شكوت الحب حرّقني ملاما

يتقدم فيها الى الحبيب فيخاطبه بأبيات رقيقة ويذكر هيامه وأشواقه الى ان يقول :

وقد علمتْ بأني لم أضيّع   لها عهداً ولم اخفر ذماما
لئن اضحت محلتنا عراقاً   مشرّقـــة وحِلّتها شآما
فلم أحدث لها الا وداداً   ولم ازدد بها إلا غراما

ثم يثب وثباً الى المديح فيقول :

خلافة جعفر عدل وأمن   وفضل لم يزل يسَع الاناما

وقس على ذلك كثيراً من قصائده .

ويكثر في غزل البحتري ذكر الطيف او الخيال حتى عرف به بين الشعراء . قال الحصري : « كان البحتري أكثر الناس ابداعاً في الخيال حتى صار لاشتهاره مثلاً فيقال له خيال البحتري [١] » . وأكثر تشبيبه على ما يقول ابن خلّكان – في فتاة حلبية اسمها عَلوة ، عرفها يوم كان في حلب قبل خروجه الى العراق .

وكان على عادة الشعراء يتماجن في شعره ويشبّب بالغلمان . وكان له غلام اسمه نسيم يقول صاحب الاغاني انه جعله باباً من أبواب الحيل على الناس فاذا حصل في ملك بعض أهل المروءات شبب به وتشوّقه ومدح مولاه حتى يهبه له ، فلم يزل ذلك دأبه حتى مات نسيم [٢] .

وفي شعر البحتري حنين الى البلاد الشامية والى أحبابه وبلدته منبج كقوله من قصيدة مطلعها : « خيال يعتريني في المنام » .

سلام الله كلّ صباح يوم   عليك ومن يبلّغ لي سلامي

---

١ زهر الآداب ٣ – ١٢٠ .

٢ الاغاني ١٠ – ١٧١ .

لقد غادرتِ في قلبي سقاماً بما في مقلتيك من السقامِ
لئن قلّ التواصل او تمادى بنا الهجران عاماً بعد عام
فكم من نظرة لي من بعيدٍ اليك وزورة لك باكتتام
أأتخذ العراق هوىً وداراً ومن أهواه في ارض الشآم

وهو يجيد في موقف الوداع والذكرى ، ومن ذلك قوله :

بنفسيَ ما ابدت لنا حين ودّعت وما كتمت في الاتحميّ المسيّر
ولما خطونا دجلة انصرم الهوى فلم يبق الاّ لفتة المتذكّر
وخاطر شوق ما يزال يهيجنا لبادين من اهل الشآم وحُضّر

وقوله :

أراحلةٌ ليلى وفي الصدر حاجة اقام بها وجدٌ فما يترحّل
وقفنا على دار البخيلة فانبرت سواكبُ قد كانت بها العين تبخل
على دارس الآيات عافٍ تعاقبت عليه صَباً ما تستفيق وشمأل
فلم يدر رسم الدار كيف يجيبنا ولا نحن من فرط البكا كيف نسأل
اجدّك هل تنسى العهود فينطوي بها الدهر او ينسى الحبيب فيذهل
أرى حبّ ليلى لا يبيد فينقضي ولا تلتوي أسبابه فتحلّل

والغريب انه كان – برغم السنين الطوال التي أقامها في العراق يحسب نفسه غريباً هناك . وأكبر الظن انه كان صادقاً في حنينه الوطن ، فانه كما ذكرنا سابقاً عاد بعد هجرة طويلة وقضى بقية - في وطنه .

المختار من شعر البحتري

غدير في روض يجري فلا تعترضه جنادل يثب من فوقها هدّاراً الى الاعماق ، ولا يتغلغل في منعطفات تضل في شعابها الاوهام : ينشد فيسمعك خريراً ناعماً تألفه الآذان ، ويصور فيريك الواناً لطيفة ترتاح اليها النواظر .

قال يمدح الفتح بن خاقان ويذكر مبارزته الاسد

اجِدّك ما ينفكّ يسري لزينبا   خيال اذا آب الظلام تأوّبا [1]
سرى من اعالي الشام يجلبه الكرى   هبوبَ نسيم الروض تجلبه الصّبا
وما زارني الا ولهت صبابةً   اليه والاّ قلت اهلاً ومرحبا
وليلتنا بالجزع بات مساعفاً   يريني اناة الخطو ناعمة الصبا [2]
اضرّت بضوء البدر والبدر طالع   وقامت مقام البدر لما تغيّبا
ولو كان حقاً ما اتته لأطفأت   غليلاً ولا فكّت اسيراً معذّبا [3]
علمتكَ ان منّيت منّيت موعداً   جَهاماً وان ابرقتَ ابرقت خُلّبا

---

١ اجدك بمعنى بحقك للقسم او التأكيد . وتأوب وآب رجع .

٢ الاناة هنا المرأة الفاترة القيام دلالاً .

٣ أي لو كانت زيارتها حقيقية لخلصتني من عذاب الوجد .

وكنت أرى ان الصدود الذي مضى   دلال فما ان كان الّا تجنّبا
فوا اسفي حتّام اسأل مانعاً   وآمن خوّاناً وأعتِب مذنبا [١]
سأثني فؤادي عنك أو أتبع الهوى   اليك ان استعصى فؤاديَ أو أبى

* * *

أقول لركب معتفين تدرّعوا   على عجل قِطْعاً من الليل غيهبا
رِدوا نائل الفتح بن خاقان انه   اعمّ ندى فيكم واقرب مطلبا
هو العارض الثجّاج أخضل جوده   وطارت حواشي برقه فتلهّبا [٢]
اذا ما تلظّى في وغى اصعق العدى   وان خاض في أكرومة غمر الرّبى
رزينٌ اذا ما القوم خفّت حلومهم   وقور اذا ما حادث الدهر اجلبا [٣]
حياتك أنْ يلقاك بالجود راضياً   وموتك أن يلقاك بالبأس مغضَبا
حَرون اذا عازرته في ملمّة   فان جئته من جانب الذل اصحبا [٤]
فتى لم يضيّع وجه حزم ولم يبت   يلاحظ أعجاز الامور تعقّبا
اذا همّ لم يقعد به العجز مقعداً   وان كفّ لم يذهب به الخُرق مذهبا
أعير مودّات الصدور واعطيت   يداه على الاعداء نصراً مرهّبا
فلم تخلُ من فضل يبلّغك التي   تحب ومن رأي يريك المغيّبا
وما نقم الحسّاد الا أصالة   لديك وفعلا اريحياً مهذّبا
وقد جرّبوا بالامس منك عزيمة   فضلتَ بها السيف الحسام المجرّبا
غداة لقيت الليث والليث مُخدر   يحدّد ناباً للّقاء ومِخلبَا [٥]
يحصّنه من نهر نيزك معقل   منيع تسامى روضه وتأشّبا
يرود مغاراً بالظواهر مُكثباً   ويحتل روضاً بالاباطح معشبا [٦]

---

١ اعتبه أي ارجع الى ما يرضيه .
٢ هو كالغيم الماطر . يجمع بين ماء الجود ولهيب البطش .
٣ اجلب توعد بالشر .
٤ أصحب أي انقاد . ومعناه شديد العناد اذا عوند ولكنه سهل الانقياد اذا جاءه الطالب متواضعاً
٥ أخدر الليث أقام في غابته .
٦ الظواهر اعالي الاودية . والاباطح عكسها .

يلاعب فيه اقحواناً مفضّضاً يبصّ وحوذاناً على الماء مُذهبا [١]
اذا شاء غادى عانة أو غدا على عقائل سرب أو تقنّص ربربا [٢]
يجر الى اشباله كلّ شارق عبيطاً مدمّى أو رميلاً مخضّبا [٣]
ومن يبغ ظلماً في حريمك ينصرف الى تلف أو يثنِ خزيان أخيبا
شهدتُ لقد انصفته يوم تنبري له مصلتاً عَضباً من البيض مقضبا [٤]
فلم ارَ ضرغامين أصدق منكما عراكاً اذا الهيّابة النّكس كذّبا [٥]
هزبرٌ مشى يبغي هزبراً وأغلب من القوم يغشى باسل الوجه اغلبا
ادلّ بشغب ثم هالتهُ صولة رآك لها امضى جناناً واشغبا
فأحجم لمّا لم يجد فيك مطمعاً واقدم لمّـا لم يجد عنك مهربا
فلم يغنه ان كر نحوك مقبلاً ولم يُنجه ان حاد عنك منكّبا
حملت عليه السيف لا عزمك انثنى ولا يدك ارتدّت ولا حدّه نبا
وكنت متى تجمع يمينَـيك[٦] تهتك الضريبة أو لا تبقِ للسيف مضربا

* * *

ألنتَ لي الايّام من بعد قسوة وعاتبت لي دهري المسيء فأعتبا [٧]
وألبستني النعمى التي غيّرت اخي عليّ فامسى نازح الدار اجنبا [٨]
فلا فزتُ من مرّ الليالي براحة اذا انا لم أصبح بشكرك متعبا
على ان افواف القوافي ضوامن لشكرك ما أبدى دجى الليل كوكبا
ثناء تقصّى الارض نجداً وغائراً وسارت به الركبان شرقاً ومغربا

---

١ الحوذان اسم نبات . ويبص أي يلمع .
٢ و ٣ هكذا يرويها ابن الاثير . وفي الديوان ان تنقص ربربا؛ ومعنى البيتين–يقتنص الحمر او الظباء فيجر منها كل ذبيحة وقد تخضبت بالدماء وتلوثت بالرمال .
٤ العضب المقضب أي السيف القاطع .
٥ فلم أر أسدين أثبت منكما في موقف لا يثبت فيه الجبان .
٦ يمينيك أي ساعدك وسيفك .
٧ أعتب أي رضي .
٨ لا يقصد اخاه هنا ولكن يقصد ان نعم الممدوح عليه اوجبت حسد الناس .

وقال يصف حاله ويصف الذئب الذي لقيه

سلامٌ عليكم لا وفاءٌ ولا عهد أما لكمُ من هجر احبابكم بدّ
أأحبابنا قد انجز البين وعده وشيكاً ولم يُنجز لنا منكم وعد
بنفسيَ من عذّبت نفسي بحبه وان لم يكن منه وصال ولا ودّ
حبيب عن الاحباب شطّت به النوى
وأيّ حبيب ما أتى دونه البعد
يودّ رجال أنني كنت بعض من طوته الليالي لا أروح ولا أغدو[1]
ذريني واياهم فحسبي صرامتي إذا الحرب لم يُقدَح لمخمدها زند
ولي صاحب عضْب المضارب صارم طويل نجادٍ ما يفلّ له حدّ
وباكية تشكو الفراق بأدمع يبادرنها سحّاً كما انتثر العقد
رَشادَكِ لا يُحزنك بينُ ابن هِمّة يتوق الى العلياء ليس له نِد
فمن كان حرّاً فهو للعزم والسرى ولليلُ من افعاله والكرى عبد

* * *

وليلٍ كأن الصبح في أخرياته حُشاشة نصلٍ ضمّ إفرنده غِمد
تسربلته والذئب وسنان هاجع بعين ابن ليل ما له بالكرى عهد[2]
اثير القطا الكُدريّ عن جثَماته وتألفني فيه الثعالب والرّبد
سما لي وبي من شدة الجوع ما به ببيداء لم تُعرف بها عيشةٌ رَغد
كلانا بها ذئب يحدّث نفسه بصاحبه والجَدّ يتعسه الجَدّ[3]
عوى ثم أقعى فارتجزت فهجته فأقبل مثل البرق يتبعه الرعد
فأوجرته خرقاء تحسب ريشها على كوكب ينقضّ والليل مسود[4]
فما ازداد الا جرأة وصرامة وأيقنتَ ان الامر منه هو الجِد

---

١ أي يود بعضهم اني ميت .
٢ ابن الليل اللص .
٣ أي كل منا ذئب يحاول البطش بالآخر وذو الحظ الاوفر سينتصر .
٤ شبه نصلة السهم بكوكب ينقض .

فأتبعتها اخرى فأضللت نصلها ... بحيث يكون اللب والرعب والحقد[1]
فخرّ وقد اوردته منهل الردى ... على ظمأ لو انه عذُب الورد
وقمت فجمَّعت الحصى فاشتويته ... عليه وللرمضاء من تحته وَقْد

* * *

لقد حكمت فينا الليالي بجورها ... وحُكم بنات الدهر ليس له قصد
أفي العدل ان يشقى الكريم بجورها ... ويأخذ منها صفوها القُعدد الوغد
ذريني َمن ضرب القداح على السرى ... فعزميَ لا يثنيه نحس ولا سعد[2]
سأحمل نفسي عند كل مُلمّة ... على مثل حد السيف اخلصه الهند[3]
ليعلمَ من هاب السرى خشية الردى ... بأن قضاء الله ليس له ردّ
فان عشت محموداً فمثلي بغى الغنى ... ليكسب مالاً أو يُنثّ له حمد[4]
وان متّ لم اظفر فليس على امرىءٍ ... غدا طالباً الا تقصّيه والجهد

وقال يفتخر بقومه

إنما الغيّ ان يكون رشيدا ... فانقصا من ملامه أو فزيدا
خلّياه وجدّةَ اللهو ما دا ... م رداء الشباب غضّاً جديدا
ان ايامه من البيض بيضٌ[5] ... ما رأين المفارق السود سودا
ايها الدهر حبّذا انت دهراً ... قف حميداً ولا تولّ حميدا
كلّ يوم تزداد حسناً فما تبعث يوماً الا حسبناه عيدا
ان في السِرب لو يساعدنا السر ... ب شموساً يمشين مشياً وئيدا[6]
يتدافعن بالاكفّ ويعرضن علينا عوارضاً وخدودا

---

١ أي فاتبعها سهماً آخر أصاب القلب .
٢ كانوا قديماً يضربون القداح قبل السفر ليستطلعوا ما سيكون .
٣ أي أحسنت صنعه الهند .
٤ ينث أي ينشر .
٥ البيض الاولى الحسان ، والثانية جمع أبيض .
٦ كنى بالشموس عن الحسان .

يلبستمن عن شتيتٍ اراه أقحواناً مفصّلاً او فريدا [1]
رحن والليل قد اقام رواقاً فأقمن الصباح فيه عمودا
بمهاةٍ مثل المهاة ابت ان تصل الوصل أو تصدّ الصدودا [2]
ذات حسن لو استزادت من الحسن اليه لما اصابت مزيدا
فهيَ الشمس بهجة والقضيب الغضّ ليناً والريم طرفاً وجيدا

* * *

يا ابنة العامريّ كيف يرى قو مكِ عدلاً ان تبخلي واجودا
ان قومي قوم الشريف قديماً وحديثاً ابوّةً وجدودا
معشرٌ امسكتْ حلومهم الار ض وكادت من عزمهم ان تميدا
منزلاً قارعوا عليه العماليق وعاداً في عزّها وثمودا
فاذا المحل جاء جاءوا سيولاً واذا النّقع ثار ثاروا اسودا
يحسن الذكر عنهمُ والاحاديث اذا حدّث الحديد الحديدا [3]
في مقام تخرّ من ضنكه البيض على البيض ركّعاً وسجودا [4]
يفرجون الوغى اذا ما اثار الضرب من مُصمَت الحديد صعيدا
بوجوه تُعشي السيوف ضياء وسيوف تعشي الوجوه وقودا
عدّلوا الهضبَ من تهامة احلا ماً ثقالاً ورملَ نجد عديدا [5]
ملكوا الارض قبل ان تُملك الار ضُ وقادوا في حافتيها الجنودا
وجروا قبل مولد الشيخ ابرا هيم في المكرمات شأواً بعيدا [6]
فهمُ قوم تُبّع خير قــوم لهمُ الله بالفخار شهيدا [7]

---

١ الشتيت : الثغر الافلج .
٢ بمهاة متعلق بما قبله اي رحن مساء فجعلن الظلام مضيئاً بجمال مهاة أبت إلا الفراق .
٣ و ٤ حدث الحديد الحديد اي عند تلاحم السيوف في الحرب . والبيض السيوف .
٥ أي وازنوا الجبال بعقولهم والرمال بعددهم .
٦ يريد بالشيخ ابراهيم ابراهيم الخليل – اشارة الى قدم مجدهم .
٧ شهيداً تعرب هنا حالاً من الله .

بمساعٍ منظومة ألبستهنّ اللآلي قــلائداً وعقودا
سائلِ الدهر مذ عرفناه هل يعرف منا الا الفَعال الحميدا
قد لعمري رزناه كهلاً وشيخاً ورأيناه ناشئاً ووليدا
وطوينا ايامه ولياليه على المكرمات بيضاً وسودا
لم نزل قطّ مذ ترعرع نكسو هُ ندىً ليّناً وبأساً شديدا
فهو من مجدنا يروح ويغدو في عُلىً لا تبيد حتى يبيدا
نحن ابناءَ يعربٍ اعربُ النا س لساناً وانضر الناس عودا

وقال في المتوكل وموكبه الفخم في عيد الفطر

أخفي هوى لك في الضلوع وأظهر وألام في كمَد عليك وأعذر
واراك خنت على النوى من لم يخن عهد الهوى وهجرت من لا يهجر
وطلبتُ منك مودةً لم اعطَها ان المعنّى طالب لا يظفر
هل دَين علوةَ يستطاع فيقتضى أو ظلم علوة يستفيق فيَقصر [1]
بيضاء يعطيك القضيب قَوامها ويريك عينيها الغزال الاحور
تمشي فتحكم في القلوب بدلّها وتميس في ظل الشباب وتخطر
اني وان جانبت بعض بِطالتي وتوهّم الواشون اني مُقصر
ليشوقني سحر العيون المجتلى ويروقني ورد الخدود الاحمر

* * *

الله مكّن للخليفة جعفر ملكاً يحسّنه الخليفة جعفر
نعمى من الله اصطفاه بفضلها والله يرزق من يشاء ويقدُر
فاسلم اميرَ المؤمنين ولا تزل تعطى الزيادة في البقاء وتشكر
عمّت فواضلك البريّة فالتقى فيها المقلّ على الغنى والمكثر [2]
بالبرّ صمت وانت افضل صائم وبسنّة الله الرضيّة تُفطر

---

١ هل لعلوة مطالب يمكننا قضاؤها أو هل يكف ظلمها فينتهي عنا .
٢ ففواضلك التي عمت الناس جعلت الفقراء والاغنياء في حال واحدة من اليسار .

فانعم بيوم الفطر عيداً انه يومٌ اغرّ من الزمان مشهّرُ
أظهرت عزّ الملْك فيه بجحفلٍ لجبٍ يحاط الدين فيه وينصر
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت عُدداً يسير بها العديد الاكثر
فالخيل تصهل والفوارس تدّعي[1] والبيض تلمع والأسنّة تزهر
والأرض خاشعة تميد بثقلها والجوّ معتكر الجوانب اغبر
والشمس ماتعة توقّد بالضحى طوراً ويطفئها العجاج الاكدر[2]
حتى طلعتَ بضوء وجهك فانجلت تلك الدجى وانجاب ذاك العِثير
وافتنّ فيك الناظرون فاصبعٌ يُوما اليك بها وعين تنظر
يجدون رؤيتك التي فازوا بها من أنعُم الله التي لا تُكفر
ذكروا بطلعتك النبيّ فهللوا لما طلعت من الصفوف وكبّروا
حتى انتهيت إلى المصلّى لابساً نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع لله لا يُزهى ولا يتكبّر
فلو أن مشتاقاً تكلّف غير ما في وُسعه لسعى اليك المنبر
أبْدَيْتَ من فصل الخطاب بحكمة تنبي عن الحق المبين وتخبر
ووقفت في بُرد النبيّ مذكّراً بالله تنذر تارة وتبشّر[3]
ومواعظٍ شفت الصدور من الذي يعتادها وشفاؤها متعذّر
حتى لقد علم الجهول واخلصت نفس المروّي واهتدى المتحير[4]
صلّوا وراءك آخذين بعصمة من ربهم وبذمة لا تُخفر
فاسلم بمغفرة الإله فلم يزل يهب الذنوب لمن يشاء ويغفر
الله اعطاك المحبة في الورى وحباك بالفضل الذي لا ينكَر
ولأنت املا للعيون لديهم وأجلّ قدراً في الصدور وأكبر

---

١ ادعت الفوارس أي اعتزوا بأنسابهم .

٢ ماتعة أي مرتفعة .

٣ كان الخلفاء في المواقف الرسمية يضعون على اكتافهم بردة النبي .

٤ بمواعظك التي شفت الصدور من امراضها فتعلم الجاهل واهتدى المتحير وأخلصت لله نفس المفكر .

وقال يمدح احمد بن دينار

ويصف مركباً له غزا فيه بلاد الروم

ألم ترَ تغليس الربيع المبكّر وما حاك من وشي الربيع المُنشّرِ [1]
ومسرعانَ ما ولّى الشتاء ولم يقف تسلّلَ شخص الخائف المتنكّر
مررنا على بطياس وهي كأنها سبائب عَصْب أو زرابيُّ عبقر [2]
كأن سقوط القطر فيها إذا انثنى اليها سقوط اللؤلؤ المتحدّر
وفي ارجوانيٍّ من النّور احمر يشاب بافرند من الروض اخضر
إذا ما الندى وافاه صبحاً تمايلت اعاليه من درّ نثير وجوهر
إذا قابلته الشمس ردّ ضياءها عليها صقالُ الاقحوان المنوّر
إذا عطفته الريح قلت التفاتةٌ لعلوةَ في جاديّها المتعصفر [3]
بنفسيَ ما أبدت لنا حين ودّعت وما كتمت في الاتحميّ المسيّر [4]
ولما خطونا دجلة انصرم الهوى فلم يبقَ الا لفتة المتذكّر
وخاطر شوق ما يزال يهيجنا لبادين من أهل الشآم وحُضّر
بأحمد أحمدْنا الزمانَ واسهلت لنا هضبات المطلب المتوعّر
هو الغيث يجري عن عطاء ونائل عليك فخذْ من صيّب الغيث أو ذر
ولما تولّى البحر والجودُ صِنوه غدا البحر من اخلاقه بين أبحر [5]
أضاف الى التدبير فضل شجاعة ولا عزم الا للشجاع المدبّر

---

١ ألم ترَ ورود الربيع الباكر وما حاك من وشي الازهار الربيعية .

٢ بطياس مكان قرب حلب . أي مررنا على هذا المكان وهو كأنه شقق برود مصبوغة او بسط عبقرية . وعبقر محل ينسبون اليه كل ما تعجبوا من حسن صنعته وقوته .

٣ أي اذا عطفت الريح الغصن او الزهرة قلت تلك التفاتة علوة في ثوبها الزعفراني .

٤ الاتحمي المسير اي الثوب المخطط .

٥ اي لما تولى البحر غدا البحر بين بحور من مكارمه .

غدوت على الميمون صبحاً وانما غدا المركب الميمون تحت المظفّر [1]
اطلّ بعِطفيه ومرّ كأنما تَشرّفُ من هادي حصان مشهّر [2]
إذا زجر النوتيّ فوق علاته رأيت خطيباً في ذؤابة منبر [3]
إذا عصفت فيه الجنوب اعتلى له جناحا عُقابٍ في السماء مهجّر
إذا ما انكفا في هَبوة الماء خلته تلفّع في اثناءِ بُرد محبّر
وحولك ركّابون للهول عاقروا كؤوس الردى من دارعين وحسّر
تميل المنايا حيث مالت اكفّهم إذا اصلتوا حدّ الحديد المذكّر
إذا رشقوا بالنار لم يك رشقهم ليُقلع الّا عن شُواء مقتّر [4]
صدمت بهم صهبَ العثانين دونهم ضراب كإيقاد اللظى المتسعّر [5]
يسوقون اسطولاً كأن سفينه سحائبُ صيف من جهام وممطر
كأن ضجيج البحر بين رماحهم إذا اختلفت ترجيع عَود بجرجر [6]
فما رِمت حتى اجلت الحرب عن طُلىً مقطّعة فيهم وهام مطيّر [7]
وكنت ابن كسرى قبل ذاك وبعده مليّاً بأن توهي صفاة ابن قيصر [8]
جدحت له الموت الزعاف فعافه وطار على ألواح شطب مسمّر [9]
مضى وهو مولى الريح يشكر فضلها عليه ومن يولَ الصنيعة يشكر
إذا الموج لم يبلغه ادراك عينه ثنى في انحدار الموج لحظة اخزر
وكنا متى نصعد بجدّك ندرك المعالي ونستنصرْ يمينك نُنصر

---

١ و ٢ و ٣ الميمون اسم مركب اي اطل علينا فكان مقدمه كمنق حصان مرفوع وكان النوتي في اعلاه كأنه خطيب على منبر . وتشرف اي تتشرف ويراد بها تطلع من عل .
٤ المقتر : الساطع الرائحة .
٥ صهب العثانين أي الروم لأن لحاهم شقراء .
٦ عود مجرجر اي جمل تردد صوته .
٧ ما رمت اي ما زلت . والطلى الاعناق .
٨ إشارة الى اصل الممدوح الفارسي . اي كنت قادراً ان تقهر ملك الروم (ابن قيصر) .
٩ اي تجنب الموت فهرب على مركب .

وصف ايوان كسرى

(وآثاره اليوم قرب بغداد وتعرف بطاق كسرى)

صُنتُ نفسي عما يدنّس نفسي   وترفّعت عن جَدا كل جِبسِ[١]
وتماسكت حين زعزعني الدهر   التماساً منه لتعسي ونكسي
بُلَغٌ من صُبابة العيش عندي   طفّفتها الايام تطفيف بخسِ
وبعيدٌ ما بين وارد رِفهٍ   عَللٌ شربه ووارد خِمسِ[٢]
وكأنّ الزمان أصبح محمو   لاً هواه مع الأخسّ الاخسّ
واشترائي العراقَ خطّة غبنٍ   بعد بيعي الشآم بيعة وكسِ[٣]
لا ترزني مزاولاً لاختباري   عند هذي البلوى فتنكرَ مسّي
وقديماً عهدتني ذا هنات   آبيات على الدنيّات شُمسِ
فلقد رابني نبوّ ابن عمي   بعد لين من جانبيه وأنسِ
وإذا ما جُفيت كنت حريّاً   ان أُرى غير مصبح حيث أمسي

* * *

حضرتْ رحلي الهموم فوجّهت الى ابيض المدائن عَنسي[٤]
اتسلّى عن الحظوظ وآسى   لمحلّ من آل ساسان دَرسِ
ذكّرتْنيهم الخطوب التوالي   ولقد تُذكر الخطوب وتنسي
وهمُ خافضون في ظلّ عالٍ   مشرفٍ يحسر العيون ويخسي[٥]
حلل لم تكن كاطلال سعدى   في قفار من البسابس مُلسِ[٦]

---

١ وترفعت عن عطية كل لئيم .
٢ وارد رفه اي يرد الماء كل يوم متى شاء ، ووارد خمس اي يرد مرة كل خمسة ايام .
٣ انه لخسارة عظيمة ان اترك الشام واستوطن العراق .
٤ في هذا البيت وما بعده يقول : حلت الهموم بساحتي فركبت جملي الى قصر المدائن الابيض لاتسلى عن حظي واسى لما درس من قصور آل ساسان (وهم ملوك الفرس) .
٥ خافضون ناعمو العيش .
٦ اي هذه الآثار العظيمة ليست كاطلال البدو في القفار الخاوية .

نقل الدهر عهدهن عن الجدّة حتى غدون أنضاء لِبسٍ [1]
فكأن الجرماز من عدم الانس واخلاله بنيّة رمسٍ [2]
لو تراه علمت ان الليالي جعلت فيه مأتماً بعد عُرسٍ
وهو ينبيك عن عجائب قوم لا يشاب البيان فيهم بلَبسٍ
فاذا ما رأيت صورة انطا كيّة ارتعت بين روم وفرسٍ [3]
والمنايا مواثل وانوشر وان يزجي الصفوف تحت الدّرَفسٍ
في اخضرار من اللباس على اصفر يختال في صبيغة ورسٍ
وعراكُ الرجال بين يديه في خفوت منهمْ واغماض جَرسٍ
من مُشيح يهوي بعامل سيف ومُليح من السنان بترسٍ
تَصف العين أنهم جِدّ احياءٍ لهم بينهم اشارة خرسٍ
يغتلي فيهم ارتيابيَ حتى تتقرّاهمُ يداي بلمسٍ
وكأن الايوان من عَجَب الصنعة جوبٌ في جنب ارعنَ جلسٍ [4]
عكست حظّه الليالي وبات المشتري فيه وهو كوكب نحسٍ
فهو يبدي تجلّداً وعليه كلكل من كلاكل الدهر مرمي
لم يعبه ان بُزّ من بسط الديباج واستلّ من ستور الدمقسٍ [5]
مشمخرّ تعلو له شُرفات رُفعت في رؤوس رضوى وقَدْسٍ [6]
لابسات من البياض فما تبصر منها الا قلائل بُرسٍ
ليس يُدْرى أصُنع إنس لجنٍّ سكنوه ام صنع جن لإنسٍ
عمرت للسرور دهراً فصارت للتعزي رباعهم والتأمي

---

١ انضاء لبس اى أثياب بالية .
٢ الجرماز أحد القصور في الايوان .
٣ في هذا والابيات الستة التابعة يصف صورة على جدار القصر تمثل معركة دارت في انطاكية بين كسرى والروم ، والوصف دقيق وقد مر تفسيره في كلامنا عن الشاعر .
٤ أي كأنه مقتطع من جبل عال .
٥ لم ينقص من قيمته ان الدهر سلبه بسط الديباج وستور الدمقس .
٦ رضوى وقدس جبلان .

فلها ان أعينها بدموع موقفات على الصبابة حُبسِ
ذاك عندي وليست الدار داري باقتراب منها ولا الجنس جنسي[1]
غير نعمى لاهلها عند اهلي غرسوا من ذكائها خير غرسِ
ايّدوا مَلكنا وشدّوا قواه بكُماةٍ تحت السّنوّر حُمسِ[2]
وأعانوا على كتائب أرياطٍ بطعن على النحور ودعسِ[3]
واراني من بعدُ أكلف بالاشراف طرًّا من كل سِنخٍ وإسّ[4]

وقال يمدح المتوكل ويذكر وفد الروم

قل للسحاب اذا حدته الشمألُ وسرى بليلٍ ركبه المتحمّل
عرّجْ على حلبٍ فحيّ محلّة مأنوسة فيها لعلوةَ منزل
لغريرةٍ ادنو وتبعد في الهوى واجود بالود المصون وتبخل
وعليلة الالحاظ ناعمة الصبى غُـرّي الوشاة بها ولجّ العذّل
لا تكذبنّ فانت ألطف في الحشا عهداً واحسن في الضمير واجمل
احنو اليك وفي فؤادي لوعة واصدّ عنك ووجه ودّي مقبل
واعزّ ثم اذلّ ذلة عاشق والحب فيه تعزّز وتذلل

* * *

إن الرعيّة لم تزل في سيرة عُمَريّة مذ ساسها المتوكل[5]
الله آثر بالخلافة جعفراً ورآه ناصرها الذي لا يخذل
هي افضل الرتب التي جعلت له دون البريّة وهو منها افضل
ملك اذا عاذ المسيء بعفوه غفر الاساءة قادراً لا يُعْجَل

---

١ فهي جديرة بأن أبكيها وان كنت غريباً لا أمت لاصحابها بنسب عرقي .

٢ الا اني افعل ذلك ليد كانت للفرس عند اهلي (اليمنيين) فهم ساعدوا ملكنا (سيف بن ذي يزن) بابطال تحت الدروع شجعان .

٣ وأعانوه على جيوش قائد الحبش (ارياط) بطعن في نحور الاعداء .

٤ ولذا صرت مولعاً بمدح الاشراف وأهل المروءة مهما كان اصلهم .

٥ عمرية نسبة الى عمر بن الخطاب اي سيرة عدل وحزم .

وعفا كما صفح السحاب ورعده قصفٌ وبارقه حريق مُشعلُ
شرفٌ خُصصت به ومجد باذخ متمكن فوق النجوم مؤثّل
لا يعدمنْك المسلمون فإنهم في ظلّ ملكك أدركوا ما أمّلوا
حصّنت بَيضتهم وحُطت حريمهم وحملت من أعبائهم ما استثقلوا
ورأيت وفد الروم بعد عِنادهم عرفوا فضائلك التي لا تجهل [1]
لحظوك أول لحظة فاستصغروا من كان يعظم فيهم ويبجّل
أحضرتهم حججاً لو اجتُلبت بها عُصم الجبال لأقبلت تتنزّل
ورأوك وضّاح الجبين كما يُرى قمر السماء السعد ليلة يكمل
نظروا اليك فقدّسوا ولو أنهم نطقوا الفصيح لكبّروا وهللوا
حضروا السماط فكلما راموا القرى مالت بأيديهم عقول ذهّل
تهوي أكفّهم الى أفواههم فتحيد عن قصد السبيل وتعدل
متحيّرون فباهت متعجب مما رأى أو ناظر متأمل
ويودّ قومهم الألى بعثوا بهم لو ضمّهم بالأمس ذاك المحفل
قد نافس الغيبَ الحضورُ على الذي شهدوا وقد حسد الرسولَ المرسل
أعجلت رِفدهم فأفضلُ نائل حُبي الوفود به الهنيء المُعجَل
فالله أسأل ان تعمّر صالحاً فدوام عمرك خير شيء يسأل

ميلوا الى الدار من ليلى نحييها

يصف فيها بركة بناها المتوكل

ميلوا الى الدار من ليلى نحيّيها نعم ونسألها عن بعض أهليها
يا دمنةً جاذبتها الريح بهجتها تبيت تنشرها طوراً وتطويها

---

[1] اشارة الى وفد أرسله ملك الروم الى المتوكل وفي الابيات التالية يصف دهشة الوفد لما رأوه من عظمة الخليفة ومجده وما اعتراهم من الذهول عندما حضروا المأدبة (السماط) .

لا زلتِ في حلل للخير ضافية ... ينيرها البرق أحياناً ويسديها [1]
تروح بالوابل الداني روائحها ... على ربوعك أو تغدو غواديها
ان النحيلة لم تُنعم لسائلها ... يوم الكُتيب ولم تسمع لداعيها
يا من رأى البركة الحسناء رؤيتُها ... والآنسات اذا لاحت مغانيها [2]
بحسْبها انها في فضل رتبتها ... تعدُّ واحدة والبحر ثانيها
ما بال دجلة كالغيرى تنافسها ... في الحسن طوراً وأطواراً تباهيها
أما رأت كالىء الاسلام يكلأها ... من ان تعاب وباني المجد يبنيها [3]
كأن جنّ سليمان الذين ولُوا ... ابداعها فأدقّوا في معانيها
فلو تمرّ بها بلقيس عن عُرضٍ ... قالت هي الصرح تمثيلاً وتشبيها [4]
تنصبّ فيها وفود الماء مُعجَلَةً ... كالخيل خارجة من حبل مجريها
كأنما الفضّة البيضاء سائلةً ... من السبائك تجري في مجاريها
اذا علتها الصبا أبدت لها حُبُكاً ... مثل الجواشن مصقولاً حواشيها [5]
فحاجب الشمس احياناً يضاحكها ... ورَيّقُ الغيث أحياناً يباكيها
اذا النجوم تراءَت في جوانبها ... ليلاً حسبتَ سماء ركّبت فيها
لا يبلغ السمك المحصور غايتها ... لبعد ما بين قاصيها ودانيها
يعُمن فيها بأوساط مجنّحة ... كالطير تنقضّ في جوّ خوافيها
لهنّ صحنٌ رحيب في أسافلها ... اذا انحططن وبهوٌ في أعاليها
تغنى بساتينها القصوى برؤيتها ... عن السحائب منحلاً عزاليها
كأنها حين لجّت في تدفّقها ... يد الخليفة لما سال واديها

---

١ اثار الحلل وأسداها نسج لحمتها وسداها والكلام مجازي معناه لا زالت غيوم الخير فوقك يتلألأ فيها البرق .

٢ في زهر الآداب ١ – ٢٣٠ البركة الحسناء ورونقها. وفي نهاية الارب ١ – ٣٧٤ والآنسات التي.

٣ كالىء الاسلام اي حاميه ويقصد بذلك الخليفة .

٤ اشارة الى قصة النبي سليمان وبلقيس ملكة سبأ وما شاهدته عنده من جلال صرحه العظيم .

٥ الجواشن الدروع .

وزادها رتبة من بعد رتبتها ... انّ اسمهُ يوم يدعى من اساميها [1]
محفوفة برياض لا تزال ترى ... ريشَ الطواويس تحكيه ويحكيها

* * *

اذا مساعي أمير المؤمنين بدت ... للواصفين فلا وصفٌ يدانيها
ان الخلافة لما اهتزّ منبرها ... بجعفر أعطيتْ اقصى أمانيها
أبدى التواضع لما نالها دعةً ... عنها ونالته فاختالت به تيها
اذا تجلّت له الدنيا بحليتها ... رأت محاسنها الدنيا مساويها
يا ابن الاباطح من ارض اباطحها ... في ذروة المجد أعلى من روابيها [2]
ما ضيّع الله في بدو وفي حضر ... رعيّة انت بالاحسان راعيها
وأمّة كان قبح الجور يسخطها ... دهراً فأصبح حسن العدل يرضيها
بثثتَ فيها عطاء زاد في عدد الـ ... عليا ونوّهت باسم المجد تنويها [3]
ما زلت بحراً لعافينا فكيف وقد ... قابلتنا ولك الدنيا بما فيها
اعطاكها الله عن حقٍ رآك له ... اهلا وأنت بحق الله تعطيها

وقال يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف

أأفاق صبٌّ منْ هو فأفيقا ... أمْ خان عهداً أم أطاع شفيقا
إنّ السلوّ كما تقول لراحةٌ ... لو راح قلبي للسلوّ مطيقا
هذا العقيقُ وفيه مرأى مونقٌ ... للعين لو كان العقيقُ عقيقا [4]
أشقيقةَ العلمينِ هلْ من نظرةٍ ... فتبلّ قلباً للغليل شقيقا
علّ البخيلة أن تجود بها النوى ... والدار تجمع شائقاً ومشوقا

---

١ اسم المتوكل جعفر ومعنى جعفر النهر أي ان البركة والخليفة متشابهان في المعنى .
٢ يا ابن اباطح قريش الذين اذا قيسوا بسواهم في الشرف فاقوهم كثيراً (كانت سهولهم أعلى من جبالهم) .
٣ نوه به رفع ذكره .
٤ العقيق اسم واد في بلاد العرب يتغنى به الشعراء .

ماذا عليكِ لو اقتربت لموعد يُنْشي الجوى وسقيتنا ترنيقا

* * *

غدت الجزيرةُ في جَناب محمد ريّا الجناب مغاربا وشروقا
برقت مخايله لها وتخرّقتْ فيها عزالي جوده تخريقا [1]
صفحت له عنها السنونَ وواجهت
أطرافُها وجه الزمانِ طليقا
رفعَ الاميرُ أبو سعيدٍ ذكرها وأقام فيها للمكارم سوقا
يستمطرون يداً يفيض نوالها فيغرّقُ المحرومَ والمرزوقا
يقظٌ اذا اعترض الخطوبَ برأيه ترك الجليل من الخطوب دقيقا
هلّا سألتَ محمّداً بمحمد تجدُ الخبير الصادقَ المصدوقا [2]
وسلِ الشُراة فانهم اشقى به من أهل موقانَ الاوائل موقا [3]
جاءوا براعيهم ليتخذوا به عمداً الى قطع الطريق طريقا
طرحوا عباءَته وألقوا فوقه ثوب الخلافةِ مشرباً راوُوقا [4]
عقدوا عمامتهُ برأس قناته ورأوهُ برّاً فاستحال عقوقا
وأقامَ ينفذُ في الجزيرة حكمهُ ويظنّ وعدَ الكاذبين صدوقا
حتى اذا ما الحيَّة الذكر انكفا من أرزنٍ حنقاً يمجّ حريقا [5]
غضبان يلقى الشمسَ منه بهامةٍ تعشي العيونَ تألقاً وبريقا
أوفى عليه فظلّ من دهش يظن البرّ بحراً والفضاء مضيقا
غدرت امانيه به وتمزّقتْ عنه غيابة سكره تمزيقا

---

١ أي برقت سحب وعوده ففاضت سيول جوده. والمخايل هي السحب المنذرة بالمطر .
٢ سأل به أي سأل عنه .
٣ في هذا البيت وما قبله يقول : هل سألت عن الممدوح محمداً (وهو قائد آخر) فينبئك بالخبر الصحيح بل اسأل الخوارج (الشراة) فقد نالهم منه أكثر مما نال أهل موقان قبلاً — والموق الهلاك .
٤ أي جعل الخوارج زعيمهم خليفة فألبسوه العباءة الجيدة النسج .
٥ ارزن اسم مكان ويراد بالحية الذكر هنا الداهية الفتاك (وهو الممدوح) .

طلعت جيادكَ من ربى الجُودي[1] قد
حُمّلن من دُفَع المنونِ وسوقا

يطلبنَ ثأر الله عند عصابةٍ خلعوا الامام وخالفوا التوفيقا
يرمون خالقهم بأقبحِ فعلهم ويحرّفون قُرانهُ المنسوقا[2]
فدعا فريقاً من سيوفك حتفُهم وشددتَ في عقدِ الحديدِ فريقا

* * *

يا تغلب ابنةَ تغلب حتى متى ترِدونَ كفراً موبقاً ومروقا[3]
أوَ ما علمتمْ أنّ سيفَ محمدٍ أمسى عذاباً بالطغاةِ محيقا
لا تنتضوهُ بأنْ تروموا خطةً عسراء تمي الطالبينَ لحوقا
خلّوا الخلافة إنّ دون لقائها قدَراً بأخذِ الظالمينَ خليقا

وقال يمدح مالك بن طوق

رحلوا فأيّةُ عبرةٍ لم تُكسبِ أسفاً وأيّ عزيمةٍ لم تُغلبِ
قد بيّن البيْن المفرّق بيننا عشقَ النوى لربيب ذاك الربرب
صدقَ الغرابُ لقد رأيت شموسهم بالأمسِ تغرب عن جوانب غرب[4]
لو كنتَ شاهدَنا وما صنع الهوى بقلوبنا لحسدتَ من لم يحبب
شُغلَ الرقيبُ وأسعدتنا خلوةٌ في هجرِ هجرٍ واجتناب تجنب
فتلجلجت عبراتها ثم انبرتْ تصف الهوى بلسان دمعٍ مُعرب
تشكو الفراق الى قتيل صبابة شرقِ المدامع بالفراق معذّب
أأطيعُ فيك العاذلات وكسوتي ورقُ الشباب وشرّتي لم تذهب
واذا التفتُ الى سِنيّ رأيتها كمجزّ حبل الخالع المتصعّب[5]

---

١ الجودي اسم جبل (وهو الذي استقرت عليه سفينة نوح) .
٢ القران المنسوق القرآن المنظم .
٣ يا بني تغلب حتى متى تردون الكفر المهلك بمساعدتكم الخارجين على الامام .
٤ غرب اسم جبل .
٥ الخالع المتصعب اي الجمل الضعيف .

عشرون قصّرها الصبى وأطالها ولعُ العتابِ بهائم لم يُعتصبِ
ما لي وللأيام صرّف صرفها حالي وأكثر في البلاد تقلّبي
فأكون طوراً مشرقاً للمشرق الاقصى وطوراً مغرباً للمغرب
واذا الزمان كساك حلة مُعدمٍ فالبس لها حلل النوى وتغرّب
ولقد أبيتُ مع الكواكب راكباً أعجازها بعزيمة كالكوكب
والليل في لون الغراب كأنه هو في حلوكته وان لم يَنعب
والعيس تنصُل من دجاه كما انجلى صبغُ الشباب من القذال الاشيب[1]
يطابنَ مجتمعَ العلى من وائلٍ في ذلكَ الاصلِ الزّكيّ الاطيب
وبقيّةَ العربِ الذي شهدتْ له أبناءُ ادٍّ بالفخار ويعرُب[2]
بالرحبة الخضراء ذات المنهل العذب المشاربِ والجناب المُعشب[3]
عطنُ الوفود فمنجدٌ او مُتهم او وافدٌ من مشرقٍ او مغرب[4]
ألقوا بجانبها العصيّ وعوّلوا فيها على ملك اعزّ مهذّب
ملكٌ له في كل يوم كريهةٍ إقدام ليث واعتزام مجرّب
وتراه في ظلَم الوغى فتخالهُ قمراً يشدُّ على الرجال بكوكب[5]
يا مالك ابن المالكين الألى ما للمكارم عنهم من مذهب
اني أتيتكَ طالباً فبسطتَ من أملي وأطلبَ جودُ كفك مطلبي[6]
وغدوتَ خير حياطةٍ مني على نفسي وأرأف بي هنالك من أبي
أعطيتني حتى حسبت جزيل ما أعطيتنيهِ وديعةً لم توهَب

---

١ العيس النياق البيض يخالطها شقرة وظلمة خفية . ومعنى البيت ان العيس تخرج من الليل كما يخرج القذال الاشيب من سواد الشباب .

٢ اد ويعرب من جدود العرب الاقدمين .

٣ الرحبة مكان الممدوح .

٤ اي هو وطن او مقصد الوافدين من شق الامصار .

٥ وتراه وسط غبار الحروب مشرقاً كالقمر وهو ينقض على الرجال بسيف او رمح متألق كالكوكب .

٦ اطلبه اي اعطاه ما طلب .

فشبعتُ من برٍّ لديك ونائلٍ   ورويت من أهل لديك ومرحبِ
قومٌ إذا قيل النجاءُ فما لهم   غير الحفائظ والرّدى مهربٍ [١]
يمشون تحت ظبى السيوف الى الرّدى   مشيَ العطاش الى برودِ المشرب
يتراكمون على الأسنّة في الوغى   كالصبح فاضَ على نجوم الغيهب
ينسيك جوَد الغيثِ جودهمُ إذا   عثرت أكفّهمُ بعامٍ مجدب
حتى لو انّ الجودَ خُيّر في الورى   نسباً لأصبح ينتمي في تغلب

١ يريد بذلك قوم الممدوح بني تغلب . النجاة الهرب .

ابن الرومي

أبو الحسن علي بن العباس

٢٢١ هـ - ٢٨٣ هـ

٨٣٧ م - ٨٩٩ م

●

مصادر دراسته - منشأه وطرف من سيرته - ممدوحوه

عقليته وأخلاقه - فنه ومزاياه الشعرية

مصادر دراسته

الفهرست (ألمانيا) ١٦٥

العمدة لابن رشيق (أمين هندية ١٩٢٥) ج ١ — ٤٠ و ٤٢ و ١٩٤
ج ٢ — ١٣٦ و ١٤٠ و ١٨٤ — ١٨٥ و ١٩٠

زهر الآداب للحصري ج ١ — ٢٣٢ ذكر عمامته
٢٤٨ عتابه لأبي الصقر

ج ٢ — ١٧١ و ١٧٧ و ١٧٨ تطيره وخوفه من ركوب البحر

ج ٢ — ٩ نهمه

ج ٣ — ٩٩ و ١٠٢ داره وحنينه للوطن

ج ٣ — ١٠٥ مواليه

ج ٤ — ٤١ تسليه عن الهموم

وفيات الأعيان (بولاق) ١ — ٤٩٩

شرح شواهد التلخيص للعباسي ص ٣٨ — ٤٢

وقد ذكر المعري في رسالة الغفران شيئاً عن تشيعه وذكر الجرجاني في الوساطة ص ٥٠ وصفحات أخرى. وفي كتاب التصحيف والتحريف للعسكري ج ١ — ٢٩ شيء عن سبب موته.

ومن المراجع الحديثة غير دوائر المعارف وغير كتب التاريخ الأدبي العامة.

مختارات ابن الرومي (للكيلاني)

مختارات ابن الرومي (للبارودي)

ديوان ابن الرومي ج ١ طبع محمد شريف سليم

حصاد الهشيم للمازني ٢٩٩ — ٤٢٧

ابن الرومي للعقاد وهو من احدث وأوفى ما كتب عنه.

منشأه وطرف من سيرته

نشأ ابن الرومي في بغداد ، وليس في شعره ما يدل على انه تركها طويلاً أو جاب الأقطار كما فعل ابو تمام والمتنبي وسواهما من الشعراء . ويستدل من بعض أخباره انه سافر مرة الى سامرّا وطال مقامه فيها [1] ، فكان يتشوق الى أيام بغداد كقوله :

بلد صحبت به الشبيبة والصِّبا ولبست ثوب العيش وهو جديد
فاذا تمثّل في الضمير رأيته وعليه أغصان الشباب تميد

والأرجح انه قصدها – وكانت يومئذ دار الخلافة – طلباً للرزق ولكنه لم يوفق في طلبه فملّها ، وحمل على الغربة وطلب المال فقال :

وفيم اجتهادي في محاولة الغنى وما للغنى عند الجواب به قدر
وما أنا الا محرزُ المجد والعلى وذلك كنزي لا اللُّجَين ولا التِبر
وان يقضِ لي الله الرجوع فانه عليّ له ان لا افارقكم نذر
ولا ابتغي عنكم شخوصاً ورحلة يدَ الدهر ، الا ان يفرّقنا الدهر

فلم يكن لشاعرنا تلك الطبيعة المغامرة المجازفة في سبيل الحصول على الأماني . وقد ترك لنا في ذلك قصيدة عصماء وصف فيها أهوال السفر براً وبحراً ، وسنتناولها في غير هذا المقام .

وهو كما يتضح من لقبه ونسبه رومي الاصل واسم جده جريج الرومي (أو جورجيوس) [2] . ولا نعلم عن أسرته شيئاً يذكر ، إلا أن في بعض

---

١ زهر الآداب ج ٣ – ١٠٠ .

٢ معجم الأدباء ج ٦ – ٤٧٤ تحت سيرة محمد بن حبيب .

شعره تلميحاً الى ان أمه فارسية الأصل كقوله :

كيف اغضي على الدنيّة والفرس خؤولي والروم هم أعمامي

وكان جده ، كما ذكر ابن خلكان ، مولى عبد الله بن عيسى بن جعفر المنصور . فنشأ والده ، كما يستدل من اسمه ، مسلماً وولد صاحب الترجمة كذلك ، وتثقف في بيئة اسلامية خالصة . ولم يتصل بنا أن والده كان يتكلم الرومية او يعرفها ، او انه هو عرفها ، على اننا لا نشك في انه كان يعرف نسبه الى اليونان ويفخر به احيانا ، كقوله من قصيدة في أبي سهل النوبختي :

ونحن بنو اليونان قوم لنا حجىً ومجد وعيدانٌ صلاب المعاجم
وما تتراءَى في المرايا وجوهنا بلى في صفاح المرهفات الصوارم

وقوله من قصيدة يذكر فيها بني العباس :

انا منهمُ بقضاء من خُتمت رسل الإله به وهم اهلي
مولاهمُ وغذيُّ نعمتهم والروم – حين تنصّني – أصلي

وقوله في رجل طعن بشعره والظاهر انه وصمه بروميته :

قد تحسن الروم شعراً ما أحسنته عُرَيب
يا منكر المجد فيهم أليس منهم صُهَيب

ويظهر أن شاعرنا لم يكن موفـّقاً في حياته العائلية فقد مات والده على الارجح وهو صغير ، ولم يبق له غير أخ أكبر كان يعوّل عليه في الشدائد . على ان هذا توفي والشاعر لم يتجاوز الثلاثين كثيراً . وقد فقد أبناءَه الثلاثة وزوجته فجزع عليهم جداً ، وكان لفقدهم تأثير عميق في نفسه . وليس من الغريب ان يكون قد تزوج ثانية وهو شيخ كما يرجّح الاستاذ العقاد [1] ، على أننا لا نعلم شيئاً عن أمر هذا الزواج .

---

١ راجع ابن الرومي للعقاد ص ٩٠ .

حاله مع ممدوحيه

ولد ابن الرومي على رواية ابن خلكان سنة ٢٢١ هـ ، فلم يدرك المعتصم والواثق إلا صبياً صغيراً . ثم أدرك سن البلوغ في زمن المتوكل ، وعاش الى خلافة المعتضد . ومع كل ذلك لا نرى في شعره ما يدل على تقربه من الخلفاء والحظوة عند الامراء . فاذا قابلناه بزميله البحتري (الذي ولد قبله بنحو خمس عشرة سنة) رأينا أن هذا مدح خلفاء زمانه ، ولا سيما المتوكل والمعتز ، بعشرات من القصائد ونال جوائزهم ، ومدح نحو مائة من كبار الوزراء والقادة ، وحصّل من ذلك مالاً وجاهاً . أما ابن الرومي فليس له شيء يذكر في الخلفاء . ولعل السبب انه لم يدرك منهم غير المستضعفين كالمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد ، وكلهم قتل أو خلع أو حكم وليس له من الأمر شيء . على اننا لا نجزم في ذلك فحاله في ذلك حال البحتري ، وان يكن البحتري قد أدرك المتوكل والخلافة لم تزل في رونقها .

وقد عاش ابن الرومي اربع سنوات في خلافة المعتضد وله فيه بعض المديح . أما رجال الدولة الذين اتصل بهم فجلّهم من الاعاجم . وقد مرّ بنا ما كان لهم من النفوذ في الخلافة العباسية ، واليك أهمّ ممدوحيه :

اسمعيل بن بلبل

كان من وزراء المعتمد وجمع له السيف والقلم وهو يرفع نسبه الى بني شيبان ويفاخر بذلك . على ان بعضاً غمزوه وقالوا هو دعيّ[١] . وكان مادحوه كالبحتري وابن الرومي يذكرون نسبه الشيباني بالتمجيد والتعظيم ، على ان ابن الرومي انقلب عليه وصار يلقبه بالدعيّ كقوله :

عجبت من معشر بعقوتنا   باتوا نبيطا وأصبحوا عربا

---

١ الفخري ١٨٧ (في باب خلافة المعتمد) .

مثل أبي الصقر إنّ فيه وفي دعـــواه شيبان آية عجبـا

آل طاهر

وقد مرّ معنا ذكرهم في الكلام عن أبي تمام والبحتري ، وهم من الفرس . كانوا من رجال الدولة وقد تقلبوا منذ أيام المأمون في أعلى مراتبها . وأخص ممدوحي ابن الرومي منهم عبيد الله بن عبد الله أمير بغداد .

آل وهب

وزعيمهم في أيام الشاعر القاسم بن عبيد الله : كان على مـــا نقله صاحب الفخري من دهاة العالم ومن أفاضل الوزراء ، وكان شهماً كريماً مهيباً جباراً . وقد لزمه ابن الرومي ومدح آله وعلى يده قتل .

آل المنجم

وهم من الفرس وقد مدح شاعرنا منهم عليّ بن يحيى . وكان أبوه مولى المأمون ، واتصل بالفضل بن سهل ، واتصل علي بن يحيى بمحمد ابن اسحق المصعبي ثم بالفتح بن خاقان وعمل له خزانة حكمة [1]. وآل المنجم من علماء الفلك الذين كان يشار اليهم بالبنان .

* * *

ومن ممدوحيه أحمد بن ثوابة وآل المدبّر والقاضي يوسف وآل مخلد وآل نوبخت وأبو القاسم التّـوزي وآل شيخ والباقطاني ، ومعظمهم من أصحاب النفوذ والوجاهة . على ان ابن الرومي لم يحظ بشعره فلم يكن مُتيسّر الحال . وفي شعره ما يدل على ذلك ، فهو كثير التبرم من الزمان وسوء الحال وقلة ثواب الممدوحين كقوله :

---

١ الفهرست ١٤٣ .

تأمّل العيب عيبُ وليس في الحق ريبُ
ان يمسك الناس عني سيباً فللّه سيبُ

وقوله :

ذقت الطعوم فما التذذت براحة من صحبة الأخيار والأشرار
أما الصديق فلا أحب لقاءه حذر القلى وكراهة الإعوار
وأرى العدوّ قذىً فاكره قربه فهجرت هذا الخلق عن اعذار

ولكن ابن الرومي لم يهجر الدنيا وملذاتها ولم يبتعد عن الناس وعطاياهم بل بعكس ذلك كان يتهافت على ما في الحياة مما يشبع شهوات نفسه ، ويسرف في ذلك كل الإسراف . وكان يرمي بنفسه على أبواب الكبراء والوجهاء طالباً رفدهم ، ممنّياً نفسه بالحظوة عندهم . ومع كل ذلك تراه في شعره محروماً ناقماً ، او ساخراً عابثاً ، ليس له من منزلة توجب احترامه ، او صداقة تشفي أوامه . ولماذا ؟ لان في طبعه كما يستدل من شعره ما كان ينفّره من الناس وينفر الناس منه . هذا الطبع هو الذي جنى عليه وألزمه حالة الحاجة والخمول . وقد أصاب في وصف نفسه ، إذ قال :

أسخطت اخواني وأخفق مطمعي فبقيت بين الدّور والأبواب

وبينا ترى زملاءَه من كبار الشعراء قد فاض كسبهم ، تراه وهو في الخمسين من عمره يشكو الزمان بقصيدة رفعها الى اسمعيل بن بلبل وفيها يقول :

ويح القوافي ما لها سفسفت حظّي كأني كنت سفسفتها
أنحتْ على حظي بمِبراتها شكراً لأني كنت أرهفتها
أو كثّفت دون الغنى سدّها حتى كأني كنت كثّفتها
حُرمتُ في سنّي وفي مَيعتي قراي من دنيا تضيّفتها
فكّرت في خمسين عاماً خلت كانت أمامي ثم خلّفتها

لا عذر لي في أسفي بعدها   على العطايا – عفتُها عفتها

والقصيدة طويلة وأكثرها على هذا النمط . ومثلها قصيدة يعاتب فيها صديقاً ومنها تلبين شيئاً من حاله ونظر اخوانه اليه – قال :

أيها الحاسدي على صحبتي العسر   وذمي الزمان والاخوانا
ليت شعري مـاذا حسدت عليه   أيهـا الظالمي اخـائي عيانا
أعلى انني ظمئت وأضحى   كلّ من كان صادياً ريّانا
أم على انني أمشّى حسيراً   وأرى الناس كلهم ركبانا
أم على انني ثـكلت شقيقي   وعدمت الثراء والأوطانا

والبيت الأخير يشير الى فقده لأخيه الأكبر الذي كان يعطف عليه ، وإلى دار وعقار تركها والده فأضاعها[1] . ومما يدلك على سوء حاله بالنسبة الى زملائه قوله لمن عاب قريضه :

أبعدَ ما اقتطعوا الأموال واتخذوا   حدائقاً وكروماً ذات تعريش
يحاسدوني وبيتي بيت مسكنة   قد عشّش الفقر فيه أي تمشيش

وكيفما قلّبت ديوانه تجد هذه النفثات الناضحة بروح التبرم والغيظ والألم . وإذا رجعت الى حكمه التي هي عنوان عقله المفكر رأيت أساسها تأثير بيئته . فقد ترك شاعرنا كثـيراً من الابيات الحكمية ومعظمها يدور على ما يلي :

قباحة البخل وجمال الثواب	راجع مختارات ابن الرومي (للكيلاني)				١٠٦
عدم منفعة الاخوان	»	»	»	»	
نكد الزمان	»	»	»	»	
غرور الشباب	»	»	»	»	٢٦
وجوب الحزم	»	»	»	»	٧١

١ وفي بعض قصائده إشارة الى دار له غصبت منـه ، وفيها ما يشير الى سوء حاله في أواخر أيامه كالتي مطلعها : لا زلت تبلغ أقصى السؤل والامل .

نفع الشدائد	راجع مختارات ابن الرومي للكيلاني					٢٠٢
الحظ	»	»	»	»		١٠٩،٩٤
الملل من الناس	»	»	»	»		٩٦
عدم المبالاة	»	»	»	»		١٠٣
فساد الذوق	»	»	»	»		٣٩٧
الوشاة	»	»	»	»		٤٠٥
عدم التغرب	»	»	»	»		٤٤١،٣٧٧
الصبر	»	»	»	»		٣١٦

إلى غير ذلك من الاغراض التي تشير إلى ما كان يشعر به من وطأة الزمان ، وما كان يختلج في نفسه المنفعلة من تأثير الحرمان .

عقليته واثرها في شعره

لابن الرومي مع فرط أدبه وتوقد قريحته عقلية غريبة . فهو في حال سكينته واطمئنانه لبيب مفكر يأتيك بالحكم والاقوال الساحرة ، ولكنه عصبي المزاج شديد الانفعال : فإذا هاجه هائج أضاع لبّه واندفع على وجهه لا يبالي ، حتى في معاتباته لكبار الرجال تجده مرًّا أليم اللسان . ويتجلّى لك مزاجه العصبي في قوله يعاتب اسمعيل بن نوبخت (وهو أحد ممدوحيه) يوازن أولاً بين نفسه وسواه من الشعراء فيصفهم بالجيف النتنة والغثاء الطافي على وجه اليمّ ، وانه أحق منهم ببلوغ الأماني . ثم يخاطب اسمعيل فيقول :

واجبي ان أرى جوابيَ عُتباك فلا تجعل السكوت جوابي
إن في ان تعقّني بعض إغضابي وفي ان تهينني إغضابي
كنت تأتي الجميلَ ثم تنكّرت فعاتبتُ مُجملاً في العتابِ
فائتنفْ توبة وراجع فعالاً ترتضيه الاسلاف للاعقابِ

ومثل ذلك قصيدة يعاتب بها اسمعيل بن بلبل وقد شعر بشيء من

الجفاء منه . قال فيها :

فما لعطاياك اضحت حمىً ... عليّ واضحت لغيري نهابا
قبلتَ مديحي وأنشدتـــه ... أناساً وأمسكت عني الثوابا
فلله انت ومـــا جئته ... إليّ لقد جئت شيئاً عجابا
اتهتك ستريَ عن خلـّتي ... وتغلق دون عطاياك بابا
حلفت لئن انت لم ترضني ... لتنصرفنّ القوافي غضـابا

وأقلّ ما يقال في هذا العتاب انه تهديد ، وان صاحبهُ ممن إذا غضبوا لا ينظرون إلى العواقب . ويجوز لنـــا ان نقول انّ ما عرف به ابن الرومي من الهجاء هو أثر من تلك الطبيعة الشديدة الانفعال التي يخرج بها الانسان أحياناً عن طور الرشاد . ومن هنا هذه الجرأة في مهاجمة الأعيان والحكام وهذا الاقذاع في الطعن بالمناوئين ، مما كان – على ما يعتقد ابن رشيق – سبباً في هلاكه [1] .

وقد غالى بعضهم في هجاء ابن الرومي وجعلوه فنّاً من فنون الشعر ، وهو كذلك لو اقتصر فيه الشاعر على تصوير المساوىء الشخصية او الاجتماعية وعرضها بقـــالب يثير في النفس كراهية تلك المساوىء . ولكن شعرنا العربي الهجائي في كل أطواره لم يصل إلى تلك الدرجة الراقية إلا نادراً . فالهجاء الفني يقتضي أمرين : الفكاهة أو الدعابة ، وحسن التصوير . الاول يرفعه عن الخشونة والاقذاع ، والثاني يضعه في صف الفنون الجميلة . وانك لترى في بعض الهجاء العربي شيئاً من ذلك ، ولكن أكثره من قبيل الطعن الشخصي الذي يراد به الحط من كرامة الشخص أو كرامة أهـله ، لا لقصد اصلاحيّ بل تشفياً أو تفاخراً . هكذا كانت نقائض جرير والاخطل والفرزدق ، وعلى هذا النمط جرى أكثر الهجّائين عند العرب . ولم يشذ ابن الرومي عن هذه القاعدة – قال ابن رشيق : « وقد

---

١ العمدة ٣٤ .

غلب عليه الهجاء حتى شهر به وحتى صار يقال أهجى من ابن الرومي ، وليس هجاء ابن الرومي بأجود من مدحه ولا أكثر ولكن قليل الشرّ كثير[1] .

ولا ينكر ان في هجاء صاحبنا شيئاً من الدعابة وحسن التصوير ، ولكن معظمه فاحش لا يرتفع إلى ما نسميه فنّاً أدبيّاً .

ومن دلائل ضعفه العصبي اعتقاده بالطّيَرة : كان يتشاءم من بعض الالفاظ أو الحوادث ، وكان لهذا الطبع أثر شديد في تصرفه مما جعله سخرية في أعين العقلاء . ولا نستطيع ان نعلل هذه الظاهرة العقلية التي تضعف ارادة الانسان وتحملها على ربط الحوادث بغير أسبابها إلا بقولنا ان صاحبها شاذ في عقليته وان في جهازه العصبي ضعفاً خاصاً . وقد تناول أبو العلاء المعري تطير ابن الرومي في رسالة الغفران وانتقده ، ولم يتعدّ دائرة الصواب إذ قال عنه « ان أدبه أكثر من عقله » .

وقال ابن رشيق : « كان ابن الرومي كثير الطيرة ربما أقام المدة الطويلة لا يتصرّف تطيّراً بسوء ما يراه أو يسمعه ، حتى ان بعض اخوانه من الامراء افتقده فأعلم بحاله في الطيرة ، فبعث اليه خادماً اسمه اقبال ليتفاءل بـه . فلما أخذ أهبته للركوب قـال للخادم : انصرف إلى مولاك فأنت ناقص ، ومنكوس اسمك لابقا » . وابن الرومي هو القائل : الفأل لسان الزمان والطيرة عنوان الحدثان ، وله فيه احتجاجات وشعر كثير[2] . ومن ذلك قصيدة قالها وهو في السابعة والخمسين وقد رأى عجوزاً في احدى عينيها نكتة وجارية حولاء ، فتطيّر من ذلك . واتفق بعد مدة يسيرة ان جفاه القاسم بن عبيد الله ، وسقطت ابنة لبعض أصدقائه من بعض السطوح فماتت ، فكتب إلى صديقه قصيدة يقول فيها :

لا تهاون بطيرة أيهـا النـّظّار واعلم بـأنها عنوان
قف إذا طيرة تلقـّتـْك وانظر واستمع ثمّ ما يقول الزمان

---

١ العمدة ج ١ – ١٩٤ .

٢ العمدة ١ – ٤٠ و ج ٢ – ١٣٦ .

فتَسْحك المِهرجان بالحُول والعُور أراناً ما أعقب المهرجان
كان من ذاك فقد ابنتك الحرّة مصبوغة بها الاكفان
وتجافي مؤمَّلٍ لي خليل لجّ منه الجفاء والهجران

عقلية كهذه لا تستطيع ربط الاسباب بمسبباتها ، بل تميل إلى الوهم والذعر ، لا ينتظر ان يكون صاحبها ذا اقدام وعزيمة صادقة . وبرغم ما نقرأه في شعر ابن الرومي من ذكر المجد والعلى فإنه لم يتعدّ في ذلك حدّ الكلام . كان ذا موهبة شعرية حادة مقرونة بضعف عصبي حاد ، وقد تولد من امتزاجها ذلك الخوف الصبياني وتلك الغيرة الشاذة التي كانت توهمه انه فوق العالمين ، وانه جدير بكل اكرام وتعظيم ، وان من لا يكرمه فقد نقص قدره وحق عليه ان يهجوه ويحط من كرامته أياً كان ومهما كانت منزلته . واننا لنوافق الاستاذ العقاد في ان شاعرنا كان « حسن النية رقيق القلب لم يخلق شريراً مطوياً على الشكس والعداوة[1] » ، ولكن الرجل كان على ما يظهر يجمع في نفسه نقائض من الاخلاق فهو مسالم شديد العداء ، رقيق القلب أليم البغض ، وفيّ ساخر ، شجاع جبان ، إلى آخر هذه الصفات الغريبة التي يقف المنتقد الاخلاقي لديها حائراً ، والتي لا يمكن لنا إلا ان نعزوها إلى اختلال في جهازه العصبي جعله غريب الاطوار شاذ الاخلاق ، ميالاً إلى الاسراف في كل شيء .

ومن ظواهر اسرافه نهمه في المآكل والمشارب ، حتى ان الحصري يعزو موته إلى شدة نهمه[2] . ولا شك ان ما تجده في شعره من كثرة وصفه لاصناف الطعام والشراب راجع الى هذا الميل فيه . واليك وصفه لألذّ الملذات عنده :

---

١ ابن الرومي للعقاد ٢٢٣ .

٢ زهر الآداب ٣ – ٩ . وفي كتاب التصحيف والتحريف (لأبي أحمد العسكري) ج – ٢٩ (مطبعة الظاهر ، مصر ، ٣٢٦) يعزى سبب موته إلى قصيدة هجائية قالها في جلساء القاسم ابن عبيد الله وكان فيهم رجل يقال له ابو فراس يكرهه فسمه في خشكناجه ، فاضت نفسه فيها .

يا سائلي عن مجمع اللذات ساءلت عنه أنعت النعّات
خذ يا مريدَ المأكل اللذيذ جرداقتَي خبز من السميذ
لم ترَ عين ناظر مثليهما فقشّر الحرفين عن وجهيهما

ثم يصف ما يضاف الى ذلك من لحم فرّوج ولوز وجبن وبيض ونعنع وملح وكيفية تحضيرها وطبخها ويختم القصيدة بقوله :

ومتّع العين به مليّاً وأطبق الخبز به هنيّاً
املأ ثناياك واكدم كدماً تسرع فيما بنيت هدماً
لهفي عليها وأنا الزعيم بمعدة شيطانها رجيم

وكثيراً ما كان يدفعه نهمه الى ذم رمضان والصيام لما فيهما من كبح الشهوات والملذات كقوله :

اذا برّكت في صوم لقوم دعوت لهم بتطويل العذاب
وما التبريك في شهر طويل يطاول يومه يوم الحساب
فليت الليل فيه كان شهراً ومرّ نهاره مر السحاب
فلا أهلاً بمانع كل خير وأهلاً بالطعام وبالشراب

وقوله من قصيدة :

شهر يصدّ المرء عن مشروبه مما يحلّ له وعن مأكوله
لا أستثيب على قبول صيامه حسبي تصرّمه ثواب قبوله

وله في الخمر شيء كثير ، وكان من مدمنيها المتسلّين بها عن الهموم حتى في أيام مشيبه كقوله :

سأعرض عمن أعرض الدهر دونه وأشربها صرفاً وان لام لوّم
فإني رأيت الكأس أكرم خلـّة وفت لي ورأسي بالمشيب معمّم
ومَن صارمَ اللذّاتِ ان حان بعضها ليرغم دهراً ساءَه فهو أرغم

وقال من قصيدة بعث بها الى زميله ابن المسيّب :

أدرك ثقاتك انهم وقعوا ... في نرجس مع ابنة العنَبِ
فهمُ بحال لو بصرت بها ... سبّحت من عُجب ومن عجَب
ريحانهم ذهب على درر ... وشرابهم درر على ذهب

ثم يصف مجلسهم في الروضة الغناء ويطلب اليهم القدوم ليتم انسهم به . ومن خمرياته قوله يصف الخمر ويصف حسناء تشرب :

ومدامة كحُشاشة النفس ... لطفت عن الادراك باللمسِ
لنسيمها في قلب شاربها ... روح الرجاء وراحة اليأس
وتمدّ في أمل ابن نشوتها ... حتى يؤمّل مرجع الامس
ومهفهف كملت محاسنه ... حتى تجاوز منية النفس
أبصرته والكأس بين فم ... منه وبين أنامل خمس
فكأنها وكأن شاربها ... قمر يقبّل عارض الشمس

واليك هذه المداعبة الساخرة التي تذكرنا بشعر أبي نواس :

أحلّ العراقيّ النبيذ وشربه ... وقال «الحرامانِ المدامة والسكرِ»
وقال الحجازيّ الشرابان واحد ... فحلّت لنا بين اختلافهما الخمر
سآخذ من قوليهما طرفيهما ... واشربها لا فارق الوازرَ الوِزر

وفي ديوانه كما ذكرنا آنفاً شعر كثير في الخمر وأنواع المآكل . فإذا قرنت ذلك الى ولعه بالشباب ، وشغفه بكل ما يقدمه من أطايب الحياة – كما سترى في قصائده التي يصف بها الشيب باكياً أيام الشباب ، نادباً أوقات اللهو والملذات – تعرف ما كان في نفس شاعرنا من نهم باللذائذ الطبيعية ، وكيف كان مفتوناً بما تُقدمه لحواسه من نشوة جسدية .

ومن الانصاف ان نقول ان شاعرنا لم يكن فريداً بين شعراء العرب في ذلك فمثله كان أبو نواس واضرابه ، ومثله كثيرون من محبي الحياة الدنيا في كل عصر . على ان له على ما يظهر منزلة خاصة : فهو شغوف

بالحياة لأجل الحياة - يجب أن يعيش وان يعيش قوياً ليتمتع بجمالها وأطايبها ، وقد وهبته الطبيعة حساً دقيقاً فكان يرى فيها أدق الالوان وأخفى الاصوات والحركات . ولعل شعوره بالحرمان وبسوء الحال كان يزيد فيه هـذا الشغف وهذه الشهوة الحيوانية القوية : نقول الشهوة الحيوانية لأننا لا نرى في شعره ما يدل على غير ذلك - لا نرى فيه ذلك الميل الى إلباس الطبيعة حلة روحانية ترتفع به عن التمتع باللذة . فالمرأة والخمرة والطعام والربيع والشباب والرياض كلها في نظره أدوات للسرور ووسائل للتمتع ، وبقدر ما يستطيع الانسان ان يستخدمها يكون حظه في الحياة .

شعره وشاعريته

الغريب ان ابن الرومي مع علو كعبه في الشعر لم يذكره صاحب الاغاني ولا ياقوت ولا الانباري ، وقد خصه ابن النديم في الفهرست بكلمة وجيزة ذكر فيها ان شعره كان على غير الحروف رواه عنـه المسيّبي ثم عمـله الصولي على الحروف ، وجمعه ابو الطيب ورّاق بن عبدوس من جميع النسخ[١] . وتابعه ابن خلـّكان في ذلك ولكنه جعل راويته المتنبي لا المسيبي[٢] وهو على ما يتراءى لنـا خطأ نسخي فان المتنبي ولد بعد موت ابن الرومي بعشرين سنة فلا يصح ان يقال انه رواه عنه ، ولم ينتبه الى هذا الخطأ أكثر المؤرخين والمتأدبين الحديثين فنقلوا كلام ابن خلكان على علاته .

ويميل نقاد العصر الى القول بالوحدة في قصائد ابن الرومي كقولهم : « فقصيدته قطعة مؤلفة تأليفاً منطقياً فنـّياً لا عوج فيها ولا ضعف ولا ميل الى الاستطراد[٣] » ، أو كقولهم : « فخالف ابن الرومي هذه السنّة

---

١ الفهرست ١٦٥ .
٢ كما في الطبعة الميرية .
٣ المجمل ١٣٨ .

(أي سنة الذين جعلوا البيت وحدة النظم) وجعل القصيدة كلاً واحداً لا يتم بغير تمام المعنى الذي أراده على النحو الذي نحـاه . فقصائده موضوعات كاملة تقبل العناوين وتنحصر فيها الاغراض ، ولا تنتهي حتى ينتهي مؤدّاها[1] » .

والذين يقولون بالوحدة يجعلون أساسها طبيعة شاعرنا اليونانية ، واختلافها في الاسترسال والتوحيد عن الطبيعة العربية . والمدقق في درس شعره يجد هذا الحكم العام صحيحاً في بعض قطع خاصة ، أو بعض أجزاء من القصائد لا في القصائد عموماً ، كوصفه للمشيب أو للحزن أو لمشقة السفر أو للمهارة في لعب الشطرنج وما شاكل . وليس من الضروري ان يكون ذلك راجعاً الى « يونانية » تميزه عن سائر الشعراء ، ففي الشعر العربي قديماً وحديثاً أمثلة كثيرة على اتصال الفكر في قطع تطول أو تقصر بالنسبة الى الاحوال . خذ قصيدة عمر بن أبي ربيعة « أمن آل نعم » ، أو مرثاة أبي ذؤيب « أمن المنون » ، أو وصف الإيوان للبحتري ، أو وليمة ابن الواساني : بل خذ كثيراً من خمريات أبي نواس وما أشبهها من الكلام المتصل الفكر الذي تجده في كل الاعصر الأدبية ، ولا سيما في عصرنا الحاضر ، تجد أن ابن الرومي لم ينفرد في ذلك ، وليس في شعره ما يدفعنا إلى القول بطبيعة تخالف طبائع معاصريه . واليك مثلاً قصيدته في علي بن يحيى المنجم ومطلعها :

شاب رأسي ولات حين مشيب　　　وعجيب الزمان غير عجيب

وهي ١١٧ بيتاً . منها ثلاثون في وصف المشيب والخضاب ونظر الغواني اليها ، وبقية القصيدة في الممدوح يعدد فضائله من كرم ودهاء وسمو وشجاعة وما شاكل من المناقب الرفيعة . وإذا درستها لا تراها تختلف عن مدائح عصره من حيث الاسلوب والتفنن في ضروب الوصف والمدح ، بل

---

١ ابن الرومي للعقاد ٣٠٨ .

تستطيع ان تقتطع منها ما شئت من الأبيات وتبقى القصيدة تامة المعنى . وما يصدق على هذه القصيدة يصدق على قصيدته في عبيد الله بن عبد الله ابن طاهر :

صبا من شاب مفرقه تصابي   وان طلب الصبا والقلب صاب

وهي ١٧٥ بيتاً خصص منها نحو ٧٠ بيتاً للشيب وتذكارات الشباب ، وساق الباقي في مدح الممدوح على الطريقة المتبعة عند الشعراء . وكذلك القصيدة التي يهنئه فيها بعيد المهرجان وهي تقرب من ١٣٠ بيتاً وتختلف بين وصف يوم العيد وتعداد فضائل الممدوح وآله ، وغير ذلك من سائر مطوّلاته كمرثاته لأبي الحسين يحيى بن عمر العلوي وهي ١٠٩ أبيات ومطلعها :

أمامك فانظر أيّ نهجيك تنهج   طريقان شتى مستقيم وأعوج

وقصيدته في أحمد بن ثوابة – دع اللوم ان اللوم عون النوائب – وهي ١٨٢ بيتاً ، ورثاؤه لأهل البصرة – ذاد عن مقلتي لذيذ المنام – وهو ٨٣ بيتاً ، وعتابه لأبي القاسم التوزي – يا أخي أين ريع ذاك اللقاء – في ١٦٨ بيتاً ، وقصيدته في القاسم بن عبيد الله – أيها القاسم القسيم رواء – وتبلغ ٢١٦ بيتاً ، وغير ذلك من عيون قصائده . في كل هذه القصائد تجد بعض القطع التي تستقل بوحدة فكرية ولكنك لا تجد القصائد عموماً تختلف عن أمثالها في دواوين الشعراء ، لا من حيث استقلال الأبيات ، ولا من حيث اتساق الافكار . ولا نرى علمياً ما يؤيد القول بتأثير النزعة اليونانية في أدبه . وقد حاول الاستاذ العقاد أن يجمع بين النظرين فجعل العبقرية اليونانية فيه أدبية لا نسبية ، أو كما قال : « انها كلمة مفهومة في لغة الآداب وإن لم تكن مفهومة في لغة الانساب[1] » .

---

١ ابن الرومي للعقاد ٣٠١ – ٣٠٢ .

مزاياه الفنية

وإنما يمتاز شعره بما يلي :

١ – طول النفس مع المحافظة على السلاسة عموماً .

٢ – استيفاء المعنى وتقصّي كل ما يقال فيه .

٣ – دقة الاحساس بالمؤثرات الطبيعية .

٤ – ميله إلى تشخيص ما لا يعقل .

أما طول النفس فقد أشرنا اليه سابقاً ، ونريد به مقدرة الشاعر على الاسهاب في النسج دون تعب أو تكلف ظاهر . فإنك لا ترى لشاعر عربي ما تراه لابن الرومي من كثرة المطوّلات التي تتجاوز المئة والمئة والخمسين بيتاً ، وأكثرها حسن السبك كثير الالوان المعنوية . وبديهي ان تجد في مطولات كهذه بعض الحشو والتكرار وشيئاً من السفسفة ، ولكنها عموماً تدل على غزارة مادّته اللغوية وعلى مهارته في استخدام الألفاظ لمعانيه . فهو فيّــاض كثير الاطناب والمراجعة بعيد المدى في ميدان النظم ، ولكنه لا يصل الى آخر مداه منهوكاً مقطوع النفس ، ولا نشعر في شعره بتكلف مضنٍ أو جهاد عنيف .

على ان الاطالة لا تؤمن أحياناً ، فقد تضطر صاحبها الى استعمال غرائب الصيغ والالفاظ محافظة على وزن أو معنى ، ولا سيما إذا كان واسع الاطلاع في اللغة كشاعرنا ابن الرومي . واثباتاً لذلك نذكر هنا بعض ما اخترنا من غرائب ديوانه مع الاشارة الى مواطن كل لفظة ليسهل الرجوع اليها ، وليس الذي نثبته هنا الا قليلاً من كثير مما يرد في ديوانه :

موزجرَهي	ديوان ابن الرومي لشريف حسن	ج ١	– ١١
حظي دون اللفاء (الخسيس)	»	»	– ٢٧
مريغو نداه (طالبوه)	»	»	– ١١٠

لازب الجرب (لازم العيب) لشريف حسن ج ١ — ٢٠٢
خمر ثِلب (قديمة) » » — ٢٣٧
كروب وذباذب (اضطرابات) » » — ٢٩٤
مقفعلّ الرواجب (متشنج الاصابع) » » — ٢٧٥
نعمة ترتُب (مقيمة) » » — ٣١٧
مرِث (حليم) » » — ٣٢١
عسل اللصاب (عسل الجبال) » » — ٣٧٨
القفد (صفع القفا) » » — ٤١٠
السخاب (القلادة) » » — ٤٤٥
شتيم الوجه (كريه) مختارات الكيلاني — ٥٨
يومان ارونان (عصيبان) » — ٨٥
للدهر منجنون (دولاب) » — ١٢٠
اكفّ ضوابث (نواشب) » — ١٧١
الزوش (العبد) » — ٢٠٤
ألبُك الالب (جمعك المحتشد) » — ٢٥١
ابريق ردوم (سائل) » — ٣٩١
كدنتي تتخدد (سمني يهزل) » — ٣٩٢
هل من عندد (اي بد) » — ٣٩٣

ويكثر في مطولاته الروابط الكلامية يأتي بها ليربط ما تقدم بما تأخر ، ولا يستحسن ذلك في الشعر . ومن هذه الروابط ما يلي :

مع انه — لم لا — لا سيا — بل — كيا — غير ان — وظني انه — لذاك هذا — على انني — مع — واعلم — هكذا — برهان ذلك — وذاك ان — الخ [١] .

---

[١] راجع شرح محمد شريف ج ١ — ١٥١ — ١٦٥ — ١٧٤ — ١٨٥ — ١٩٩ — ٢٥١ — ٢٧٥ — ٣٢٨ — ٣٣٦ — ٣٨٦ — ٤١٩ — ٤٦٢ ومختارات الكيلاني ٨٤ — ٤٧١ — ٤٨٥ .

ومع تمكن ابن الرومي من شوارد اللغة لا يأنف أحياناً من استعمال بعض الالفاظ الاعجمية . وهي ان جاز استعمالها في المباحث العلمية لا تستحسن في الشعر وما اليه من الكلام الفني كاستعماله الالفاظ التالية :

آيين – في قوله « اعجمي آيينه عربي » أي عاداته ودأبه .

شير – في قوله « اعني سليمان الذي في رمسه قمر وشير » وهي الأسد في الفارسية .

زرياب[1] – في قوله « وتهاويل من سندس ومن زرياب » أي مـــاء الذهب .

الدوشاب[2] – في قوله « علني احمد من الدوشاب » أي النبيذ الاسود .

الكوش – في قوله « يا أصلم الكوش هاك ضامنة جدع انوف وصلم أكواش » والكوش هي الاذن في الفارسية .

وأمثال ذلك من الالفاظ التي كان يتملّح بها على عادة بعض الشعراء في ذلك الزمان[3] .

استيفاء المعنى وتقصي الأغراض

قـــال ابن خلكان : « هو صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكامنها ويبرزها في أحسن صورة ، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ولا يبقي فيه بقية[4] » . وقد سبقه ابن رشيق فقال : « وكان ابن الرومي ضنيناً بالمعاني حريصاً عليها يأخذ المعنى الواحد ويولّده ، فلا يزال يقلّبه ظهراً لبطن ويصرفه في كل وجه وإلى كل ناحية ، حتى يميته ويعـــلم انه لا مطمع منه لأحد[5] » ، وهما مصيبان .

---

١ و ٢ ويجوز استعمال هذين اللفظين إذا أصبحا علماً – كالكنياك مثلاً .

٣ البيان والتبيين – ٦١ .

٤ وفيات الاعيان ١ – ٤٩٩ .

٥ العمدة ٢ – ٨٥ .

واليك بعض الأدلة على ذلك من شعره :

١ - في معاتبته لأبي القاسم التوزي الشطرنجي يذكر هنوات ذلك الصديق ، وان الحاجة كشفت له عنهنّ ، ويجري بينه وبينهن محاورة لطيفة يقول فيها :

ليتني ما هتكت عنكنّ ستراً فثويتنّ تحت ذاك الغطاء
قلن لولا انكشافنا ما تجلّت عنك ظلماء شبهة قتماء
قلت أعجِب بكنّ من كاسفات كاشفات غواشي الظلماء
قد أفدتـنّني مع الخُبر بالصاحب انْ ربّ كاسف مستضاء
فلن أعجب بمهتدٍ يتمنى انه لم يزل على عمياء
كنت في شبهة فزالت بنا عنك فأوسعتنا من الإزراء
وتمنيت ان تكون على الحيرة تحت العماية الطخياء
قلت تاللهِ ليس مثلي من ودّ ضلالاً وحيرة باهتداء
غير اني وددت ستر صديقي بدلاً باستفادة الأنباء
قلنَ هذا هوى فعرّج على الحق وخلّ الهوى لقلب هواء
ليس في الحق ان تودّ لخلٍّ أنه الدهر كامن الأدواء
بل من الحق ان تنقّر عنهنّ والاّ فأنت كالبعداء
ان بحث الطبيب عن داء ذي الداء لأسّ الشفاء قبل الشفاء
دونك الكشف والعتاب فقوّم بهما كل خلّة عوجاء

وهذه المحاورة تكشف لك عن فن ابن الرومي وميله إلى البحث المستفيض وتقصّي كل معنى من الغرض الذي يرمي اليه . وفي هذه القصيدة نفسها يمدح صديقه بالمهارة في الشطرنج فيذهب في الوصف كل مذهب كقوله :

غلط الناس لست تلعب بالشطرنج لكن بأنفس اللعباء
لك مكر يدبّ في القوم أخفى من دبيب الغذاء في الأعضاء
أو مسير القضاء في ظلَم الغيب إلى من يريده بالتواء

وعلى هذا النحو يصف لعبه في نحو عشرين بيتاً يتفنن في معانيها ما شاء، وكلها شاهد على تدقيقه في أغراضه ومحاولته بلوغ الغاية منها.

٢ – ذكر السفر ومشاقه وما لاقاه من ذلك برّاً وبحراً في قصيدة يمدح بها أحمد بن ثوابة وقد أجاد فيها كل الاجادة. واليك شيئاً منها مثالاً لما نحن بصدده من تدقيقه وتقصّيه، قال:

أذاقتنيَ الأسفارُ ما كرّه الغنى ... إليّ وأغراني برفض المطالب
ومن نكبة لاقيتها بعد نكبة ... رهبتُ اعتساف الأرض ذات المناقب
وصبري على الإقتار أيسر محملاً ... عليّ من التغرير بعد التجارب

ثم يصف ما لاقاه من أهوال البر إبّان الشتاء من مطر وبرد وثلج وصفاً في غاية الدقـّة، نذكر منه هنا وصف حاله وقد اضطر الى المبيت في خان:

فملت إلى خان مُرثٍّ بناؤه ... مَميلَ غريقِ الثوب لهفانَ لاغبِ
فلم ألق فيه مستراحاً لمتعب ... ولا نُزُلاً، ايّان ذاك لساغب؟
فما زلت في خوف وجوع ووحشة ... وفي سهر يستغرق الليل واصب
يؤرقني سقف كأني تحته ... من الوكف تحت المدجنات الهواضب
تراه إذا ما الطين أثقل متنه ... تصرّ نواحيه صرير الجنادب

وبعد ان يستوفي وصف الخان وهول السفر في الشتاء يصف متاعب القيظ في الصحراء في اثني عشر بيتاً، ثم يتناول أهوال البحر. يقصد (دجلة) إذا هبت الريح وطفت غوارب الماء، ويحوك ذلك حوكاً دقيقاً في ستة وعشرين بيتاً نذكر منها ثلاثة يردّ بها على من لا يرى في دجلة ما يراه المسافر في البحر من خطر أو متاعب فيقول:

لدجلة خبّ ليس لليمّ انها ... ترائي بحلم تحته جهل واثب
تطامنُ حتى تطمئنّ قلوبنا ... وتغضب من مزح الرياح اللواعب

زلازلُ موج في غمار زواجر	وهوّات خسف في شطوط خوارب
وللـيمّ أعذار بعرض متونه	وما فيه من آذيّه المتراكب
ولست تراه في الرياح مزلزلاً	بما فيه إلاّ في الشداد الغوالب

٣ – وصف الشيب وأيام الصبا وذلك كثير في ديوانه ، نجتزىء هنا بما جاءَ منه في قصيدة تبلغ ١٧٥ بيتاً قالها في عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وخصص منها نحو سبعين بيتاً في هذا الغرض الخاص . من هذه السبعين ١٩ بيتاً في وصف الشيب ووجوب الترحيب به لأنه يبشّر بلحاق الماضي كقوله :

وقلت مسلّماً للشيب أهلاً	بهادي المخطئين الى الصوابِ
ألست مبشّري في كل يوم	بوشك ترحّلي اثر الشباب
لقد بشّرتني بلحاق ماضٍ	أحبّ اليّ من برد الشراب
فلست مسمّياً بشراك نعياً	وان أوعدت نفسي بالذهاب
وأنت وان فتكت بحبّ نفسي	وصاحب لذّتي دون الصحاب
فقد أعتبتني وأمتّ حقدي	بحثّك خلفه عجلاً ركابي

و ١١ بيتاً في ذكر أيام الحداثة وموقف الغانيات بين أمس واليوم . و ٤٠ بيتاً يصف فيها ما يذكره بالشباب من جمال الحسان ومن جمال الطبيعة – ما فيها من مياه وجنان وسحاب وبروق ورياح – وصفاً لا يترك فيه زيادة لمستزيد يختمه بقوله :

فيا أسفاً ويا جزعاً عليه	ويا حزناً الى يوم الحسابِ
أأفجع بالشباب ولا أعزّى	لقد غفل المعزّي عن مصابي
تفرّقنا على كره جميعاً	ولم يك عن قلى طول اصطحاب
وكانت أيكتي ليد اجتناء	فعادت بعده ليد احتطاب

ثم يقول :

لبستك برهةً لبس ابتذال	على علمي بفضلك في الثيابِ

ومن يراجع هذه السبعين بيتاً ويتأمل توفـّر الشاعر على تقصّي المعاني وتدقيقه في رسم ظلالها ، ينكشف له ما قصد اليه ابن خلكان اذ قال « لا يبقي في المعنى بقية » .

ولما كان ابن الرومي بطبيعته دقيق الاحساس كان من الطبيعي ان نراه يجيد في وصف الالوان والاصوات ويفتنّ بها ما شاءت قريحته ، وله في ذلك لطائف تعد من أجمل ما في الباب من الشعر العربي .

ويمتاز بالباسه الجماد حياة وبنقل غير العاقل الى مصاف العقلاء ، وهو ما يسمونه بالتشخيص أو المجاز المرسل . ومن ذلك حديثه مع هنوات صديقه (وقد مر في كلامنا على قصيدته « ايها القاسم القسيم رواء ») ، ومخاطبته للمشيب والشباب والبين والكساء ، وانطاقه الطيور والنسائم ، ونسبته التفكر الى الشمس والندى والأغصان ، مما سترى الامثلة عليه في المختار من شعره . ولم يتفرد ابن الرومي بذلك ، ولكنّ له فيه ما يلفت النظر ويجعله في مقدمة الوصافين . ومـمـا يلفت النظر أيضاً في شعره حسن اختراعه ، وقد تحمس له ابن رشيق فقال : « اما ابن الرومي فأولى الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه وحسن افتنانه [1] » . وفي موضع آخر يقرنه بأبي تمام ويقول : انهما أكثر المولدين اختراعاً فيما يقول الحذّاق [2] » .

ويراد بالاختراع كما ذكرنا في غير هذا المقام بدائع التشبيه والتمثيل والاستعارة ، كقوله وقد رأى رجلاً يقلي الزلابية فوصفه ووصف عمله :

رأيته سحراً يقـلي زلابية ... في رقة القشر والتجويف كالقصبِ
كأنما زيته المقليّ حين بدا ... كالكيمياء التي قالوا ولم تصب
يُلقي العجين لـُجيناً من أنامله ... فيستحيل شبابيكاً من الذهب

١ العمدة ١ – ١٩٤ .
٢ العمدة ١ – ١٧٧ .

وقال يصف قوس السحاب :

وقد نشرت ايدي الجنوب مطارفاً   على الجوّ دُكناً والحواشي على الارضِ
يطرّزها قوس السحاب بأخضرٍ   على احمرٍ في اصفرٍ إثر مبيضّ
كأذيال خَودٍ اقبلت في غلائل   مصبّغة والبعض اقصر من بعض

ومن أقواله الجميلة يذكر أيام الشباب واننا لا نعرف قيمتها إلا متى ولت :

لسنا نراها حق رؤيتها   الاّ زمان الشيْب والهرم
كالشمس لا تبدو فضيلتها   حتى تغشّى الارض بالظلم
ولربّ شيء لا يبيّـــنه   وجدانه الا مع العدم

ومثل ذلك قوله في ذم الدهر وانه يعلي الاسافل :

دهرٌ علا قدرُ الوضيع به   وترى الشريف يحطّه شرفه
كالبحر يرسب فيه لؤلؤهُ   سفلاً وتعلو فوقه جيفه

وله في الحكم باع طويلة ، فان دقة نظره لا تنحصر في الوان الطبيعة والحياة بل تتناول ايضاً العواطف وعلاقات الناس بعضهم ببعض . وهو يجاري في ذلك كبار الشعراء ، كقوله :

اذا ما كساك الله سربال صحّة   ولم تخلُ من قوت يحلّ ويعذب
فـــلا تغبطنّ المترفين فانهم   على حسب ما يكسوهم الدهر يسلب

وقوله :

خليليّ قد علـّلتمانيَ بالامى   فانعمتما لـــو انني اتعلـّلُ
وما راحة المرزوء في رزء غيره   ايحمل عنه بعض ما يتحمّلُ ؟

وقوله :

فلا تتكل الا على ما فعلته   ولا تحسبنّ المجد يورث بالنـّسبْ

فليس يسود المرء إلاّ بنفسه   وان عدّ آباء كراماً ذوي حسب

وحكمه كثيرة وهي تعكس لنا في الغالب حياته وتأثير بيئته فيه .

* * *

أما أكثر ديوان ابن الرومي ففي المديح والهجاء والعتاب والوصف ، على ان له في باب الرثاء بضع قصائد جيدة . منها مرثاة في ابنه الأوسط هي من أرق ما فاضت به عواطف والد على ولد عزيز . قال في مطلعها يخاطب عينيه :

بكاؤكما يشفي وان كان لا يجدي   فجودا فقد اودى نظيركما عندي
توخّى حِمام الموت اوسط صبيتي   فلله كيف اختار واسطة العقد
طواه الردى عني فأضحى مزاره   بعيداً على قرب قريباً على بعد

ثم يأخذ بوصف الداء الذي أصاب ولده ، وما كان له من التأثير فيه ، ويشرح لنا العواطف الابوية المتألمة شرحاً يحرك اوتار القلوب . وانك لترى شدّة ألمه ودقة تصويره في قوله يخاطب الفقيد :

محمد ما شيءٌ تُوهّم سلوةً   لقلبي الا زاد قلبي من الوجد
ارى اخويك الباقيين كليهما   يكونان للاحزان أورى من الزند
إذا لعبا في ملعب لك لذّعا   فؤادي بمثل النار من غير ما قصد

والقصيدة كلها من هذا النمط البليغ الذي يشهد لشاعرنا برقة الشعور ودقة الفن . وتجد معظمها في باب المختارات .

* * *

والخلاصة ان ابن الرومي دقيق شديد الانفعال ، عصي المزاج الى حد الخروج عن جادة الرشاد . ومن هنا غرابة أطواره ، وفشله في الحصول على رغائبه ، وعدم قدْر جيله لفنه ومواهبه .

المختار من شعر ابن الرومي

طبيعة شديدة الانفعال في شعرٍ بعيد المدى كثير الالوان : تقرأه فيرتسم لك مـــا في نفس ناظمه من ولـَهٍ في الحياة ومرارة لفقد أطايبها ، مقرونين بإسراف في العاطفة يـــدفعه احياناً الى درجة الشذوذ .

ذكرى الشباب

من قصيدة في عبيد الله بن عبد الله

كفى بالشيب من ناهٍ مُطاعٍ ... على كَرهٍ ومن داعٍ مجاب
حططت الى النهى رحلي وكلّت ... مطيّة باطلي بعد الهباب [1]
وقلتُ مسلّماً للشيب : أهلاً ... بهادي المخطئين الى الصواب
الست مبشّري في كل يوم ... بوشك ترحّلي إثر الشباب ؟
لقد بشّرتني بلحاق ماض ... احبّ إليّ من برد الشراب
فلست مسمّياً بشراك نعْياً ... وان اوعدت نفسي بالذهاب
لك البشرى وما بشراك عندي ... سوى ترقيع وهيك بالخضاب

---

١ الهباب : النشاط والسرعة .

وانت وان فتكت بحِبٍّ نفسي | وصاحب لذّتي دون الصحابِ [1]
فقد أعتبتني ، وامتّ حقدي | بحثّك خلفه عَجِلاً ركابي [2]
اذا الحقتني بشقيق عيشي | فقــد وفّيتني فيه ثوابي
وحسبي من ثوابي فيه أني | واياه نئوب الى مآب
لعمرك ما الحياة لكل حيّ | اذا فقد الشباب سوى عذاب
فقل لبنات دهري فلتُصبني | اذا ولّى ، باسهمها الصّياب
سقى عهدَ الشبيبة كلُّ غيثٍ | اغرّ مجلجلٍ داني الرّباب [3]
ليالي لم أقل : سقياً لعهد | ولم ارغب الى سُقيا سحاب [4]

* * *

يذكّرني الشبابَ هوانُ عتبي | وصدّ الغانيات لدى عتابي [5]
يذكرني الشبابَ سهامُ حتفٍ | يُصبن مقاتلي دون الإهاب
رمت قلبي بهنّ فأقصدته | طَلوعُ النّبل من خلل النقاب [6]
فراحت وهي في بالٍ رخيٍّ | ورحت بلوعة مثلِ الشهاب
وكلّ مبارز بالشيب قِرناً | فسبيّ لعمرك غير ساب

* * *

يذكرني الشبابَ جنانُ عدْنٍ | على جنبات انهارٍ عذابِ
تفيّىء ظلّها نفحاتُ ريحٍ | تهزّ متون اغصانٍ رطاب [7]
اذا ماست ذوائبها تداعت | بواكي الطير فيها بانتحاب
يذكرني الشبابَ وميض برقٍ | وسجعُ حمامة وحنين ناب [8]

---

١ و ٢ وانت وان ذهبت بحبيبي او صاحبي فقد ارضيتني بأنك تدفعني الى اللحاق به عاجلاً .
٣ و ٤ سقى عهد الشبيبة كل مطر كثير الرعد داني السحاب – ذلك العهد الذي لم اكن اهتم بسواه ولم اشعر فيه بحاجة ما .
٥ يذكرني ايام الشباب عدم اهتمام الغانيات اليوم بي .
٦ طلوع النبل الخ اي حسناء تكثر رمي النبل من وراء النقاب .
٧ تفيء ظلها اي تحركه .
٨ الناب الناقة .

فيـــا اسفاً ويا جزعاً عليه ويا حـــزناً الى يوم الحسابِ
أأفجَع بالشباب ولا أعزّى ؟ لقد غفل المعزّي عن مصابي
تفرّقنا على كرهٍ جميعاً ولم يك عن قلىً طول اصطحاب
وكانت أيكتي ليد اجتناءٍ فعادت بعده ليد احتطاب [1]

* * *

ايا بُرد الشباب ، لكنت عندي من الحسنات والقِسَم الرّغاب
بَليتَ على الزمان ، وكل بُرد فبين بلى وبين يـــد استلاب
وعزّ علي ان تبلى وابقى ولكنّ الحوادث لا تحابي
لبستك برهة لبس ابتذال على علمي بفضلك في الثياب
ولو مُلـّكتُ صونك فاعلمنْه لصنتك في الحريز من العياب [2]
ولم ألبسك الا يوم فخرٍ ويوم زيارة الملـــك اللـُّباب
عُبيد الله قرمٍ بني زريقٍ وحسبك باسمه فصل الخطاب

الى ان يقول له :

اظلّ سحابُ عُرفك كل شيء ودرّ على البلاد بلا عصاب [3]
سواي فانني عنه بظهرٍ كأني خلفَ منقطع التراب [4]
تشير إليّ بالمحروم ايـــدٍ كايدي الناس في يوم الحصاب [5]
تطاول بي انتظار الوعد جدّاً وريب الدهر يؤذن بانشعاب

* * *

افكـّر في نصابٍ انت منه فيُغلـَق دون عذرك كل باب
الستَ المرَء لا عزمٌ كهامٌ ولا بخلٌ اليه بذي انتساب

---

١ الايكة الشجرة كنى بها عن الحياة فقال وكانت حياتي مثمرة فأصبحت الآن يابسة .
٢ العياب خزائن الثياب .
٣ بلا عصاب أي عفواً دون ان يطلب . والعرف المعروف .
٤ لم يصبني غيث معروفك كأني كنت في الطرف الذي ينقطع عنده المطر .
٥ أي يشير الي الناس بأيديهم ويقولون « محروم » من الحظ . وقد شبه كثرة المشيرين اليه بأيدي الناس يوم رمي الحجارة بمنى (في الحج) .

فعشْ في غبطة ونعيم بال ... وملك لا يخاف يد اغتصابِ

ومنها :

وليس لأنني سُدّت سبيلي ... ولا عَجز اصطرافي واصطحابي
تعالت هضبتي عن كل سيل ... وفاتت نبعتي نضخ الذئاب [1]
فليس ينالني إلّا مثيلٌ ... يُطلّ عليّ إطلال السحاب
ولو اني قطعت الارض طولاً ... لكان اليك من بعدُ انقلابي

وقال مادحاً علي بن المنجم

شاب رأسي ولات حين مشيبِ ... وعجيبُ الزّمان غير عجيبِ
قد يَشيب الفتى وليس عجيباً ... ان يُرى النـّور في القضيب الرطيب
ساءَها ان رأت حبيباً اليها ... ضاحك الرأس عند مفارق شيب
فدعته الى الخضاب وقالت ... ان دفن المَعيب غير مَعيب
خضبت رأسه فبات بتبريحٍ ... واضحى فظــــلّ في تأنيب
ليس ينفكّ من ملامة زارٍ ... قائلٍ بعد نظرَتي مستريب
ضِلـّةً ضلةً لمـــن وعظته ... غِيَرُ الدهر وهو غير مُنيب
عاجزٍ واهن القوى يتعاطى ... صِبغةَ الله في قناع المشيب [2]
رام اعجاب كل بيضاء خودٍ ... بسواد الخضاب ذي التعجيب
فتضاحكن هازئات وماذا ... يُونق البيض من سوادٍ جليب [3]
يا حليف الخضاب لا تخدع النفس فــما انت للصّبا بنسيب
فاتخذه على الشباب حداداً ... وابكِ فيه بعبرة ونحيب

* * *

---

١ اقصدك لا لأنه قد سدت في وجهي سبل الرزق فاني كريم النفس اتعالى عن الاسافل ، وقد عبر عن ذلك بقوله (تعالت هضبتي عن السيول ونبعتي عن رش الدلاء) .

٢ اي ضعيف يتناول الصبغة يستر بها مشيبه مظهراً انها اللون الطبيعي الذي خلقه الله .

٣ جليب اي مجلوب مصطنع .

وفتاةٍ رأت خضابي وقالت عزّ داءُ المشيب طبّ الطبيبِ
خاضبُ الشيب في بياض مبينٍ حين يبدو وفي سوادٍ مريب
ليس تنقاد غادةٌ لهواه وهو ينقاد كانقياد الجنيب [1]
ظلمتني الخطوبُ حتى كأني ليس بيني وبينها من حسيب
سلبتني سواد رأسي ولكن عوّضتني رياش كل سليب
عوّضتني اخا المعالي علياً عوَضٌ فيه سلوةٌ للحريب
يستغيث اللهيفُ منه بمدعوٍّ لدى كل كربةٍ مستجيب
يتلقّى المدّفعين عـــن الابواب بالبشر منه والترحيب
غرّبتْه الخلائق الزّهر في النا س وما اوحشته بالتغريب
ما سعى والسعاة للمجد الا سبق المُحضرين بالتقريب [2]
من رآه رأى شواهد تُغني عن سماع الثناء والتجريب
لوذعيّ له فؤاد ذكيّ ما له في ذكائه من ضريب
يقظٌ في الهَنات ذو حركات لسكون القلوب ذات الوجيب [3]
ألمعيٌّ يرى باولّ ظـــنّ آخر الامر من وراء المغيب
ثابت الحال في الزلازل منهالٌ لسؤّاله انهيال الكثيب
ليّنٌ عطفه فان ريم منه مكسر العود كان جِدّ صليب
احسنت وصفه مساعيه حتى افحمت كل شاعر وخطيب
يمّمته بنا المطايا فافضت من فضاء الى فضاء رحيب
بأبي انت من جليل مَهيبٍ مطلبُ العَرف منه غير مهيب
اعجز الطالبيك شأوٌ بعيدٌ لك ادركته بعُرف قريب
هاكها مدحةً تغنّى بها الركبانُ ما ارزمت روائمُ نيب [4]

١ الجنيب ما يقاد من الركاب .
٢ اي ما سعى هو وواحد الى المجد الا وسبق بتقريبه جري منافسه السريع .
٣ اي انه لدى الخطوب يقظ تتحرك همته بما يسكن اضطراب القلوب .
٤ اي ما حنت النياق الى اولادها .

نظم الفكر درّها غير مثقو ... بِ اذا الدرّ شينَ بالتثقيبِ
يطرب السامعين ايسر ما فيها ... وان أُنشدت بلا تطريب
منك جاءَت اليك يحدو بها ... الودّ على رغبة بلا ترغيب

رثاء ابنه الاوسط

بكاؤكما [1] يشفي وان كان لا يجدي ... فجودا فقد اودى نظيركما عندي
ألا قاتل الله المنايا ورميها ... من القوم حبّات القلوب على عمد
توخّى حِمام الموت اوسط صبيتي ... فللهِ كيف اختار واسطة العقد !
على حين شِمت الخير من لمحاته ... وآنست من افعاله آية الرشد
طواه الردى عني فاضحى مزاره ... بعيداً على قربٍ قريباً على بعد
لقد انجزت فيه المنايا وعيدها ... واخلفت الآمال ما كان من وعد
لقد قلّ بين المهد واللحد لُبثه ... فلم ينس عهد المهد إذ ضُم في اللحد [2]
الحّ عليه النزفُ حتى احاله ... الى صُفرة الجاديّ عن حمرة الورد [3]
وظلّ على الايدي تساقطُ نفسه ... ويذوي كما يذوي القضيب من الرند
فيا لك من نفسٍ تساقط انفسا [4] ... تساقط درٍّ من نظام بلا عقد

* * *

عجبت لقلبي كيف لم ينفطر له ... ولو أنّه أقسى من الحجر الصلد
وما سرّني ان بعته بثوابه ... ولو أنه التخليد في جنة الخلد
ولا بعته طوعاً ، ولكن غُصبته ... وليس على ظلم الحوادث من مُعد

* * *

واني وان مُتّعت بابنيّ بعده ... لذاكره ما حنّت النيبُ في نجد [5]

---

١ يخاطب عينيه .
٢ اي انه مات صغيراً .
٣ كثر عليه نزف الدم حتى احال لونه الوردي الى اصفرار الزعفران .
٤ فيا لك من نفس تذوي فتذوي معها نفوس كثيرة .
٥ النيب النياق . اي وان كان لي باخويه سلوة فاني سأذكره دائما وسأتوجع لذكراه .

واولادنا مثل الجوارح[1]، أيّها فقدناه كان الفاجعَ البيّن الفقدِ
لكلٍّ مكانٌ لا يسدّ اختلاله مكانُ أخيه من جَزوع ولا جَلد
هل العين بعد السمع تكفي مكانه ام السمع بعد العين يهدي كما تهدي
لعمري لقد حالت بي الحال بعده
فيا ليت شعري كيف حالت به بعدي
ثكلتُ سروري كله اذ ثكلته وأصبحت في لذات عيشي اخا زهد

* * *

أريحانة العينين والانف والحشا
ألا ليت شعري هل تغيَّرتَ عن عهدي ؟
سأسقيك ماء العين ما أسعدت به
وان كانت السقيا من الدمع لا تجدي
أعينيّ جودا لي، فقد جدت للثرى بأنفسَ مما تُسألان من الرفد[2]
كأنيَ ما استمتعت منك بضمّة ولا شَمّةٍ في ملعب لك أو مهد
ألام لما أبدي عليك من الأسى واني لأخفي منه أضعاف ما أبدي

* * *

محمدُ ما شيءٌ تُوُهِّم سلوة لقلبيَ، الا زاد قلبي من الوجد[3]
أرى اخويك الباقيين كليهما يكونان للاحزان اورى من الزند
إذا لعبا في ملعب لك لذّعا فؤادي بمثل النار عن غير ما قصد
فما فيهما لي سلوة بل حرارة يهيجانها دوني وأشقى بها وحدي
وانت وان أفردتَ في دار وحشة فاني بدار الأنس في وحشة الفرد
عليك سلام الله مني تحيّةً ومن كل غيثٍ صادق البرق والرعد

---

١ الجوارح اعضاء الجسم .

٢ الرفد العطاء .

٣ في هذه الابيات وما بعدها يقول يا محمد ما من شيء يحسبونه سلوة إلا ويزيدني حزناً على حزن . انظر الى اخويك الباقيين فاذكرك في كل من حركاتهما ويشتد لذلك اضطرام الاسى في نفسي فأنت وان كنت وحيداً في القبر فاني بين الناس وحيد بآلامي .

من رثائه لأبي الحسين يحيى بن عمر العلوي[1]

أمامك فانظر أيّ نهجيك تنهج　　طريقان شتى ، مستقيم واعوجُ
ألا أيّهذا الناس طال ضريركم　　بآل رسول الله فاخشَوا او ارتجوا
أكلّ أوان للنبيّ محمد　　قتيل زكيّ بالدماء مضرّج[2]

* * *

بني المصطفى كم يأكل الناس شِلوكم
لبلواكم – عما قليل – مُفرّج
أما فيهم راعٍ لحق نبيّه ؟　　ولا خائفٌ من ربه يتحرّج
أبعد المكنّى بالحسين شهيدكم　　تضيء مصابيح السماء فتَسرج[3]
لنا وعلينا ، لا عليه ولا له　　تسحسح اسراب الدموع وتنسج
وكنا نرجّيه لكشف عماية　　بأمثاله أمثالها تتبلّج

* * *

أيحيى العلى لهفي لذكراك لهفة　　يباشر مكواها الفؤاد فينضج
لمن تستجدّ الارض بعدك زينةً　　فتصبح في أثوابها تتبرّج
سلام وريحان وروح ورحمة　　عليك، وممدود من الظل سجسج[4]
ولا برح القاع الذي انت جاره　　يرفّ عليه الاقحوان المفلّج[5]
ويا أسفي الّا تردّ تحيّة　　سوى أرج من طيب رمسك يأرج
عفاءٌ على دار ظعنت لغيرها　　فليس بها للصالحين معرّج

* * *

ألا أيها المستبشرون بيومه　　اظلّت عليكم غُمّة لا تفرّج

---

١ وهو حفيد حفيد الامام علي وكان قد قام على العباسيين فقتلوه . وفي هذه القصيدة يظهر تشيع الشاعر لآل البيت .

٢ إشارة الى ان القتيل من بيت الرسول .

٣ لسرج تحسن طلعتها .

٤ سجسج اي لا حر فيه ولا قر .

٥ اي لا برح مدفنه يتألق عليه الاقحوان .

أكلّكم امسى اطمأن مهاده	بأن رسول الله في القبر مزعجُ!
كأني به كالليث يحمي عرينه	واشباله لا يزدهيه المهجهج[1]
كدأب عليٍّ في المواطن قبله	ابي حَسَنٍ والغصن من حيث يخرج[2]
كأني أراه - والرماح تنوشه	شوارعَ كالأشطان تُدلى وتخلج[3]
كأني أراه إذ هوى عن جواده	وعُفّر بالترب الجبين المشجّج
فحُبّ به جسماً الى الارض اذ هوى
وحُبّ بها روحاً الى الله تعرُج
اجِنّوا بني العباس من شنآنكم	وأوكوا على ما في العياب وأشرجوا[4]
وخلّوا ولاة السوء منكم وغيّهم	فأحرِ بهم ان يغرقوا حيث لجّجوا
نظارِ لكم ان يرجع الحقّ راجع	الى أهله يوماً فتشجوا كما شُجوا

* * *

بني مُصعبٍ[5] ! ما للنبي وأهله	عدوّ سواكم أفصحوا، و فلجلجوا
واني على الاسلام منكم لخائفٌ	بوائق شتى ، بابها الآن مُرتج
وفي الحزم ان يستدركَ الناس امركم
وحبلهمُ مُستحكم العقد مُدمج
لعلّ قلوباً قد أطلتم غليلها	ستظفر منكم بالشفاء فتُثلَج

البصرة وما حل بها يوم دخلها الزنج[6]

وذلك ٢٥٧ هـ

ذاد عن مقلتي لذيذَ المنامِ	شُغلُها عنه بالدموع السّجامِ

---

١ كأني به في ساحة الحرب كالليث لا يستخفه زجر زاجر

٢ اي هو في شجاعته كجده الامام علي .

٣ تنوشه تطلبه والأشطان الحبال . وتدلى وتخلج اي تمتد وتحرك او ترسل وتجذب .

٤ استروا يا بني العباس بغضكم وشدوا على ما في داخلكم من الحقد .

٥ بنو مصعب من رجال العباسيين .

٦ نشبت هذه الثورة بزعامة علي بن محمد احد المدعين للنسب العلوي وكان قيامه في ايام المكتفي فتفاقم امره واكتسح البصرة وما اليها ولم يتمكن العباسيون ان يخضعوه إلا بعد مشقة طويلة.

ايّ نومٍ من بعد ما حلّ بالبصرة ، ما حلّ من هَنات ٍ عظامِ
اي نومٍ من بعد ما انتهك الزّنج جهـاراً محارم الاسلام
ان هذا من الامور لأمرٌ كاد ان لا يقوم في الأوهام

* * *

لهفَ نفسي عليك ايتها البصـ رة ، لهفاً كمثل لَـهْب الضّرام
لهف نفسي عليك يا قبّة الاسـلام لهفاً يطول منه غرامي
لهف نفسي عليك يا فرضة البلـدان لهفاً يبقى على الاعوام
لهف نفسي لجمعك المتفاني لهف نفسي لعزّك المستضام

* * *

بينا أهلها بأحسن حـال اذ رماهم عبيدهم باصطلام
دخـلوها كأنهم قطَع الليـل إذا راح مدلهمّ الظلام
أيّ هول رأوا بهم أيّ هول! حُقّ منه يشيب رأس الغلام
إذ رموهم بنارهم من يمين وشمال — من خلفهم وأمام
كم اغصّوا من شارب بشراب كم اغصّوا من طاعم بطعام
صبحوهم فكابد القوم منهم طول يوم كأنه ألف عام
ما تذكّرت ما أتى الزنج الا أضرم القلب ايّما اضرام

* * *

عرّجا صاحبيّ بالبصرة الزهـراء تعريج مُدنَف ذي سقام
فاسألاها — ولا جواب لديها لسؤال — ومن لها بالكلام ؟
اين ضوضاء ذلك الخلق فيها اين اسواقها ذوات الزحام ؟
أين فُلك فيها ، وفلك اليها ، منشآتٌ في البحر كالاعلام [1] ؟
أين تلك القصور والدور فيها أين ذاك البنيان ذو الإحكام
بُدّلت تلكم القصور تلالاً من رمادٍ ومن تراب ركام
وخلت من حلولها . فهي قفر ، لا ترى العين بين تلك الإكام

١ إشارة الى انها كانت فرضة عظيمة .

غيرَ أيدٍ وارجلٍ بائنات ٍ نُبذت بينهنّ أفلاق هامِ
ووجوهٍ قد رَمّلتها دماءٌ بأبي تلكم الوجوه الدوامي
وطئت بالهوان والذل قسراً بعد طول التبجيل والإعظام
فتراها تَسفي الرياحُ عليها جاريات ٍ بهبوة ٍ وقتــام
خاشعات ٍ ، كأنها باكياتٌ باديات الثغور ، لا لابتسام

* * *

أيّ خطب ، وأي رزء ٍ جليل نالنا في اولئك الاعمــام
واحيائي منهم – اذا ما التقينا وهمُ ، عند حاكم الحكّام [1]
أي عذر لنا ، واي جواب حين ندعى على رؤوس الانام
« يا عبادي ؟ أما غضبتم لوجهي ذي الجلال العظيم والاكرام
أخذَلتم إخوانكم ، وقعدتم عنهمُ – ويحكم – قعود اللئام ؟ » [2]

* * *

بأبي تلكم العظام عظاما وسقتها السماء صوب الغمامِ
وعليها من المليك صلاةٌ وسلام مؤكــد بسلام
انفروا ايها الكرام خفافاً وثقالاً الى العبيد الطغّام
أبرَموا امرهم ، وانتم نيام ، سوءَةً سوءَةً لنوم النيام [3]
صدّقوا ظنّ اخوة امّلوكم ورجوكم لنوبة الايّام
ادركوا ثأرهم ، فذاك لديهم مثل ردّ الارواح في الاجسام
لم تقرّوا العيون منهم بنصر فاقرّوا عيونهـم بانتقام
انقذوا سَبْيهم – وقلّ لهم ذا ك – حفاظاً ورعيَةً للذمام
عارُهم لازمٌ لكم ، ايها النا س لأن الاديان كالارحام

---

١ اي يوم الحساب امام الله .
٢ هذا البيت وما قبله خطاب من الله للمسلمين ثم يعود الشاعر في كل الابيات التالية يحرضهم على مساعدة اهل البصرة والانتقام لهم من عدوهم .
٣ قضوا امرهم وانتم في غفلة عنهم .

ان قعدتم عن اللعين فأنتم شركاء اللعين في الآثامِ
بادروه قبل الرويّة بالعز م، وقبل الإسراج بالإلجام
لا تطيلوا المقام عن جنة الخلد، فانتم في غير دار مقام
فاشتروا الباقيات بالعرض الاد نى، وبيعوا انقطاعه بالدوام

عتابه لابي القاسم التوزي الشطرنجي

يا أخي أين رَيْعُ ذاك اللقاء؟ أين ما كان بيننا من صفاءِ ؟
أين مصداق شاهدٍ كان يحكي أنـك المخلص الصحيح الاخاءِ
كشفت منك حاجتي هَنَـواتٍ غـُطـّيت برهة بحسن اللقاءِ
تركتني – ولم أكن سيـّىء الظن – أسيء الظنون بالأصدقاءِ [1]

* * *

يا أخي ! هبك لم تهب ليَ من سعـ يك حظـّاً كسائر البخلاءِ
أفلا كان منك ردّ جميـــل فيه للنفس راحة من عناء ؟
يا أبا القاسم الذي كنت ارجو ه لدهري قطعتَ متن الرجاء
لا اجازيك عن غرورك ايّا ي غروراً – وُقيت سوء الجزاء
أنت عيني وليس من حقّ عيني غـَضّ اجفانها على الإقذاء
ما بأمثال مـــا أتيتَ من الامر يحلّ الفتى ذرى العلياء
لا، ولا يكسب الحامد في النا س ولا يشتري جميـل الثناء
ليس مَنْ حلّ بالمحلّ الذي انـ ت به من سماحة ووفـــاء
بَذَل الوعد للأخلّاءِ سمحاً وابى بعد ذاك بذلَ الغـَناء
فغدا كالخلاف [2] يورق للعيـ ن ويأبى الإثمار كل الإباء
يا أخي ! يا أخا الدماثة والرّقة والظـّرف والحجا والدهاء

---

١ أي ان حاجتي اليك كشفت لي فيك عن سيئات جعلتني بعدها أسيء الظن بالاصدقاء .
٢ نوع من شجر الصفصاف .

ربما هالني وحيّر عقـلي اخذك اللاعبـين بالبأساءِ
عن تدابيرك اللطاف اللواتي هنّ اخفى من مستسِرِّ الهباء
بل من السرّ في ضمير محبٍّ أدّبته عقوبة الافشاء
غلط الناس لست تلعب بالشطرنج لكن بأنفس اللعباء
لك مكر يدِبّ في القوم اخفى من دبيب الغذاء في الاعضاء
أو مسير القضاء في ظُلَم الـ غيب الى من يريده بالتواء
أو سُرى الشيب تحت ليل شباب مستحير في لمّة سحماء
دبّ فيها لها ومنها اليها فاكتست لون رثّة شمطاء

* * *

ضلّةً لامرىءٍ يشمّر في الجمع لعيش مشمّرٍ للفناء
دائباً يكنز القناطير للوا رث ، والعمر دائبٌ في انقضاء
يحسب الحظّ كلّه في يديه وهو منه على مدى الجوزاء
ليس في آجل النعيم له حظٌّ ، وما ذاق عاجل النعماء
ذلك الخائب الشقيّ ، وإن كا ن يرى انه من السعداء
حسبُ ذي إربةٍ ورأي جليٍّ نظرت عينه بـلا غُلواء
صحةُ الدين والجوارح والعِر ض وإحراز مُسكة الحوباء[1]

* * *

يا أبا القاسم الذي ليس يخفى عنه مكنون خُطة عَوصاء
أترى كل ما ذكرتُ جلياً وسواه من غامض الانحاء
ثم يخفى عليك اني صديق ربما عزّ مثله بالغلاء ؟
لا لعمر الإله ! لكن تعاشيـ ـت بصيراً في ليلة قمراء
بل تعاميت ، غير اعمى عن الحق نهاراً في ضحوة غراء
ظالماً لي مع الزمان الذي ابتز حقوق الكرام للـلؤماء

---

١ اي حسبه صحة الدين وان يحرز ما يحفظ النفس .

ثقلت حاجتي عليك فأضحت   وهي عبءٌ من فادح الاعباءِ

* * *

ظُلمت حاجتي فلاذت بحقويك   فاسلمتها لكفّ القضاء [1]

وقضاءُ الإله احوطُ للنا   س من الامّهات والآباء

غير ان اليقين اضحى مريضاً   مَرَضاً باطناً شديد الخفاء

* * *

كنتُ مستوحشاً فاظهرتَ بخساً   زادني وحشة من الخلطاء [2]

وعزيز عليّ عضّيك باللو   م ، ولكن أصبتَ صدري بداء

أنت أدويت صدر خلّك فاعذر   ه على النفث ، انه كالدواء [3]

ان تكن لفحة اصابتك من عذ   لي ، فعمّا قدحتَ في الاحشاء

والذي اطلق اللسان فعاتبـ   تُك عدّيك أولَ الفهماء [4]

لم أخفْ منك غلطة حين عاتبـ   تك تدعو العتاب باسم الهجاء

وانا المرء لا أسوم عتابي   صاحباً غير صفوة الاصفياء

ذا الحجا منهم وذا الحلم والعلم — وجهلٌ ملامة الجهلاء

ان من لام جاهلاً لطبيبٌ   يتعاطى علاج داء عَياء

لست ممن يظلّ يربعُ باللوم   على منزل خلاء قواء

في وحيد المغنية

وكان الشاعر يستحسنها ويستحسن غناءَها

يا خليليّ تيّمتني وحيدُ   ففؤادي بها مغنّىً عميدُ

غادة زانها من الغصن قدٌّ   ومن الظبي مقلتان وجيد

---

١ ظلمت حاجتي فتعلقت بك ولكنك نبذتها وتركتها للقضاء .

٢ كنت انا مستوحشاً من الناس فأظهرت لي من بخس حقي ما زادني نفوراً منهم .

٣ ادويت اي امرضت .

٤ والذي أطلق لساني بعتابك اني اعدك أفهم الفهماء .

وزهاها من فرعها ومن الخدّين ذاك السواد والتوريدُ
فهيَ بَردٌ بخدّها وسلام وهي للعاشقين جهدٌ جهيد
ما لما تصطليه من وجنتيها غيرُ ترشاف ريقها تبريد
مثل ذاك الرضاب أطفأ ذاك الـ وجدَ ، لولا الأباءُ والتصريد [1]
وغريرٍ بحسنها قال : صفها قلت : أمران ، بيّنٌ وشديد [2]
يسهلُ القول إنها احسن الاشـ ياءِ طرّاً ، ويصعب التحديد
تتجلى للناظرين اليهـا فشقيٌ بحسنهـا وسعيد
ظبية تسكن القلوب وترعا ها ، وقُمريّة لها تغريد
تتغنّى كأنهـا لا تغنّي من سكون الاوصال، وهي تجيد
لا تراها – هناك – تجحظ عينٌ لك منها ، ولا يدرُّ وريد [3]
من هدوٍّ وليس فيه انقطاع وسجوٍّ ، ومـا به تبليد
مدّ في شأو صوتها نفَسٌ كا فٍ ، كأنفاس عاشقيها مديد
وأرقٌّ الدلال والغنج منـه وبراه الشجا ، فكاد يبيد
فتراه يموت طوراً ويحيـا مستلَذّ بسيطـُـه والنشيد
فيه وشيٌ ، وفيه حليٌ من النغـ م مصوغ يختال فيه القصيد
في هوى مثلها يخفّ حليمٌ راجحٌ حلمه ، ويغوى رشيد
ما تعاطى القلوب إلا اصابت بهواهـا منهنّ حيث تريد
وترُ العزفِ في يديها مضاهٍ وتر الرجف ، فيه سهم شديد
عيبها أنها – إذا غنّت الاحرارَ – ظلّوا وهم لديها عبيد
واستزادت قلوبهم من هواها بـِرقاها ، وما لديهم مزيد

* * *

وحسانٍ عرضْنَ لي ، قلت : مهلاً عن وحيدٍ ، فحقهُـا التوحيد

١ ان مثل ذلك الرضاب يطفىء نار الوجد لولا المنع . والتصريد التقليل .
٢ الغرير المغرور .
٣ لا تراها تتكلف وتجهد نفسها حتى تجحظ عيناها وتمتلىء أوردتها فتنتفخ .

حسنها في العيون حسنٌ جديد فلها في القلوب حب جديدُ

* * *

خُلقت فتنةً ، غِناءً وحسناً ما لهـــا فيهما جميعاً نـديد
فهي نعمى ، يميد منها كبير وهي بلوى ، يشيب منها وليد
لي َ- حيث انصرفت منها - رفيق من هواها وحيث حلّت قعيد
عن يميني ، وعن شمالي ، وقدّا مي ، وخلفي ، فأين عنه أحيد ؟

بعض مقطعاته الحكمية

١

في الناس

عدوّك من صديقك مستفاد فلا تستكثرنّ من الصحابِ
فان الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب
إذا انقلب الصديق غدا عدوّاً مُبيناً ، والامور الى انقلاب
ولو كان الكثير يَطيب كانت مصاحبة الكثير من الصواب
ولكن قلّما استكثرت الا سقطت على ذئاب في ثياب
فدع عنك الكثير فكم كثيرٍ يُعاف وكم قليل مستطاب
وما اللجج المِلاح بمُروياتٍ وتلقى الريّ في النُّطَف العذاب[١]

٢

في الحياة

ان السعيد لمدركٌ دَرَكا وأخو الشقاوة فهو في الدّرَكِ
والشرّ بـين الناس مشترك والخير فيهم غـير مشترَك
وإلى الخمود مآل ذي لهب وإلى السكون مَحار ذي حرك

١ ان لجج البحر مع كثرتها لا تروي وتلقى الري في القليل من المياه العذبة .

وغدا الرجال – على مكانتهم – يتبادرون مطارح الشَّبكِ
والعين تبصر اين حبتّهـا لكنها تعمى عن الشَّرَك

٣

في نفع الشدائد

عرفتُ مقاديرَ الرجال بنكبة أفدتُ بها غُـنْماً وان عُدَّ مغرما
كفاني لـَعمري أيها الناس خبرتي بكم بعد جهلي واغتراري مغنما
ألا طال ما حمّلت قلبيَ ظالماً تكاليفَ من إعظام من ليس مُعظما
فقد حطّها عني الاله بمحنة أراني بها رشدي ، وما زال منعما

٤

في قصر العمر

دهر يشيّع سبتَه احدُه متتابعٌ ، ما ينقضي امدُه
والحال من سعد يساعدنا طوراً ، ونحس معقبٍ نكده
يوم يُبكينا وآونــةً يوم يبكّينا عليه غـــده
نبكي على زمن ومن زمن فبكاؤنا موصولة مـُدَدُه
ونرى مكارهنا مخلّـدةً ، والعمرُ يذهب فانياً عدَدُه
أفلا سبيل إلى تبحبحنا في سرمد لا ينقضي أبده
سكرى شباب لا يعاقبهُ هَرَمٌ ، وعيش دائم رغده
لا خير في عيش تـُخوّننا أوقاته وتغولنا مُدَدُه
يُعطى الفتى الايام ينفقها وقصاصها ان يُقتوى جَلَـده

٥

القناعة بالصحة

إذا ما كساك الله سربال صحة ولم تخلُ من قوت يحل ويعذب

فــلا تغبطنّ المترفين فـــانهم على حسَب ما يكسوهمُ الدهر يسلب

٦

انما المرء بنفسه

وما الحسب الموروث لا درَّ دره بمحتسَب الا بـــآخر مكتسَبْ
إذا العود لم يُثمر – وان كان شعبةً من المثمرات – اعتدّه الناس في الحطب[١]
وانت لعمري شعبة من ذوي العلا فلا ترضَ ان تُعتد من أوضع الشُعب
وللمجـــد قوم ساوروه بانفس كرام ولم يرضوا بأمٍّ ولا بأب
فلا تتكل الا على مـــا فعلته ولا تحسبنّ المجد يورث بالنسب
فليس يسود المـــرء الا بنفسه وان عدّ آباءً كراماً ذوي حسب

٧

حب الوطن

وحبّب اوطان الرجال اليهم مآربُ قضّاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكـّرتهم عهود الصبى فيها فحنـّوا لذلكا

---

١ إذا الغصن لم يثمر عده الناس حطباً ولو كان أصله من شجرة مثمرة .

المتنبي

ابو الطيب احمد بن حسين

٣٠٣ هـ – ٣٥٤ هـ
٩١٦م – ٩٦٦ م

•

مصادر دراسته – نشأته – في حلقة سيف الدولة – في
بلاط مصر – بين العراق وبلاد فارس – مزاياه
الخلقية – عصبيته – شهرته الأدبية –
شخصيته في شعره – أطوار شعره

مصادر دراسته

الوساطة للجرجاني
الفهرست (ليدن) ١٦٩
يتيمة الدهر للثعالبي ج ١ ص ٧٨ – ١٩٤
العمدة لابن رشيق ١ ص ٨٧ – ١٣٣ – ١٤٦ ومواضع شتى
نزهة الالباء للانباري ٣٦٦
وفيات الاعيان ١ – ٦٢ والرسالة الحاتمية فيه (في سيرة الحاتمي)
مفتاح السعادة (لطاش كبري زاده) طبع الهند ج ١ ص ١٩٢
الصبح المنبي للبديعي الدمشقي على هامش شرح العكبري
خزانة الادب للبغدادي (مصر ١٢٩٩) ١ ص ٣٨٢ – ٣٨٩
ومن الشروح شرح الواحدي والعكبري واليازجي والبرقوقي .

ومما كتب فيه حديثاً :

رسالة ابرهيم اليازجي في ذيل شرحه للمتنبي
ابو الطيب المتنبي لمحمد كمال حلمي
حصاد الهشيم للمازني ١٨٤ – ٢٢٧
المتنبي لشفيق جبري ، مجلة المجمع العلمي مج ١٠ ج ٥ – ١٢
ذكرى ابي الطيب لعبد الوهاب عزام
مع المتنبي لطه حسين
الانس المفيد ٣٣٠ – ٣٦٣
المقتطف مج ١٧ – ٣٦١
العدد الخاص بيوبيله الالفي من مجلات المقتطف ، والهلال ، والحديث والعصبة ، غير ما كتب في كتب التاريخ أو دوائر المعارف لكتّاب عرب ومستشرقين .

نشأته الأولى

لم يكد ينتصف القرن الرابع الهجري حتى كانت الدولة العبّاسية تتنازعها عوامل الانحلال . فكانت دار الخلافة في بغداد بين مولد المتنبي ووفاته ، أي أيام المقتدر والقاهر والراضي والمتّقي والمستكفي والمطيع تحت نفوذ بني بويه أصحاب السيادة في فارس . وكانت حلب والموصل وما اليهما في يد بني حمدان ، ومصر وأكثر الشام والحجاز في يد بني طغج ، وسائر الاقطار لغيرهم من الامراء المستقلّين . ولم يبق للخلافة من رونق ، وكثر الادعياء والثائرون حتى عمّت الفوضى السياسية . بين هذه الاضطرابات السياسية القومية نشأ شاعرنا ، وكان مولده في مدينة الكوفة بالعراق ، وفيها نشأ نشأته الأولى . وكان يتردد بين البادية والحضر [1] ، فاكتسب من الأولى صلابتها ونزعتها البدوية ومن الثانية علومها وثقافتها الأدبية . ولا نعلم عن صباه كثيراً ، ولكن الثعالبي الذي ولد قبل وفاة المتنبي بأربع سنوات — والذي دوّن في كتابه الشهير « يتيمة الدهر » أخبار شعراء عصره ومن تقدّمهم قليلاً — ذكر ان أباه سلّمه إلى المكاتب وردّده في القبائل ، وانه توفي وقد ترعرع ابو الطيب وشعر وبرع [2] . ونقل البغدادي عن أبي القاسم الاصفهاني انه كان يختلف إلى كتّاب فيه أولاد اشراف الكوفة فكان يتعلّم دروس العلوية لغةً وشعراً واعراباً الخ [3] . ويذكر البديعي الدمشقي في الصبح المنبي انه تعلم القراءَة والكتابة وانه أخذ أكثر علمه من ملازمة الورّاقين [4] (باعة الكتب) . وفي مقدمة شرح

---

١ اليتيمة ج ١ — ٧٨ .
٢ اليتيمة ج ١ — ٧٩ .
٣ خزانة الادب ١ — ٣٨٢ .
٤ الصحيح المنبي (على هامش العكبري ١ — ٦) .

اليازجي للديوان انه لقي كثيرين من اكابر علماء الادب منهم الزجّاج وابن السرّاج والاخفش وابن دريد وأبو علي الفارسي وغيرهم ، وتخرّج عليهم فخرج نادرة الزمان في صناعة الشعر . فيستدل من هذا ان شاعرنا تعلّم القراءة في المكاتب على عادة الصبيان ، وكان ذكياً محباً للاستزادة فلازم الورّاقين يطالع دفاترهم وحضر حلقات العلماء في زمانه .

وهناك أمر آخر نعلمه عن صباه ، وهو تردّده الى بادية السماوة واقامته زمناً بين اعرابها . ويستنتج من مختلف الروايات ان تردّده كان أولاً إلى بادية الكوفة ، ثم انتقل وهو حوالى السابعة عشرة من عمره إلى بلاد الشام . وفي هذا الطور من حياته شيء من الغموض إذ لا نراه مستقرًّا في مكان خاص ، فتارة في المدن ، وطوراً بين قبائل البادية ، يمدح بعضاً من ذوي النفوذ ، ولكنه لا يجد في مدحهم ما يروي ظمأ نفسه النزّاعة إلى العلى .

وهكذا يعبس له الدهر فيشبّ ناقماً ثائراً . ويتاح له ان يتصل في البادية بقبائل بني كلب ، ويدرك نزعاتهم إلى التمرّد ، فيتمكن ببلاغته وحماسة الشباب فيه من تحريكهم تحريكاً يلفت نظر الحكّام ، فيقبض عليه بأمر من والي حمص ويلقى في السجن وهو في نحو التاسعة عشرة .

ولم نتحقق كم بقي فيه تماماً ، ولكننا نستنتج انه بقي فيه مدة غير يسيرة (نحو سنتين) . وكان أول دخوله السجن يظهر الاستخفاف بأهواله — ومن أقواله في ذلك الحين أبيات كتبها إلى صديق له يدعى أبا دلف كان يتعهده وهو في السجن[1] :

كن أيها السجن كيف شئت فقد وطّنتُ للموت نفس معترفِ
لو كان سكناي فيك منقصةً لم يكن الدرّ ساكن الصدفِ

على انه لقي في السجن عذاباً شديداً ، فقد وضعوا القيود في رجليه

١ شرح الواحدي (برلين) ٨٠ .

وعنقه[١] . ولما طال اعتقاله فقد صبره فأرسل إلى الوالي قصيدة يستعطفه ويتعذر اليه بصغر سنه قال منها :

امـــالكَ رقـّي ومَن شأنه هبات اللـُّجين وعتق العبيدِ
دعوتك عند انقطاع الرجاءِ والموت مني كحبل الوريد
دعوتك لمـــا براني البلاء وأوْهن رجليّ ثقل الحديد
وقد كان مشيهما في النعال فقد صار مشيهما في القيود
تـُعجّل فيّ وجوب الحدود وحدّيَ قبل وجوب السجود
وقيل عدوتُ على العالمين بين ولادي وبين العقود
فما لك تقبل زور الكلام وقدر الشهادة قدر الشهود

وهذه الابيات نفثات رجل متضايق نفد صبره وخاف مغبة الامر ثم راح يستثير عواطف الوالي ورحمته فقال :

بيدي أيها الأمير الاريبُ لا لشيء الاّ لاني غريبُ
أو لأمٍّ لها إذا ذكرتني دمُ قلب بدمع عينٍ يذوب
ان اكن قبل ان رأيتك اخطأت فاني على يديك أتوب

قال ابن خلكان : « ثم استتابه الوالي وأطلقه[٢] » . ولكن من أيّ شيء استتابه ؟ هنا تتضارب آراء المؤرخين . فابن خلـّكان يجعل ادعاءَه النبوّة سبب سجنه وقد تبعه في ذلك كثيرون، وهو قول يحتمل الشك . فان بين معاصري ابن خلكان أو من تقدّمهم من يزعم غير ذلك بدليل قوله : « وقيل غير ذلك[٣] » . أما الثعالبي فجعل السبب انه دعا إلى بيعته قوماً من رائشي نبله، ولما ذكر النبوءَة قال : « ويحكى انه تنبأ في صباه وفتن شرذمة بقوّة أدبه وحسن كلامه[٤] » . وفي كلام الثعالبي إشعار بالشك في

١ الصبح المنبي ١ — ٣٤ .
٢ وفيات الاعيان ١ — ٦٤ .
٣ » » » »
٤ اليتيمة ١ — ٨٠ .

الحكاية ، وقد نقل تعزيزاً لهذا الشك ما رواه ابن جنّي تلميذ المتنبي وشارح ديوانه إذ قال : سمعت أبا الطيب يقول انما لقّبت بالمتنبي لقولي[1] :

«أنا ترب الندى وربّ القوافي وسمام العدى وغيظ الحسودِ
أنا في أمّة تداركها الله غريب كصالح في ثمود »

وعن العمدة[2] : « زعم أبو محمد عبد الكريم بن ابراهيم النهشلي ان أبا الطيب سمّي متنبياً لفطنته » .

ويتناول البديعي صاحب الصبح المنبي المتوفى ١٠٧٣ ﻫ ، أي بعد المتنبي بأكثر من سبعة قرون ، هذه المسألة وينقل لنا بعض حكايات عن نبوّته لا يسع المتأمل الا ان يتردّد في قبولها على علاّتها – أولاً لتراخي المدة بينه وبين الشاعر ، وثانياً لما فيها من الاضطراب ، وثالثاً لانه ليس في ما ذكره معاصروه ما يثبتها . والذي يصح ان نستنتجه علمياً من الروايات المختلفة ان المتنبي وهو في أوائل شبابه ظهر في البادية على رأس فئة من الاعراب ناقمة على اولي الأمر[3] ، وانه كان بفطنته وفصاحته يستهويهم الى غاياته من حب الظهور والرئاسة . ولكن أمره لم يتم فألقي القبض عليه وأودع السجن ثم خرج منه ، وما عتم ان لصق به اسم المتنبي[4] .

بعد السجن الى اتصاله بسيف الدولة (٣٢٣ – ٣٣٧ ﻫ)

ولما أطلق سراحه أخذ يجول في أقطار البلاد الشامية مادحاً أعيانها . بقي

١ اليتيمة ١ – ٨٠ وشرح العكبري ٢٠١ ج ١ .
٢ العمدة ١ – ٤٥ .
٣ راجع الواحدي ٨٣ وتعليقه على عمره واجتماع العصاة اليه .
٤ نلفت النظر هنا إلى رأي المستشرق بلاشير الذي يرى ان اولي الامر توهموا ان لقيامه في بني كلب علاقة بحركة القرامطة (راجع دائرة المعارف الاسلامية – تحت المتنبي) .
وتحقيق الاستاذ محمود شاكر أخذاً برواية الانباري ٣٦٩ ان المتنبي لم يدع النبوة بل ادعى النسب العلوي وانه لأجل ذلك حبس ثم استتيب (المقتطف مج ٨٨ ج ١ ص ٤٩) .

على هذه الحال بضع سنوات[1] ، حتى اتـّصل سنة ٣٢٨ بالأمير العربي بدر بن عمّار وكان يتولى الجيش في طبريا ، فلزمه ومدحه ، وقد رأى فيه ضالته المنشودة من كرم ورجولة ومجد قومي . ولكن اتصاله به لم يطل[2] ، فقد دخلت بينهما مكايد الحسّاد والمناوئين حتى اضطرّ إلى تركه والرجوع إلى ما كان عليه من التنقـّل في الاقطار . وله في هذه المدة من الشعر ما يكاد يبلغ نصف ديوانه وأهم ممدوحيه فيها :

بدر بن عمار ٦ قصائد . آل اسحق التنوخي ٧ . ابناء يحيى البحتري ٣ قصائد . عبد الله بن خلكان ٢ . شجاع الطائي ٢ . مساور الرومي ٢ . المغيث العجلي ٢ . علي بن محمد التميمي ٢. الأمير محمد بن طغج وأبو العشائر الحمداني ٦ ونحو ٢٥ ممدوحاً قصيدة قصيدة .

وشعره في بعض هؤلاء من الطبقة الاولى — كقصائده التالية :

في الخد ان عزم الخليط رحيلا
بقائي شاء ليس هم ارتحالا
لا افتخار الا لمن لا يضام
افاضل الناس اغراض لذا الزمن
لك يا منازل في القلوب منازل
اطاعن خيلاً من فوارسها الدهر
بأبي الشموس الجانحات غواربا

وغير ذلك من القصائد العامرة التي يردّدها الخاص والعام في كل مكان .

على انه لم ينل في هذه السنوات ما يستحق الذكر . وما زال هذا دأبه يتنقـّل من مكان إلى آخر حتى القته المقادير إلى انطاكية . وكان فيها أبو العشائر الحمداني والياً من قبل سيف الدولة ، فمدحه المتنبي . ولحسن حظه قدم انطاكية في تلك الاثناء سيف الدولة ، فقدّم أبو العشائر المتنبي

---

١ زار في أثنائها الكوفة وبقي فيها مدة بقرب جدته .

٢ لعله لم يكن أكثر من سنتين إلى ثلاث .

اليه وأثنى عليه ، وكان ذلك بدء اتصاله بهذا الأمير الشهير ، وبدء سعادته من جاه ومال وفير .

في حلقة سيف الدولة (٣٣٧ - ٣٤٦ هـ)

كانت حلب أيام المتنبي عاصمة لامارة عربية تشمل الجزيرة وشمالي سوريا ، أميرها علي بن حمدان الملقّب بسيف الدولة . وقد اشتهر هذا الأمير بجهاده في محاربة الروم حتى بلغت غزواته نحو اربعين [١] . وكانت ساحة جهاده منطقة الثغور – أي المدن والحصون الواقعة على حدود الروم (الاناضول) ، ومنها انطاكية وزِبَطره وملطيه والحدث وخرشنه ومرعش وغيرها ، مما يرد ذكره كثيراً في شعر المتنبي . ولم يكن سيف الدولة موفّقاً في كل غزواته الرومية ، ولكنه احرز في تاريخ العرب مجد المجاهد الكبير . والذي يلفت النظر تنازع امراء المسلمين أنفسهم يومئذ وتناحرهم على السيادة . فبنو حمدان في حلب ، وامراء مصر الاخشيدية ، وبنو بويه في بغداد كانوا في نزاع مستمر وعداوة مستحكمة . وقد تمكن سيف الدولة بسخائه وعطفه على الادب ولكون امارته موئل الروح العربية في ذلك العصر ، ان يجمع حوله حلقة من كبار الادباء والعلماء ممن كان يجزل لهم العطايا ، فخلدوا اسمه في سماء الادب . ومن هؤلاء ابن عمه ابو فراس ، ومعلّمه ابن خالويه ، وابو الفرج الببغاء ، وابو عبد الله الخليع ، والوأواء الدمشقي ، وابو بكر وابو عثمان الخالديّان ، وابو الطيّب اللغوي ، والسريّ الرفّاء ، وابو علي الفارسي ، وابن نباتة ، ثم ابو الطيب المتنبي ، والصنوبري ، والفارابي ، والاصفهاني صاحب الاغاني وأمثالهم .

ولما اتصل به شاعرنا نال الحظوة عنده والرعاية الخاصة : جاءَ في الصبح المنبي ان سيف الدولة قرّبه وأجازه الجوائز السنيّة ، ومالت نفسه اليه

---

١ اليتيمة ١ – ١٧ .

وأحبه ، فسلمه للروّاض فعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة [1] وقد صحب المتنبي أميره في بعض غزواته وأظهر من الفروسية والشجاعة ما يذكر له : رووا انه في احدى تلك الغزوات تراجع الجيش ولم يثبت غير سيف الدولة وستة رجال أحدهم المتنبي [2] . وقد يشكّ في هذه الرواية ولكن مما لا شك فيه ان شعره يفيض بروح الشجاعة والاقدام ، ولا نرى في حياته ما يناقض ذلك .

* * *

دخل المتنبي حلقة سيف الدولة ، وفيها من ذكرنا من كبار الشعراء والادباء ، فشق على نفر منهم ان ينال ما ناله من الامير ، وزاد غيرتهم منه وكرههم له ما في نفسه من صلابة وتعاظم . وانك لتلمح في شعره ما كان يقاسيه منهم ، وقد اضطر ان يطعنهم بقوافيه كقوله :

ازلْ حسد الحسّاد عني بكبتهم   فانت الذي صيّرتهم لي حسّدا

وقوله :

افي كل يوم تحت ضبني شويعر   ضعيف يقاويني قصير يطاول

وقوله :

بأيّ لفظ تقول الشعر زِعنفة   تجوز عندك لا عُرب ولا عجم

الى غير ذلك من سمات التحقير التي قلما تخلو منها قصيدة من قصائده في سيف الدولة . ولم يكن حساده ليسكتوا عنه ، فاخذوا يكيدون له ويحاولون الايقاع به ، ولا سيا ابو فراس الشاعر المشهور [3] . فمن ذلك ما نقله البديعي عن ابن الدهان في المآخذ الكندية : « قال ابو فراس لسيف الدولة ان هذا المتسمّي كثير الإدلال عليك ، وانت تعطيه في كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاثة قصائد ، ويمكن ان تفرّق مئتي دينار

---

١ راجع الصبح المنبي ١ – ٥٤ .

٢ راجع الصبح المنبي ١ – ٥٥ .

٣ يرى الاستاذ محمود شاكر ان المتنبي كان يحب خولة أخت سيف الدولة وان سيف الدولة وعده سراً بها فاتصل ذلك بعلم ابي فراس وكان سبباً في المداوة بين الرجلين ، المقتطف مج ٨٨ ج ١ ص ١٣٤ .

على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره[1] » (وفي خزانة الادب ان ما ناله في اربع سنوات بلغ ٣٥ الف دينار[2]) – فتأثر سيف الدولة من هذا الكلام وعمل به .

فسيف الدولة بعد ان خص الشاعر بالعطف ، وبعد ان نظم الشاعر فيه نحو ٤٨ قصيدة عامرة (وهي لا تقل عن ثلث ديوانه) تولاّه انحراف عنه وأصغى الى أقوال خصومه فيه . ولم يُجدِ الشاعر استعطافه وتنويهه بالرحيل عنه ، فتجرأوا عليه حتى كان ما كان من ضرب ابن خالويه له بالمفتاح في حضرة سيف الدولة . ورأى المتنبي انه لا يستطيع دفاعاً وانتقاماً في حضرة أمير نافر منه ، وخصوم يتربصون به ، فترك حلب بدعوى المسير الى اقطاع له[3] ، وفي نفسه ما فيها من الغيظ ، وقصد الشام فالرملة . ثم طلبه كافور الى مصر فتلكأ أولاً ، على انه لم يلبث ان رحل اليه ونفسه تسوّل له انه سيبلغ هناك من المجد ما يغيظ الحاسدين – وقد صرح بذلك إذ قال :

ابا المسك ارجو منك نصراً على العدى وآمل عزّاً يخضب البيض بالدم
ويومــاً يغيظ الحاسدين وحالةً اقيم الشقا فيها مقــام التنعم

ولكنه لم يبلغ ما كان يروم .

في مصر (٣٤٦ – ٣٥٠ هـ)

مر معنا ان مصر كانت في يد الاخشيدية بني طغج ، وهم امراء يرجع نسبهم الى ملوك فرغانة . ولما هبط المتنبي مصر كان أميرها الحقيقي قاصراً ، وقيّم المملكة الاستاذ كافور ، وهو عبد اسود كان مولى لبني طغج ، ولكنه كان – على ما يظهر – داهية ، فاستبد بامور مصر واصبح هو الآمر الناهي

---

١ راجع الصبح المنبي ١ – ٦٥ .

٢ خزانة الادب ١ – ٣٨٤ .

٣ خزانة الادب ١ – ٣٨٤ .

او كما قال شاعرنا فيه :

يدبّر الملك من مصر الى عـدن الى العراق فارض الروم فالنّوب

قال ابن خلكان : « وكان يدعى له على المنابر بمكة والحجاز جميعه والديار المصرية وبلاد الشام [1] » .

قصد شاعرنا كافوراً تتنازعه عاطفتان : الاولى ما كان يشعر به من الغيظ لما أصابه في حلب ، والثانية رغبته ان يحصل بواسطة كافور على ولاية . أما غيظه من سيف الدولة فلم يصل الى حد الكره ، إذ بقيت في نفسه بقية من الحب والوفاء له . وقد صرّح بذلك في بعض قصائده لكافور كقوله :

فلو كان ما بي من حبيب مقنّع عذرت ولكن من حبيب معمّم

رمى واتقى رميي ومن دون ما اتقى هوى كاسرٌ كفي وقوسي واسهمي

ولذا وصف الثعالبي شعره : « بجمال الرمز والاشارة كجمعه بين مدح سيف الدولة حين فارقه ومدحه لكافور [2] » . وامـا رغبته في الولاية والامارة فكان يلمّح اليها تلميحاً لم يخفَ على أحد كقوله :

وما رغبتي في عسجد استفيده ولكنها في مفخر أستجدّه

وقوله :

وغير كثير ان يزورك راجل فيرجع ملكاً للعراقين واليا

وقوله :

قالوا هجرت اليه الغيث قلت لهم إلى غيوث يـديه والشآبيب

إلى الذي تهب الدولات راحته ولا يمنّ على آثار موهوب

إلى غير ذلك من الابيات التي تُشعر بما كان يتطالّ اليه وما كان يحدث نفسه به .

وقد نقل البديعي انه طلب ان يوليه صيدا من بلاد الشام ، أو غيرها

---

١ وفيات الاعيان ٢ – ١٨٨ . راجع سيرته في خطط المقريزي ٢ – ٢٦ .

٢ اليتيمة ١ – ١٥٨ .

من بلاد الصعيد[1] .

وبين هاتين العاطفتين – الغيظ والطمع – مدح كافور بعشر قصائد هن من أفخر ما نظمه وسيأتي ذكرها .

على ان اتصاله بهذا الامير لم ينله مراده . نعم نال منه كثيراً من الخلع والجوائز والاموال ، ولكن الامر الذي كان يصبو اليه ، تلك الامنية التي شغلت عقله – ولا سيما بعد ان وعده كافور بأن يبلغه جميع ما في نفسه[2] لم يأنس في وجه ممدوحه غير الاعراض عنها ، فاضطربت روحه حتى صار يستثقل وجوده في مصر ويتمنى الخروج منها .

ولحظ ذلك منه كافور فخاف ان هو أطلقه ان ينقلب عليه بالطمن ، وهو المستبد بحكم مصر دون مليكها الحقيقي ، فمنعه من الرحيل . وظل على هذه الحالة المزعجة سنته الاخيرة في مصر لا يلقى كافوراً الا ان يركب فيسير معه في الطريق لئلا يوحشه[3] . وله في ذلك قصيدة غراء يصف بها حاله ويصف حمى اصابته ، مطلعها :

ملومكما يجلّ عن الملام ووقع فعاله فوق الكلام

وهي من بدائعه وسيرد ذكرها . وكان في ذلك يعدّ العدّة للهرب حتى تمكن منه يوم عرفـة سنة ٣٥٠ هـ ، فقصد العراق ووصف مسيره بقصيدة مطلعها :

الا كلّ ماشية الخـيزلى فدى كل ماشية الهيدبى

وفيها يعدّد الاماكن التي مرّ بها ، ويصف شجاعته واقدامه بأبيات تنضح بالكبر كقوله :

لتعلمَ مصر ومن بالعراق ومن بالعواصم اني الفتى

---

١ الصبح المنبي ١ – ١١٥ .

٢ الصبح المنبي ١ – ١١٣ وفيات الاعيان ١ – ٦٤ وفي العمدة ١٠ – ٤٥ انه وعده بولاية بعض أعماله .

٣ شرح اليازجي ٥٤٨ .

واني وفيتُ واني أبيت   واني عتوت على من عتا
ومن يك قلبٌ كقلبي له   يشقّ الى العزّ قلب التّوى

ثم يختمها بهجاء كافور . وله في هجائه بضع قصائد اوحاها اليه حب التشفي والفشل .

بين العراق وبلاد فارس – خاتمة حياته (٣٥٠ – ٣٥٤ هـ)

ترك مصر في أواخر ٣٥٠ هـ قاصداً الكوفة فوصلها في جمادى ٣٥١ وأقام فيها [١] ، ثم أمّ بغداد . ولا نعلم متى كان ذلك بالضبط ، ولكننا نعلم انه بقي في العراق نحو ثلاث سنوات – والارجح انه قضى منها سنتين في الكوفة . وكانت بغداد يومئذ بيد معزّ الدولة البويهي ، وكان وزيره المهلّبي يأمل ان يقصده المتنبي ويمدحه اسوة بالكبراء الذين مدحهم ، ولكن الشاعر ترفّع عنه « ذهاباً لنفسه » كما قال الثعالبي « عن مدح غير الملوك [٢] » ، أو لنفوره من سخافة المهلبي واستهتاره بالهزل [٣] . فنقم الوزير ذلك منه وحرّض عليه شعراء بغداد حتى نالوا منه وتباروا في هجائه وتماجنوا وتنادروا ، فلم يجبهم ولم يفكر فيهم [٤] . وقيل له في ذلك ، فقال : « اني فرغت من إصابتهم بقولي لمن هم أرفع طبقةً منهم في الشعراء :

أرى المتشاعرين غُروا بذمّي   ومن ذا يحمد الداء العُضالا
ومن يك ذا فم مرّ مريض   يجد مرّاً به الماء الزلالا

وبقولي :

وإذا أتتك مذمّتي من ناقص   فهي الشهادة لي بأني كامل

قال ابن رشيق : « ان المتنبي حين بُلي بحماقات ابن حجّاج البغدادي

---

١ الصبح المنبي ١ – ١٤٤ .
٢ اليتيمة ١ – ٨٥ .
٣ خزانة الادب ١ – ٣٨٦ .
٤ اليتيمة ١ – ٨٥ .

سكت عنه اطّراحاً واحتقاراً ، ولو أجابة لما كان هو بحيث هو من الأنـَفة والكبر ، لأنه ليس من انداده ولا من طبقته [1] » .

وجرت له مع ابي علي الحاتميّ حادثة ذكرها ابن خلكان في سيرة الحاتمي وذكرها البديعي في الصبح المنبي ، وسيرد ذكرها في كلامنـــا على اخلاقه .

ولما لم يطب مقامه في بغداد فارقها ليلاً متوجهاً الى ابي الفضل ابن العميد مراغماً للوزير المهلّبي ، فورد ارّجان ومدح ابن العميد بأربع قصائد واحمد مورده عنده .

وكان للصاحب ابن عبّاد يطمع في زيارة المتنبي اياه في اصبهان ، واجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء الزمان ، وهو اذ ذاك شاب وحاله حويلة ، ولم يكن قد استُوزر بعد ، فكتب اليه يلاطفه ، لكن المتنبي لم يقم له وزناً ولم يجبه عن مراده [2] فكان ذلك سبب عداوة الصاحب له والطعن فيه ، وانشائه رسالة في مساوىء شعره .

وسار شاعرنا الى شيراز قاصداً عضد الدولة فتلقّاه بالترحيب . ونظم المتنبي فيه ثماني قصائد ، فأجزل له العطاء ثمّ رجع من شيراز بثروة كبيرة تبلغ مئتي الف درهم ، ما عدا الخلع والهدايا والتحف [3] . وفي طريقه الى الكوفة خرج عليه فاتك الأسدي في نحو عشرين من رجاله وكان مع المتنبي ابنه محسّد ونفر من غلمانه وجمال تحمل أمواله وتحفه ، فجرت بينهم موقعة انتهت بقتل الشاعر وابنه وبعض أتباعه . هكذا قضى أبو الطيب . وعلى مقربة من سواد بغداد وفي رمضان من سنه ٣٥٤ هـ خمدت تلك النفس التي نشأت نزّاعة الى المجد ، حريصة على غرور الدنيا ، فحملت صاحبها تارة على تجشّم الاهوال والضرب في الآفاق ، وطوراً على

---

١ العمدة ١ — ٧١ .

٢ اليتيمة ١ — ٨٦ .

٣ الصبح المنبي ١ — ٢٢١ .

الوقوف في أبواب الملوك والامراء طمعاً في « مفخر يستجدّه » أو جاه يناله . ولكنه آب بالفشل وترك لنا بفشله من الحكم البالغة ما لا تزال ألسنة الزمان تردده في كل مكان .

مزاياه الخلقية

برغم ما كان يظهر في شعر المتنبي من التزلف والاستجداء ، وبرغم بعض مساوئه التي قلما يخلو منها انسان ، نرى له صفة عامة تتخلل جميع صفاته وتتجلى لنا عند التأمل في ذاته ، وأهم ظواهرها : التعاظم والطمع بالمجد مقرونين بشيء من عدم الكياسة . واليك بيان ذلك :

تعاظمه او اعتداده بنفسه

لم يكن المتنبي وحيداً بين الشعراء في هذه المزية ، ولكنه بلغ منها ما لم يبلغه سواه حتى ولا ابو تمام . وفي اخباره شواهد لا تترك للشك مجالاً . منها ما يلي :

١ – انه لما اتصل بسيف الدولة اشترط عليه ان لا ينشده الا وهو قاعد وان لا يقبّل الارض بين يديه [١] وقد ذكر ابن خلّكان انه لما انشد قصيدته « لكل امرىء من دهره ما تعودا » قال بعض الحاضرين يريد ان يكيده : « لو انشدها قائماً لأسمع » ، فقال ابو الطيّب : « اما سمعت اولها : لكل امرىء من دهره ما تعودا » [٢] .

ويظهر مما نقله البديعي : ان سيف الدولة كان حيناً يغتاظ من تعاظمه ، ويجفو عليه اذا كلمه [٣] . ولعل لذلك علاقة بنجاح اعدائه في تنفير الامير منه ، كما ان لفشله في مصر علاقة بما كان يراه كافور من تعاليـــه

---

١ الصبح المنبي ١ – ٤٧ .
٢ وفيات الاعيان ١ – ٦٦ .
٣ الصبح المنبي ١ – ٧٣ .

في شعره[1] .

٢ – سوء سياسته وعدم مداراته . فانه بعد ان كان أيام خموله يمدح القريب والبعيد ويصطاد كما قال الثعالبي « ما بين الكركي والعندليب[2] » ، أخذت نزعة الكبر تشتد فيه حتى صار في ابّان شهرته يترفع عن غير الملوك والامراء ، وينظر الى سواه نظر الكبير الى الصغير ، وكان ابو علي الفارسي يستثقله لما يأخذ به نفسه من الكبر[3] : ومن شواهد ذلك ما جرى له مع وزير كافور ومع الوزير المهلّبي والصاحب ابن عبّاد وسواهم .

ومن رسالة الحاتمي يُلمح ما كان يرى فيه زملاؤه من روح التشامخ . وهذه الرسالة كتبت في مساوىء المتنبي ، وكاتبها من أدباء بغداد الذين أغراهم المهلبي به . قال صاحبها : « لما ورد أحمد بن الحسين المتنبي مدينة السلام منصرفاً عن مصر ومتعرضاً للوزير ابي محمدٍ المهلبي التَحف رداء الكبر وأذال ذيول التيه ، ونأى بجانبه استكباراً ، وثنى عطفيه جبريَّةً وازوراراً ، فكان لا يلاقي احداً الا أعرض عنه تيهاً ، وزخرف القول عليه تمويهاً – يخيّل عجباً اليه ان الادب مقصور عليه ، وان الشعر بحر لم يرد نمير مائه غيره ... فغبر جارياً على هذه الوتيرة مدة مديدة » الى ان يقول : « وثقلت وطأته على كثير ممن وسم نفسه بميسم الادب . وساء معزّ الدولة احمد بن بويه ان يرد حضرته ، وهي دار الخلافة ومستقر العز وبيضة الملك ، رجل صدر عن حضرة سيف الدولة بن حمدان – وكان عدوّاً مبايناً لعز الدولة – فلا يلقى احداً بمملكته يساويه في صناعته . وتخيّل الوزير المهلّبي رجماً بالغيب ان احداً لا يستطيع مساجلته ولا يرى نفسه كفؤاً له ... فنهدتُ له متتبعاً عواره ومقلّماً اظفاره » .

ثم يذكر انه قصده على بغلة سفواء في موكب رائع ، وان المتنبي

---

١ وفيات الاعيان ١ – ٦٤ .

٢ اليتيمة ١ – ٨٢ .

٣ الصبح المنبي ١ – ٢١٠ .

لما رآه داخلاً وأرى شخصه لكي لا يقف له . ثم يصف كيف قوبل هو بالترحيب والتكريم ، وان المتنبي لما دخل جلس في صدر المكان ، واعرض عن الحاتمي وابى الا ازوراراً واستكباراً ، حتى ما كان بينهما من المناقشة والمساجلة . والرسالة طويلة تدخل في نحو ١٢ كراسة ، وقد نقل ابن خلكان قسماً منها ، وكذلك البديعي في الصبح المنبي [١] .

وقال البديعي : « كان الرجل سيّء الرأي ، وسوء رأيه اخرجه من حضرة سيف الدولة ، وشدة تعرضه لعداوة الناس [٢] » .

ولا شك ان الحسد وحده لم يكن السبب في عداوة أدباء حلب أو بغداد له ، ولو كان المتنبي على شيء من اللطف لما وصل الى ما وصل اليه : ففي طبعه كما قال ابن رشيق غلظة [٣] ، وفي شعره ترى هذا الخلق ظاهراً في كل أدوار حياته .

٣ – شعوره بالتفوق .

ومن رسالة الحاتمي المار ذكرها يظهر لك اثر هذا الشعور في نفوس البغداديين – قال الثعالبي : « كان يخاطب الملوك مخاطبة الصديق والمحبوب ، وهو مذهب تفرّد به رفعاً لنفسه عن درجة الشعراء [٤] » . فمن قوله في صباه :

أمطْ عنك تشبيهي بما وكأنما فما أحدٌ فوقي ولا أحدٌ مثلي

وقوله :

ان اكن معجباً فعجب عجيبٍ لم يجد فوق نفسه من مزيد

كبرياء ولدت فيه وظهرت في صباه فرافقته الى آخر حياته . وديوانه مشبع بهذه الروح – ماتت جدته فاضطرب لموتها ورثاها فلم يتمالك عن

---

١ وفيات الاعيان ٢ – ٣٣٢ وهامش شرح العكبري ١ ص ١٤٤ – ١٧٣ .

٢ الصبح المنبي ١ – ١٢٣ .

٣ العمدة ١٣٣ .

٤ اليتيمة ١ – ١٣٩ .

ان يصيح في وجه الزمان :

لئن لذّ يوم الشامتين بيومها ... لقد ولدتْ مني لأنْفهم ِ رغما
تغرّب لا مستعظماً غير نفسه ... ولا قابلاً الا لخالقه حكما
يقولون لي ما انت في كل بلدة ... وما تبتغي؟ما ابتغي جلّ ان يُسمى
كأنّ بنيهم عالمون بأنني ... جلوب اليهم من معادنه اليتما
واني لمن قوم كأنّ نفوسهم ... بها أنفٌ ان تسكن اللحم والعظما
كذا انا يا دنيا اذا شئتِ فاذهبي ... ويا نفس زيدي في كراهتها قدما
فلا عبرت بي ساعة لا تعزّني ... ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما

ومدح ابا سهل الانطاكي فلم يلبث حتى تغلب عليه طبعه فقال :

ابدو فيسجد من بالسوء يذكرني ... فـــلا اعاتبه صفحاً وإهوانا
وهكذا كنت في أهلي وفي وطني ... ان النفيس غريب اينما كانا
محسّد الفضل مكذوبٌ على اثري ... القى الكميّ ويلقاني اذا حانا

وهذا الشعور بالتفوّق كثيراً ما يظهر في شاعرنا بمظهر الشجاعة البالغة حدّ التهور . انظر اليه في مجلس سيف الدولة – في جـو مشبع بروح العداء له وحوله خصوم ألدّاء كأبي فراس وابن خالويه وأضرابهما ، وقد حملوا سيف الدولة على الاعراض عنه وسوء الظن به ، فلم ينخفض له جناح ، ولم تستولِ عليه رهبة ، بل عاتب الامير ثم أشار الى من حوله وقال بنفس تفيض كبراً :

سيعلم الجمع ممن ضمّ مجلسنا ... بأنني خير من تسعى به قدمُ
أنا الذي نظر الاعمى الى أدبي ... واسمعتْ كلماتي من به صمم
وجاهل مدّه في جهله ضحكي ... حتى اتته يدٌ فرّاسة وفم
اذا رأيت نيوب الليث بارزةً ... فـــلا تظننّ ان الليث يبتسم
كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم ... ويكره الله ما تأتون والكرم
ما ابعد العيب والنقصان من شرفي ... انا الثريّا وذان الشيب والهرم

ومنها يلمّح بعزمه على الرحيل :

لئن تركنا ضُميراً عن ميامننا ليحدثنّ لمن ودّعته ندم

وهذه القصيدة شهيرة وفيها تتجلى نفسية هذا الرجل الغريبة .

ومن أدلـّة شجاعته بل تهوّره ما ذكره ابو نصر الجبلي للخالديّين عن مقتله ، والرجل شاهد عيان رأى الشاعر قبيل مقتله وحادثه ، وقد حذّره من فاتك الاسدي ورجاله ونصح له ان يستصحب معه من يخفره ، فأجابه المتنبي : « والله لا ارضى ان يتحدث الناس اني سرت في خفارة احد غير سيفي – معاذ الله ان اشغل فكري بهم لحظة عين » . قال فقلت له قل : ان شاء الله . فقال : « هي كلمة مقولة لا تدفع مقضياً ولا تستجلب آتياً » ، ثم ركب فكان آخر العهـــد به . ذكر ذلك البديعي في حديث طويل [1] . وقد حاول بعضهم ان ينسب اليه الخوف والحذر ولكن سيرته لا تدل على ذلك ، وقد صدق الباقلّاني اذ قال : « وكان المتنبي من اهل الشجاعة [2] » .

طموحه الى المجد

خُلق المتنبي طموحاً الى المراتب العالية طامعاً بالحصول على مجد الدنيا .

أهمّ بشيء والليالي كأنها تطاردني عن كونه وأطارد

وحيد من الخلان في كل بلدةٍ اذا عظم المطلوب قلّ المساعد

صفة ظاهرة في كل حركاته وأقواله : فمنذ كان فتى في السابعة عشرة من عمره يحدثنا شاهد عيان بهذيانه في ذلك [3] . وما الحركة التي سجن لاجلها إلّا دليل على هذه النزعة في نفسه . ولما فشل في اول عهده تحوّل نظره الى المال ، والى وجوب حشده لا بخلاً او حباً بالمال لنفسه ،

---

١ الصبح المنبي ج ١ من ٢٢٨ – ٢٣٩ .

٢ اعجاز القرآن ١٢٤ .

٣ الصبح المنبي ١ – ٢٥ .

ولكن توصلاً به الى غاياته . ولعلّه تذكّر حادثة جرت له في الكوفة وهو غلام رواها البديعي في الصبح المنبي [1] . وخلاصتها انه أراد ان يشتري بطيخاً من بائع فلما ساومه على الثمن جبهه البائع واحتقره ، ثم جاءَ تاجر غني فرحّب به البائع وباعه البطيخ محمولاً الى البيت بأبخس مما عرض عليه المتنبي . ولما رجع كلّمه المتنبي في ذلك فقال : اسكت ، هذا يملك مئة الف دينار . فوقع في نفس شاعرنا من ذلك الحين حب المال والحرص عليه ، وان الناس لا يحترمون غير صاحبه . وفي شعره ما يدل على ما كان في نفسه من ذلك كقوله :

واتعب خلق الله من زاد همّه وقصّر عما تشتهي النفس وجده
فلا ينحلل في المجد مالك كله فينحلّ مجد كان بالمال عقده
ودبّره تدبير الذي المجد كفه اذا حارب الاعداء والموت زنده
فلا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده

وقد ذكروا بعض حكايات عن حرصه وجشعه [2] ، ولكنها عند التدقيق لا تدلّ إلاّ على حزمه وحسن تقديره للمال ومعرفته بأحوال الدنيا . ولعل بعضها من تلفيق حساده كقصّته مع سيف الدولة ، رُويت عن ابي الفرج الببغا وصُوّر فيها المتنبي أولاً رجلاً ذا كبر واباء لا يمدّ يده كما فعل سائر الشعراء ، ثم تتغيّر الصورة بغتة فيظهر فيها دنيئاً جشعاً – كل ذلك في مدة لا تتجاوز الدقائق القليلة .

كلا لم يكن المتنبي حشّاداً للمال مخافة الفقر وقد قال :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

ولكنه كان يعرف قيمته وتأثيره في اكرام الناس له . كان شاعرنا معجباً بنفسه حريصاً ان يعجب الناس بها ايضاً ، ورأى في المال وسيلة لبلوغ ذلك فصار بعد خروجه من السجن يجوب الاقطار للحصول عليه ، ولكنه بقي

---

١ الصبح المنبي ١ – ٨٣ .
٢ اليتيمة ١ – ٨٥ والصبح المنبي ١ ص ٧٣ – ٨٣ .

حتى اتصاله بسيف الدولة لا ينال من ممدوحيه الا الشيء اليسير . ورأى سني شبابه تطوى على الفقر والفشل فغلب عليه الكدر من الناس ولا سيما اولي الامر منهم ، وكثر تشكيه من الزمان واشتداده عليه ، فظهر ذلك في شعره كما سيجيء .

ولما اتصل بسيف الدولة أخذت الدنيا تبتسم له ، ونال عند ممدوحه ما كان يصبو اليه من كرامة ومال ، فطابت نفسه وقصر شعره على ذلك الامير العربي يصف غزواته ويمدح اخلاقه . وباقبال الدنيا عليه لم يخمد في نفسه ذلك الكبر الذي طبع عليه ، فكثر حساده ومبغضوه . ولم يكن دمثاً أو لين العريكة بل غلبت عليه صلابة الرأي ، مما أدى الى فتور الامير نحوه واشتداد الحساد عليه ، فاضطر كما ذكرنا الى ترك حلب وقصد مصر طامعاً بالمجد عن طريق الامارة – وقد مرّ بنا ما كان من أمره في مصر ثم بالعراق وفارس .

ولم يكن فشله في مصر كافياً للقضاء على آماله قضاءً مبرماً ، ولكنه شلّ مطامعه الى حين ، ودفعه الى استجمام القوى في الكوفة وبغداد نحواً من ثلاث سنوات .

ثم تراءت له فارس ورأى الفرصة السانحة فقصد عضد الدولة ورأى في حضرته ما جدد آماله . ولا نعلم ما كان يدور في خلده يومئذ ، وقد نال الغنى الوافر وأصبحت شهرته تملأ الخافقين . يحدثنا المؤرخون انه ترك عضد الدولة قاصداً الكوفة – لأي غرض ؟ لا ندري . ولكن البديعي يروي في الصبح المنبي [1] انه استأذن عضد الدولة في المسير ليقضي حوائج في نفسه ثم يعود اليه فاذن له . فما الذي كانت تسوّل له نفسه ؟ وما كان يؤمل ان يبلغه على يد هذا الملك البويهي الكبير ؟ ذلك ما أسدل عليه الحمام حجاباً لا سبيل الى نفاذه .

---

١ هامش العكبري ١ – ٢٢٢ .

عصبيته ونسبه

في نفس المتنبي وفي شعره نزعة عربية شديدة . ولا غرابة فهو عربي يمني ينتمي الى قبيلة جُعفى من جهة الاب وهمدان من جهة الام . زد على ذلك انه كان في عصر ضعفت فيه شوكة العرب واصبحت اكثر البلدان الاسلامية في ايدي أمراء من الفرس والترك ، فأوقد ذلك في نفوس العرب غيرة قومية زادها اضطراماً تلك المشادّة بين الشعوبية والعربية ، وما كان يرمي اليه الفريقان من الانفراد بالذكر والفخر : ولا نعلم هل كان شاعرنا من الذين اشتبكوا في هذه المعركة الكلامية ام لا ، ولكننا نعلم انه كان متعصباً للعرب والحياة العربية . وقد قوّى هذا التعصب فيه اقامته في البادية مدة طويلة وتعوُّد عاداتها ، ثم اتصاله بسيف الدولة زعيم العرب في عصره . ولذا يكثر في شعره الفخر بأصله العربي وذم الاعاجم ، كقوله وقد جرى ذكر ما بين العرب والاكراد من الفضل ، فقال مخاطباً سيف الدولة :

ان كنت عن خير الانام سائلا　　فخيرهم اكثرهم فضائلا
من كنت منهم يا همام وائلا　　الطاعنين في الوغى اوائلا
والعاذلين في الندى العواذلا　　قد فضلوا بفضلك القبائلا

وفي قصائده لسيف الدولة تراه يكرر كثيراً ذكر العرب مفاخراً بهم كقوله :

رفعت بك العرب العماد وصيَّرت　　قمم الملوك مـــواقد النيران
انساب فخرهم اليك وإنما　　انساب اصلهم الى عدنان

ومثل ذلك كثير في شعره . ومن أمثلة تعصّبه للعرب قوله يمدح علي ابن ابرهيم التنوخي :

احقُّ عافٍ بدمعك الهمم　　احدثُ شيءٍ عهداً بها القدم
وانمـــا الناس بالملوك وما　　تصلح عُربٌ ملوكها عجم

لا أدبٌ عندهم ولا حسب ولا عهود لهم ولا ذمم
لكل ارض وطئتها امم تُرعى بعبد كأنها غنم

وتظهر نزعته البدوية في مدحه للاعرابيات ومقابلتهن بالحضريات ، وله في ذلك أبيات مشهورة نذكر بعضها هنا وهي من قصيدته « من الجآذر في زي الاعاريب » :

ما اوجه الحضر المستحسنات به كأوجه البدويات الرعابيبِ
حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب
أين المعيز من الآرام ناظرةً وغير ناظرةٍ في الحسن والطيب
افدي ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

وقوله :

إن الذين اقمتَ وارتحلوا أيامهم بديارهم دول
الحسن يرحل حيثما رحلوا معهم ، وينزل حيثما نزلوا
في مقلتي رشأٍ تديرهما بدوية فتنت بها الحلل
تشكو المطاعم طول هجرتها وصدودها ومن الذي تصل ؟
ما اسأرت في القعب من لبن تركته وهو المسك والعسل

فالمتنبي يمثل في شعره عواطف العرب وخيالاتهم ، وهو كثير التحنان الى معيشتهم فخور بنسبه اليهم (وقد دعا نفسه في قصيدته — مغاني الشعب — « الفتى العربي ») . يرى في فرسانهم منتهى الشجاعة وفي حِسانهم غاية الجمال . فتراه من هذا القبيل يخالف ابا نواس وسواه من الذين عاشروا الجواري الاعجميات وانغمسوا في اللهو معهنّ .

وعلى ذكر الجواري واللهو نقول انك لا تجد في حياة المتنبي او شعره ما يدل على ميلٍ الى ترف او عبث ، فقد عاش منذ صباه جاداً رزيناً لا يهتم بما كان يهتم به اكثر الشعراء من شرب مدام او مغازلة حسان ، او انصراف الى المطربات من الالحان .

كقوله :

وغير فؤادي للغواني رميّة وغير بناني للزجاج ركابُ [1]
تركنا لاطراف القنا كل شهوة فليس لنا الا بهن لعاب
أعزّ مكان في الدنى سرج سابح وخير جليس في الزمان كتاب

وخلاصة المعنى اني غير غزل بالنساء او محب للخمر قد قصرت نفسي على الجد في طعان الاعداء وتركت ما تشتهيه الانفس من الملاهي .

وكان جدّه مقروناً بالصدق والصراحة . قال ابن جنّي : « ما عرفت المتنبي إلا صادقاً [2] » .

وهنا لا بد من القول ان بعض المؤرخين يزعمون ان اباه كان سقّاءً في الكوفة [3] . ومما قيل فيه :

أي فضل لشاعر يطلب الفضل من الناس بكرةً وعشيا
عاش حيناً يبيع في الكوفة الماء وحيناً يبيع ماء المحيّا

على اننا اذا دققنا في ذلك نجد ان أهم الثقات الذين دوّنوا سيرة المتنبي يمرّون بهذا الزعم مرور المشكّك . فالثعالبي مثلاً ، وهو كما مرّ بنا قريب العهد بالشاعر (بل يكاد يكون معاصراً له) لم يزد على ان قال : « وبلغ أبا الحسين ابن لنكك بالبصرة ما جرى على المتنبي من وقيعة شعراء بغداد فيه واستحقارهم له ، وكان حاسداً له طاعناً عليه زاعماً ان اباه كان سقّاءً « بالكوفة [4] » . وفي رواية الثعالبي ما يُشعر بشكه في صحتها . ومثل الثعالبي ابن خلكان فانه لما أورد هذا الخبر قال : « ويقال ان ابا المتنبي كان سقّاءً بالكوفة ثم انتقل الى الشام بولده [5] » . ويقول البديعي

١ ويرويها ابن جني للرخاخ (من أدوات الشطرنج) .
٢ الخصائص ١ – ٢٤٨ .
٣ وفيات الاعيان ١ – ٦٥ واليتيمة ٨٦ .
٤ اليتيمة ١ – ٧٦ .
٥ وفيات الاعيان ١ – ٦٥ .

« وكان والده الحسين يعرف بعبدان السقّاء » ، ثم ينقل عن ابن خلكان ما ذكره عن ابن لنكك وطعنه على المتنبي[1] . وفي ايضاح المشكل للاصبهاني « انه كان في الكوفة يختلف الى كتاب فيه اولاد الاشراف[2] ». فاذا دققت في هذه الروايات لم تجد فيها خبراً مجزوماً فيه ، بل لا تجد الا أقوالاً يصح ان نشكك فيها ، ويزيدنا تشكيكاً ان سقّاءً بالكوفة لا يحظى عادةً بوضع ولده في مكاتب الاشراف ، ولا ينتقل به الى بلد بعيد ، فيردّده بين المدن والقبائل . ولسنا هنا بمعرض الدفاع عن والده وتنزيهه عن تعاطي مهنة كالسقاية ، ولكننا لا نستطيع الا ان نظهر شكّنا بذلك اعتماداً على الروايات التي بين أيدينا .

على ان الرجل كان على ما يظهر فقير الحال مغمور الذكر ، ومع ذلك لم يتأخر عن تسهيل وسائل العلم لولده ، فنشأ الولد (شاعرنا) بين المكاتب والوراقين . ولما ترعرع ونال من الادب قسطاً ظهرت عليه بوادر الطموح الى العلى ، ورأى تطاول المماليك والموالي على أسيادهم ، وكثرة القائمين بالدعوات في المملكة العباسية والامارات المختلفة ، فحدثته نفسه ان يقوم بأعراب البادية ، وملكه هذا الوهم حتى حُبس وتاب . ولكن حب الرياسة والولاية بقي يدور في رأسه[3] ، وهو القائل من قصيدة لكافور :

وفؤادي من الملوك وان كان لساني يُرى من الشعراء

شهرته الشعرية

لم ينل شعر عربي من الشهرة ما ناله شعر المتنبي ، فهو بعيد الأثر في حلقات الادب شائع بين جميع الطبقات . ولم يكن حظه في عصره

---

١ الصبح المنبي ١ – ٦ و ١٧٨ .
٢ راجع خزانة الادب ج ١ – ٣٨٢ .
٣ اليتيمة ١ – ٨١ .

بأقل من حظه اليوم. قال الثعالبي: «فليس اليوم مجالس الدرس أعمر بشعر ابي الطيب من مجالس الأنس، ولا أقلام كتّاب الرسائل أجرى به من ألسن الخطباء في المحافل، ولا لحون المغنين والقوالين أشغل به من كتب المؤلفين والمصنّفين. وقد أُلِّفت الكتب في تفسيره وحل مشكله وعويصه، وكثرت الدفاتر على ذكر جيده ورديئه، وتكلم الافاضل في الوساطة بينه وبين خصومه، والافصاح عن ابكار كلامه وعُونه، وتفرّقوا فرقاً في مدحه والقدح فيه، والنضح عنه والتعصب له وعليه. وذلك أول دليل دل على وفور فضله وتقدم قدمه، وتفرده عن أهل زمانه بملك رقاب القوافي ورقّ المعاني»[1]. وبعد موت المتنبي بأكثر من قرن نرى الواحدي يقول في مقدمة شرحه: «وان الناس منذ عصر قديم قد ولّوا جميع الاشعار صفحة الإعراض مقتصرين منها على شعر ابي الطيب نائين عما يروى لسواه».

ومن دلائل شهرته ان كبار المترسلين في زمانه وبعده كانوا يستعينون بألفاظه ومعانيه، ومنهم خصمه ابن عبّاد، وابو بكر الخوارزمي، وابو اسحق الصابي، وابو العباس ابرهيم الضبّي[2]. وقال ابن خلكان: «واعتنى العلماء بديوانه فشرحوه، وقال لي احد المشايخ الذين أخذت عنهم: وقفت على اكثر من اربعين شرحاً ما بين مطوّلات ومختصرات ولم يفعل هذا بديوان غيره[3]».

ولما تناول البديعي شهرته نقل ما أوردناه من كلام الثعالبي وزاد عليه اسماء شرّاحه ونقّاده (مثبتاً بذلك كلام ابن خلكان) ومنهم:

ابن جنّي — وهو تلميذه وأول من شرحه.

أبو العلاء المعري — وله في ذلك: اللامع العزيزي، ومعجز احمد،

---

١ اليتيمة ١ : ٧٨ .

٢ راجع أمثلة ذلك في اليتيمة ١ : ٨٧ .

٣ وفيات الاعيان ١ — ٦٣ .

وكان من المعجبين بالمتنبي .

الواحدي – المتوفى ٤٦٨ – صاحب الشرح المشهور .

ابو زكريا التبريزي – ٥٠٢ – تلميذ المعري وشارح المعلقات والحماسة .

القاضي ابو الحسن الجرجاني – ٣٦٦ – صاحب الوساطة بين المتنبي وخصومه .

العكبري – ٦١٦ – صاحب الشرح المشهور .

ومنهم ابن فورجه البروَجردي ، والصاحب ابن عباد ، والمغربي صاحب الانتصار ، والحاتمي ، والعميد صاحب الابانة ، وابن الاثير صاحب الاستدراك على ابن الدهان . ويسوق البديعي اسماءهم الى آخر القائمة ثم يقول : « سوى الشروح التي لم نسمع بذكرها . ولم يسمع بديوان شعر في الجاهلية ولا في الاسلام شرح مثل هذه الشروح الكثيرة ولا تدوول في ألسنة الادباء من نظم ونثر أكثر من شعر المتنبي [١] » .

ولابن رشيق القيرواني صاحب العمدة جملة مشهورة في المتنبي وهي : « ثم جاءَ المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس » . وطبيعي انه لم يشغل الناس على غير طائل ، وما تصدّى له خصومه او دافع عنه مريدوه إلا لعلو مكانته ولبعد صيته ، حتى أصبح غرضاً لأقلامهم وغاية تتسابق اليها جيادهم .

وإذا رجعت الى قائمة شرّاحه ونقّاده العديدين تجدهم ثلاث فرق :

١ – الذين تحاملوا عليه وراموا الحط من قدره ، ومنهم الصاحب بن عباد والحاتمي والعميدي وابو هلال العسكري وابو الفرج الاصفهاني ، ولعل ذلك كان سبباً لاغفال ذكره في كتابه الاغاني .

٢ – الذين لهجوا بفضله وبالغوا باكرامه ، ومنهم ابن جنّي وابن

---

١ الصبح المنبي ١ : ٤٢٣ – ٤٢٧ .

رشيق والواحدي والمعري وابن وكيع والعكبري وابن خلكان والبديعي .

٣ – المعتدلون الذين راموا التوفيق بين الطرفين ومنهم الجرجاني والثعالبي وابن الاثير وهم الى قائمة مدّاحه أميل .

تناول هؤلاء العلماء شعر المتنبي وأسهبوا في ذكر حسناته وسيّئاته – والغالب فيهم ان يحذو المتأخر حذو المتقدم – حتى لم يتركوا زيادة لمستزيد على انهم قصروا همّهم على النقد اللغوي والبياني ولا سيما على السرقات الشعرية ، ولهم في هذه الاخيرة خبط وأوهام لا طائل تحتها . وقد أجاد البديعي في التمييز بين الممدوح والمذموم من ذلك ، وبحث في هذه المسألة بحث المنطقي المحقق [١] . وخلاصة ما ذكروه ان للمتنبي حسنات وسيئات ، وان حسناته تنحصر فيما يلي :

(١) دقة الاشارة (٢) حسن التخلص (٣) حسن اختراع المعاني (التشابيه والاستعارات) (٤) وصف القتال وادواته (٥) حسن ضرب المثل .

ويقابلها من السيئات :

(١) التعمية او الابهام في الكثير من أبياته (٢) شذوذه اللغوي [٢] (٣) تكلفه وتعسفه (٤) جمعه بين البليغ والسفساف في القصيدة الواحدة.

وأمثلة الوجهين كثيرة تجدها في اليتيمة والوساطة والصبح المنبي وسواها . ولليازجي رسالة وافية في ذيل شرحه (العرف الطيّب) تناول فيها أقوال النقدة وعرضها عرضاً بليغاً .

وقد اشتهرت أقوالهم في ذلك فلتراجع في مظانها ، على انه لا بد من القول ان ما ذكروه من حسنات وسيئات يصدق على كل شاعر تقريباً وقد

---

١ الصبح المنبي ١ : ٢٧٤ – ٣١٩ .

٢ راجع قول ابن رشيق العمدة ١ – ٨٧ . وقال العسكري في الصناعتين ١١٩ « لا أعرف أحداً كان يتتبع العيوب فيأتيها غير مكترث لها إلا المتنبي » .

ورد معنا أمثلة ذلك في الكلام على أبي تمام والبحتري مما يعدّ العود اليه الآن تكراراً لا فائدة منه .

شخصيته الشعرية

بقي علينا ان ننظر في شعر المتنبي من حيث انه مظهر لشخصية تاريخية تتأثر بالمؤثرات الخارجية .

وهو عند التحقيق أربعة أطوار :

الطور الاول – يمثل عواطف الشباب ونفثات الألم من الزمان ، وقد نظم في أنحاء مختلفة من بلاد الشام وفلسطين والعراق ، ويمتدّ من زمن الحداثة الى الرابعة والثلاثين من عمره .

الطور الثاني – شعره في حلب . نظمه وهو بين الرابعة والثلاثين والثالثة والأربعين ، وهو يمثل : (١) عواطف العظمة والجهاد القومي كما يظهران في سيف الدولة (٢) عواطف الفوز بالدنيا والقلق من الحساد كما تظهر في نفسه .

الطور الثالث – شعره في مصر . نظمه بين الثالثة والاربعين والسابعة والاربعين ، وهو يمثل غيظه من الماضي وآماله الكبيرة بالمستقبل ثم مرارته لفشله .

الطور الرابع – شعره في العراق وفارس . نظمه بين السابعة والاربعين والحادية والخمسين ، أمّا في العراق فذكريات سيف الدولة ، وأما في فارس فانتعاش أمل لم يلبث ان اخمده الحمام . واليك بيان ما تقدم والتدليل عليه من شعره .

عواطف الشباب ونفثات الالم من الزمان

رأينا في سيرته انه ولد طموحاً متهوّساً بالمجد ، وانه ظل بعد خروجه من السجن حتى الرابعة والثلاثين من عمره فقير الحال يجوب الاقطار معرّضاً

نفسه للأخطار والاهوال ، فلم ينل من الدنيا مراماً . في هذا الطور يكثر في شعره ذكر المجالدة والاقدام والفخر بالرجولة ، ويقرن ذلك بذم الزمان وأهله والسخط على أولي الأمر من رؤساء وأمراء ، حتى جعل ابن رشيق أهمّ مزاياه الامثال وذم الزمان [1] ..وفيه نرى الكثير من الحكم البالغة التي تهيب بالشباب الى طلب العلى وتحمّل المشاق والبعد عن مواطن الذل والضيم . فمن قوله في الإقدام وتحمل المشاق :

ومهمهٍ جبته على قدمي تعجز عنه العرامس الذُّلل
بصارمي مرتدٍ بمَخبُرتي مجتزىء بالظلام مشتمل
اذا صديق نكرت جانبه لم يُعيني في فراقه الحيل
في سعة الخافقين مضطربٌ وفي بلاد من اختها بدل

ومن هذا القبيل يذكر سيره في البوادي ويصف عزة نفسه وشجاعته ويذم الزمان :

أواناً في بيوت البدو رحلي وآونةً على قتــد البعيرِ
أعرّض للرماح الصمّ نحري وانصب حُرّ وجهي للهجير
وأسري في ظلام الليل وحدي كأني منهُ في قمر منير
فقل في حاجة لم أقض منها على شغفي بها شروى نقير
ونفسٍ لا تجيب الى خسيس وعينٍ لا تدور على نظير
وقلّة ناصرٍ – جوزيتَ عني بشرٍّ منك يا دهر الدهور

ومثل ذلك قوله يصف جلَده ومضاء عزمه :

يحاذرني حتفي كأنيَ حتفــه وتنكزني الأفعى فيقتلها سمّي
طوال الرّدينيات يقصفها دمي وبيض السُريجيّات يقطعها لحمي
برتني السرى بري الُمدى فرددنني أخفَّ على المركوب من نفَسٍ جرمي
وأبصرَ من زرقاء جوٍّ لأنني متى نظرت عيناي ساواهما علمي

---

[1] العمدة ١٩٤ .

كأني دحوت الارض من خبرتي بها كأني بنى الاسكندرُ السدّ من عزمي

وقال في أهل زمانه مستخفاً بهم وبأمرائهم وهو في هذا الطور يكثر اللهج بذلك ويغلو فيه :

فؤاد ما تسلّيه مدام وعمر مثل ما تهب اللئامِ
وما انا منهمُ بالعيش فيهمْ ولكنْ معدن الذهب الرّغام
أرانب غير انهم ملوك مفتّحة عيونهم نيام
خليلك انت لا من قلت خلّي وان كثر التجمّل والكلام
وشبه الشيء منجذب اليه وأشبهنا بدنيانا الطغام

وعلى هذا الوتر يضرب في قصيدته الشهيرة « بأبي الشموس الجانحات غوارباً » فيذكر الزمان وتحامله عليه ويقول :

كيف الرجاء من الخطوب تخلصاً من بعد ما أنشبن فيّ مخالبا
أوحدنني ووجدن حزناً واحداً متناهياً فجعلنه لي صاحبا
ونصبنني غرَض الرّماة تصيبني محن أحدُّ من السيوف مضاربا
اظمتنيَ الدنيا فلما جئتها مستسقياً مطرت عليّ مصائبا

وللمتنبي ثلاث قصائد تمثل خوالج نفسه في هذا الطور أفضل تمثيل : الاولى في علي بن أحمد المرّي ومطلعها – لا افتخار إلا لمن لا يضام – نقتطف منها هنا الابيات التالية :

ليس عزماً ما مرّض المرء فيه ليس همّاً ما عاق عنه الظلام [1]
واحتمال الأذى ورؤية جانيه غذاء تضوى به الأجسام
ذلّ من يغبط الذليل بعيشٍ ربّ عيش أخفُّ منه الحمام
من يهنْ يسهل الهوان عليه ما لجرحٍ بميّت إيلام
ضاق ذرعاً بأن اضيق به ذرعاً زماني واستكرمتني الكرام
واقفاً تحت أخمَصَيْ قدر نفسي واقفاً تحت اخمصيّ الانام

---

١ مرض اي قصر .

أقراراً ألذّ فوق شرار   ومراماً أبغي وظلمي يُرامُ
دون أن يَشرق الحجاز ونجدٌ   والعراقان بالقنا والشآم

والثانية في أبي عبيد الله الخصيبي قاضي انطاكية – مطلعها : « افاضل الناس أغراض لذا الزمن » يذم فيها الناس وأمراءهم ، ويصف عزمه ودهاءه وصحبته للاعراب ومضاءه في طلب العلى ومنها :

لا اقتري بلداً الا على غـَرَر   ولا أمرّ بخلق غير مضطغنِ
ولا اعاشر من املاكهم ملكاً   الا احقّ بضرب الرأس من وثن
قد هوّن الصبر عندي كل نازلة   وليّن العزم حدّ المركب الخشن
كم مَخلص وعُلى في خوض مهلكة   وقتلة قرنت بالذمّ في الجبن
لا يعجبنّ مَضيماً حسن بزّته   وهل تروق دفيناً جودة الكفن
لله حال ارجّيها وتخلفني   واقتضي كونها دهري ويمطلني
مدحت قوماً وان عشنا نظمت لهم   قصائداً من اناث الخيل والحصن

والثالثة في علي بن أحمد بن عامر الانطاكي – وفيها تتجلى خوالج الشباب بأجلى ظواهرها : ترى نفسه تنتفض كبراً وتيهاً ، ويتجسم لديك ما فيها من مطامع وآمال . والقصيدة مشهورة نذكر منها على سبيل المثال الثانية الابيات الاولى :

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر   وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبرُ
وأشجع منّي كل يوم سلامتي   وما ثبتت الا وفي نفسها أمر
تمرستُ بالآفات حتى تركتُها   تقول أمات الموت ام ذُعِر الذعر
وأقدمت إقدامَ الأتيّ كأن لي   سوى مهجتي او كان لي عندها وِتر
ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها   فمفترق جاران دارُهما العمر
ولا تحسبنّ المجد زقاً وقينةً   فما المجد الا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وان تُرى   لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركُك في الدنيا دويّاً كأنما   تداول سمعَ المرء انمله العشر

* * *

وبما يلاحظ هنا تلك المرارة التي صحبته كل أيام حياته ، وكان منشأها طمعه وما تكبّده من المشاق على غير طائل ، ولا سيما في هذا الطور من حياته . فكان شعره الوجداني الحقيقي ، أعني الذي يعبّر عن عواطف نفسه مظهراً لما في نفسه من كبرياء حوّلها الفشل الى نقمة وسوء ظن . كقوله :

فما لي وللدنيا طلابي نجومها ومسعاي منها في شدوق الأراقم
ومن عرف الايام معرفتي بها وبالناس روّى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم اذا ظفروا به ولا في الردى الجاري عليهم بآثم

شعره في حلب

وهو كما ذكرنا يظهر في مظهرين كبيرين : (١) الجهاد القومي والشجاعة الحربية (٢) شعور الشاعر بالفوز وحمله على الحساد .

ترى روح الجهاد القومي والحربي في أكثر مدائحه لسيف الدولة ، ولا بدع فقد كان سيف الدولة مجاهداً شجاعاً وكانت حياته حرباً متواصلةً على الروم . وقد صحبه المتنبي واختبر بنفسه عظائم الحرب وأهوال الوقائع : رأى الجيوش في ساحة الحرب وخاض غمار القتال مع المجاهدين ، فشاهد الأبطال تشتبك بالأبطال والفرسان تطارد الفرسان ، والسيوف والرماح تسيل بدماء الأعداء — هبط الأودية وصعّد في النجود وذاق مرارة الهزيمة ولذّة الظفر فأبدع في وصف ذلك غاية الابداع . ولقد صدق ابن الأثير اذ قال في الحكم على شعره : « انه اذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى تظن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا . فطريقه في ذلك تضلّ بسالكه وتقوم بعذر تاركه . ولا شك انه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة ابن حمدان فيصف لسانه ما أدى عيانه »[١] .

---

١ المثل السائر ٤٧١ .

وقال ابن رشد في ترجمة كتاب الشعر لأرسطو ذاكراً وصف الحروب والوقائع « والمتنبي أفضل من يوجد له هذا الصنف من التخيّل . وذلك كثير في أشعاره ، ولذلك يحكى عنه انه كان لا يريد ان يصف الوقائع التي لم يشهدها مع سيف الدولة [1] » .

ولقد ترك لنا من شعره الحربي كثيراً من القصائد الخالدة : يقف فيها معلناً عظمة الاسلام في شخص الممدوح ، حاملاً على أعداء الخلافة ، مثيراً للحماسة القومية . ويتخلل كل ذلك من الحكم البليغة ما يناسب المقام وينفذ الى اعماق النفوس . ولولا شهرة هـــذه القصائد وتوفّر طلاب الأدب على تدارسها وحفظها لأتينا بالأمثلة الكثيرة على شعر المتنبي في هذا الطور ، ولكننا نجتزىء هنا بالاشارة الى القصائد التي مطلعها :

غيري بأكثر هذا الناس ينخدع
فديناك من ربع وان زدتنا كربا
لياليّ بعد الظاعنين شكول
لكلّ امرىء من دهره ما تعوّدا
دروع لملك الروم هذي الرسائل
على قدر أهل العزم تأتي العزائم
الرأي قبل شجاعة الشجعان
عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم
ذي المعالي فليعلوَنْ من تعالى

وكلها مما يجب على المتأدب درسه وحفظه والتأمل في روائع معانيه .

أما شعور الشاعر بالفوز والتفوّق وحمله لذلك على الحساد فيظهر في مثل قوله لسيف الدولة :

انا السابق الهادي الى ما أقوله ... اذ القول قبل القائلين مقول

---

١ راجع « مقالات على علم الادب » لشيخو ٢ – ٢٨٠ .

أعادى على ما يوجب الحبّ للفتى　　واهدأ والافكار فيّ تجـــولُ
سوى وجع الحسّاد داوِ فإنه　　اذا حلّ في قلب فليس يحول
ولا تطمعن من حاسدٍ في مودةٍ　　وان كنت تبديها له وتنيل
وإنّا لنلقى الحادثات بأنفس　　كثير الرّزايا عندهنّ قليل

وقوله :

أزلْ حسد الحسّاد عني بكبتهم　　فأنت الذي صيّرتهم لي حسّدا
اذا شدّ زندي حسن رأيك فيهم　　ضربتُ بسيف يقطع الهام مغمدا
وما الدهر الا من رواة قصائدي　　اذا قلت شعراً اصبح الدهر منشدا

وأقواله في ذلك كثيرة ، وأشدّها قصيدته الميمية – وا حرّ قلباه – وقد نشأ هذا الشعور مع المتنبي ورافقه كلّ أيام حياته ، ولكنه يظهر على أشدّه في هذا الطور ، وفيه أكثر ما تركه المتنبي من هـــذه النفثات الأليمة .

شعره في مصر

وهو يمثل لنا عواطف الغيظ من الماضي والأمل بالمستقبل ، وفيه تتجلى عبقرية المتنبي على أتمها – من دقة في الاشارة وروعة في المعاني وجمال في التوقيـع .

فبينا ترى شعره في الطور الاول يكثر فيه التعقيد اللفظي والمعنوي ، وفي حلب يتكلف أحياناً استعمال الغريب للدلالة على غزارة علمه ، تراه في مصر صقيلاً خالصاً من هذه الشوائب جارياً على الطبيعة . فهو يمثل غاية ما بلغه المتنبي من البلاغة . وقد أخطأ البديعي اذ قال : « ان احسن شعره في سيف الدولة وقد تراجع شعره بعد ذلك » [1] ، فان المدقق يرى في « كافورياته » من جلال المعنى وجمال الصياغة ما يشهد انه بلغ به كمال النضج . واننا نجاري في ذلك اليازجي اذ قال : « على انك اذا

---

[1] الصبح المنبي ١ – ٨٧ .

تفقدت تلك المعجمات من أبياته فأكثر ما تجدها في أوائل شعره حين لم تستحكم فيه ملكة النظم ولم تطـّرد له وجوه التعبير . وما أحسب المتنبي إلا كان في صدر أمره يتوخى طريقة أبي تمام ، فكان ينحو نحوه في الحوم على موارد الاغراب والتنقيب عن الوحشي من حِكم الجاهلية ، والتورّك على الصيغ الشاذة والتحذلق في اسلوب الخطاب » — الى ان يقول عن شعره في حضرة سيف الدولة : « انه كان هناك في محفل حافل بالعلماء والشعراء والمنتقدين ، ولذلك لم يكن بدّ من حشد القريحة في مدح سيف الدولة والاكثار من التنطـّس في ألفاظه ومعانيه . ثم اذا انتقلت الى شعره في كافور وجدته قد عاد الى السهولة والرشاقة [1] » .

ويكفي للدلالة على ذلك ان تراجع القصائد التالية :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا

فراق ومن فارقت غير مذمم

من الجآذر في زي الاعاريب

أودّ من الايام ما لا تودّه

اغالب فيك الشوق والشوق اغلب

مُنى كن لي ان البياض خضابُ

فان هذه القصائد « الكافورية » من أسلس قصائده واملإها معنى وأجلها إيقاعاً . ومن بدائعه في هذا الطور ميميّته المشهورة في وصف حاله في مصر ووصف حمّى أصابته ، نظمها وهو في الخامسة والاربعين فجاءت غاية الغايات من حسن الانسجام ودقة التعبير وحسن الاختراع ، وقد أدرجت في باب المختارات من شعره فلتراجع هناك .

الطور الأخير

ويمثله شعره في العراق وفارس ، وهو عموماً أحط من شعره في حلب

---

١ بتصرف عن رسالته في ذيل شرحه للديوان ٦٦٦ — ٦٧١ .

وفي مصر . يشعر فيه المتأمل بتراخي نَفَسه الشعري ورجوعه أحياناً الى التعسف والتكلف ، فكأنه بلغ أوجه الشعري في الخامسة والأربعين من عمره ثم أخذ بالانقلاب البطيء : قد يكون للسن تأثيرها في ذلك ولكن مما لا شك فيه انه كان لفشله في مصر ، ثم ما لاقاه في بغداد أثرٌ في خضد شوكته ، وتخفيف تلك النائرة الشعرية فيه .

خاتمة في شعره الحكمي

أجاد المتنبي في كل انواع الشعر العربي من مدح وغزل وفخر ورثاء ووصف وهجاء ، وله في الرثاء خاصة مكانة سامية تشهد له بذلك مراثيه التي تعد من أفضل المراثي في الأدب العربي ومنها :

نعد المشرفية والعوالي
يا أخت خير أخ يا بنت خير أب
الحزن يقلق والتجمّل يردع
وكلّها مشهورة تجري أكثر أبياتها على ألسنة الأدباء .

على ان المتنبي الحقيقي انما هو تلك الصورة التي نرسمها من قراءَة حكمه ، وفهم علاقتها بالزمان ، تلك الحقائق الأدبية والاجتماعية الناصعة المعقودة في أرشق الألفاظ وأسلس التعابير . نعم انها منتشرة في تضاعيف قصائده ، متفرقة بين أغراضه المختلفة ، ولكن لها علاقة حيوية بكل مقام يكون فيه الشاعر . واذا ألقينا عليها نظرة عامة وحاولنا ان نستخلص منها صورة لشاعرنا الكبير وجدنا فيها ألواناً مختلفة تنعكس عن شيء واحد هو « نزعته الفطرية » ، تلك الطبيعة التي كانت تحاول التعالي والحصول على القوة ، ثم لا تلبث ان تعود وفيها شيء من المرارة والألم .

كان للمتنبي غرض كبير في الحياة — المجـــد — لأجله ظهر غروره صغيراً ، ولأجله جاب الأقطار كبيراً ، ولأجله صحب الملوك وحشد المال حتى تعالى عن طبقة الشعراء ، وساوى نفسه بممدوحيه من الأمراء .

ولكنه فشل ، وفي سعيه وفشله عرف الحيـــاة واختبر حقيقة المجتمع البشري ، فنظم ذلك لنا حكماً غالية أدرك الناس صحتها ، فتداولتها ألسن الزمان في كل مكان ، وأصبحت على كرور الأيام أمثالاً يردّدها الخاص والعام .

غرّ المتنبي سراب الدنيا فسعى وراءَه ، وطوى في ذلك السعي شبابه ورجوليته . فإذا الدنيا سراب واذا السعي وراء الباطل باطل . على اننا لنحمد الأقدار على هذا السراب وهذا الباطل ، فلولاهما لما كان لنا شاعر الحكمة الكبير ، ولما تحدّر الينا منه ذلك الميراث الأدبي الخالد .

المختار من شعر المتنبي

نفس عزيزة شديدة المطامع تدفعها شهوة الدنيا الى طلب المجد والقوة، فتندفع اليها بعزم الفارس المقدام. ثم لا تلبث ان تصطدم بالفشل فترتدّ على أعقابها دقيقة المعرفة بحوادث الزمان، صائبة النظر في عواطف الانسان – تلك هي حكم المتنبي البليغة وخوالج نفسه الكبيرة.

نزعات شبابه

كم قتيلٍ كما قُتلت شهيدِ　　لبياض الطُّلى وورد الخدودِ
وعيون المهى ولا كعيونٍ　　فتكت بالمتيَّم المعمود
درّ درّ الصِّباءِ – أيامَ تجرير ذيولي بدار اثلة، عودي [1]
عَمرَكَ الله هل رأيت بدوراً　　طلعت في براقع وعقود
راميات بأسهم ريشها الهد　　بُ تشقّ القلوب قبل الجلود
يترشّفن من فمي رشفاتٍ　　هنّ فيه حلاوة التوحيد [2]
كلّ خُمصانةٍ ارقّ من الخمر بقلبٍ أقسى من الجلمود [3]

---

١ ايام منادى اي أيتها الايام التي كنت اجرر فيها ذيولي مرحاً في دار اثلة، عودي الي.

٢ التوحيد نوع من التمر.

٣ الخمصانة الضامرة او النحيلة.

ذات فرع كأنما ضُرب العنبر فيه بماء ورد وعودِ [1]
حالكٍ كالغداف جثلٍ دجوجيٍّ أثيثٍ جعدٍ بلا تجعيد [2]
تحمل المسك عن غدائرها الريح وتفترّ عن شنيب برود [3]
جمعت بين جسم أحمدَ والسّقمِ وبين الجفون والتسهيد [4]

* * *

هذه مهجتي لديكِ لحَيني فانقصي من عذابها او فزيدي
كل شيء من الدماءِ حرام شربه ما خلا ابنةَ العنقود
فاسقنيها فدى لعينيك نفسي من غزالٍ وطارفي وتليدي
شيب رأسي وذلّتي ونحولي ودموعي على هواك شهودي
أيّ يوم سررتني بوصال لم ترُعني ثلاثةً بصدود

* * *

ما مقامي بأرض نخلة إلاّ كمقام المسيح بين اليهود [5]
مفرشي صهوة الحصان ولكنّ قميصي مسرودةٌ من حديد
أين فضلي اذا قنعت من الدهر بعيش معجّل التنكيد
ضاق صدري وطال في طلب الرزق قيامي وقلّ عنه قعودي
أبداً أقطع البلاد ونجمي في نحوسٍ وهمتي في سعود
عش عزيزاً أو مت وانت كريم بين طعن القنا وخفق البنود
فرؤوس الرماح اذهب للغيظ واشفى لغلّ صدر الحقود
لا كما قد حييت غيرَ حميد واذا متّ متّ غير فقيد
فاطلب العزّ في لظى ودع الذلّ ولو كان في جنان الخلود
يُقتل العاجز الجبان وقد يعجز عن قطع بُخنُقٍ [6] المولود

---

١ والفرع الشعر .
٢ الغداف الغراب .
٣ شنيب برود أي ثغر لطيف عذب الماء .
٤ أحمد اسم الشاعر .
٥ أرض نخلة قرية لبني كلب .
٦ البخنق خرقة يقنع بها الرأس .

ويوقّى الفتى المِخَشُّ وقد خوّض في ماء لَبّةِ الصنديدِ [1]
لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي
وبهم فخر كلّ من نطق الضّاد وعَوذ الجاني وغوث الطريد
ان أكن معجَباً فعجب عجيبٍ لم يجد فوق نفسه من مزيد
انا تِرب الندى وربّ القوافي وسمام العدى وغيظ الحسود
أنا في أمّـــة – تداركها الله – غريبٌ كصالح في ثمود [2]

وصف الأسد

وكيف صرعه بدر بن عمّار ، وذلك على ضفاف الاردن قرب طبريا

في الخدّ أنْ عزم الخليط رحيلا مطر تزيد به الخدود محُولا [3]
يا نظرةً نفتِ الرقاد وغادرت في حدّ قلبي ما حييت فلولا
كانت من الكحلاء سؤلي انما اجَلي تمثّل في فؤادي سولا [4]
أجد الجفاء على سواكِ مروءة والصبرَ الاّ في نواكِ جميلا
وأرى تدلّلك الكثير محبباً وأرى قليل تدلّلٍ مملولا
حدقُ الحسان من الغواني هجن لي يوم الفراق صبابةً وغليـــلا
حدق يُذمّ من القواتل غيرها بدرُ بن عمار بن اسماعيلا [5]
الفارج الكُرَب العظام بمثلها والتارك الملـــك العزيز ذليلا
رقّت مضاربه فهنّ كأنما يبدين من عِشق الرقاب نحولا

* * *

امعفّرَ اللّيث الهِزبْر بسوطه لمن ادّخرت الصارم المصقولا

---

١ أي يوقى الشجاع المغامر وقد خاض في دماء الابطال .
٢ صالح نبي أرسل الى ثمود فلم يؤمنوا به ولم يصغوا الى أقواله .
٣ لأن العشراء عزموا على الرحيل هطل مطر الدموع على خدي فزاده محولاً (بعكس مطر السماء الذي يزيد خصب الأرض) .
٤ كانت هذه النظرة كل ما أسأله ولكن ما أسأله كان السبب في هلاكي .
٥ يذم يجير – أي ان الممدوح يجيرنا من كل قاتل سوى نظرات الحسان .

وقعت على الأردنّ منه بليّة ... نُضدت بها هام الرفاق تلولا
وَرْدٌ اذا ورد البحيرة شارباً ... وَرَدَ الفرات زئيره والنيلا
متخضّب بدم الفوارس لابس ... في غِيلهِ من لبدتيه غيـــلا [1]
ما قوبلت عيناه الا ظُنّتا ... تحت الدجى نار الفريق حلولا
في وحدة الرهبان الا انه ... لا يعرف التحريم والتحليلا
يطأ الثرى مترفّقاً من تيهه ... فكأنه آسٍ يجسّ عليلا
ويردّ عُفرته الى يافوخه ... حتى تصير لرأسه اكليــلا
وتظنه – ممّــا يزمجر – نفسُه ... عنها لشدة غيظه مشغولا [2]
قصرت مخافته الخطى فكأنما ... ركب الكميّ جواده مشكولا [3]
ألقى فريسته وبربر دونها ... وقربتَ قرباً خاله تطفيلا
فتشابه الخُلُقانِ في إقدامه ... وتخالفا في ذلك المأكولا [4]
أسد يرى عضويه فيك كليهما ... متناً أزلّ وساعـــداً مفتولا
ما زال يجمع نفسه في زوره ... حتى حسبت العرض منه الطولا
ويدقّ بالصدر الحجار كأنه ... يبغي الى ما في الحضيض سبيلا
وكأنه غرّته عـــين فادّنى ... لا يبصر الخطب الجليل جليلا
أنَفُ الكريم من الدنيئة تاركٌ ... في عينه العـــدد الكثير قليلا
والعار مضّاض وليس بخائف ... من حتفه من خاف مما قيلا
سبق التقاءكه بوثبة هاجم ... لو لم تصادمه لجـــازك ميلا
خذلتْه قوّته وقد كافحته ... فاستنصر التسليم والتجديلا
قبضتْ منيّته يديه وعنقه ... فكأنمـــا صادفتَه مغلولا

---

١ هذا الاسد فتك بالنـــاس وتخضب بدماء الفرسان وكنت تراه في غابة كأنما عليه غابة من شعره .
٢ وتظنه نفسه لكثرة زمجرته انه مشغول عنها .
٣ من شدة الخوف أصبح الجواد غير قادر عل الجري .
٤ تشابهتا في الاقدام وتخالفتا في انك كريم تبذل ما تصيده لسواك .

سمع ابن عمته به وبحاله فنجا يهرول أمس منك مهولا [1]
وأمرّ مما فرّ منه فراره وكقتله ان لا يموت قتيلا
تلفُ الذي اتخذ الجراءَة خلّـة وعظ الذي اتخذ الفرار خليلا

* * *

نطقتْ بسؤددِك الحمام تغنّياً وبما تجشّمُها الجياد صهيلا
ما كلّ من طلب المعالي نافذاً فيها ولا كلّ الرجال فحولا

بعض مدائحه في سيف الدولة

وهو يصوره في شعره بصورة البطل القومي والمجاهد الاكبر ضد الروم

قال يذكر بناءه مرعش سنة ٣٤١ ﻫ

فديناك من ربعٍ وان زدتنا كرْبا فانك كنتَ الشرق للشمس والغربا
وكيف عرفنا رسمَ من لم يدع لنا فؤاداً لعرفان الرسوم ولا لُبّا
نزلنا عن الاكوار نمشي كرامة لمن بانَ عنه ان نُلمّ به ركبا
نذمُّ السحابَ الغُرّ في فعلها به ونعرض عنها كلما طلعت عتبا
ومن صحِبَ الدنيا طويلا تقلّبت على عينه حتى يرى صدقها كذبا
وكيف التذاذي بالاصائل والضحى اذا لم يعدْ ذاك النسيم الذي هبّا
ذكرت به وصلا كأن لم أفزْ به وعيشاً كأني كنت اقطعُه وثبا
وفتّانةَ العينين قتّالة الهوى اذا نفحت شيخاً روائحها شبّا
فيا شوقُ ما أبقى ويا لي من النوى ويا دمع ما أجرى ويا قلب ما أصبى
لقد لعب البين المشتّ بها وبي وزوّدني في السير ما زوّد الضبّا [2]
ومن تكن الأسد الضواري جدوده يكن ليله صبحاً ومطعمُه غصبا
ولست أبالي بعد ادراكيَ العلى أكان تراثاً ما تناولت ام كسبا
فربّ غلامٍ علّم المجدَ نفسه كتعليم سيف الدولة الطعن والضربا

---

١ يشير الى أسد آخر هرب منه بعد هذه الحادثة .

٢ الضب حيوان معروف ويضرب به المثل في الحيرة . اي ان البين الذي فرقنا جعلني حائراً .

إذا الدولة استكفت به في مُلمّةٍ   كفاها فكان السيفَ والكفَّ والقلبا
تُهاب سيوفُ الهند وهي حدائد   فكيفَ اذا كانت نزاريّةً عُرْبا [١]
ويُرهب ناب الليث والليث وحده   فكيف اذا كان الليوث له صحبا
ويُخشى عُباب البحر وهو مكانه   فكيف بمن يغشى البلاد اذا عبّا
هنيئاً لاهل الثغر رأيك فيهـم   وأنك حزبَ الله صرت لهم حزبا [٢]
وانك رعتَ الدهرَ فيها وريبه   فان شكَّ فليحدث بساحتها خطبا
فيوماً بخيلٍ تطرد الرومَ عنهم   ويَوماً بجودٍ تطرد الفقر والجدْبا
سراياك تترى والدُمُستَق هاربٌ   وأصحابُه قتلى وأموالُه نُهبى [٣]
أتى مرعشاً يستقرب البعدَ مقبلاً   وادبرَ إذ أقبلتَ يستبعد القربا
كذا يترك الاعداءَ من يكره القنا   ويقفُلُ من كانت غنيمته رعبا
وهل ردّ عنه باللُّقانِ وقوفه   صدورَ العوالي والمطهَّمة القُبّا [٤]
مضى بعد ما التفَّ الرماحان ساعةً   كما يتلقّى الهدبُ في الرقدة الهدْبا [٥]
ولكنه ولّى وللطعن سورةٌ   اذا ذكرتها نفسُه لمسَ الجنبا

* * *

أرى كلنا يبغي الحياة لنفسه   حريصاً عليها مستهاماً بها صبّا
فحبُّ الجبان النفسَ اورَده البقا   وحب الشجاع الحربَ اورده الحربا
ويختلف الرزقان والفعلُ واحدٌ   إلى ان ترى احسان هذا لذا ذنبا [٦]

* * *

فأضحتْ كأنّ السورَ من فوق بدئهِ   الى الارض قد شقّ الكواكب والتربا [٧]

---

١ فكيف لا تهاب وهي عربية كريمة الاصل (اشارة الى سيف الدولة) .
٢ ليهنأ أهل الثغر بحسن رأيك وانك يا حزب الله قد صرت حزباً لهم .
٣ الدمستق زعيم الروم .
٤ و ٥ اللقان اسم مكان . والرماحان اي رماح الفريقين .
٦ في هذه الابيات الحكمية يشير الى هرب الدمستق واقدام سيف الدولة فيقول ان حب الحياة يدفع الشجاع الى الحرب والجبان الى الهرب . غايتهما واحدة ولكن فعل الجبان ذميم وفعل الشجاع حميد .
٧ أضحت ، أي مرعش ، وسورها يناطح النجوم علواً وهو راسخ في أحشاء الارض .

تصدّ الرياح الهوج عنها مخافة وتفزع فيها الطير أن تلقطَ الحبا
كفى عجباً أن يعجبَ الناس أنه بنى مرعشاً تبّـاً لآرائهم تبّا
وما الفرق مـا بين الانام وبينه إذا حذرَ المحذورَ واستصعب الصعبا
لأمرٍ أعدّته الخلافة للعـدى وسمّته دونَ العالم الصارمَ العضبا
ولم تفترق عنه الأسنّة رحمةً ولم تتركِ الشام الاعادي له حُبا
ولكن نفاها عنه غيرَ كريمة كريمُ الثنا ما سُبّ قطّ ولا سبّا
وجيشٌ يثنّي كلّ طودٍ كأنه خريقُ رياح واجهتْ غُصُناً رطبا
كأنّ نجوم الليـل خافت مُغارَه فمدّت عليها من عجاجته حُجبا
فمن كان يُرضي اللؤمَ والكفرَ مُلكُه
فهـذا الذي يرضي المكارم والرّبا

وقال يذكر فوزه على الروم

في قلعة الحدث (بالاناضول) وكان المتنبي قد صحبه في هذه المعركة

على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قدر الكرام المكارمُ
وتعظم في عين الصغير صغارُها وتصغُر في عين العظيم العظائم
يكلّف سيفُ الدولة الجيشَ همّه وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم
ويطلب عند الناس ما عند نفسه وذلك ما لا تدّعيه الضراغم
يفدّي أتمّ الطير عمراً سلاحه نسور الفلا أحداثها والقشاعم
وما ضرّها خَلقٌ بغير مخالبٍ وقد خُلقت اسيافُه والقوائم [١]

* * *

هلِ الحدثُ الحمراء تعرف لونها وتعلم أيُّ الساقيين الغمائم [٢]
سقتها الغمام الغرّ قبـل نزوله فلما دنا منها سقتها الجماجم

---

١ ولو ان النسور بغير مخالب فما ضرها ذلك لأن سيوفه تغنيها بجثث القتلى .
٢ وصفها بالحمراء لما تلطخت به من دماء القتلى وكانت قد أصيبت بمطر قبل ذلك .

بناهــــا فأعلى والقنا يقرع القنا ... وموج المنايا حولهــــا متلاطمُ
وكان بها مثلُ الجنون فأصبحت ... ومن جثث القتلى عليها تمائم [1]
طريدة دهرٍ ساقهـــا فردَدتها ... على الدين بالخَطـيّ والدهر راغم [2]
تُفيتُ الليالي كلّ شيءٍ أخذته ... وهنّ لِما يأخذن منك غوارم [3]
إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً ... مضى قبل أن تُلقى عليه الجوازم
وكيف ترجّي الروم والروس هدمها ... وذا الطعنُ آساسٌ لها ودعائم
وقد حاكموها والمنايا حواكمٌ ... فما ماتَ مظلوم ولا عاشَ ظالم

* * *

أتَـوك يجرّون الحديد كأنما ... سرَوا بجياد ما لهنّ قوائمُ
إذا برقوا لم تُـعرَف البيض [4] منهم ... ثيابُهُم من مثلهـــا والعمائم
خميسٌ بشرق الارض والغرب زحفه ... وفي أذنِ الجوزاء منه زمازم
تجمّع فيـــه كلّ لِسنٍ وأمةٍ ... فما يُفهم الحدّاث الّا التراجم
فلله وقـــتٌ ذوّب الغشّ ناره ... فلم يبقَ الا صارمٌ او ضُبارم [5]
تقطّعَ ما لا يقطعُ الدرعَ والقنا ... وفرّ من الفرسان من لا يصادم
وقفتَ وما في الموت شَكٌّ لواقفٍ ... كأنّـك في جفن الردى وهو نائم
تمرّ بك الابطال كلْمى هزيمةً ... ووجهـــك وضّاحٌ وثغرك باسم
تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى ... الى قول قومٍ انت بالغيب عالم
ضممتَ جناحيهم على القلب ضمّة ... تموت الخوافي تحتها والقوادم [6]
بضرب أتى الهامات والنصر غائبٌ ... وصـار الى اللبّات والنصر قادم
حقرتَ الردينيات حتى طرحتها ... وحتى كأنّ السيف للرمح شاتم

---

١ التمائم هي التعاويذ التي كانوا يتوقعون بها مس الجن .
٢ أي كان الدهر قد سلط الروم عليها فرددتها برماحك رغم أنفه .
٣ تفيت الليالي أي تكرهها على تركه . وغوارم أي ملزمة بدفع غرامته .
٤ البيض السيوف . أي مدرعون بالحديد وعلى رؤوسهم خوذ الحرب .
٥ ضبارم شجاع .
٦ أي أهلكت الجيش جميعه .

ومن طلبَ الفتحَ الجليلَ فإنما مفاتيحه البيض الخفاف الصوارمُ

* * *

نثرتهم فوق الأحيدِب كلّه كما نُثرت فوق العروس الدراهم [1]
تدوس بك الخيل الوكورَ على الذّرى وقد كثرت حول الوكور المطاعم
أفي كلّ يومٍ ذا الدمستُق مُقدمٌ قفاه على الاقدام للوجه لائم
أيُنكر ريحَ الليث حتى يذوقه وقد عرفتْ ريحَ الليوث البهائم
وقد فجعتْه بابنه وابنِ صهره وبالصهر حملاتُ الأمير الغواشم [2]
مضى يشكر الأصحاب في فوته الظُّبى لما شغلتها هامُهُمْ والمعاصم [3]
ويفهم صوتَ المشرفيّة فيهم على أن أصواتِ السيوف أعاجم
يسرّ بما أعطاك لا عن جهالة ولكنّ مغنوماً نجا منك غانم

* * *

تشرّف عدنانٌ به لا ربيعة وتفتخر الدنيا به لا العواصم [4]
لك الحمد في الدُرّ الذي ليَ لفظه فإنك معطيه وانيَ ناظم
واني لتعدو بي عَطاياك في الوغى فلا أنا مذمومٌ ولا أنت نادم [5]
على كل طيّارٍ اليها برجله إذا وقعت في مسمعيه الغماغم
ألا أيها السيف الذي ليس مغمداً ولا فيه مرتابٌ ولا منه عاصم
هنيئاً لضرب الهام والمجد والعلى وراجيك والاسلامِ انك سالم
ولِمْ لا يقي الرحمن حدّيك ما وقى وتفليقهُ هامَ العدى بك دائم

---

١ الاحيدب اسم جبل .
٢ إشارة الى فوز سابق للممدوح على هؤلاء .
٣ مضى يشكر أصحابه لأنهم شغلوا برؤوسهم السيوف فلم تنله .
٤ ربيعة قبيلة سيف الدولة . والعواصم هي البلاد المتاخمة للروم وعاصمتها انطاكية .
٥ إشارة الى عطاياه من الخيول .

وقال يمدحه ويعاتبه

على حيف لحقه منه ويظهر ما كان في نفسه من تحامل حساده عليه

واحرَّ قلباه ممَّن قلبُه شبِمٌ ومَن بجسمي وحالي عنده سقَمُ[1]
ما لي أكتِّم حبّاً قد برى جسدي وتدّعي حبَّ سيف الدولة الأمم
إن كان يجمعنا حبٌّ لغرّته فليت أنّا بقدر الحب نقتسم
قد زرتُه وسيوف الهند مغمدةٌ وقد نظرت اليه والسيوف دم
فكان أحسنَ خلقِ الله كلّهمِ وكان أحسن ما في الأحسن الشّيم
فوت العدوّ الذي يمّمته ظفرٌ في طيّه أسفٌ في طيّه نِعَم
قد ناب عنك شديدُ الخوف واصطنعت
لك المهابة ما لا تصنع البُهُم[2]
ألزمت نفسك شيئاً ليس يَلزمها أن لا يواريهم أرضٌ ولا علَم
أكلّما رمتَ جيشاً فانثنى هرباً تصرّفتْ بك في آثاره الهمم
أما ترى ظفراً حلواً سوى ظفرٍ تصافحت فيه بيض الهند واللّمم

* * *

يا أعدلَ الناس الا في معاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكَمُ
أعيذها نظراتٍ منك صادقةً أن تحسَب الشحم فيمن شحمُه ورم
وما انتفاع أخي الدنيا بناظرِهِ إذا استوت عنده الأنوارُ والظلَم
سيعلم الجمع ممن ضمّ مجلسنا بأنني خير من تسعى به قدم
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعتْ كلماتي من به صمم

* * *

وجاهل مدّه في جهله ضَحِكي حتى أتته يدٌ فرّاسةٌ وفم
إذا رأيت نيوب الليث بارزةً فلا تظنّنّ ان الليث يبتسم

---

١ شبم بارد .
٢ البهم الجيوش .

ومهجةٍ مهجتي من هَمّ صاحبها أدركتها بجوادٍ ظهرُه حرَمُ [١]
ومرهفٍ سرت بين الجحفلين به حتى ضربت وموج الموت يلتطم
الخيل والليل والبيـــداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

* * *

يا من يعزّ علينا أن نفارقهم وجدانُنا كلّ شيء بعدكم عدم
ما كان أخلَقنا منكم بتكرمةٍ لو أنّ أمرَكم من أمرنا أمم [٢]
ان كان سرّكم ما قال حاسدنا فما لجرحٍ إذا أرضـاكمُ ألم
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفةٌ انّ المعارف في أهل النهى ذمم
كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفي أنا الثريّا وذان الشيب والهرم
ليت الغمامَ الذي عندي صواعقه يزيلهُنّ الى من عندَه الدِّيَم [٣]
أرى النوى يقتضيني كلّ مرحلةٍ لا تستقلّ بها الوخّادة الرُّسم
لئن تركنَ ضُميراً عن ميامننا ليحدثنّ لِمَن ودّعتهم ندَم [٤]
إذا ترحّلتَ عن قومٍ وقد قدَروا أن لا تفارقهم فالراحلون هم
شرّ البلاد مكانٌ لا صديق به وشرّ ما يكسب الايام ما يصم
وشرّ ما قنصته راحتي قنصٌ شهب البزاةِ سواءٌ فيه والرخم [٥]
بأي لفظٍ تقول الشعرَ زِعنفةٌ تجوز عندك لا عُربٌ ولا عجم
هـــذا عتابك الّا أنه مِقةٌ قد ضمّنَ الدرّ إلّا أنه كلِم [٦]

---

١ أي ورب مهجة هم صاحبها اتلاف مُهجتي ادركتها بجوادي فقضيت عليها .
٢ أمم قريب .
٣ يشبه سيف الدولة بالغمام وسخطه بالصواعق ، والديم بعطاياه – اي ليت غضبه يكون على من غمرهم بعطاياه وهم لا يستحقونها .
٤ ضمير جبل وهو يشير الى سفره والى ان الممدوح سيندم على ذلك .
٥ يشير الى ان سيف الدولة سوى عنده بين المتنبي وسواه من صعاليك الشعراء .
٦ مقة من فعل ومق ومعناها الحب .

بعض مدائحه في كافور

قال سنة ٣٤٦ وهي أولى قصائده في مصر وكان كافور قد تلقاه بحفاوة وحمل اليه آلافاً من الدراهم

كفى بكَ داءً ان ترى الموت شافياً ... وحسب المنايا ان يكنَّ أمانيا [١]

تمنّيتها لما تمنيت ان ترى ... صديقاً فأعيا أو عدوّاً مداجيا [٢]

إذا كنت ترضى ان تعيشَ بذلّة ... فلا تستَجيدَنَّ العتاقَ المذاكيا [٣]

فما ينفعُ الاسدَ الحياءُ من الطوى ... ولا تُتَّقى حتى تكونَ ضواريا [٤]

حبَبتُكَ قلبي قبل حبّك من نأى ... وقد كانَ غدّاراً فكن أنت وافيا [٥]

واعلمُ انّ البينَ يُشكيكَ بعدَه ... فلستَ فؤادي إنْ رأيتكَ شاكيا

فإنّ دموع العين غُدْرٌ بربّها ... إذا كنّ إثر الغادرين جواريا

إذا الجودُ لم يُرزَقْ خلاصاً من الاذى ... فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقيا

وللنفس أخلاقٌ تدلّ على الفتى ... أكانَ سخاءً ما أتى أم تساخيا

أقلَّ اشتياقاً أيها القلبُ ربما ... رأيتكَ تُصفي الوُدّ من ليس صافيا

خُلقتُ ألوفاً لو رجعتُ الى الصبى ... لفارقتُ شيبي مُوجعَ القلب باكيا

ولكنّ بالفسطاط بحراً أزَرتُه ... حياتي ونصحي والهوى والقوافيا [٦]

أبا المسك ذا الوجهُ الذي كنت تائقاً ... اليه وذا اليوم الذي كنت راجيا [٧]

---

١ يخاطب الشاعر نفسه ويقول الشدة التي ما وراءها شدة ان تكون في حالة تحسب الموت شافياً لك او أمنية تتمناها .

٢ أعياك ذلك أي أعجزك . ومداجي أي مداري .

٣ العتاق المذاكي أي الخيول الكريمة .

٤ الطوى الجوع .

٥ أي أحببتك يا قلبي قبل حبك لمن في حلب فلا تكن غير وفي لي .

٦ الفسطاط مصر . ويريد بالبحر كافور .

٧ ابو المسك كنية كافور .

أبا كلّ طيب لا أبا المسك وحــده وكلّ سحابٍ لا اخــصّ الغواديا
يُدِلّ بمعنى واحــدٍ كلّ فاخرٍ وقد جمعَ الرحمنُ فيك المعانيا
إذا كسبَ الناسُ المعاليَ بالندى فانك تعطي في نداك المعاليا
وغيرُ كثيرٍ ان يزورك راجلٌ فيرْجعَ ملكاً للعراقين واليا
فقد تهبُ الجيشَ الذي جاءَ غازياً لسائلك الفرد الذي جاءَ عافيا [1]
وتحتقر الدنيا احتقارَ مجرّبٍ يرى كل ما فيها وحاشاك فانيا
وما كنتَ ممن ادركَ الملك بالمنى ولكنْ بأيام اشبْن النواصيا
مدى بلّغ الاستاذَ اقصاه ربُّهُ ونفسٌ له لم ترض الّا التناهيا
دَعتْهُ فلبّاها الى المجد والعلى وقد خالفَ الناسُ النفوس الدواعيا
فأصبحَ فوق العالمِــين يرونه وإن كان يدْنيه التكرّم نائيا

وقال أيضاً يمدحه

أودّ من الايام ما لا توَدّه وأشكو اليها بيننا وهي جُنْدُهُ
يباعدنَ حِبّاً يجتمعنَ ووصله فكيف بحبّ يجتمعن وصدّهُ
أبى خُلُقَ الدنيا حبيباً تديمه فما طلبي منها حبيباً تردّه
واسرع مفعولٍ فعلتَ تغيّراً تكلّف شيء في طباعك ضدّه
رعى الله عيساً فارقتنا وفوقها مهىً كلّها يولى بجفنيه خدّه [2]
بوادٍ به مــا بالقلوب كأنه وقد رحلوا جيدٌ تناثرَ عِقدُه [3]
إذا سارت الاحداج فوقَ نباته تفاوحَ مسكُ الغانيات ورنده
وحال كإحداهنّ رمتُ بلوغَها ومن دونها غَول الطريق وبعده [4]
واتعبُ خلقٍ الله من زاد همّهُ وقصّر عما تشتهي النفس وجده [5]

---

١ قد تهب الجيش الغازي لسائل واحد يأتيك طالباً لمعروفك .
٢ رعى الله نياقاً فارقتنا وفوقها ظباء (حسان) تستقي خدودها من دموعها .
٣ بواد به من الجوى ما بقلوب المحبين .
٤ وحال صعبة المنال كاحدى هذه الحسان .
٥ همه اي همته ووجده ماله . اي أتعب الناس من عظمت مطامعه وقصر ماله عن ادراكها .

فلا ينحلل في المجد مالك كلّه   فينحلّ مجدٌ كان بالمال عقدهُ
ودبّرْه تدبير الذي المجدُ كفّه   إذا حارب الاعداء والمال زندهُ
فلا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله   ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده
وفي الناس من يرضى بميسور عيشه   ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكنّ قلباً بين جنبيّ ما له   مدىً ينتهي بي في مرادٍ احدّه
يرى جسمه يُكسى شفوفاً ترُبّه   فيختار ان يكسى دروعاً تهدّه [1]
وأمضى سلاحٍ قلّد المرء نفسه   رجاء أبي المسك الكريم وقصده
هما ناصرا من خانه كلُّ ناصر   وأسرة من لم يكثرِ النسل جَدّه
أنا اليوم من غلمانه في عشيرةٍ   لنا والدٌ منه يفدّيه وُلدُه
فمن ماله مال الكبير ونفسه   ومِن ماله دَرّ الصغير ومهده
نجرّ القنا الخطيّ حول قبابه   وتَردي بنا قُبّ الرباط وجرده [2]
ابو المسك لا يفنى بذنبك عفوه   ولكنه يفنى بعذرك حقدُه
فيا ايها المنصور بالجَدّ سعيُه   ويا ايها المنصور بالسعي جدّه [3]
تولّى الصّبى عني فاخلفتَ طيبه   وما ضرّني لما رأيتك فقدُه
لقد شبّ في هذا الزمان كهوله   لديك وشابت عند غيرك مُردُه
ألا ليت يوم السير يخبر حرّه   فتسأله والليلَ يخبر برْدُه
وليتك ترعاني وحيرانُ معرضٌ   فتعلمَ اني من حسامك حدّه [4]
واني إذا باشرت أمراً أريده   تدانت أقاصيه وهان أشدّه
وما زال أهل الدهر يشتبهون لي   اليك فلما لحتَ لي لاح فردُه
يقال إذا أبصرت جيشاً وربّه   امامك ربٌ ربٌ ذا الجيش عبده [5]
والقى الفمَ الضحّاك أعلم انه   قريب بذي الكفّ المفدّاة عهده [6]

١ يرى جسمه مغطى بالحرير فيفضل ان يكسوه الدروع بدل الحرير .
٢ وتجري بنا الخيول .
٣ الجد ، الحظ .
٤ حيران اسم جبل اي ليتك كنت تراني وانا أسير مقابل حيران لتعلم مضائي وعزمي .
٥ و ٦ وكلما أبصرت جيشاً على الطريق كان يقال لي أترى هذا الجيش ان قائده عبد لمن أنت تقصده ، وكلما رأيت فماً ضحاكاً اعلم انه قريب العهد بتقبيل يدك المفداة .

فزارك مني مَن اليك اشتياقه   وفي الناس الاّ فيك وحدك زهدُه
فإن نلتُ ما أمّلت منك فربما   شربت بماء يعجز الطير ورده
ووعدك فعلٌ قبل وعدٍ لانه   نظير فعالِ الصادق القولَ وعده
فكن في اصطناعي محسناً كمجرّب   يبنْ لك تقريب الجواد وشدّه [1]
اذا كنت في شكٍّ من السيف فابلُه   فأمّا تنفيه وإمّا تعدّه
وما الصارم الهنديّ كغيره   اذا لم يفارقه النجادُ وغمدُه
وانك للمشكورُ في كلّ حالةٍ   ولو لم يكن إلا البشاشةَ رفدُه
فكل نوالٍ كان أو هو كائن   فلحظة طرف منك عندي ندّه
واني لفي بحر من الخير أصلهُ   عطاياك أرجو مدّها وهي مدّه
وما رغبتي في عسجدٍ أستفيده   ولكنها في مفخرٍ أستجدّه
يجود به من يفضح الجودَ جوده   ويحسده من يفضحُ الحمد حمده
فإنك ما مر النحوس بكوكب   وقابلتَه الاّ ووجهكَ سعده

ومن مدائحه

مَنِ الجآذر في زيّ الأعاريبِ   حمرَ الحلى والمطايا والجلابيبِ [2]
إنْ كنتَ تسأل شكّاً في معارفها   فمنْ بلاك بتسهيدٍ وتعذيب
ما أوجهُ الحضَرِ المستحسنات به   كأوجه البدويات الرعابيب [3]
حسنُ الحضارةِ مجلوبٌ بتطرية   وفي البداوة حسنٌ غير مجلوب [4]
أين المعيز من الآرامِ ناظرةً   وغيرَ ناظرةٍ في الحسن والطيّب [5]
أفدي ظباءَ فلاةٍ ما عرَفنَ بها   مضغَ الكلام ولا صبغ الحواجيب

---

١ التقريب نوع من عدو الفرس .

٢ الجآذر أولاد بقر الوحش تشبه بها النساء لجمال عيونها . يقول من هؤلاء البدويات الحسان حمر الحلى والثياب والراكبات على النياق الحمر (هي اكرم النياق) .

٣ الرعابيب الطويلات الممتلئات الجسم .

٤ التطرية التكلف والصنعة .

٥ يقصد بالمعيز نساء الحضر وبالآرام « الظباء » البدويات .

ومن هوى كلّ من ليست مموّهةً تركت لون مشيبي غير مخضوبِ [1]
ومن هوى الصدقِ في قلبي وعادتِه رَغبت عن شعرٍ في الرأس مكذوب

* * *

ليت الحوادثَ باعتني الذي أخذت مني بحلمي الذي أعطت وتجريبي [2]
فما الحداثة من حِلمٍ بمانعةٍ قد يوجد الحلم في الشبان والشيب
ترَعرَعَ الملك الاستاذ مُكتهِلاً قبلَ اكتهال أديباً قبل تأديب [3]
يُدبّر الملكَ من مِصر الى عدن الى العراق فأرض الروم فالنوب
يصرّف الأمر فيها طينُ خاتمهِ ولو تطلّسَ منه كلّ مكتوب [4]
قالوا هجرتَ اليه الغيثَ قلت لهم الى غيوث يديه والشآبيب [5]
الى الذي تهب الدوْلاتِ راحته ولا يمـــنُّ على اثار موهوب
ولا يروع بمغدورٍ به أحداً ولا يفزّع موفوراً بمنكوب [6]
وجَدْت أنفعَ مال كنت أذخره ما في السوابقِ من جري وتقريب [7]
لما رأينَ صروفَ الدهرِ تغدر بي وفينَ لي ووفتْ صمّ الأنابيب [8]
وكيفَ أكفر يا كافور نعمتها وقد بلغنك بي يا كلّ مطلوبي
أنت الحبيب ولكني أعوذ به من ان أكون محباً غير محبوب

وقال يمدحه سنة ٣٤٧

فراقٌ ومن فارقتُ غير مذمّمِ وأمٌّ ومن يمّمتُ خير ميمّمِ

---

١ التمويه أي الطلي ويراد به التزيين .
٢ ليت الحوادث ترجع لي ما سلبتني من الشباب وتأخذ ما اعطتني من العقل والتجربة .
٣ أي نشأ حاصلاً على عقل الكهول قبل آن يكون كهلاً .
٤ يدبر الامور بطين خاتمه الذي يختم به رسائله ولو أمحى النقش الذي فيه .
٥ قالوا هجرت المطر بتركك سيف الدولة فقلت الى امطار يدي كافور الساكبة .
٦ اي لا يغدر بأحد ليروع به غيره ولا يسلب أحداً ليفزع غير المسلوب .
٧ وجدت انفع مال جري الخيول .
٨ النون في رأين راجعة الى الخيل أي لما رأت الخيل غدر الدهر بي وفت لي بحملي عن مواطن الغدر وكذلك وفت لي الرماح .

وما منزل اللذّات عندي بمنزلٍ اذا لم أبجّل عنـــده واكرّمِ
سجيّة نفسٍ ما تزال مُليحة من الضيم مرميّاً بها كل مَخرمِ [1]
رحلت فكم باكٍ بأجفان شادنٍ عليّ وكم باك بأجفان ضيغم [2]
وما ربّة القُرط المليح مكانُه بأجزع من ربّ الحسام المصمّم
فلو كان ما بي من حبيب مقنّع عذرت ولكن من حبيب معمّم [3]
رمى واتقى رميي ومن دون ما اتقى هوى كاسرٌ كفـّي وقوسي وأسهمي

* * *

اذا ساءَ فعلُ المرء ساءَت ظنونه وصدّق ما يعتاده من توهّمِ
وعادى محبّيه بقول عداته وأصبح في ليلٍ من الشك مظلم
أصادق نفسَ المرء من قبل جسمه وأعرفها في فعلهِ والتكلّم
واحلُم عن خــلي واعلم انه متى اجزِهِ حلماً عن الجهل يندم
وإن بذلَ الانسان لي جود عابسٍ جزَيت بجـــود التارك المتبسم
وأهوى من الفتيان كلّ سَميذع [4] نجيبٍ كصدر السمهريّ المقوّم
خطت تحته العيس الفلاةَ وخالطت به الخيل كبّاتِ الخميس العرمرم
ولا عفـّةٌ في سيفه وسنانـه ولكنها في الكفّ والطرف والفم
وما كلّ هاوٍ للجميل بفاعل ولا كلّ فعّال له بمتمّـم
فدىً لأبي المسك الكرامُ فانها سوابق خيلٍ يهتدين بادهم [5]
اغرّ بمجدٍ قد شخصن وراءه الى خُلق رحبٍ وخلـَقٍ مطهّم
اذا منعت منك السياسة نفسها فقـــف وقفةً قدّامهُ تتعلّم

---

١ مليحة من الضيم اي خائفة منه . مخرم طريق في الجبال .
٢ رحلت فكم حسناء تبكي علي وكم بطل .
٣ الحبيب المقنع كناية عن المرأة والحبيب المعمم عن الرجل (يقصد سيف الدولة) .
٤ السميذع : الشريف الشجاع .
٥ ابو المسك أي كافور . جعل الكرام جياداً وهو الادهم في مقدمتهم .

يضيق على من راءه العذرُ ان يرى ضعيفَ المساعي او قليل التكرّمِ [1]
ومن مثلُ كافور اذا الخيل احجمت وكان قليلاً من يقول لها اقدمي
شديد ثبات الطـّرف والنقع واصلٌ الى لهواتِ الفارس المتلثـّم [2]

* * *

أبا المسك أرجو منك نصراً على العدى
وآملُ عزّاً يخضب البيض بالدمِ
ويوماً يغيظ الحاسدين وحالة أقيم الشقا فيها مقامَ التنعّم
ولم ارجُ الا أهل ذاك ومن يردْ مواطرَ من غير السحائب يظلم
فلو لم تكن في مصر ما سرت نحوها بقلب المشوق المستهام المتيّم
ولا نبحت خيلي كلابُ قبائل كأن بها في الليل حملات ديلم [3]
ولا اتـّبعت آثارنا عين قائفٍ فلم ترَ الا حافراً فوق منسم [4]
وسمنا بها البيداء حتى تغمّرت من النيل واستذرت بظلّ المقطـّم

* * *

وابلجَ يعصي باختصاصي مشيرَهُ عصَيت بقصديه مشيري ولـُوّمي
فساق إليّ العرفَ غير مكدّرٍ وسقتُ اليه الشكرَ غير مجمجم
قد اخترتـُك الأملاك فاختر لهم بنا حديثاً وقد حكـّمت رأيك فاحكم [5]
فاحسنُ وجهٍ في الورى وجه محسن وايمنُ كفّ منهم كفّ منعم
واشرفهم من كان أشرف همةٍ وأكثر اقداماً على كل مُعظـَم
لمن تطلب الدنيا اذا لم تردْ بها سرورَ محبٍّ او مساءة مجرم

* * *

---

١ راءه بمعنى رآه .
٢ الطرف المهر اي شديد الثبات حين اشتداد الوغى .
٣ اي ولولاك لما قطعت القفار حتى نبحت خيلي كلاب القبائل كأني من بعض عصابات الديلم
٤ القائف هو الذي يتتبع الاثر ليعرف صاحبه .
٥ أي قد اخترتك واستغنيت بك عن كل الملوك فأحسن إلي احساناً يلهجون به .

ولو كنت أدري كم حياتي قسمتها وصيّرتُ ثلثيها انتظارك فاعلمِ
ولكنّ ما يمضي من الدهر فائتٌ فجُدْ لي بخطّ البادر المتغنّم
رضيتُ بما ترضى به لي محبّةً وقدتُ اليك النفس قود المسلّم
ومثلك من كان الوسيط فؤاده فكلّمَه عني ولم أتكلم

مرثاته في أبي شجاع فاتك الرومي

وكان من المشهورين بالمكارم وقد توفي بمصر سنة ٣٥٠

الحزن يُقلق والتجمّل يردعُ والدمع بينهما عصيّ طيعُ
يتنازعانِ دموعَ عينِ مسهّدٍ هذا يجيءُ بها وهذا يرجع
النوم بعد أبي شجاع نافر والليلُ معيٍ والكواكب ظُلّع[1]
اني لأجبن عن فراق أحبّتي وتحسّ نفسي بالحمام فاشجع
ويزيدني غضب الأعادي قسوةً ويُلمّ بي عتب الصديق فأجزع
تصفو الحياة لجاهل أو غافلٍ عما مضى منها وما يتوقّع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع
أين الذي الهرمانِ من بنيانه ما قومهُ ما يومهُ ما المصرع ؟
تتخلّف الآثار عن اصحابها حيناً ويدركها الفناء فتتبع
لم يُرضِ قلبَ أبي شجاع مبلغٌ قبل الممات ولم يسعه موضع
كنا نظنّ دياره مملوءَةً ذهباً فمات وكلّ دار بلقع
واذا المكارم والصوارم والقنا وبناتُ أعوجَ كل شيء يجمع[2]
المجد أخسرُ والمكارم صفقةً من أن يعيش لها الهمامُ الأروع
والناس انزلُ في زمانك منزلاً من ان تعايشهم وقدرك أرفع[3]

---

١ النوم بعده لا يألف العين والليل يطول كأنه منهوك من التعب والكواكب عرجاء لا تحسن السير.

٢ كنا نظن دياره ملأى بالذهب والاموال ولكنه لجوده لم يترك فيها شيئاً ولم يجمع في حياته غير المكارم والسلاح والخيول .

٣ الناس في زمانك أقل قدراً من أن تعيش بينهم .

بُرْدُ حشاي ان استطعتَ بلفظةٍ فلقد تضرّ اذا تشاء وتنفعُ
ما كان منك الى خليل قبلها ما يستراب به ولا ما يوجع
ولقد أراك ومـــا تلمّ ملمّةٌ الا نفاها عنك قلبٌ أصمع
ويدٌ كأنّ نوالها وقتالها فرضٌ يحق عليك وهو تبرّع
يا من يبدّل كل يومٍ حُلّةً انـّى رضيتَ بحلة لا تُنزع
ما زلت تخلعها على من شاءها حتى لبست اليوم ما لا تخلع
فظللت تنظر لا رماحك شرّع فيما عراك ولا سيوفك قطّع
بأبي الوحيدُ وجيشُه متكاثرٌ يبكي ومن شرّ السلاح الادمع [1]
واذا حصلت من السلاح على البكا فحشاك رعت به وخدّك تقرّع
وصلتْ اليك يدٌ سواء عندها الـ بازي الأشيهب والغراب الأبقع [2]
من للمحافل والجحافل والسّرى فقدتْ بفقدك نيّراً لا يطلع
ومن اتخذتَ على الضيوف خليفةً ضاعوا ومثلك لا يكاد يضيّع
قبحاً لوجهك يا زمان فإنه وجهٌ له مـــن كل قبح برقع
أيموتِ مثل أبي شجاع فاتك ويعيش حاسده الخصيّ الأوكع [3]
أبقيت أكذب كاذب ابقيته وأخذت أصدق من يقول ويسمع
ولـّى وكلّ مخالمٍ ومنادمٍ بعـــد اللزوم مشيّع ومودّع
من كان فيه لكل قوم ملجأٌ ولسيفه في كل قومٍ مرتع
ان حلّ في فُرس ففيها ربّها كسرى تـَذِلّ له الرقاب وتخضع
او حلّ في روم ففيها قيصر أو حلّ في عرب ففيها تُبّع [4]
قد كان أسرع فارس في طعنةٍ فرساً ولكنّ المنيّـــة أسرع
لا قلـّبتْ أيدي الفوارس بعده رمحاً ولا حملت جواداً أربع

---

١ يقصد بالوحيد الفقيد . وقوله بأبي للتفدية .
٢ وصلت اليك يد الموت التي يتساوى بها العظيم والحقير .
٣ الخصي الاوكع يقصد به كافوراً .
٤ أي انه عظيم تظهر عظمته أينما حل في الفرس أو في الروم أو العرب .

وقال يرثي والدة سيف الدولة ويعزيه عنها

سنة ٣٣٧

نُعِدّ المشرفيّة والعوالي وتقتلنا المنون بلا قتالِ
ونرتبطُ السوابقَ مُقرباتٍ وما يُنجين من خببِ الليالي
ومن لم يعشق الدنيا قديماً ولكن لا سبيل الى الوصالِ
نصيبك في حياتك من حبيبٍ نصيبك في منامك من خيالِ
رماني الدهر بالارزاء حتى فؤادي في غشاء من نبـــالِ
فصرتُ اذا اصابتني سهامٌ تكسّرت النصال على النصالِ
وهذا أول النـــاعين طُرّاً لاول ميتةٍ في ذا الجـــلالِ
كأن الموت لم يفجع بنفسٍ ولم يخطر لمخلوقٍ ببالِ
صلاة الله خالقنا حَنوط على الوجه المكفّن بالجمالِ
على المدفون قبل الترب صوناً وقبل اللحد في كرم الخلالِ
أطابَ النفسَ أنكِ متّ موتاً تمنّته البواقي والخـــوالي
وزُلت ولم ترَيْ يوماً كريهاً تسرّ النفس فيه بالزّوالِ
رواق العزِّ فوقكِ مسبطرٌ وملك عليٍّ ابنك في كمالِ [1]
سقى مثواك غادٍ في الغوادي نظيرُ نوال كفّك في النوالِ [2]
يمرّ بقبرك العافي فيبكي ويشغله البكاء عن السؤالِ
وما أهداك للجدوى عليه لو انّك تقدرين على فعالِ
بعيشك هل سلوتِ فانّ قلبي وان جانبت أرضك غير سالِ
نزلتِ على الكراهة في مكانٍ بعدتِ عن النُّعامى والشّمالِ [3]
تحجّبُ عنك رائحةُ الخزامى وتمنَـعُ منك انداءُ الطلالِ
بدارٍ كلّ ساكنها غريب بعيد الدار منبتّ الحبالِ

---

١ علي أي سيف الدولة .
٢ سقى قبرك سحاب هاطل يشبه جود كفك .
٣ نزلت في مكان بعدت فيه عن ريح الشمال وريح الجنوب (يعني القبر) .

حَصانٌ مثلُ ماء المزن فيه كتومُ السرّ صادقةُ المقالِ
يعلّلها نطاسيّ الشكايا وواحدها نطاسيُّ المعالي [١]
اذا وصفوا له داءً بثغرٍ سقاه أسنّة الاسل الطوال
وليست كالاناث ولا اللواتي تُعدّ لها القبور من الحجال
ولا من في جنازتها تجارٌ يكون وداعها نفض النعال
مشى الامراء حوليها حفاةً كأنّ المروَ من زِفّ الرئال [٢]
ولو كان النساء كمن فقدنا لفُضّلت النساءُ على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكير فخرٌ للهلال
وأفجع من فقدنا من وجدنا قُبيل الفقد مفقود المثال
يدفّنُ بعضنا بعضاً وتمشي أواخرنا على هام الاوالي
وكم عينٍ مقبّلةِ النواحي كحيلٌ بالجنادل والرمال
ومغضٍ كان لا يغضي لخطبٍ وبالٍ كان يفكر في الهزال [٣]
أسيف الدولة استنجدْ بصبرٍ وكيف بمثل صبرك للجبال
وأنت تعلّم الناس التعزّي وخوض الموت في الحرب السجال
وحالات الزمان عليك شتى وحالك واحدٌ في كل حال
رأيتك في الذين أرى ملوكاً كأنك مستقيمٌ في محال
فان تفُقِ الانامَ وأنت منهم فان المسك بعض دم الغزال [٤]

وقال يصف حمى أصابته ويعرض بالرحيل عن مصر

مَلومكما يجلّ عن الملام وَوَقعُ فعالهِ فوق الكلامِ [٥]

---

١ يداويها طبيب الامراض ولكن ابنها طبيب المعالي .

٢ لم تكن من العامة فيسير وراءها أهل السوق والتجار ولكن الامراء مشوا حفاة وراءها كأنما الحجارة كانت من وبر النعام .

٣ وكم عين كانت تقبل دلالاً أصبحت مكتحلة بالتراب وكم رجل كان لا ينكس رأسه لخطب أصبح منكساً في القبر . وكم ممن كان يفكر كثيراً في صحته وأصبح الآن بالياً بتأثير الحمام .

٤ ليس من الغريب ان تفوق الناس وأنت منهم فان المسك وهو من دم الغزال يفضله كثيراً .

٥ يخاطب صاحبيه فيقول ان من تلومانه (على ركوب الاسفار) هو أعلى من أن يصل اليه الملام.

ذراني والفلاة بلا دليـل ووجهي والهجير بلا لثامِ
فاني أستريحُ بذي وهـذا وأتعبُ بالاناخة والمقـام
ولا أمسي لاهل البخل ضيفاً وليس قرى سوى مخّ النّعام [١]
ولمّا صار وُدّ الناس خبّاً جزَيت على ابتسام بابتسام [٢]
وصرتُ أشكّ فيمن أصطفيهِ لعلمي انـه بعض الانام
يحبّ العاقلون على التصافي وحبّ الجاهلين على الوَسام [٣]
وآنف من اخي لابي وامي اذا ما لم اجدهُ من الكرام
أرى الاجداد تغلبهـا كثيراً على الاولاد اخلاق اللئـام [٤]
ولستُ بقانع من كل فضل بان أعزى الى جدٍّ همام [٥]
عجبت لمن له قدٌّ وحـد وينبو نبوة القضمِ الكَهام [٦]
ومن يجدُ الطريقَ الى المعالي فلا يذرُ المطيّ بـلا سنام [٧]
ولم ارَ في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على التمام

* * *

أقمت بأرض مصر فلا ورائي تخبّ بي الركاب ولا أمامي [٨]
وملّنيَ الفراش وكان جنبي يملّ لقـاءه في كل عام
قليلٌ عائدي سقِم فؤادي كثيرٌ حاسدي صعبٌ مرامي

---

١ وليس لي زاد البتة . إشارة الى ان النعام لا مخ له .
٢ خباً اي خداعاً .
٣ الوسام حسن المنظر . يقول ، العاقل يحب لاجل تصافي الود بينه وبين محبوبه اما الجاهل فيهتم بالهيئة الخارجية .
٤ اي ان الاخلاق اللئيمة قد تغلب الاصل الكريم فيجيء الولد لئيماً .
٥ اي لا اقنع ان أنسب الى جد كريم بل ادرك الفضل بنفسي .
٦ اي عجبت من الشباب القوي الذي اذا عرض له الامر العظيم رجع عنه رجوع السيف الذي لا يقطع .
٧ من لا يذيب اسنمة الابل بجهاده في سبيل المعالي .
٨ تخب بي الركاب أي تسير بي الابل ، ويريد بهذا البيت انه لزم الاقامة بها .

عليل الجسم ممتنع القيام   شديد السكر من غير المدامِ

* * *

وزائرتي كأنّ بها حياءً   فليس تزور الا في الظلامِ [1]
بذلتُ لها المطارف والحشايا   فعافتها وباتت في عظامي [2]
يضيق الجلد عن نفسي وعنها   فتوسعه بأنواع السّقام
كأنّ الصبح يطردها فتجري   مدامعها بأربعةٍ سجام
أراقبُ وقتها من غير شوق   مراقبةَ المشوق المستهام
ويصدُق وعدها والصدق شرٌّ   اذا القاك في الكُرَب العظام
أبِنتَ الدهر عندي كلّ بنتٍ   فكيف وصلت انت من الزّحام [3]
جرحتِ مجرّحاً لم يبقَ فيه   مكانٌ للسيوف ولا السهام
يقول لي الطبيب اكلت شيئاً   وداؤك في شرابك والطعام
وما في طبّه اني جوادٌ   اضرّ بجسمه طول الجمام [4]
تعوّد أن يُغَبّر في السرايا   ويدخل من قَتام في قَتام [5]
فأمسك لا يطال له فيرعى   ولا هو في العليق ولا اللجام [6]

---

١ إشارة الى الحمى .
٢ المطارف : اردية الخز . والحشايا الفرش .
٣ يريد ببنت الدهر الحمى وبنات الدهر شدائده فيقول : ايتها الحمى ، عندي كل نوع من انواع الشدائد فكيف لم يمنعك ازدحامهن من الوصول الي .
٤ الجمام : الراحة .
٥ تعود ان يثير الغبار بين الجيوش ويخرج من غبرة الى غبرة اي من معركة الى اخرى .
٦ فأمسك لا يرخى له الحبل فيرعى ولم يقدم له العليق فيأكل ولم يكن تحت اللجام في السفر وقد شبه حالته مع كافور بحالة هذا الجواد .

المعري

ابو العلاء احمد بن عبد الله بن سليمان

٣٦٣ هـ – ٤٤٩ هـ

٩٧٤م – ١٠٥٨ م

•

مصادر دراسته – عصره ونشأته – زندقته وايمانه – شاعريته –
شعره في سقط الزند واللزوميات – مواقفه الشعرية ـــ

مصادر دراسته

نزهة الالبّاء للانباري ٤٢٥
كتاب الانصاف والتحري – لكمال الدين ابن العديم
وهو منشور ضمن كتاب اعلام النبلاء للطباخ ج ٤ من ص ٧٨
معجم الادباء لياقوت ج ١ ص ١٦٢ – ٢١٦
وفيه ما دار من المراسلات بين المعرّي وداعي الدعاة
وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٧ (تحت حرف احمد)
ترجمة المعرّي للذهبي منشورة في ذيل رسائل المعرّي (اكسفورد)
مفتاح السعادة لطاش كبري زاده ج ١ ص ١٩١ – ١٩٢
رسائل المعرّي (طبع اكسفورد)
اللزوميات مطبعة المحروسة (مصر ١٨٩١) وبومباي ١٣٠٣ هـ
« مصر ١٧٢٤
شرح التنوير على سقط الزند مطبعة الاسلام (مصر) ١٣٣٤ هـ .

ومما كتب عنه حديثاً :

ترجمة مسهبة بالانكليزية للاستاذ مرغوليوث في مقدمة رسائل المعري
ترجمة للاستاذ نكلسون في دائرة المعارف الاسلامية
ذكرى أبي العلاء للدكتور طه حسين
اعلام النبلاء للطباخ ج ٤ ص ١٧٥ – ١٨٠
المهرجان الالفي للمعرّي نشر المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٤٥
ورسائل وترجمات شتى في كتب الأدب والتاريخ لعرب ومستشرقين منها :
ترجمة وشرح بعض اللزوميات لفون كريمر في Z. M. D. G.
المجلد ٣٠ و ٣١ و ٣٨ .

عصره وبيئته

ذكرنا في فصل سابق ان امارة بني حمدان كانت أيام سيف الدولة في حروب متواصلة وان هذا الامير كان كثير السخاء على الادباء والعلماء ، وقد اضطره كل ذلك الى الانفاق والتشديد في جمع الاموال من رعيته. ولما مات خلفه ابنه ابو المعالي ثم ابنه ابو الفضائل ، وفي ايامهما تفاقمت الخطوب وأصبحت امارة حلب يوم نشأ شاعرنا معتركاً لاربع قوى رئيسية :

الاولى – الحمدانية وكانوا قد ضعف أمرهم وأخذت السيطرة تخرج من أيديهم .

الثانية – الفاطمية أصحاب الامر في مصر وكان لهؤلاء مطامع في حلب ، فلم يألوا جهداً في دس الدسائس وارسال الجيوش لفتحها .

الثالثة – قبائل البادية ، ومنهم المرداسية التي كان لها شأن يذكر في هذا الاضطراب السياسي .

الرابعة – الروم ، وغاراتهم على امارة بني حمدان معروفة . على انهم بينا كانوا ايام سيف الدولة يُعدّون أعداء المسلمين عموماً ، أصبحوا أيام المعري – بسبب تطاحن امراء المسلمين – عوناً لبعض هؤلاء الامراء على بعض وسبباً في توسيع شقة الخلاف بينهم . فمن ذلك انهم ناصروا ابا الفضل ابن حمدان على الفاطميين ، وكان هؤلاء يحاصرون حلب [1] . وبهم استنجد حسان بن المفرّج ولؤلؤ مولى ابي الفضل . فكان بين المسلمين

---

١ ذيل تجارب الامم للروذراوري (امندوز ١٩١٦) حوادث سنة ٣٨١ .

حروب داخلية أدت الى تدخل الروم وانحيازهم الى أحد الفريقين ، مما زاد الطين بلة في تلك الفوضى السياسية . وانك لتلمح في شعر المعري شيئاً من ذلك فقد قال في مدحة له لاحد الامراء :

ابوعدنا بالروم ناس وانما هم النبت والبيض الرقيق سوام
كأن لم يكن بين المخاض وحارم كتائب يُشجين الفلا وخيام [1]
كتائب من شرق وغرب تألبت فـُرادى اتاها الموت وهو تـُوام

ويؤخذ من هذه الابيات ان بلدة الشاعر كانت في يد أمير معادٍ للروم ، والارجح انها كانت قد استقلّت يومئذ عن حلب ، وان اعداء ذلك الامير كانوا يتوعدونه باستنجاد الروم عليه ، فنظم الشاعر قصيدته مشيراً الى بأس الامير والى انهزام كتائب الروم بين هذين المكانين وانهم لذلك لا يخشون بأسهم ولا يبالون بوعيدهم .

فاذا نظرنا الى الاحوال السياسية التي نشأ فيها ابو العلاء : نراها كثيرة الاضطراب والفتن والاهوال ، ولا شك ان ذلك شديد التأثير في أحوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية ، فاشتدت فيها الضائقة والفساد وبرزت في الرؤساء الروح الاشعبية ، روح التكالب على المال والامارة مما يُمكس لنا جلياً في شعر شاعرنا الكبير :

مُلّ المقام فكم اعاشر امّة امرت بغير صلاحها امراؤها
ظلموا الرعيّة واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم اجراؤها

* * *

مولده ونشأته

وُلِد المعرّي في المعرّة وفيها نشأ . والمعروف من كتب التاريخ انه أصيب بجُدري وهو في الرابعة من عمره ذهب بنظره . على ان عماه لم

---

[1] المخاض نهر قرب المعرة ، وحارم بلدة قرب انطاكية . يشجين الفلا أي يغص بهم الفلا لكثرتهم .

يكن في أول الامر كلياً ، فان النصوص كلها تشير الى ان الجدري ذهب بيسرى عينيه وغشي يمناهما بياض . ويقول الانباري : « انه كان ضريراً اعمى ولم يكن اكمه كما توهّم من لا علم له[1] » . وقد روى ابن العديم عن بعض اهل الادب حكاية نقلها عن رجل اسمه ابو منقذ انه رأى ابا العلاء وهو صبي دون البلوغ فقال في وصفه : وهو صبي دميم الخلق مجدور الوجه وعلى عينه بياض من الجدري وكأنه ينظر باحدى عينيه قليلاً[2] .

والذي يترجح لدينا من ذلك ان الشاعر لم يفقد بصره تماماً الا بعد بضع سنوات من مرضه . على ان ما فقده من باصرته استعاض عنه بحدة بصيرته ، فقد اجمع المؤرخون على شدة ذكائه وقوّة حافظته ، ولهم في ذلك أقاصيص وروايات معروفة[3] .

والمعرّي من بيت علم ورئاسة[4] — فأبوه من العلماء ، وجدّه وابو جدّه وجدّ جدّه كلهم تولّوا قضاء المعرة . وقد بقي القضاء في بني أخيه الى ان دخلها الافرنج سنة ٤٩٢[5] — أي الى ما بعد موت الشاعر بأكثر من اربعين سنة .

ومن آله (آل سليمان) فضلاء وعلماء وشعراء لا يتسع المقام لذكرهم ، وكانت الفتاوى (على ما يستفاد من ياقوت وابن العديم) في بيتهم على المذهب الشافعي أكثر من مئتي سنة .

في وسط علمي ديني كهذا الوسط نشأ شاعرنا فأخذ العلم والادب اولاً عن أبيه ثم عن جماعة من علماء المعرّة ، وزار في حداثته بعض المدن الشامية المعروفة بالعلم كانطاكية واللاذقية وطرابلس ، فاخذ العلم من علمائها

---

١ طبقات الادباء ٤٢٥ .
٢ الانصاف والتحري (في اعلام النبلاء ج ٤ — ١٠٤) .
٣ راجع ترجمته في معجم الادباء ، وفي الانصاف والتحري (طباخ ٤ — ١٠١) .
٤ مفتاح السعادة ١ — ١٩١ .
٥ معجم الادباء ١ — ١٦٤ .

ومما وجده في مكاتبها . ويؤخذ من رسالته الى خاله ابي القاسم ابن سبيكة انه لم يقصد بعد العشرين احداً اجتداءً لعلم[1] . بقي في ذلك بضع سنوات ثم عاد الى المعرّة ، والظاهر انه بدأ حياته العلمية كسائر العلماء والشعراء (في قرض الشعر للامراء) والكنه لم يكد يفعل ذلك حتى عدل عنه . فليس له في سقط الزند الا بضع مدائح فيمن يرجى عطاؤهم كسعد الدولة بن حمدان وسواه . وهذه المدائح من أوائل شعره ، أما سائر مديحه ففي فقهاء أو أدباء من طبقته اختصهم بالوداد والاطراء .

ذهابه الى بغداد

ولما بلغ الخامسة والثلاثين من عمره (أي سنة ٣٩٨) قام برحلة اولى الى بغداد ، ولا نعرف كثيراً عن هذه الرحلة . ثم رحل اليها ثانية سنة ٣٩٩ وأقام فيها سنة وسبعة اشهر[2] .

وهنا لا بدّ من ان نتساءل لماذا رحل الى بغداد ولماذا لم يقم فيها طويلاً ؟ والذي يؤخذ من مراجعة شعره ورسائله ومقابلتها بأقوال المؤرخين ان الاضطرابات السياسية في حلب والمعرة أهابت به الى ترك وطنه وقصد بغداد[3] . وكان ينوي الاقامة فيها واستخدام مواهبه في سبيل العلم ، ولكنه لم يوفّق الى امنيته ففي رسالته الى خاله ابي القاسم التي كتبها على اثر رجوعه من بغداد يقول : « وكنت ظننت ان الايام تسمح لي بالاقامة ، فاذا الضارية احجأ بعُراقها ، والعبد أشحّ بكُراعه ، والغراب اضنّ بتمرته » . الى أن يقول : « فلما زَبنت الضروسُ الحالب ، ونَزَت العَنود تحت الراكب ، ومنعت القَلوع النازع ، وخيّب رائداً سحاب ، وكذب شائماً برق ، عادت لعِترها لَميس[4] وذكر ِوجاره ثُعالة » . ثم

١ رسائل المعري (اكسفورد) ٣٢ .
٢ ابن خلكان ١ – ٤١ .
٣ ويروي الذهبي انه ذهب الى بغداد متظلماً من أمير حلب لمعارضته إياه في وقف له .
٤ مثل يضرب لمن يرجع الى ما كان عليه ويشير هنا الى رجوعه الى وطنه .

يقول : « ولما فاتني المقام بحيث اخـــترت ، اجمعت على انفراد يجعلني كالظبي في الكناس الخ »[1] .

ولعلّ ما في طبع المعري من الأنفة منعه من ان يحصّل رزقه في بغداد على طريقة المدّاحين المستجْدين من الشعراء ، فكان ذلك من الاسباب التي عجّلت في رجوعه . فقد ذكر في الرسالة الآنفة الذكر ان أهل بغداد قابلوه بالاكرام وانهم لما أحسّوا بتأهبه للرحيل اظهروا كسوف بال ، ثم يقول : « وانصرفت وماء وجهي في سقاء غير سَرب ، مـــا أرقت منه قطرة في طلب أدب ولا مال » . وتظهر انفته الشديدة ايضاً في ما جرى له في مجلس الشريف المرتضى ، وكان هذا يبغض المتنبي ، وكان المعرّي يتعصب له . فجرى يوماً بحضرته ذكر المتنبي فتنقّصه المرتضى ، فقال المعري لو لم يكن للمتنبي من الشعر الا قوله « لكِ يا منازل في القلوب منازل » لكفاه فضـــلاً ، فغضب المرتضى وأمر فسُحب برجله وأخرج من مجلسه[2] ، وقال لمن بحضرته : أراد هذا الاعمى قوله :

واذا اتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

وفي شعره كثير مما يشير الى هذا الطبع فيه ، كقوله من قصيدة كتب بها الى الفقيه ابي حامد الاسفراييني عند دخوله بغداد :

ولا اثقّل في جاهٍ ولا نشبٍ ولو غدوت اخا عُدم واقناع

ومما كتبه في بغداد يخاطب اهل بلده :

أإخواننا بين الفرات وجلّقٍ يَد الله لا اخبرتكم بمحال
انبّئكم اني على العهد سالم ووجهيَ لمّا يبتذل بسؤال
فاصبحت محسوداً بفضلي وحده على بُعد انصاري وقلّة مالي

رجل عزيز النفس مثله يأنف من السؤال ومن التزلف الى كبار القوم

---

١ راجع رسائل المعري (اكسفورد ٣٠ — ٣٢) .
٢ معجم الادباء ١ — ١٧٠ .

في عصر كان التزلف هو جادّة الاديب الى الرزق ، لا يُستغرب ان تضيق به الحال في عاصمة الخلافة حتى تحمله الى ان يقول :

تمنّيت ان الخمر حلّت لنشوة تجهّلني كيف اطمأنت بي الحال
فاذهل اني بالعراق على شفاً رزيُّ الاماني لا انيس ولا مال
مُقلّ من الاهلَين يسرٍ واسرةٍ كفى حَزَناً بينٌ مشتّ واقلال
وكم ماجدٍ في سيف دجلة لم أشم له بارقاً والمرءُ كالمزن هطّال
سيطلبني رزقي الذي لو طلبته لما زاد والدنيا حظوظ واقبال

وبرغم ما في قصيدته التي ودع فيها بغداد من مدح لاهل تلك المدينة ، فان في قصائده الاخرى التي قالها في بغداد ما ينمّ على ما كان يشعر به من ضيق ومن تحنان الى وطنه [1] . وفي قصيدة بعث بها الى القاضي التنوخي يذكر ان الذي أهاب به الى تركها رجاؤه بلقاء والدته ونفاذ ماله :

اثارني عنكمُ امران ، والدةٌ لم ألقها وثراء عاد مسفوتا

أما والدته فماتت قبل وصوله الى المعرة فجزع لذلك ورثاها رثاء ابن مفجوع .

ولما عاد الى المعرّة لزم منزله وعاش فيه على طريقة الفلاسفة المتقشفين . ويظهر من بعض رسائله انه فكّر كثيراً في ذلك ، فقد قال من رسالته لأهل المعرّة : « فوجدت مـــا اصنعه في ايام الحياة عزلة تجعلني من الناس كبارح الأروى من سانح النعام . وما ألـوتُ نصيحةً لنفسي . فأجمعت على ذلك واستخرت الله فيه بعد صلاته على نفر يوثق بخصائلهم ، فكلهم رآه حزماً ، وعدّه اذا تمّ رشداً ، وهو أمر ليس بنتيج الساعة ولا ربيب الشهر والسنة ولكنه غذيّ الحقب المتقادمة ، وسليل الفكر الطويل الخ [2] » .

على ان زهد المعري لا يعني انقطاعاً عن العمل ، بل ترفعاً عن

---

١ ولا يستبعد ان يكون اكثر ذلك في اثناء رحلته الاولى .

٢ رسائل المعري .

حطام الدنيا وغرورها . فالرجل كان كثير العمل حريصاً على التعليم والتأليف . وفي هذا الطور من حياته نظم لزومياته وصنّف اكثر كتبه ورسائله [١] . وكان منزله محجّة الطلاب يقصدونه من كل الآفاق [٢] ، والى ذلك يشير في اللزوميات :

يزورني الناس هذا ارضه يمنٌ   من البلاد وهذا داره الطّبَس

وقد خرج منهم ائمة وقضاة ورؤساء في العلم : منهم الخطيب ابو زكريا التبريزي وابو المكارم الابهري وابو تمام ابن عيسى الانصاري وابو ظاهر الانباري وابو القاسم التنوخي وسواهم .

وبرغم تقشفه ولزومه منزله كان له من الوجاهة اسمى مقام . قال ابن العديم : « وما زالت حرفة ابي العلاء في علاء وبحر فضله مورداً للوزراء والامراء . وما علمت ان وزيراً مذكوراً وفاضلاً مشهوراً مرّ بمعرّة النعمان في ذلك العصر الا وقصده واستفاد منه [٣] » . ومما يدلك على وجاهته ما نقله ياقوت والذهبي [٤] من ان أهل المعرّة لما اشتد عليهم صالح بن مرداس لم يجدوا بداً من ايفاد المعري مستشفعاً فيهم ، فقصد الامير ولما دخل عليه قال الامير : انت ابو العلاء ؟ فقال انا ذاك . فرفعه الى جانبه ، وبعد ان خاطبه المعري بأمرهم قال له اني قد وهبتها لك ايها الشيخ .

ولما أصبحت المعرة وحلب تحت سطوة الفاطميين بذل له المستنصر الفاطمي ما ببيت المال بالمعرة فلم يقبل منه شيئاً ، وكذلك داعي الدعاة لما عرف تزهد المعري وقلّة دخله كتب الى نائب الفاطميين بحلب بأن يُجري ما تدعو اليه حاجته وان يضاعف حرمته ويرفع منزلته عند الخاص والعام ،

١ من اراد ان يعرف عدد مؤلفاته فليراجع معجم الادباء والانصاف والتحري وما نقله الذهبي عن القفطي .

٢ ابن خلكان ١ – ٤١ .

٣ أعلام النبلاء ٤ – ٢٤٤ .

٤ معجم الادباء ١ – ٢١٦ ورسائل المعري (اكسفورد) ١٣٠ .

فامتنع عن قبول ذلك [1] . وبين المعري وداعي الدعاة رسائل ومكاتبات نستدل منها على ما كان لشاعرنا من المنزلة الرفيعة عند زعماء ذلك العصر .

ويؤيد كل ذلك ما ذكره الشاعر الفارسي ناصر خسرو الذي زار المعرة سنة ٤٣٩ أي قبل موت المعري بعشر سنوات ، فوصفه بقوله « انه رجل ذو نفوذ عظيم في بلدته وذو غنى ، ينفق على الفقراء والمعوزين ، مع انه يعيش عيشة الزهد والتقشف » [2] .

وفي شعر المعري ورسائله ما قد يزكّي شهادة ناصر خسرو ، كقوله في اللزوميات مشيراً الى ما يعتقده الناس من حسن حاله :

مَن ليَ ان لا أقيم في بلد أذكر فيهِ بغير ما يجبُ
يُظنّ بي اليسر والديانة والعـلم وبيني وبينها حجُبُ

ومن قصيدته :

تفهّم يا صريع البين بشرى أتت من مستقلٍّ مستقيل

يُستدل انه ارسل قدراً من المال الى أديب اسمه صريع البين ، ويسأله المعذرة على قلة ما ارسل اليه .

وكذلك في قصيدته :

ابيسط عذري منعم ام يخصّني بما هو حظّي من أليم عتاب

يعتذر لفقيه عن ان الهدية التي ارسلها اليه أقلّ من قدره وكان المعري يومئذ في الخمسين من عمره فقال :

فيا ليتني اهديت خمسين حجةً مضت ليَ فيها صحتي وشبابي
وقلّت له – فاترك ثلاثين اسوداً متى ما تكشّف تـُلفَ غير لباب
لعل الذي انفذتُ يكفيه ليلةً لاسباغ طهرٍ حانَ أو لشراب

وفي البيت الثاني اشارة الى ان الهدية ثلاثين درهماً فقط .

---

[1] الانصاف والتحري ٤ – ١٤٤ .

[2] نقلاً عن Encyc. of Islam من فصل للاستاذ نكلسون .

ومثلها قوله في رسالة أرسلها الى علوي « وقد بعثت بشيء من النفقة ، نفسي من قلته كل المشفقة »[1] .

ومما يؤيد ذلك ما ذكره ابن العديم مما قرأه بخط ابي الفرج محمد بن أحمد بن الحسن الكاتب الوزير « روزنامج » انشأه لولده الحسن يذكر فيه رحلته سنة ٤٢٨ الى الحجّ وعبوره بمعرة النعمان ، ويذكر اجتماعه بابي العلاء ومن قوله فيه : « وقصر همه على أدب يفيده وتصنيف يجيده ، ومتعلم يفضل عليه ومسترفد صعلوك يحسن اليه » . قال : « وله دار حسنة يأويها ومعاش يكفيه ويمونه ، وأولاد أخ يخدمونه ويقرأون بين يديه ويدرسون عليه ويكتبون له ، وورّاق برسمه مستأجر ، ثم ينفق على نفسه من دخل معاشه نفقة طفيفة ، وما يفضل عنه يفرّقه على أخيه وأولاده واللائذين به والفقراء والقاصدين له من الغرباء[2] » .

ولما قصده الخطيب التبريزي ليقرأ عليه دفع اليه صرّة فيها ذهب ، وقال : « اوثر من الشيخ ان يدفعها الى بعض من يراه ليشتري لي ما تدعو اليه الحاجة مدة مقامي للقراءة واتوفر بذلك على الاشتغال » . وعلم المعري ان هذا الطالب كان فقيراً فأخذ الصرة وخبأها وتقدم الى وكيله ان يجري للخطيب ما تدعو اليه الحاجة مدة اقامته بالمعرة . ولما اتم دروسه وهمّ بالانصراف ودّع الشيخ ، فدفع اليه صرّته بعينها . ولما اصر عليه الخطيب قال المعري : لا سبيل الى رد الصرة عليّ ، وهذا ذهبك بعينه[3] .

وهناك قصة نقلها الصفدي في نكت الهميان عن ابن سبط الجوزي عن رجل دخل المعرة أيام المعري وقد وُشِيَ بشاعرنا الى محمود بن صالح انه زنديق – قال : فأمر محمود بحمله اليه وبعث خمسين فارساً ليحملوه ، فأنزلهم ابو العلاء دار الضيافة .

---

١ رسائل المعري (اكسفورد) ٣٥ .
٢ الانصاف والتحري ٤ – ١٥٢ .
٣ الانصاف والتحري ٤ – ١٥٢ .

ولا نعلم مبلغ هذه القصة من الصحة ولكنها اذا قرنت بما ذكرناه عن جاه ابي العلاء وحسن حاله في المعرة – مما لا سبيل الى الشك فيه – ترجح لدينا تصديقها .

ومع كل ذلك فأكثر الذين يترجمون للمعري من قدماء ومحدثين يذهبون الى فقر شاعرنا ، وانه كان يعيش من وقفٍ له لا يتجاوز الثلاثين ديناراً يعطي نصفه لخادمه . فكيف نجمع بين القولين – بين وجاهة المعري وكرمه من جهة ، وفقره وزهده من جهة أخرى ؟ – والجواب : ان المعري بعد ان استقر في المعرة وعكف على العلم والتعليم قصده الطلاب من الآفاق وكاتبه الكبراء والامراء ، فعظم شأنه وحسنت حاله . ولكنه لم يكن يستعمل من ماله الّا النزر اليسير ، وينفق الباقي في سبيل اللائذين والمعوزين . وهنا سر العظمة في حياة المعري الزهدية . عاش عيشة الحكماء المتورعين عن الدنيا ، ولكنه لم يكن في ذلك كأبي العتاهية وأضرابه من الحريصين على المال المقبلين على حطام الحياة ، بل قنع باليسير اعتقاداً بحكمة القناعة ، وأحسنَ بما كان يفضل عنه اعتقاداً بشرف الاحسان .

زندقته وايمانه

اختلف الناس في المعرّي فمن ناعتٍ اياه بالتقى وحسن العقيدة ، ومن ناسب اليه الضلال والالحاد . وسبب ذلك ما يجدونه في لزومياته من النقد الموجّه الى الزعماء والرؤساء ، وما يهاجم به احياناً بعض المذاهب والعقائد الدينية . فممن اتهموه في دينه ياقوت وابن الجوزي والصلاح الصفدي ، وجاراهم الذهبي فقال : « مات متحيراً لم يجتم بدين من الاديان نسأل الله ان يحفظ علينا ايماننا بكرمه » .

ومن ذهب الى انه صحيح العقيدة ابو الحسن الهكاري وابن العديم صاحب « الانصاف والتحري في دفع التجري عن المعري » . ومنهم السلفي فقد لخص أقوال الناس فيه ثم ختم ذلك بقوله : « ففي الجملة كان من

أهل الفضل الوافر ، قرأ القرآن بروايات وسمع الحديث بالشام على ثقات . وله في التوحيد واثبات النبوءة وما يحضّ على الزهد واحياء طرق الفتوّة والمروّة شعر كثير [1] » .

* * *

ولا يزال الناس الى اليوم مختلفين في هذا الامر ، على انه لا بدّ قبل الحكم على المعرّي من ان نلقي نظرة على عصره وعلى ما كان له من الاثر في نفسه . فقد عاش شاعرنا ما بين منتصف القرن الرابع ومنتصف القرن الخامس الهجري – أي في ابّان الحركة الفكرية عند العرب . في ذلك العصر تمّ نقل العلوم اليونانية ونبغ بين المسلمين كثيرون من العلماء والمفكرين والنقادين ، فكانت بغداد وكثير من المدن الشرقية الاخرى مراكز علمية احتكّت فيها « الروحية » الساميّة التي حملت الى الناس الايمان بالتوحيد والمعاد والآداب الدينية ، « بالعقلية » اليونانية التي حملت اليهم البحث المنطقي والنظريات العلمية . وكان من جراء ذلك الاحتكاك اشتداد الفِرق الكلامية وتعدّد المنازع الفكرية بين مُناصر للنصوص الدينية أو مضادٍ لها . ومن الانصاف هنا ان نقول ان هذا النزاع بين النقل والعقل كان يضعف أو يشتد بالنسبة الى الاحوال الاجتماعية او السياسية . على ان العصور الوسطى مَدينةٌ للغة العربية في انها (أي العربية) اتسمت يومئذ للتفكير العلمي ، فكانت الموئل الذي حُفظت فيه ثمار العقول القديمة .

ولا شك ان هذا النزاع الفكري احدث في العقول ميلاً الى النظر النقدي في الكون والحياة والدين والمعاد ، فتسرب الشك الى عقول بعض المفكرين ، واستولى عليهم روح الانكار ، فرفضوا ما لم تقبله عقولهم من تعاليم وسنن ، ونادوا بالرجوع الى المبادىء الاولية في الحياة الروحية والاجتماعية . ومن

---

[1] راجع القول في عقيدة المعري واختلاف الناس فيه (اعــلام النبلاء ، ص ١٦٣ الى ١٦٧ والذهبي في رسائل اكسفورد ص ١٣٠ – ١٣٥) ، وراجع مفتاح السعادة ج – ١ – ١٩١ و ١٩٢ .

هؤلاء شاعرنا – فقد نشأ في هذا الجو الفكري المضطرب تواقاً الى المعرفة والى بلوغ الحقائق ، وفي نفسه اصطدمت « تقاليد » الدين بأحكام العقل فاضطرب وصار يتلمّس طريقه توصلاً الى ما يشفي أوامه ، فلم يوفـّق تمام التوفيق : كان الايمان أساس حياته ولكنه قضى الحياة حائراً تتقاذفه لجج الشك والتشاؤم . ومن هنا هذا الاختلاف في الحكم عليه .

على اننا اذا دققنا في حياته وشعره وحاولنا ان نخترق الضباب الذي يحيط به رأيناه يظهر لنـــا في طورين مختلفين تفصل بينهما مدة اقامته في بغداد .

فالطور الاول طور الشباب ويمتد الى سنة ٤٠٠ هـ . وفي هذا الطور نراه مسلماً حقيقياً ، وبرغم ما قد تمّ عليه بعض اشعاره من روح التفكير لا نراه يختلف في تصرفه العادي عن سائر المؤمنين .

والطور الثاني طور العزلة . يبتدىء عقب رجوعه من بغداد ، ويمتد الى آخر حياته وفي هذا الطور يقف موقفين رئيسيين :

١ – تجاه الآخرة . وهو هنا حائر يجمع في نفسه التفكير الفلسفي والعاطفة الدينية الموروثة جمعاً غير محكم – فتارة تراه مؤمناً وطوراً مشككاً – ولهذا نجد في شعره بعض المتناقضات ، وسيأتي معنا تفصيل ذلك .

٢ – تجاه الحياة والانسان . وهو هنا صريح ثابت الرأي يغلب عليه التشاؤم والمرارة ، ويلخص هذا الموقف بالمبادىء التالية :

ان الطبيعة ثابتة لا تزول (وهو مذهب الفلاسفة الطبيعيين)

ان الانسان فاسد بطبيعته ولا يمكن اصلاحه .

ان الطمع أساس كل تصرفاته ومعتقداته .

ان الدين انما هو حسن الاخلاق وشرف المعاملة (لا مجرّد الفروض والسنن والايمان) .

ان حقيقة الحياة هي القناعة والبساطة .

ان الوجود علة الشقاء فالأفضل ان نتخلص منه بعدم التناسل .

وله في المرأة آراء لا تخرج عن آراء عصره ، وسيظهر لنا كل ذلك في تحليلنا لشعره .

شاعريته وشعره

للمعري مقام فريد بين شعراء العربية - لا من حيث أسلوبه وفنه - ولكن من حيث روحه ونظره الى الدنيا . وقد رأينا ان حياته الفكرية تظهر في طورين مختلفين . وفي هذين الطورين تظهر حياته الشعرية أيضاً - الاول يتناول شعر الشباب منذ بدء عهده بالنظم الى اعتزاله ، ويدخل فيه أيضاً بعض ما نظمه بعد ذلك . وقد دوّن لنا هذا الشعر في سقط الزند - والثاني شعر العزلة ويتمثل لنا في لزومياته أو ديوانه المعروف بلزوم ما لا يلزم . ولنتقدم الى تحليل كل من هذين الطورين .

الطور الأول - سقط الزند

في هذا الطور نجد المعري جارياً في سنن الأقدمين من الشعراء ، فيكثر في شعره ذكر النياق والرحيل والأحبة . ولكي تعرف مقدار ذلك نقول : خذ الجزء الاول من سقط الزند فهو يشتمل على أكثر من ثلاثين قصيدة ، وفي أكثر من ثلثيها تجد للقصيدة مقدمة يصف بها المطايا أو يتكلّف الغزل على الطريقة القديمة . أما الجزء الثاني من الديوان فاذا استثنيت « درعياته » رأيت نصفه على هذا المنوال القديم .

ومن أمثلة وصفه للمطايا قوله يذكر سريها في الليل :

وأسودَ لم تعرف له الانس والداً كسانيَ منه حلةً وخمارا
سرتْ بيَ فيه ناجياتٌ مياهها تجمّ اذا ماء الركائب غارا
فخرّقن ثوب الليل حتى كأنني اطرتُ بها في جانبيه شرارا

الى ان يقول :

اذا قـُيـّدتْ في منزل بلنوفةٍ حسبت مُناخاً أوطنتـْه مثارا
تظن غطيط النوم نهمة زاجرٍ فتقطع قيداً أو تبثّ هِجارا

ثم يقول :

ولست تحسّ الارض منها بوطأة فتـُفزع سرباً أو تروع صُوارا
تدوس أفاحيص القطا وهو هاجد فتمضي ولم تقطع عليه غرارا

وينسج مقدّمته على هذا النسق البدوي في نحو عشرين بيتاً ، ثم يتقدم الى الممدوح ويصف بأسه في الحرب ، ثم يتناول وصف خيله وكرّها في اثني عشر بيتاً لا تقول اذا قرأتها الا ان ناظمها فارسٌ من الفرسان البادية [1] .

وقس على ذلك عشرات من قصائده . وقد يلفت النظر متابعته لأبي تمام في وصف المركب الذي حمله الى الأنبار ، وتشبيهه اياه بالناقة السريعة ، كقوله من قصيدة مطلعها « يا ناق جدّي فقد أفنت اناتك لي » .

على نجاة من الفرصاد أيـّدها ربُّ القدوم بأوصال وأضلاع
تـُطلى بقارٍ ولمَ تجرب كأن طليت بسائل من ذفاري العيس مُنباع [2]
ولا تبالي بمحلٍ ان ألمّ بها ولا تهشُّ لإخصاب وامراع

أما غزله فظاهر الصناعة قليل الرونق ولا ينتظر ممن كان كالمعري غزل خارج من قلب متأثر بجمال الحبيب . فمن قوله في ذلك :

لله ايامنـا المواضي لو ان شيئاً مضى يعود
أبلى ودادي لـكم زمان ألينُ أحداثه حديد
لم يبل من بذله ولكن يبلى على طيّه الجديد

فانظر الى هذا الحب الذي بلي لتقادم العهد عليه وقابله بشعور محب صادق الحب متيم القلب . ومن غزله :

---

١ راجع هذه القصائد في سقط الزند ١ – ١٧٥ .

٢ تطلى بقار كأنه لسواده عرق سائل من ذفاري الابل (الذفاري مؤخر الاذن) وعرق الابل أسود . ورب القدوم أي النجار . نجاة : ناقة سريعة .

ما يوم وصلك وهو أقصر من   نفَس بأطول عيشه غـالي
علقت حبال الشمس منك يدي   وجديدها في الضعف كالبالي
وأردت ورِد الوصل من قمر   فصدرت عنه كوارد الآلِ
وطلبت عندك راحة وعلى   قدر اعتقادي كان ادلالي
وظننت في البلوى مناي ولم   تكن المنيـة لي على بالِ
ما زلت أبلغ ما أهمّ به   حتى هممتُ بكوكب عالِ
ان فات سلوان الحياة فكل الناس بعـد مماتـه سالِ

إلى آخر الأبيات وأكثرها على هذا النسق من قلّة الطلاوة . وليس غزل المعري بقليل في شعره ، ولكنه فنّياً دون غزل المتنبي أو البحتري أو أبي تمام — ناهيك بشعراء الحب المعروفين . ولا نرى الا ان المعري كان يجري فيه جرياً صناعياً متبعاً فيه طريقة من تقدمه في النظم .

ومما يلازم ذكر المطايا والحبيب ذكر السيف والرمح والدرع ، وله في ذلك أقوال كثيرة تدل على مهارته اللغوية في الوصف كقوله :

وكل أبيض هنديٍّ به شُطَب   مثل التكسّر في جارٍ بمنحدرِ
تغايرت فيـه أرواح تموت به   من الضراغم والفرسان والجزُرِ
روض المنايا على ان الدماء به   وان تخالفن أبدالٌ من الزهرِ
ما كنت أحسب جفناً قبل مسكنه   في الجفن يطوى على نار ولا نهر
ولا ظننت صغار النمل يمكنها   مشيٌ على اللجّ او سعيٌ على السعر

ومما يبرز في شعره ذكر الضواري والطيور ، فهو كثير التمثل بالذئب والضبع والأسد والأرقم والقطا والحمام والنعام والنسر والوعل والغراب.

ومثل ذلك كثرة ذكره للنجوم والأفلاك والصباح والظلام، ونجتزىء منه بما يلي ، وهو من قصيدته « أرى العنقاء تكبر ان تصادا » :

لي الشرف الذي يطأ الثريا   مع الفضل الذي بهر العبادا
ولو ملأ السّهى عينيه مني   أبرّ على مدى زحل وزادا
وقد أثبتُّ رجلي في ركاب   جعلت من الزماع له بدادا

إذا أوطأتها قدَمي سهيل فلا سقيت خناصرة العهادا [1]
كأن ظماءهنّ بنات نعش يردن إذا وردن بنا الثمادا

* * *

ومما يلاحظ في شعر المعري عموماً كثرة استشهاده بالحوادث الماضية ورجالها . ففي الجزء الثاني من سقط الزند مثلاً نحو ثلاثين شاهداً من هذا القبيل [2] .

وفي هذا الطور من شعر المعري نراه شديد الشعور بأهمية نفسه كثير التفاخر بها ، يستلذ مدح المادحين ويؤلمه حسد الحساد .

كقوله :

تعاطوا مكاني وقد فتُّهم فما أدركوا غير لمح البصر
وقد نبحوني وما هجتهم كما نبح الكلب ضوء القمر

وله كثير من الشعر الفخري ، وهو بذلك غير المعري في اللزوميات حيث تعدّى طور الشباب وأنضجه اختبار الدنيا ، فلزم التواضع والزهد وصار يبتعد عن السخائف والظواهر [3] .

أما أسلوبه فيكثر فيه الغريب من الألفاظ وغير المألوف من المصطلحات وهو كثير الولع بأنواع البديع والمجاز ولا سيما الجناس والتمثيل وسنرى ذلك في كلامنا عن لزومياته .

* * *

وإذا نظرنا الى الرجل نفسه فانّا نراه في سقط الزند متمسكاً بعقائد

---

١ خناصرة محل بالشام .

٢ راجع من ذلك الصفحات التالية ٥٣ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٣ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ .

٣ راجع فخره في الجزء الاول ٨٧ ، ١١٥ ، ١٤٧ ، ١٥٧ ، ١٨٢ . ومقابلة لذلك راجع من أمثلة تواضعه في اللزوميات ٢ — ١٥ و ٢٤٢ و ٢٤٧ وج ١ — ٩٣ و ٩٧ و ١٠٠ .

دينه كسائر أهل زمانه . واذا كنت تلمح فيه شيئاً من روح الشك والتأمل الفلسفي كقوله في مرثاة والده :

طلبت يقيناً يا جهينةُ عنهم ولن تخبريني يا جهين سوى الظن
فإن تعهديني لا أزال مسائلاً فاني لم أعط الصحيح فاستغني

فذلك ضئيل جداً لا يكاد يظهر ازاء ما يظهر فيه من روح الاسلام والتعصب له والذود عن تعاليمه . وقد كان قبل سفره الى بغداد وقبل عزلته يناضل عن وجود الله وحدوث الكون والبعث ، وكلامه في ذلك ثابت صريح ، كقوله يرد على الدهريين القائلين ان العالم قديم وانه لا بعث ولا حساب :

ضلّ الذي قال البلاد قديمة بالطبع كانت والأنام كنبتها
وأمامنا يوم تقوم هجوده من بعد إبلاء العظام ورفتها

وعلى كلٍّ فان التأمل والتشكيك ليسا الطابعين اللذين طبع بهما شعره قبل رجوعه من بغداد .

بقي علينا ان نذكر درعياته وهي قصائد في وصف الدرع يصفها على لسان رجل أسنّ فترك لبسها أو على لسان رجل رهنها ، وقد يصفها على لسان درع تخاطب سيفاً ، او رجل يبيع درعاً ، او رجل خانه آخر في درع ، او فارس سأل عن درع أبيه الى غير ذلك مما له علاقة بهذا الموضوع .

وان الذي يطالع هذه الدرعيات يعجب من رجل كأبي العلاء ينصرف الى موضوع كهذا الموضوع ، فيبذل جهده ويكدّ نفسه في اوصاف ومجازات وعبارات لا طائل تحتها ، وليس لها أقل علاقة بنفسه او حياته . ولا يسعنا ان نقول فيها الا انها في الارجح أداة استعملها لاظهار مقدرته اللغوية . ولعل له فيها غرضاً آخر .

اللزوميات

ينفرد هذا الديوان بمزيتين : خلوّه من أبواب الشعر المطروقة (المديح والرثاء والفخر وما اليها) ، وانصراف ناظمه الى نقد الحياة . وقد نظم كلّه ، كما عرفنا سابقاً ، بعد رجوع المعري من بغداد ولزومه في المعرّة ، ولذا فهو يمثل لنا نضج القوة الشعرية في الشاعر ونظراته الفلسفية في الكون والعمران . على انه مع ذلك قلما يختلف من حيث الصناعة عن شعره السابق ، فانك ترى الشاعر هنا – في هذا الجو الفكري الانتقادي – شديد الكلف بالصناعة وقد قيّد نفسه تقييداً شديداً بلزوم ما لا يلزم ، فاضطر الى كثير من القوافي الغريبة والالفاظ الغامضة . وقد يستغرب الذي يطالع ديوانه من جمعه بين النقيضين : فحيناً تراه يتجنب كد النفس ويسلس للعاطفة القياد فيأتي شعره من الطبقة الاولى متانة وعذوبة كقوله :

يرتجي الناس ان يقوم إمامٌ   ناطقٌ في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا إمام سوى العقل   مشيراً في صبحه والمساء

وقوله :

قالوا فلانٌ جيّد لصديقه   لا يكذبوا ما في البريّة جيد
فأميرهم نال الامارة بالخنا   وتقيّهم بصلاته متصيّد

وقوله :

يا محلّتي عليك مني سلام   سوف امضي وينجز الموعود
أيرجّون ان اعود اليهم   لا ترجّوا فانني لا اعود
ولجسمي الى التراب هبوط   ولروحي الى الهواء صعود
وعلى حالها تدوم الليالي   فنحوسٌ لمعشر وسعود

وهذا الضرب من شعره كثير . ومنه ما لا يجاريه فيه إلا القليلون كقوله :

رويدك قد غررت وأنت حرّ   بصاحب حيلة يعظ النساءَ
يحرّم فيكم الصهباء صبحاً   ويشربها على عمد مساءَ

يقول لكم غدوت بلا كساءٍ وفي لذّاتها رهن الكساءَ
اذا فعل الفتى ما عنه ينهى فمن جهتينِ لا جهة اساءَ

وقوله :

يسوسون الامور بغير عقل فيُنفذ أمرهم ويقال ساسهْ
فأفٍّ من الحياة وأفٍّ مني ومن زمنٍ رئاسته خساسهْ

وحيناً يهيم في أودية الغرائب اللفظية فيتعسّف ويأتيك بالمكدود المتكلّف كقوله :

ترى الهِمّ لا شيءٌ سوى الاكل همّه له جسد ما اسطاع حَرّاً ولا بردا
يُقلّ العصا مستثقل الطِّمر بعد ما علا فرساً واجتاب ماذيَّة سردا
ولا تترك الايام مردىً لظبيةٍ من الأدم تختار الكباث ولا المردا
ولم يُلفِ منها فارد القُمر مخلصاً وقد بلغت احداثها القمر الفردا [١]

وقوله :

لعمر ابيك ما خالي بخالٍ لشائمه ولا شهدي بهفّ
فان أعطى القليل يكن هنيئاً يجيء المستبيح بغير شفّ
اذا ورد الفقير على احتياجي اغثت لهيفه بالمستدفّ
ولو كان الكثير لقلّ عندي وأهون بالضعيف المستطَفّ [٢]

وقوله :

فقد لاحت مخايل صادقات تروق العين بالدمع الولاف
فمن لك بالغريريّات سارت بأشباهٍ نسبن الى عِلاف

واذا علمت ان الولاف هو البرق اللامع لمتين وان علاف اسم رجل من قضاعة تنسب اليه الرحال ، علمت ما جناه عليه تقيده ولا سيا في قوله : أشباه نسبن الى علاف .

---

١ الهم الشيخ الهرم . الطمر الثوب البالي . الماذية السرد الدرع . مردى مهلك . الكباث والمرد من ثمر الاراك . فارد القمر الحمار في بطنه بياض .

٢ المستدف القليل . والمستطف المستقل .

ومن هذا القبيل قوله :

فامنح ضعيفكَ ان عراك ولو نزراً ولا تصرفه بالكهر
وارفع له شقراء تَـرمَح في دهماء مثل تأرّن المهر

أي أمنح الضعيف ولا تصرفه بوجه عبوس وارفع له ناراً تتأجج في الظلام .

وقوله :

غَـبقنا الأذى والجاشريّةُ همنا ونادى ظلامٌ لا سبيل الى الجشرِ
انكتب سطراً ليس فيه تخوفٌ لربّك ما أولى بنانك بالأشر
وان بُـتكت عشر فمن بعد ما جنت بكل فسيطٍ قصّ اكثر من عشر[1]

وقوله :

كبرتَ فأصبحتَ للراشدين كَـبُرْتِ يعدُ لهديٍ دليلا
كبرتَ فما زال هذا الزمان كَـبرتٍ يجذّ قليلاً قليلا

واذا تأملت هذين البيتين لا تجد فيهما الا تكلفه الجناس بين كبرت : الفعل ، وكَـبُرت : الجار والمجرور (أي كدليل) في البيت الاول ، وبين الفعل ايضاً ولفظة برت (بمعنى الفاس) في البيت الثاني .

وأمثال هذا الكلام المصنوع كثير جداً في شعر شاعرنا . فلا جرم اذا جــاءَ القسم الوافر منه صعباً مبهماً حتى على اهل الادب . واذا أردنا التدقيق في أسباب صعوبته وابهامه وجدناها ترجع الى ما يلي :

١ – شغفه بالمحسنات البيانية ولا سيما الجناس والطباق والتورية .

٢ – كثرة الاشارات الى الحوادث التاريخية والى رجال التاريخ – المشهور منهم وغير المشهور .

٣ – استعماله لأوابد الكلام وشواذه .

٤ – اضطراره الى القوافي الغريبة للزومه ما لا يلزم .

فاذا أضفت الى ذلك ما في مواضيعه الفلسفية الاخلاقية من معان

---

١ الغبوق الشرب مساء والجاشرية شرب السحر . الاشر القطع . بتكت اي قطعت . فسيط قلامة ظفر .

مجرّدة هي بطبيعتها صعبة المتناول ، علمت السر في هذا الابهام العام من معانيه .

ولا نذهب الى ما ذهب اليه بعض أعلام البحاثين من ان المعري كان يقصد ذلك ليخفي أغراضه [1] عن العامة . فان شاعرنا كان صريحاً ، وله في لزومياته كثير من النقد المرّ الذي بلغت به الصراحة أبعد مدى كبعض ما ذكرنا له آنفاً ، وكقوله :

أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما دياناتكم مكر من القدماء

أو قوله :

قد حُجب النور والضياءُ وإنما ديننا رياءُ
يا عالم السوء ما علمنا ان مصلّيك اتقياءُ

وقوله :

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت ويهودُ حارت والمجوس مضلّلهْ
اثنان أهل الأرض : ذو عقل بلا دين ، وآخرُ ديّن لا عقل لهْ

وقوله :

في البدو خُرّاب أذوادٍ مسوّمةٍ وفي الجوامع والأسواق خُرّاب
فهؤلاء تسمّوا بالعدول او التجار واسمُ أولاك القوم أعراب

وقوله :

مُلّ المقام فكم اعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعيّة واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم اجراؤها

وقس على ذلك مئات الأبيات في ديوانه .

ويمتاز المعري في لزومياته بدقة تشابيهه وروعة حكمه : أما دقة التشبيه فيه فنتيج الخيال وحسن التعبير عن النفس ، واما الحِكَم فلِما في طبعه من صدق التأمل في الحياة والموت . ويختلف عن المتنبي ان حكم المتنبي ناشئة عن نفس رجل خاض غمرات الحياة سعياً وراءها ، أما

---

[1] راجع ذكرى ابي العلاء للدكتور طه حسين ص ٢٦٧ .

حكم المعري فناشئة عن نفس حكيم مفكّر عرف الحياة فزهدها . وليس من الانصاف ان نقرنه من هذا القبيل بأبي العتاهية ، فإن للمعري من دقة التأمل وصدق التضحية ومعرفة الكون ما لا نراه لشاعر القبور والنشور : كان أبو العتاهية واعظ الموت ، والمتنبي خطيب الحياة ، أما المعرّي فحكيم الموت والحياة .

المواقف الشعرية في اللزوميات

تتناول اللزوميات منشأ الانسان ومصيره وما بينهما . وللشاعر فيها موقفان رئيسيان : (١) تجـاه الغيبيات (الله والبعث والحساب) (٢) تجاه الانسان والطبيعة . واليك بيان ذلك :

الغيبيات

هنا نرى موقفه مضطرباً ، ولكن اضطرابه اضطراب مؤمن يحاول ان يجمع بين العقل والنقل ، فيقع في شيء من الارتباك . ومن الخطأ ان نحكم عليه من شعره بالجحود فان الشواهـد فيه على ايمانه بالله وبشكلٍ من أشكال الخلود كثيرة ، بل هي اكثر من أضـدادها . ويتضح ذلك من الامثلة التالية :

قال مستهزئاً بالتنجيم ومثبتاً قوة الله :

متى ينزل الامر السماويّ لا يُفدْ سوى شبحٍ رمحُ الكميّ المناجد
وان لحق الاسلامَ خطب يفضّه فما وجدت مثلاً له نفس واجد
إذا عظّموا كيوان عظّمتُ واحداً يكون له كيوان أول ساجد

وقال :

والله حقّ وابن آدم جاهل من شأنه التفريط والتكذيب

وقال :

الله لا ريب فيه وهو محتجب بادٍ وكلّ إلى طبع له جذبا

وقال :

فَلَكٌ يدور بحكمة ولـه بلا ريب مدبر

وقال :

أما الحياة فلا أرجو نوافلها لكنني لالهي خائف راجي
ربّ السماك ورب الشمس طالعة وكل أزهرَ في الظلماء خرّاج

وفي الحشر يقول :

اذا كنت من فرط السفاه معطّلا فيا جاحدُ اشهدْ انني غير جاحد
أخاف من الله العقوبة آجلا وازعم ان الأمر في يد واحد

ويقول :

انْ أدخل النار فلي خالق يحمل عني مثقلات العذاب
يقدر ان يسكنني روضةً فيها نرامى بالمياه العِذاب

ومن ذلك هذان البيتان المشهوران :

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تحشرُ الاجساد قلت اليكما
ان صح قولكما فلست بخاسر أو صحّ قولي فالخسار عليكما

ويلي هذين البيتين خمسة أبيات كلها على هذا النمط .

وله مثل ذلك قصيدة مطلعها :

عجبي للطبيب يلحد في الخالق من بعد درسه التشريحا

وليس الذي ذكرناه الا نزراً مما ورد في أثناء الديوان من هذه المعاني الايمانية . ولكن شاعرنا في هذا الموقف كما قلنا مضطرب متحير – تراه آونة مؤمناً صريح الايمان – ثم تراه وقد غشيته الشكوك والأوهام . فهو بين مدّ وجزر لا يستقر على حال واحدة .

ومن شكّه هذه الأمثلة القليلة ، وهي قلّ من كثير :

أما الجسوم فللتراب مآلها وعييت بالارواح انّى تسلك

* * *

دفنّاهم في الارض دفن تيقّنٍ ولا علم بالأرواح غير ظنون

ورَومُ الفتى ما قد طوى الله علمه يعدّ جنوناً أو شبيه جنون

* * *

قد قيل ان الروح تأسف بعدما تنأى عن الجسد الذي غنيت به
ان كان يصحبها الحجا فلعلها تدري وتأبهُ للزمان وغيبه
او لا فكم هذيان قومٍ غابرٍ في الكتب ضاع مداده في كتبه

* * *

تقدّم الناس فيا شوقنا إلى اتباع الاهل والاصدقاء
ما أطيب الموت لشرّابه ان صح للاموات وشك التقاء

* * *

اما اليقين فــلا يقين وإنما اقصى اجتهادي ان اظنّ وأحدسا

* * *

أما القيامة فالتنازع شائعٌ فيها ومـــا لخبيثها أصحار

ومما يكاد يكون انكاراً قوله :

قلتم لنا خالقٌ حكيم قلنا صدقتم كذا نقول
زعمتموه بــلا مكان ولا زمان ألا فقولوا
هــذا كلام فيه خبيء معناه ليست لنا عقول

وقوله :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهةً وحُقّ لسكان البسيطة ان يبكوا
يُحطّمنا صرف الزمان كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبكُ

وقوله :

خذ المرآة واستنجد نجوماً تـُمِرّ بطعم الأرْي المَشورِ
تدلّ على الحياة بلا ارتياب ولكن لا تدلّ على النشور

على أننا إذا دققنا في هذه الحيرة وهذا التناقض ، وراجعنا كل ما قاله المعري بهذا الصدد ، ثم عارضناه بسيرته وأقوال الناس فيه ، ترجّح لدينا ان شاعرنا لم ينقطع عن الايمان بالله وبالآخرة . ولكن صورة الله في نفسه

لم تكن صورته في نفس المؤمن العادي ، وإنما كان نظره إلى ما وراء الطبيعة نظرياً « لا أدرياً » متأثراً بالاسلام .

الطبيعة والحياة البشرية

ويتلخص ذلك بما يلي :

الأديان ورؤساؤها – الشعب وزعماؤه – الانسان وطبيعته ومصيره .

وفي كل ذلك تراه ثابت النظر مستقرّ الرأي مقتنعاً بصحة ما يقول ، وإلى القارىء زبدة هذه النظريات :

الاديان

إذا قوبل الاسلام بسائر الاديان فهو عند المعري مفضّل على الجميع وانك لترى المعري في بعض مواقفه يتعرض للجدل ، فيهاجم اليهود والنصارى والفرق الاسلامية المختلفة (كالمعتزلة والمرجئة وبعض الشيعة والصوفية) ، وله فيها أشعار كثيرة لا يتسع لها المقام[1] .

ومع كل ذلك فله في الدين نظر عام يشمل كل الاديان على السواء وهو يتناول الدين من وجهتين : (١) العقائد والفروض او هيكل الدين . (٢) الفضائل والاعمال او روح الدين . اما الاولى فيحمل عليها حملة شعواء فيحذّر الناس من السنن والمذاهب ، ويزعم ان الدين من هذه الوجهة أداة يستعملها الرؤساء لجذب الدنيا اليهم .

انما هذه المذاهب أسباب لجذب الدنيا الى الرؤساءِ

وأقواله في ذلك لا تحصى فنكتفي بالاشارة اليها والى ما ذكر منها في غير هذا المقام .

وأما الوجهة الثانية فهي الدين الحق عنده . وعلى قدر استهزائه بخرافات الاقدمين وأوهامهم المذهبية ترى تعظيمه للروح الدينية التي يراد

---

١ راجع من ذلك اللزوميات ١ – ١٢٩ و ٢ – ١٧٢ .

بها التنزه عن الجشع والظلم والشهوات ، وبذلك يشارك المصلحين الروحيين في كل مكان وزمان . ومن أقواله في هذا الباب :

الدين هجر الفتى اللذات عن يُسر   في صحةٍ واقتدارٍ منه ما عمرا

* * *

ما الخير صوم يذوب الصائمون له   ولا صلاةٌ ولا صوفٌ على الجسد
وانما هو ترك الشر مطّرحاً   ونفضك الصدر من غلّ ومن حسد

* * *

الدين انصافك الاقوام كلهم   وأيّ دين لآبي الحق ان وجبا

فالدين عنده ترك الشر وانصاف الجميع ، ولا دين لمن يرفض الحق . وقد كرّر هذا المعنى كثيراً في لزومياته ، ونجتزىء هنا بقوله التهكمي فيه :

توهمت يا مغرور انك ديّن   عليّ يمين الله ما لك دين
تسير إلى البيت الحرام تنسّكاً   ويشكوك جار بائس وخدين

وقوله :

سبّح وصلّ وطفْ بمكة زائراً   سبعين لا سبعاً فلست بناسكِ
جهلَ الديانة من إذا عرضت له   أطماعه لم يُلفَ بالتماسكِ

الشعب وزعماؤه

ولا يختلف نظره هنا عن نظره الى الدين ورؤسائه ، فهو يهاجم الأمراء والحكام وأصحاب الزعامة السياسية متهماً اياهم بالجهل والجشع والاستبداد .

فشأن ملوكهم عزفٌ ونزفٌ   وأصحاب الامور جباةُ خرج

* * *

مُلّ المقام فكم اعاشر أمة   أمرت بغير صلاحها امراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها   فعدوا مصالحها وهم اجراؤها

* * *

ساس الانامَ شياطين مسلّطة   في كل مصر من الوالين شيطان

متى يقوم إمام يستقيد لنا فتعرف العدل أجبالٌ وغيطان

ومع اشفاقه على الشعب لا يرى فيه غير الفساد العام كقوله :

قد فاضت الدنيا بأدناسها على براياها وأجناسها

وكلّ حيّ فوقها ظالم وما بها أظلم من ناسها

* * *

كلّنا غادرٌ يميل إلى الظلم وصفو الايام للتعكير

ورجال الانام مثل الغواني غيرَ فرق التأنيث والتذكير

* * *

عشْ بخيلاً كأهل عصرك هذا وتَبالهْ فان دهرك أبلهْ

قومُ سوء فالشبل منهم يغول الليثَ فرساً والليث يأكل شبلهْ

وقس على هذا القول كثيراً من الامثلة التي تعكس لنا بيئته او نظره الاسود إلى أهل زمانه عموماً ، لا فرق في ذلك بين حاكم ومحكوم أو غني وفقير .

هم السباع إذا عنّت فرائسها وان دعوت لخير حوّلت حُمُرا

وكما انه يهاجم الرجال فينعتهم بالجشع والغدر واللؤم كذلك يهاجم النساء فينعتهنّ بالضعف والرياء والخيانة والمكر ، ولا يرى لهنّ الا الاحتجاب التام والتزام المنزل والانصراف الى شؤونه . وانك لترى سوء ظنه بهن إذ يقول :

فوارسُ فتنةٍ اعلامُ غيٍّ لقينك بالاساور مُعلَمات

ودفنٌ – والحوادث فاجعات – لاحداهنّ إحدى المكرمات

وهذان البيتان من قصيدة تنيف على التسعين بيتاً في كل بيت منها ذم للمرأة وتحقير لشأنها . ومثلها في اللزوميات كثير . ولا ندري ما الذي حمل المعري على الازدراء بالمرأة ووصمها بكل الشوائن ، ولكنه ولا شك جارى عصره ، بل تمادى في هذه الآراء الى الحد الاقصى – على انه عطف على الوالدات وأوصى بهن خيراً .

الطبيعة البشرية

أما الطبيعة البشرية ففاسدة عنده لا أمل باصلاحها ، والانسان مسيّر بقوتين : قوة داخلية هي الغريزة الوحشية التي لا يمكن تهذيبها :

واللبّ حاول ان يهذّب أهله   فاذا البريّة ما لها تهذيب

* * *

لم يَقدر الله تهذيباً لعالمنا   فلا ترومنّ للأقوام تهذيبا
ولا تصدّق بما البرهان يبطله   فلستفيد من التصديق تكذيبا

* * *

وجبلّة الناس الفساد فضلّ من   يسمو بحكمته الى تهذيبها

وقوة خارجية هي قضاء جبار يدفع الانسان أمامه فلا ارادة له ولا اختيار . لكن كيف نجمع بين « حكمة الله » كما نراها في شعر المعري وبين جبروت القضاء ، وكيف نوفق بين القدر والحساب ؟ مسألة فلسفية دقيقة لا نرى الشاعر يوضحها او يهتم بتطبيقها تطبيقاً صحيحاً ، وإنما همّه من ذلك ان يصف ما يشعر به أو يتوهمه ، ولذا لا ينتظر ان نراه هنا متّسق الخواطر مطّرد الفكر .

ومن هذا القبيل ذكره للعقل والنقل ، فانك تراه يهيب بالناس الى رفض الشرائع ناسباً اليها كل أسباب الفتن والاضطراب كقوله :

ان الشرائع ألقت بيننا إحناً   وأودعتنا افانين العداوات

ولا يرى من هادٍ غير العقل :

كذب الظنّ لا إمام سوى العقل   مشيراً في صبحه والمساء

* * *

تستّروا بأمورٍ في ديانتهم   وانما دينهم دين الزناديق
نكذّب العقل في تصديق كاذبهم   والعقل أولى باكرام وتصديق

* * *

إذا رجع الحصيف إلى حجاه   تهاون بالشرائع وازدراها

ولكن أي عقل نتبع وأي نقل نرفض ؟ هنا لا بد من الحذر . فالمعري يندفع بتأثير التأمل الفلسفي الى تقديس العقل دون النظر الى عاقبة ذلك التقديس ، وهو بذلك هدّام ونعم المعول العقل ، على شرط ان يستخدمه فيما يفيد – في تهذيب الشرائع ورفعها الى مستوى الكمال الممكن، لا في التخلص منها تبعاً لنزعات الفوضى . والذي يلوح لنا ان المعري لم يكن فوضوياً ، ولم يقصد الهدم المطلق ، بل قصد الاصلاح الاجتماعي . على انه اندفع الى ذلك متأثراً من طبيعته ومن الفساد الذي حوله ، فلم يسلك طريقاً يصح ان نسميها طريق الهداية العملية .

وليس من أثر واضح للفوضى في شعره إلا حمله على النسل ، ودعوته الناس الى الفناء وأقواله في ذلك معروفة نذكر منها هذين البيتين :

لو ان كل نفوس الناس رائية كرأي نفسي تناءت عن خزاياها
وعطّلوا هذه الدنيا فما ولدوا ولا اقتنوا، واستراحوا من رزاياها

كلمة ختامية

وهنا لا بدّ ان نسأل : ما العوامل التي أحلّت المعري هذا المحل الرفيع في تاريخ الادب العربي وخلّدت له هذا الاحترام في نفوس المتأدبين ؟ والجواب عن ذلك :

١ – صراحته في مهاجمة ما كان يراه فاسداً .
٢ – صرفه الشعر الى مواضيع عمرانية أخلاقية لم يسبق اليها .
٣ – تطبيقه الحكمة على نفسه واظهاره مبادئها في حياته .
٤ – زهده الحقيقي وترفعه عن أغراض الدنيا .

نعم قد يؤخذ عليه بعض شذوذه الفكري الذي حمله أحياناً الى أقصى التطرف وجعله هداماً لا يحسن البناء ، وتحرّجه اللغوي الذي دفعه مراراً الى ركوب أخشن المراكب توصلاً الى معانيه . على ان المعري

برغم ذلك الشذوذ وذلك التحرّج ، هو تلك الشخصية التي تجمع بين الاخلاص والشدّة – الاخلاص في خدمة الحقيقة كما تتراءى له ، والشدّة في مهاجمة أهل الفساد . وهو بذلك يختلف عن سائر الشعراء الذين لمعوا في تاريخ الادب العربي إذ ليس لاحدهم مهما تسامت مكانته الفنّية ما للمعري من النظر الى الحياة التي تعجّ حوله ومحاولة نقدها . كان الشعراء قبله لا يرون في الحياة إلّا أنفسهم ولا يرون في الادب إلّا ما يوصل الى أغراضهم ، فجاء المعري ينظر الى البيئة التي تحويه محاولاً رفعها واصلاح شؤونها . على انه لم يرَ فيها غير أوجه الفساد والظلام – ولم ينتبه الى مجالي الجمال التي تزيّن وجه الطبيعة والحياة – فجاء شعره قاتم اللون كأنما هو مصباح تنفذ أشعته الينا من وراء زجاجة سوداء .

المختار من شعر المعري

قارب في خضمٍّ مضطرب تتقاذفه الرياح وتترامى به الامواج – ذلك هو المعري في نظره الى الحياة .

ظلمات من كل جانب ، وعقل مفكر يحاول ان يرى من ورائها ما لا يرى ، فيرتد خائباً ناقماً على الدهر ووُجوده ، ناعياً على الحياة مسراتها ، مهيباً بالناس : الى الفناء الى الفناء ، فما الوجود إلا شقاء في شقاء .

نخبة من سقط الزند

في المراثي

قال يرثي والده

نقمتُ الرضا حتى على ضاحك المزنِ   فلا جادني الا عبوس من الدّجنِ
فليت فماً ان شام سنّي تبسُّمي   فم الطعنة النجلاء تدمي بلا سنْ
كأنّ ثناياه أوانس يُبتغى   لها حسنُ ذكرٍ بالصيانة والسجنْ[1]

* * *

أبي حكمتْ فيه الليالي ولم تزلْ   رماح المنايا قادراتٍ على الطعن
مضىْ طاهر الجثمان والنفس والكرى   وسهد المنى والجيب والذيل والرّدن

---

١ كرهت الرضا حتى على السحاب المتألق . فسوف يبقى فمي مطبقاً كأن اسنانه نساء مصونات في خدورهن .

فيا ليت شعري هل يخفُّ وقاره إذا صار أُحدٌ في القيامة كالعهنِ[1]
وهل يرد الحوضَ الرويَّ مبادراً مع الناس أم يأبى الزحامَ فيستأني
حجاً زاده من جرأةٍ وسماحةٍ وبعض الحجا داعٍ الى البخل والجبن[2]

* * *

على ام دَفْر غضبةُ الله انهـــا لأجدرُ أنثى ان تخونَ وان تُخني[3]
كعابٌ دُجاها فرعها ونهارها محيّا لها قامتْ له الشمس بالحسن
رآها سليل الطين والشيب شامل لها بالثريا والسماكين والوزن[4]
زمانَ تولّتْ وأد حوّاء بنتِها وكم وأدت في إثر حوّاء من قرْن

* * *

جهلنا فلم نعلم على الحرص ما الذي يراد بنا والعــلم لله ذي المنّ
إذا غيّبَ المرء استسرّ حديثُهُ ولم تخبر الافكار عنه بما يغني
تضلّ العقول الهبرزيّات رشدها ولم يسلم الرأيّ القويّ من الأفن[5]
وما قارنتْ شخصاً من الخلق ساعةٌ من الدهر الا وهي افتك من قِرن
وجدنا أذى الدنيا لذيذاً كأنما جنى النحل اصناف الشقاء الذي نجني
فما رغبت في الموت كُدْرٌ مسيرها الى الورِد خمسٌ ثم يشربن من أجن[6]
يصادفن صقراً كلّ يوم وليلةٍ ويلقين شراً من مخالبه الحُجن
وخوف الردى آوى الى الكهف أهله وكلّف نوحاً وابنه عمل السفْن[7]

---

١ أحد اسم جبل ، والعهن القطن .

٢ في هذا البيت وما قبله يصف أباه بالوقار ويقول : هل يخف وقاره يوم القيامة (يوم يصبح جبل أحد كالقطن) وهل يتسارع مع الناس ويزاحمهم الى الحوض. ان عقله قد زاده جرأة وسماحة في حين ان العقل يدعو أصحابه الى الحذر الشديد .

٣ ام دفر كناية عن الدنيا . وتخني تهلك .

٤ شبه الدنيا بالحسناء في قلة الوفاء وقال انها قديمة رآها آدم وهي شائبة وعلامات شيبها هذه النجوم – الثريا والسماكان والوزن .

٥ الهبرزيات القوية . والافن النقص والضعف .

٦ فما رغبت في الموت قطاً تسير خمسة أيام حتى تصل الماء فتشربه فاسداً آسناً .

٧ اشارة الى قصة اصحاب الكهف وقصة نوح .

وما استعذبته روح موسى وآدم ... وقد وُعدا من بعده جنّتَي عدنِ

* * *

أمولى القوافي كم أراك انقيادُها ... لك الفصحاء العربَ كالعجم اللكن

هنيئاً لك البيتُ الجديدُ موسّداً ... يمينك فيه بالسعادة واليُمن

مجاورَ سكْنٍ في ديار بعيدة ... من الحيّ سقياً للديار وللسكن

طلبتُ يقيناً من جهينةَ عنهم ... ولن تخبريني يا جهينُ سوى الظن

فان تعهديني لا أزال مسائلاً ... فانيَ لم أعطَ الصحيح فاستغني

* * *

أمرّ بربع كنتَ فيه كأنما ... أمرّ من الاكرام بالحِجر والركن [1]

وما أكثرَ المثْني عليكَ ديانةً ... لو انّ حِماماً كان يَثْنيه من يُثني

يوافيك من رب العلا الصدق بالرضا ... بشيراً وتلقاك الامانة بالأمن

فيا قبر واهٍ من ترابك ليّناً ... عليه وآهٍ من جنادِلك الخشن

لأطبقتَ إطباقَ المَحارة فاحتفظ ... بلؤلؤةِ المجدِ الحقيقة بالخزن [2]

سأبكي اذا غنّى ابنُ ورقاء بهجةً ... وان كان ما يعنيه ضدّ الذي أعني

ونادبةٌ في مسمعي كل قينةٍ ... تغرّد باللحن البريّ عن اللحن [3]

واحمل فيك الحزن حيّاً فان أمتْ ... وألقكَ لم أسلك طريقاً الى الحزن

وبعدك لا يهوى الفؤاد مسرّةً ... وان خان في وصل السرور فلا يهني

داليته المشهورة

يرثي صديقه أبا الخطاب الجَبُلي وكان اديباً وفقيهاً وقد مات شاباً

غير مجدٍ في ملّتي واعتقادي ... نوحُ باكٍ ولا ترنّمُ شادِ

وشبيهٌ صوتُ النعيّ اذا قيس بصوت البشير في كل ناد

---

[1] الحجر ما حول الحطيم في مكة. والركن ركن البيت الحرام.

[2] انك ايها القبر كالصدفة وهو فيك كاللؤلؤة.

[3] اللحن الخالي من الخطأ.

أبَكتْ تلكم الحمامة ام غنّتْ على فرع غصنها الميّادِ
صاحِ هذي قبورنا تملأ الرحبَ فأين القبور من عهد عاد
خفّف الوطء ما أظن أديم الـ أرض إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وان قدُم العهد هوانُ الآباء والاجداد
سرْ ان اسطعتَ في الهواء رويداً لا اختيالاً على رفات العباد
ربّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً ضاحك من تزاحم الاضداد
ودفينٍ على بقايا دفـــين في طويل الازمان والآباد
فاسأل الفرقدين عمن أحسّا من قبيل وآنسا من بلاد[1]
كم اقاما على زوال نهار وأنارا لمُدلج في سواد
تعبٌ كلها الحياة فما أعجبُ إلا من راغب في ازدياد
إنّ حزناً في ساعة الموت أضعا فُ سرور في ساعة الميلاد
خُلقَ الناس للبقاء فضلّت أمّةٌ يحسبونهم للنفاد
إنما يُنقلونَ من دار أعما لٍ الى دارِ شقوةٍ او رشاد
ضجعة الموت رقدةٌ يستريح الجسم فيها والعيشُ مثل السهاد

* * *

أبناتِ الهديل[2] اسعِدْن او عد نَ قليل العزاء بالإسعاد
ايه لله درّكنّ فانتنّ اللواتي تُحسِنّ حفــظَ الوداد
ما نسيتن هالكاً في الاوان الخال أودى من قبلِ هُلكِ إياد[3]
بيدَ اني لا ارتضي ما فعلتنّ واطواقكنّ في الاجياد
فتسلبنَ واستعرن جميعاً من قميص الدجى ثياب حداد
ثم غرّدنَ في المآتم واندبنَ بشجوٍ مع الغواني الخراد

* * *

١ فاسأل هذين الكوكبين عما عرفاه وشهداه من احوال الناس .
٢ بنات الهديل الحمام .
٣ إشارة الى الخرافة ان الحمام لا تزال تبكي على هديلها الذي هلك قديماً .

قصد الدهر من أبي حمزة الأوّ ب مولى حجىً وخدن اقتصاد[١]
وفقيهاً افكاره شدنَ للنعمان ما لم يشدْه شعر زياد[٢]
فالعراقي بعــده للحجازيّ قليل الخلاف سهل القياد
انفق العمر ناسكاً يطلب العلمَ بكشفٍ عن أصله وانتقاد
ذا بنانٍ لا تلمسُ الذهبَ الاحمرَ زهداً في العسجد المستفاد

* * *

ودّعا ايهــا الحفيّان ذاك الشخصَ انّ الوداع أيسر زاد
واغسلاه بالدمع ان كان طُهراً وادفناه بين الحشا والفؤاد
واحبُواه الاكفان من ورق المصحف كِبراً عن أنفَس الابراد
واتلوا النعش بالقراءَة والتسبيح لا بالنحيب والتعــداد
اسفٌ غيرُ نافعٍ واجتهادٌ لا يؤدّي الى غناء اجتهاد
طالما اخرجَ الحزينَ جوى الحز نِ الى غير لائق بالسداد
مثلما فاتتِ الصلاة سليما نَ فأنحى على رقاب الجياد
وهو من سُخّرت له الانس والجنّ بما صحّ من شهادة صاد[٣]

* * *

كيف أصبحت في محلّك بعدي يا جديراً مني بحسن افتقاد
قد اقرّ الطبيب عنك بعجز وتقضّى تردّد العوّاد
وانتهى اليأس منك واستشعر الوجدُ بأن لا معادَ حتى المعاد
هجدَ الساهرون حولك للتمريضِ ويحٌ لأعين الهجّاد
كنتَ خلّ الصبا فلما أراد البينَ وافقتَ رأيه في المراد[٤]

---

١ ابو حمزة هو الفقيه المرثي . قصد الدهر منه رجلا صالحاً عاقلاً .

٢ في لفظة نعمان هنا تورية فالنعمان ملك الحيرة ، والنعمان الامام ابو حنيفة وهو المراد . وزياد هو النابغة المشهور وكان شاعر ملك الحيرة .

٣ ان الحزن قد يخرج الانسان عن صوابه كما فعل سليمان من ضرب الخيل وذلك لما عرضت عليه فاشتغل بها حتى فاتته الصلاة . وهو الذي شهد له في سورة صاد اذ قيل – «فسخرنا له الريح تجري بأمره» – الآية .

٤ الضمير في أراد راجع الى الصبا .

ورأيت الوفاءَ للصاحب الأوّل من شيمة الكريم الجوادِ
وخلعت الشباب غضّاً فيا ليتك أبليته مع الانـــداد
فاذهبا خير ذاهبــين حقيقين بسُقيا روائحٍ وغواد
ومراثٍ لو أنهنّ دموعٌ لمحونَ السطور في الانشاد

* * *

زحلٌ أشرف الكواكب داراً من لقاء الردى على ميعاد
ولِنار المرّيخ من حدثان الدهر مطفٍ وان علتْ في اتّقاد
والثريّا رهينةٌ بافتراق الشمل حتى تُعَدّ في الافراد
كل بيت للهدم ما تبتني الورْ قاء والسيّد الرفيع العماد
بان أمر الإله واختلف النا س فداعٍ الى ضلال وهاد
والفتى ظاعنٌ ويكفيه ظِلّ السّدرِ ضرب الاطناب والاوتاد[1]
والذي حارت البريّة فيه حيوانٌ مستحدثٌ من جماد
واللبيب اللبيب من ليس يغترّ بكونٍ مصيره للفساد

قصيدته الحكمية

في رثاء جعفر بن عليّ بن المهذّب

أحسنُ بالواجد من وجدهِ صبرٌ يعيد النار في زندهِ
ومن أبى في الرزء غير الأسى كان بكاه منتهى جُهده
فليذرف الجفنُ على جعفرٍ اذ كان لم يُفتَح على نِدّه
والشيء لا يكثر مدّاحه الا اذا قيس الى ضدّه
لولا غضى نجدٍ وقُلّامُهُ لم يُثنَ بالطيب على رنده[2]
ليس الذي يُبكى على وصله مثل الذي يُبكى على صدّه

---

١ والانسان راحل يغنيه ظل السدر عن ان يبتني الخيام – اي انه قليل الاقامة في الدنيا فيجب ان لا يهتم . والسدر شجر النبق .

٢ أي ان الرند خص بالثناء لمقابلته بسائر الاشجار التي لا طيب لها . كالغضى والقلام .

كان الأسى فرضاً لو انّ الردى قال لنـــا افدوه فلم نَفدهِ
هل هو الا طالعٌ للهدى سار من الترب الى سعده

* * *

يا دهرُ يا منجزَ إيعاده ومخلفَ المأمول من وعده
أيُّ جديد لك لم تبله وايّ أقرانك لم تُرده [1]
أرى ذوي الفضل وأضدادهم يجمعهم سيلك في مــدّه
ان لم يكن رُشد الفتى نافعاً فغيّه أنفـــع من رشده
تجربةُ الدنيا وأفعالها حثّتْ أخا الزهد على زهده
والقلب من أهوائه عابدٌ ما يعبدُ الكافرُ من بُدّه [2]
إنّ زماني برزاياه لي صيّرني أمرح في قِدّه [3]
كأننــا في كفّه مالهُ ينفق مــا يختار من نقده
لو عرّف الانسان مقداره لم يفخر المولى على عبده
أمسِ الذي مرّ على قربه يعجز أهل الأرض عن ردّه
أضحى الذي أُجّل في سنّه مثل الذي عوجلَ في مهده
والواحد المفرد في حتفـــه كالحاشد المكثر من حشده
وحالة الباكي لآبائـه كحالة الباكي على وُلده

* * *

ما رغبة الحيّ بأبنائه عمّا جنى الموت على جَدّه [4] ؟
ومجده أفعاله لا الذي من قبله كانـ ولا بعده
لولا سجاياه وأخلاقه لكان كالمعدوم في وجده

---

١ ترده ، تهلكه .
٢ البد الصنم .
٣ اي لكثرة ائتلافي رزايا الدهر وتمرني عليها صرت لا أبالي بها بل ازداد نشاطاً ومرحاً والقد سير يقد من جلد يوثق به الأسير .
٤ كيف يحترز الحي بأبنائه من الموت وهو الذي فتك بأجداده .

تشتاق ايّارَ نفوس الورى ... وانما الشوق الى ورده[1]
تدعو بطول العمر أفواهنا ... لمن تناهى القلب في ودّه
يُسَرّ ان مُدّ بقاءٌ له ... وكل ما يكره في مدّه
كم صائن عن قبلةٍ خدّه ... سُلّطَتِ الأرض على خدّه
وحاملٍ ثقل الثرى جيدُه ... وكان يشكو الضعف من عقده
ورُبّ ظمآنَ الى موردٍ ... والموت لو يعلم في وِرْده

* * *

فيا أخا المفقود – في خمسة ... كالشهب ما سلّاك عن فقده[2]
جاءَك هذا الحزن مستجدياً ... اجركَ في الصبر فلا تُجده
سلّم الى الله فكلّ الذي ... ساءَك او سرّك من عنده
لا يعدَم الأسمرُ في غابهِ ... حتفاً ولا الأبيض في غمْدِه[3]
ان الذي الوحشةُ في داره ... تؤنسه الرحمة في لحده
لا أوحشت دارُك من شمسها ... ولا خلا غابُك من أسده

أمثلة من وصفه وفخره

قال متبرماً من بغداد ومتشوقاً إلى وطنه

مغاني اللوى من شخصكِ اليوم أطلال ... وفي النوم مغنىً من خيالكِ محلالُ[4]
وأبغضتُ فيك النخلَ والنخل يانعٌ ... وأعجبني من حبّك الطلحُ والضالُ[5]
حملتُ من الشامَين أطيب جُرْعة ... وانزرَها والقوم بالقفرِ ضُلّال[6]

---

١ كما ان النفوس تشتاق ايار لاجل ورده كذلك الانسان انما هو اخلاقه وسجاياه .
٢ يعزي اخا الفقيد ويقول ان في أولادك الخمسة ما يسليك عن فقده .
٣ الاسمر الرمح ، والابيض السيف .
٤ يخاطب الحبيبة ويقول ان المنازل منك خالية ولكن خيالك كثير الحلول في عيوننا عند النوم.
٥ وابغضت لاجلك النخل وأحببت أشجار البادية لانك بدوية .
٦ أي حملت من الشام والجزيرة أطيب جرعة وأقلها (أي رضابك) .

فسقياً لكأسٍ من فمٍ مثل خاتمٍ ... من الدّرّ لم يهمم بتقبيله خالُ [1]
كأنّ الخزامى جمّعتْ لك حلّةً ... عليك بها في اللون والطيب سرْبال
أتعلمُ ذاتُ القُرطِ والشّنف أنني ... يشنـّفني بالزأرِ اغلب رئبال [2]
فيا دارها بالحزْن انّ مزارها ... قريبٌ ولكن دون ذلك اهوال
بكتْ فكأنّ العِقْدَ نادى فريده ... هلمّ لعقدِ الحلفِ قُلبٌ وخلخال [3]
تحلـّى النـّقا دُرّين دمعاً ولؤلؤاً ... وولـّت أصيلاً وهي كالشمس معطال
وغنـّت لنا في دار سابورَ قينة ... من الوُرْق مطراب الاصائل ميهال [4]
فقلت تغنـّي كيف شئتِ فإنما ... غناؤك عندي يا حمامة إعوال

* * *

تمنيتُ أنّ الخمرَ حلـّت لنشوةٍ ... تجهّلني كيف اطمأنتْ بي الحال
فأذهلُ أني بالعراق على شفا ... رزيء الاماني لا انيسٌ ولا مال
مُقلٌ من الاهلـَين يسرٍ واسرةٍ ... كفى حزناً بينٌ مشتٌ واقلال
طويتُ الصبا طيّ السجلّ وزارني ... زمانٌ له بالشيبِ حكم وإسجال
متى سألتْ بغدادُ عني وأهلها ... فإنيَ عن أهـل العواصم سأال
اذا جَنّ ليلي جُنّ لبّي وزائدٌ ... خفوق فؤادي كلما خفق الآل [5]
وماء بلادي كان انجعَ مشرَباً ... ولو انّ ماء الكرخ صهباء جريال [6]
فيا وطني ان فاتني بك سابقٌ ... من الدهر فلينعم لساكنك البال
فان استطع في الحشر آتك زائراً ... وهيهات لي يومَ القيامة اشغال
وكم ماجدٍ في سِيف دجلةَ لم أشم ... له بارقاً والمرء كالمزنِ هطـّال [7]

---

١ الخال : هنا الخائل أي المدل بعظم شأنه .
٢ أتعلم هذه الفتاة المتحلية في اذنها بالقرط والشنف ان لي فيها خصماً يتهددني ويزأر علي كالاسد.
٣ بكت الحبيبة للفراق وقطرت دموعها على قدمها فصار القلب (الاسوار) والخلخال يناديان الفريد في العقد هلم نتحالف مع الدموع .
٤ وغنت لنا في هذا المكان مغنية من الحمام .
٥ الآل : السراب .
٦ ماء بلادي أطيب ولو ان ماء بغداد كالصهباء .
٧ سيف دجلة أي شط دجلة . وكم من كريم هناك لم اقصده ولم أطمع بجوده .

من الغـُرّ ترّاك الهواجر معرِضٌ عن الجهل قذّاف الجواهر مفضالُ
سيطلـُبُني رزقي الذي لو طلبتـُه لما زاد والدنيا حظوظٌ واقبال
اذا صدقَ الجـَدُّ افترى العمّ للفتى مكارم لا تـُكري وان كذَب الخال[1]

وقال في الشريف موسى بن اسحق مجيباً اياه عن قصيدة

عللاني فان بيضَ الاماني فنيتْ والظلامُ ليس بفاني
ان تناسيتما ودادَ أناس فاجعلاني من بعض من تذكران
رُبّ ليلٍ كأنه الصبحُ في الحسنِ وان كان اسود الطيلسان
قد ركضنا فيه الى اللهو لما وقفَ النجمُ وقفةَ الحيران[2]
كم اردنا ذاك الزمان بمدحٍ فشُغلنا بذمّ هذا الزمان
فكأني ما قلت والبدر طفل وشباب الظلماء في عنفوان
ليلتي هذه عروسٌ من الزّنج عليها قلائدٌ من جمان
هرب النوم عن جفوني فيها هربَ الامن عن فؤاد الجبان
وكأن الهلال يهوى الثريّا فهما للوداع معتنقان
قال صحبي في لجّتين من الحندسِ والبيدِ اذ بدا الفرقدان
نحن غرقى فكيف ينقذنا نجمان في حومة الدّجى غرقان[3] ؟
وسهيلٌ كوجنةِ الحبّ في اللو ن وقلب المحبّ في الخفقان
مستبدّاً كأنه الفارس المعلـّم يبدو معارضَ الفرسان
يسرع اللمحَ في احمرار كما تسرع في اللمح مقلةُ الغضبان
ضرّجته دماً سيوف الأعادي فبكتْ رحمةً له الشّمريان

---

١ اذا خدم الحظ أحداً اخترع له الناس (العم) من المكارم ما ليس في مخايله . وقد تلاعب في جد وعم وخال تلاعباً بيانياً ظاهر التكلف .

٢ تكلف المطابقة بين الجري والوقوف فقال كم جرينا فيه الى اللهو والنجم في الليل واقف حائر . (يصف الليل بالطول) .

٣ قال صحبي وقد دخلنا في أحشاء الظلام والقفر : نحن غرقى فكيف ينقذنا الفرقدان وهما غرقان .

قدَماهُ وراءَه وهو في العجز كساعٍ ليست له قدمانِ [1]
ثمّ شاب الدّجى وخاف من الهجر فغطّى المشيب بالزّعفران
ونضا فجرهُ على نسرهِ الواقع سيفاً فهمّ بالطيران
وعلى الدهر من دماء الشهيدين عليٍّ ونجله شاهدان [2]
فهما في أواخر الليل فجرا ن وفي أوليائه شفقَان [3]
وجمالُ الأوانِ عقبُ جدودٍ كلّ جدّ منهم جمال أوان

* * *

يا ابن مستعرض الصفوف ببدرٍ ومبيد الجموع من غطَفان [4]
أحدِ الخمسة الذين هم الاغراض في كل منطقٍ والمعاني [5]
والشخوص التي خُلقنَ ضياءً قبل خلق المرّيخ والميزان [6]
قبل ان تخلقَ السموات أو تؤ مر أفلاكهنّ بالدّوَران
لو تأتّى لنطحها حملُ الشهبِ تردّى عن رأسه الشرَطان [7]
أو أراد السماكُ طعناً لها عا د كسيرَ القناة قبل الطعان [8]
أو عصاها حوتُ النجوم سقاه حتفهُ صائد من الحدثان

---

١ خلف سهيل نجمان يقال لهما قدما سهيل . فهو معكوس الحال يمشي عاجزاً كمن لا قدمان له ، والشعريان نجمان .

٢ النسر الواقع اسم نجم . قال ويلوح على الدهر من دماء الشهيدين الامام علي وابنه الحسين شاهدان .

٣ هذان الشاهدان هما الفجران الكاذب والصادق أي الحمرة التي ترى أول الصبح وكذلك الشفقان أي الحمرة أو الصفرة التي تبقى في أفق المغرب بعد الغروب . ويزعم انها من آثار ما اريق من دم الشهيدين (يريد بذلك انها تلوح مدى الدهر) .

٤ يا ابن النبي الذي عرض صفوفه بواقعة بدر واباد هذه القبائل .

٥ يريد بالخمسة الذين هم موضوع كل ثناء أعضاء العترة الشريفة — النبي وعلياً وفاطمة والحسن والحسين .

٦ المريخ والميزان من النجوم .

٧ الشرطان كوكبان مضيئان من برج الحمل يقال لهما قرنا الحمل .

٨ يقصد السماك المعروف بالرامح .

انت كالشمس في الضياء وان جا وزت كيوانَ في علوّ المكانِ [1]
وسجايا محمّدٍ أعجزتْ في الوصف لطفَ الافكارِ والاذهان
وجرت في الانام اولادُهُ الستّةُ مجرى الارواح في الابدان
اقبلوا حاملي الجداول في الاغماد مستلئمين بالغدران [2]
يضربون الاقران ضرباً يعيد السعدَ نحساً في حكم كل قران
وجلوا غمرةَ الوغى بوجوهٍ حسنتْ فهي معدِنُ الاحسان
قد أجبنا قولَ الشريف بقول واثبنا الحصى عن المرْجان
أيها الدرّ انما فضت من بحرٍ مخلّى الطريق للجريان
ما امرؤ القيس بالمصلّي اذا جا راه في الشعر بل سُكَيتُ الرهان [3]

وقال من قصيدة يفتخر ويذم الزمان

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ
أعندي وقد مارست كلّ خفيّة يصدّق واشٍ أو يخيّب سائل
تُعَدّ ذنوبي عند قوم كثيرةً ولا ذنب لي إلا العلا والفواضل
كأني اذا طلتُ الزمان وأهله رجعتُ وعندي للأنام طوائل [4]
وقد سار ذكري في البلاد فمن لهم بإخفاء شمس ضوءها متكامل
يهمّ الليالي بعض ما انا مضمرٌ ويثقلُ رضوى دون ما انا حامل [5]
واني وان كنت الاخير زمانُه لآتٍ بما لم تستطعه الاوائل
وأغدو ولو أنّ الصباح صوارمٌ وأسري ولو انّ الظلام جحافل
واني جوادٌ لم يُحل لجامه ونضوٌ يمانٍ أغفلته الصياقل [6]

---

١ كيوان اسم لزحل .
٢ يقصد بالجداول السيوف وبالغدران الدروع .
٣ المصلي هو الثاني في السباق . وسكيت الرهان الاخير .
٤ كأني اذا فقت أهل الزمان عادوني فأصبحت وفي نفوسهم علي ثارات .
٥ رضوى اسم جبل بالمدينة .
٦ قوله لم يحل من التحلية . والنضو اليماني السيف اليماني . والصياقل الذين يصقلون السيوف .

وان كان في لبس الفتى شرفٌ له فما السيف الا غمده والحمائلُ
ولي منطق لم يرضَ لي كنهَ منزلي على أنني بين السِّماكين نازل [1]
لدى موطن يشتاقه كلُّ سيد ويقصر عن ادراكه المتناول
ولما رأيت الجهل في الناس فاشياً تجاهلت حتى ظُنَّ أنّي جاهل
فوا عجباً كم يدّعي الفضل ناقصٌ ووَاأسفاً كم يظهر النقصَ فاضل
وكيف تنام الطير في وُكناتها وقد نُصبتْ للفرقدين الحبائل [2]
ينافس يومي فيَّ أمسي تشرّفاً وتحسد اسحاري عليَّ الاصائل
وطال اعترافي بالزمان وصرفهِ فلست أبالي من تغول الغوائل
فلو بانَ عضدي ما تأسف منكبي ولو مات زندي ما بكته الانامل
إذا وصفَ الطائيَّ بالبخل مادرٌ وعيَّر قسّاً بالفهاهةِ باقل [3]
وقال السّهى للشمس انتِ خفيّة وقال الدّجى يا صبح لونك حائل
وطاولت الارضُ السماء سفاهةً وفاخرت الشهبَ الحصى والجنادل
فيا موتُ زرْ انّ الحياة ذميمةٌ ويا نفسِ جِدّي انّ دهرك هازل

أمثلة من لزومياته

وفيها تظهر نزعته الى التشاؤم من أعمال الانسان والزمان

١

أولو الفضل في اوطانهم غرباءُ تشذّ وتنأى عنهم القُرَباءُ
وحسبُ الفتى من ذلة العيش أنه يروح بأدنى القوت وهو حِباء
وما بعد مرّ الخمسَ عشرة من صبا
ولا بعد مرّ الاربعين صَباء

---

١ السماكان نجمان معروفان .
٢ شبه نفسه بالفرقدين في علو المقام وقال إذا كان مثلي تنصب له الحبائل فما قولك فيمن هم دوني.
٣ الطائي هو حاتم المشهور بكرمه . ومادر رجل من بني هلال معروف بالبخل . وقس هو الخطيب الجاهلي المشهور . وباقل يضرب به المثل في العي .

تواصلَ حبل النسـل ما بين آدم وبيني ولم يوصل بلاميَ باءُ [١]
تثاءب عمروٌ إذ تثاءب خالد بعدوى فما أعدتني الثؤباء [٢]
وزهّدني في الخلق معرفتي بهم وعلمي بأن العالمينَ هَباء
إذا نزل المقدار لم يك للقطا نهوض ولا للمُخدرات [٣] إباء
على الوُلد يجني والد ولو انهم ولاةٌ عـلى أمصارهم خطباء
وزادك بعداً من بنيك وزادهم عليك حقوداً انهم نجباء

٢

إذا كان علم الناس ليس بنافع ولا دافع فالخُسر للعلماء
قضى الله فينا بالذي هو كائنٌ فتمّ وضاعت حكمة الحكماء
وهل يأبق الانسان من ملك ربّه فيخرجَ من أرض له وسماء
وقد بانَ انّ النحس ليس بغافل له عمـلٌ في أنجم الفهـماء
ومن كان ذا جود وليس بمكثر [٤] فليس بمحسوب من الكرماء

* * *

افيقوا افيقوا يا غواةُ فانما دياناتكم [٥] مكرٌ من القدماء
أرادوا بها جمع الحطام فادركوا وبادوا وماتت سنّة اللؤماء
يقولون إن الدهر قد حان موته ولم يبقَ في الايام غير ذَماء [٦]
وقد كذبوا ما يعرفون انقضاءه فلا تسمعوا من كاذب الزعماء

٣

يرتجي الناس ان يقوم امامٌ ناطق في الكتيبة الخرساء [٧]

---

١ و ٢ يريد بهذين البيتين ان حبل النسـل انقطع فيه (أي انه لم يتزوج) وان التزوج كالثؤباء عدوى تصيب الناس بعضهم من بعض اما هو فبقي سليماً منها .
٣ المخدرات الاسود في آجامها .
٤ المكثر اي الكثير المال .
٥ لا يقصد بالديانة هنا الايمان الحقيقي بل النظم والظواهر والطقوس الخارجية التي هي من وضع الانسان .
٦ ذماء بقية الروح في الجسد .
٧ إشارة إلى القول بظهور المهدي .

كذب الظنّ لا إمامَ سوى العقل مشيراً في صحبه والمساءِ
فاذا ما اطعته جلب الرحمـــة عند المسير والإرساءِ
إنما هذه المذاهب اسبا بٌ لجذب الدنيا الى الرؤساء
فانفرد ما استطعت فالقائل الصا دق يضحي ثقلاً على الجلساء

٤

يحسُن مرأى ابني آدمٍ وكلهم في الذوق لا يعذبُ
ما فيهم بَرٌ ولا ناسكٌ الاّ الى نفعٍ له يجـــذب
افضل من افضلهم صخرةٌ لا تظلم الناس ولا تكذب

٥

من ليَ أن لا اقيم في بلدٍ أذكر فيه بغير ما يجب
يُظـَنّ بي اليُسرُ والديانة والعلم وبيني وبينها حُجب
كلّ اموري عليّ واحدة لا صفـَرٌ يُتـّقى ولا رجب
اقررت بالجهل وأدّعى فـَهَمي قومٌ فامري وامرهم عجب

٦

قد قيل ان الروح تأسف بعدما تنأى عن الجسد الذي غنيت به
ان كان يصحبها الحجى فلعلها تدري وتفطن للزمان وعتبه
أو لا فكم هذيان قوم غابر في الكتب ضاع مِداده في كتبه

٧

انا صائم طول الحياة وإنما فطري الحمام ويوم ذاك أعيـّدُ
لونان من ليل وصبح لوّنـــا شعري واضعفني الزمان الأيّدُ
والناس كالاشعار ينطق دهرهم بهم فطلق معشرٍ ومقيّد
قالوا فلانٌ جيّدٌ لصديقه لا يكذبوا ما في البرية جيّد
فاميرهم نال الامارة بالخنا وتقيّهم بصـــلاته متصيّد
كن من تشاء مهجّناً أو خالصاً واذا رزقت غنىً فانت السيد

٨

لا تبدأوني بالعداوة منكم فمسيحكم عندي نظير محمد

أيغيث ضوءُ الصبح ناظرَ مدلج ام نحن اجمع في ظلام سرمد
ان السيوف تراح في اغمادها وتظلّ في تعب اذا لم تغمد
روح اذا اتصلت بشخص لم يزل
هوَ وهْي في مرض العناء المكمد
ان كنتِ من ريحٍ فيا ريح اسكني
او كنت من لهبٍ فيا لهب اخمد

٩

جُرْ ياغراب وأفسدْ لن ترى أحداً الا مسيئاً وايّ الخلق لم يجُرِ ؟
فخذْ من الزرع ما يكفيك عن عرض
وحاول الرزق في العـــالي من الشجر
وما ألومك بل أوليك معذرة اذا خطفت ذُبال القوم في الحجر
فآل حوّاء راعوا الاسد مخدرةً ولم يغادوا بسلمٍ ربّة الوُجُر[1]
ومن اتاهم بظلم فهو عنـــدهم كجالب التمر مغترّاً الى هَجر[2]
هم المعاشر ضاموا كلّ من صحبوا من جنسهم وأباحوا كلّ محتجَر
لو كنتَ حافظ اثمار لهم ينعتْ ثمّ اقتربت لما أخلَوك من حجر

١٠

العالم العالي[3] برأي معاشر كالعالم الهاوي يحس ويعلم
زعمتْ رجالٌ انّ سيّاراته تسِق العقول وانهـا تتكلم
فهل الكواكب مثلنا في ديننا لا يتّفقن فهائدٌ أو مسلم ؟
والنور في حكم الخواطر محدث والأوّليُّ هو الزمان المظلم
والخير بين الناس رسمٌ دائرٌ والشرّ نهجٌ والـــبرية مَعلم

---

١ أي اخافوا الاسد في عرينها وأقلقوا سائر الحيوانات في اوجرتها .
٢ هجر : بلد مشهور بتمره في مقاطعة « الاحساء » .
٣ يريد بالعالم العالي عالم الافلاك والعالم الهاوي عالم الانسان والطبيعة .

طبعٌ خُلقت عليه ليس بزائل — طول الحياة وآخر متعلمُ

* * *

ان جارت الامراءُ جاء مؤمّرٌ — اعتى واجور يستضيم ويكلُمُ[1]
ان شئت ان تُكفى الحِمام فلاتعش — هذي الحياة الى المنيّة سلّم
أحسِن بدنيا القوم لو كان الفتى — لا يُقتضى وأديمه لا يحلم[2]
يتشبه الطاغي بطاغٍ مثله — واخو السعادة بينهم من يسلم
في الناس ذو حلم يسفّه نفسه — كيما يهاب وجاهل يتحلّم
وكلاهما تعِبٌ يحارب شيمةً — غلبت فآض بحربها يتألم[3]

١١

اركان دنيانا غرائزُ اربعٌ — جُعلت لمن هو فوقنا اركانا
والله صيّر للبلاد واهلها — طرفين : وقتاً ذاهباً ومكانا
والدهر لا يدري بما هو كائن — فيه فكيف يلام فيما كانا
والمرء ليس بزاهد في غارةٍ — لكنه يترقب الامكانا
والحيّ تخلق جسمَه حركاتُه — فيكلّ وهو يحاذر الاسكانا
نبكي ونضحك والقضاء مسلّطٌ — ما الدهر أضحكنا ولا أبكانا
نشكو الزمان وما اتى بجنايةٍ — ولو استطاع تكلّماً لشكانا
متوافقين على المظالم ركّبت — فينا وقارب شرّنا ازكانا
يمضي بنا الفتَيانِ ما أخذا لنا — نفساً على حالٍ ولا تركانا[4]

١٢

قد اختلّ الانام بغير شكّ — فجِدّوا في الزمان أو العبوهُ
وودّوا العيش في زمن خؤون — وقد عرفوا أذاهُ وجرّبوهُ

---

١ يكلم أي يدمي .
٢ أديمه لا يحلم أي جلده لا يفسد والمعنى لو كان الانسان لا يصير الى زوال .
٣ آض أي رجع .
٤ الفتيان : الليل والنهار .

وينشأ ناشيء[١] الفتيانِ منّا ... على ما كان عوّده أبوهُ
وما دان الفتى بحجىً ولكن ... يعلّمه التديّنَ أقربوه
لعلّ الموت خيرٌ للبرايا ... وان خافوا الردي وتهيبوه
أطاعوا ذا الخداع وصدّقوه ... وكم نصح النصيحُ فكذّبوه
وجاءَتنا شرائعُ كلّ قومٍ ... على آثار شيء رتّبوه
وغيّر بعضهم أقوال بعضٍ ... وأبطلتِ النهى[٢] ما اوجبوه
فلا تفرحْ اذا رُجّبت فيهم ... فقد رفعوا الدنيء ورجّبوه[٣]
صحبنا دهرنا دهراً – وقِدماً ... رأى الفضلاء ان لا يصحبوه
وغيظَ – به بنوه وغيظ منهم ... فعذّبَ ساكنيه وعذّبوه
وهل ترجى الكرامة من اوانٍ ... وقد غلب الرجال مغلّبوه
وهل من وقتهم أبغى وأطغى ... على أيّ المذاهب قلّبوه
أجلّوا مكثراً وتنصّفوه ... وغابوا من اقلّ وأنّبوه[٤]

---

١ الناشيء : الحدث اليافع .
٢ النهى : العقل .
٣ رجبه : عظمه وهابه .
٤ المكثر : الغني . تنصفوه أي خدموه .

ابن الفارض

ابو القاسم (ابو حفص) عمر بن علي بن مرشد

٥٧٧ هـ – ٦٣٢ هـ

١١٨١ م – ١٢٣٥ م

●

ـ نشأته ـ شخصيته ـ اثر الصوفية في شعره ـ اسلوبه الشعري ـ غزله

مصادر دراسة شعره وتصوفه

اللمع لابن السراج الطوسي ليدن ١٩١٤

الرسالة القشيرية دار الكتب المصرية ١٣٣٠

كشف المحجوب للحجويري ترجمة Nicholson 1911

الاحياء للغزالي وبهامشه عوارف المعارف للسهروردي مصر ١٣٠٢

وفيات الاعيان لابن خلكان الطبعة الميرية

الخطط والآثار للمقريزي مطبعة النيل ١٣٢٥

حسن المحاضرة للسيوطي ١٣٢١

شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي مصر ١٣٥١

قوانين حكم الاشراق لابي المواهب الشاذلي مطبعة ولاية سوريا ١٣٠٩

شرح الديوان للبوريني والنابلسي مصر ١٣١٠

« « « (شرح الدحداح) مرسيليا ١٨٥٣

التائية الكبرى شرح الفرغاني (١٢٩٣ هـ) والقاشاني (١٣١٠)

التائية الكبرى تحرير Von Hausman فيينا ١٨٥٤

Nicholson, Studies in Islamic Mysticisms, Cambridge, 1911

Massignon-Encyc. of Islam. Tasawwuf.

ابن الفارض والحب الإلهي لمحمد مصطفى حلمي مصر ١٩٤٥

ومقالات شتى لأدباء عرب ومستشرقين .

نشأته

يرجع ابن الفارض بنسبه الى بني سعد [1] . ووالده حمويّ الاصل قدم مصر يقطنها ، وكان يثبت الفروض للنساء على الرجال بين يدي الحكام فلقّب بالفارض [2] . ويستدل انه (الوالد) كان رجل فضل وجاه يتصدر مجالس الحكم والعلم ، حتى سئل ان يكون قاضي القضاة فامتنع ونزل عن الحكم . واعتزل الناس وانقطع الى الله تعالى بقاعة الخطابة في الجامع الازهر الى ان توفاه الله [3] .

وفي مصر ولد شاعرنا ، ولا شك انه كان لوالده يد كبيرة في ثقافته وفي تكييف نزعاته النفسيّة . قال ابن العماد الحنبلي : « فنشأ تحت كنف أبيه في عفاف وصيانة وعبادة ، بل زهد وقناعة وورع ، وأسدل عليه لباسه وقناعه . فلما شبّ وترعرع اشتغل بفقه الشافعية ، وأخذ الحديث عن ابن عساكر » [4] .

وقد ظهر فيه منذ أوائل شبابه ميل الى التديّن والتلذذ بالتجرد الروحي على طريقة المتصوّفين . فكان يستأذن والده في الانفراد للعبادة والتأمل . ويظهر انه كان في جبل المقطم مكان خاص يعرف بوادي المستضعَفين يختلف اليه المتجردون [5] ، فحُبّب الى ابن الفارض الخلاء فيه،

---

١ قبيلة السيدة حليمة مرضعة النبي العربي .
٢ شذرات الذهب ٥ – ١٤٩ .
٣ عن سبطه في الديوان ص ٧ .
٤ شذرات الذهب ٥ – ١٤٩ . وابن عساكر هذا غير الحافظ الشهير صاحب التاريخ الكبير .
٥ الديوان ٦ .

فتزهّد وتجرّد وكان يأوي الى ذلك المكان أحياناً [1] . ثم انقطع عنه ولزم اباه. فلما توفي الوالد عاد الولد الى التجريد والسياحة الروحية او سلوك طريق الحقيقة فلم يفتح عليه بشيء [2] (اي لم يكشف له من المعرفة ما يستغني به ولعلّه يريد هنا لم يوح اليه من الشعر شيء) ثم قيّض له رجل من الاتقياء أشار عليه ان يقصد مكة . فقصدها وأقام فيها مجاوراً نحواً من ١٥ سنة . وهناك بين المناسك المقدسة نضجت شاعريته وكملت مواهبه الروحية . ثم عاد الى مصر ، وكانت يومئذ تحت سيادة الايوبيين ، وقد عُنوا كل العناية بفتح المدارس والمعاهد فيها ، فتجدّدت في أيامهم الروح الدينية والتعاليم السنية . حدث ذلك على أثر انتصاراتهم على الصليبيين تلك الانتصارات التي وطدت مركزهم في مصر والشام والحجاز ، وتركت لهم في تاريخ الشرق الاسلامي ذكرى خالدة .

والذي يلفت النظر ان عطف الايوبيين على السنّة كان مقروناً بتزايد عدد الصوفية [3] في مصر ، فكأن التصوّف يومئذ كان يعتبر مظهراً من مظاهر التديّن ليس إلّا . ولذلك نرى الجمهور يكرمون مشايخ الطرق ويعظمون شأنهم، ونرى الحكام والامراء يقفون لهم « الخوانك » [4]. ويذكر المقريزي ما ملخصه [5] : ان صـــلاح الدين خصّص سنة ٥٦٩ بمصر داراً للصوفية كانت قبلاً لوزراء الفاطميين ، ووقف لهم وقفاً كبيراً ، فكانت اول خانكاه عملت بديار مصر ، وعُرفت بدويرة الصوفية . وكان سكانها من الصوفية يعرفون بالعلم والصلاح وترجى بركتهم . وولي مشيختها الاكابر والاعيان . قال : « وأخبرني الشيخ احمد بن علي القصّار انه أدرك الناس في يوم الجمعـــة يأتون من مصر الى القاهرة ليشاهدوا الصوفية عندما

---

١ شذرات الذهب ٥ — ١٤٩ .

٢ الديوان ٧ . شذرات الذهب ١ — ١٥٠ .

٣ راجع قائمتهم في حسن المحاضرة ١ ص ٢٤٣ — ٢٥٤ .

٤ جمع خانكاه وهي فارسية معناها البيت ويقصدون بها محلات خاصة لاقامتهم .

٥ الخطط (بولاق) ٢ — ٤١٥ .

يتوجهون منها الى صلاة الجمعة ، كي تحصل لهم البركة والخير بمشاهدتهم » ثم يصف موكبهم الفخم ويعقب على ذلك بقوله : « انه كان من أجمل عوايد القاهرة » وقد بقي الامر كذلك الى أوائل القرن التاسع الهجري .

فلا نستغرب إذن ما نسمعه عن اكرام الناس لابن الفارض وقد رجع من مكة شيخاً متصوّفاً وشاعراً كبيراً ، حتى كان إذا مشى في المدينة يزدحم الناس عليه يلتمسون منه البركة والدعاء، ويقصدون تقبيل يده[1]. قال ولده[2] : « وكان إذا حضر في مجلس يظهر على ذلك المجلس سكون وهيبة ، وسكينة ووقار . ورأيت جماعة من مشايخ الفقهاء والفقراء (المتصوفة) واكابر الدولة من الامراء والوزراء والقضاة ورؤساء الناس يحضرون مجلسه وهم في غاية ما يكون من الادب معه والاتضاع له . وإذا خاطبوه فكأنهم يخاطبون ملكاً عظيماً » . وقال ابن العماد الحنبلي[3]: « فأقام بقاعة الخطابة في جامع الازهر ، وعكفت عليه الائمة وقصد بالزيارة من الخاص والعام ، حتى ان الملك الكامل كان ينزل لزيارته » .

قلنا اننا لا نستغرب ما رواه ولده، وما نقله صاحب شذرات الذهب عن منزلة شاعرنا الدينية والاجتماعية ، على انه لا بدّ من القول انصافاً للتاريخ ان ابن خلكان الذي أدرك الشاعر وترجم له[4] لا يذكر شيئاً من هذا القبيل . وكل ما يقوله من ذلك : « سمعت انه كان رجلاً صالحاً كثير الخير على قدم التجرّد » . فهو يزكّي قول سبطه وولده ومن نقل عنهما انه كان معروفاً بالصلاح والكرم وسلوك طريقة التصوّف على انه يسكت عما ذهبوا اليه من تعظيم الخاصة والعامة له . ولا يلزم عن

---

١ الديوان ٦ .

٢ الديوان ٦ .

٣ شذرات الذهب ٥ – ١٥٠ .

٤ كان ابن خلكان في الرابعة والعشرين لما توفي ابن الفارض .

سكوته انكار ما ذهبوا اليه ، ولكنّ فيه ما يجوّز لنا التحرّز مما قد يكون من قبيل الغلو او التغرّض .

شخصيته

يجمع مؤرخوه على انه كان ورعاً وقوراً طيب الاقوال والافعال . والذي يراجع سيرته ويتفهم روح قصائده يتجلّى له في نفسيته ثلاث مزايا بارزة :

انه كان شديد التأثر (وخصوصاً بالجمال) الى درجة الانفعال العصبي يسحره جمال الشكل حتى في الجمادات . ومن ذلك ما يروونه عن تأثره بحسن بعض الجِمال ، أو ببُرنيّة حسنة الصنعة رآها في دكان عطّار[1] . وقد يسحره جمال الالحان – فاذا سمع انشاداً جميلاً استخفّه الطرب فتواجد ورقص ولو على مشهد من الناس . نقل عن ولده ان الشيخ كان ماشياً في السوق بالقاهرة فمرّ على جماعة من الحرسية يضربون بالناقوس ويغنّون ، فلما سمعهم صرخ صرخة عظيمة ، ورقص رقصاً كثيراً في وسط السوق ، ورقص جماعة كثيرة من المارّين . وتواجد الناس الى ان سقط اكثرهم الى الارض . ثم خلع الشيخ ثيابه ورمى بها اليهم وحمل بين الناس الى الجامع الازهر ، وهو عريان مكشوف الرأس ، وفي وسطه لباسه . وأقام في هذه السكرة (النوبة العصبية) ملقى على ظهره مسجّى كالميت [2] .

ومما يذكر من هذه السكرات او النوبات التواجدية انه كان مرّة جالساً في الجامع الازهر على باب قاعة الخطابة ، وعنـــده جماعة من الفقراء والامراء ، وجماعة من مشايخ الاعجام المجاورين بالجامع وغيرهم . وكلما ذكروا حالاً من أحوال الدنيا مثل الطشت او الفرش قالوا هذا من زخم

---

١ شذرات الذهب ٥ – ١٥١ .

٢ الديوان ١٤ .

(أي وضع) العجم . فبينما هم يتفاوضون في ذلك ويفخّمون « زخم العجم » رفع المؤذنون أصواتهم بالاذان جمـــلة واحدة فقال الشيخ : « وهذا زخم العرب » ، وتواجد ، وصرخ كل من كان حاضراً حتى صار لهم ضجة عظيمة[1] .

فالرجل كان شديد التأثر العصبي وسنرى اثر ذلك في شعره ولا سيما في قصيدته الكبرى نظم السلوك . والظاهر ان للطريقة الصوفية وما يلازمها من رياضة وأذكار وتأملات روحية تأثيراً بيّناً من هذا القبيل . وقد روي في كتاب « كشف المحجوب » كثير من أخبار الصوفيين الذين ماتوا لشدة وجدهم[2] .

٢ – ميله الى الخلوة والتقشف . وهـــو ظاهر منذ حداثته في ما ذكرناه سابقاً من اختلافه الى وادي المستضعَفين ، وظاهر أيضاً في مجاورته بمكة ، وما رووه عن هيامه بأوديتها يستأنس بوحشتها . وقد عبّر عن ذلك بقوله :

وابعدني عن اربُعي بُعد اربعٍ   شبابي وعقلي وارتياحي وصحّتي
فلي بعد اوطاني سكون الى الفلا   وبالوحش انسي اذمن الانس وحشتي

وكان أيام النيل يتردّد الى المسجد المعروف بالمشتهى في الروضة ، ويحب مشاهدة البحر (اي نهر النيل) مساءً[3] . وفي ذلك ما يشير الى حبه التأمل بالجمال الطبيعي والبعد عن ضجيج الناس ومتاعبهم .

وقد قرن كل ذلك بقهر النفس تقشفاً وصياماً حتى نقل عن ولده انه كان للشاعر اربعينيات[4] يحييها بالصيام والتأمل . وكانت تلك طريقة

---

١ الديوان ١٥ .

٢ كشف المحجوب (نقله نكلسون من الفارسية الى الانكليزية) راجع في النسخة الانكليزية الصفحات ٤٠٦ – ٤١٠ .

٣ شذرات الذهب ٥ – ١٥٠ .

٤ الديوان ١٧ وشذرات الذهب ٥ – ١٥٠ . ومعنى الاربعينية اربعون يوماً .

عتمدها بعض المتصوّفين . ولهم في ذلك الحديث التالي يرفعونه الى النبي « من اخلص لله تعالى العبادة اربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه [1] » . وقد عقد السّهروردي فصلاً في هذه الطريقة ومعانيها وكيف يدخلها المريد وما يتطلب منه ، فليراجعه من يريد التعمّق في ذلك [2] . وخلاصته ان مشايخ الصوفية متفقون على ان بناء امرهم على اربعة أشياء : قلة الطعام ، وقلة المنام ، وقلة الكلام ، والاعتزال عن الناس . فمن استطاع ان يحتمل الجوع ابتغاء الفرح الاعلى الذي ينسيه لهب الجوع فله ذلك . ولا يتحتم عليه الانقطاع التام عن الطعام والشراب طيلة الاربعين يوماً بل الاكتفاء بالقليل القليل من خبز وملح أو ما شاكل ، والقيام بما تتطلبه الخلوة من رياضة روحية حتى يفتح عليه ويكشف بشيء من المنح الالهية .

ويظهر مما رواه ان شاعرنا كان يقوم بهذه الرياضة الزهدية أحياناً ولعله الى ذلك يشير في قوله :

في هواكم رمضانٌ عمرهُ ينقضي ما بين احياءٍ وطي

ومهما حاولنا غربلة الاخبار التي يروونها عن تقشّفه وصيامه فاننا لا نرى محيصاً عن القول ان الرجل كان متصوفاً وكان يسلك طريقة اهل الورع والزهد [3] ، وقصائده ولا سيما التائية الكبرى تنضح بذلك نضحاً لا سبيل الى إنكاره .

٣ – كرم سجيته وحسن عشرته . قد يكون في امرىء ما كان في شاعرنا من حدّة التأثر والميل الى الطريقة الزهدية ، ويكون مع ذلك سيّىء العشرة قليل الخير . اما ابن الفارض فقد اجمع الكل على نعته بسمو الخلق من رقة وايناس وكرم وترفع عن حطام الدنيا [4] . فهو لم يكن من الذين

---

١ عوارف المعارف (هامش الاحياء) ٢ – ٢٢٣ .

٢ » » » الفصل الثامن والعشرون .

٣ راجع قصته مع السلطان الملك الكامل . الديوان ١٥ .

٤ ابن خلكان في ترجمته ، وشذرات الذهب ٥ – ١٥٠ .

يصطنعون التدين طمعاً بالحصول على المال او شرف المقام ، بل كان التديّن طبعاً فيه يرفعه عن الشهوات والاطماع المعيبة . وقد عرف الناس له ذلك فأكرموه ورفعوه الى مصاف الصالحين .

ومن مزاياه البارزة السخاء . رُوي انه ركب مرّة مع مكارٍ الى جامع مصر واشترط المكاري ان تكون اجرته « على الفتوح » اي بقدر ما يفتح على الشاعر من العطايا . قال الراوي – وكان يرافقه – وتبعنا فارس من جهة الامير فخر الدين فاستند إليّ فقال لي : قل للشيخ هذه مئة دينار يقبلها من الامير على الفتوح . فقلت ذلك للشيخ . فقال نحن ركبنا مع المكاري على الفتوح وأمر له بها . فرجع الفارس الى الأمير وأخبره بذلك . فبعث اليه مثلها ، فقال اعطها للمكاري . ولما وصلنا الى الجامع اعتذر الشيخ الى المكاري ودعا له [1] .

وكان شديد المؤاخذة لنفسه . قال لولده [2] : « حصلت مني هفوة انحصرت بسببها باطناً وظاهراً حتى كادت روحي تخرج من جسدي ، فخرجت هائماً كالهارب من أمر عظيم فَعَلَهُ وهو مطالبٌ به ، فطلعت المقطّم وقصدت مواطن سياحتي وأنا أبكي واستغيث واستغفر فلم ينفرج ما بي . وقصدت مدينة مصر ودخلت جامع عمرو بن العاص ، ووقفت في صحن الجامع خائفاً مذعوراً ، وجددّت البكاء والتضرّع والاستغفار ، فلم ينفرج بالي ، فغلب عليّ حال مزعج لم أجد مثله قط ، فصرخت وقلت :

من ذا الذي ما ساءَ قط ومن له الحسنى فقط »

قال فسمعت قائلاً يقول بين السماء والارض ، اسمع صوته ولا أرى شخصه :

« محمد الهادي الذي عليه جبريل هبط »

---

١ الديوان ١٦ .

٢ الديوان ٣١ .

ولا ننكر انه لا يجوز التقيد بمثل هذه القصص والاستناد اليها في الحكم على شاعرنا ولكنها ترينا على الاقل رأي الذين ترجموا له ، او كيفية تأثرهم بأخلاقه . والقصة الاخيرة ترجع الى أيام الشاعر فقد رواها ابن خلكان عن بعض أصحابه وانه ترنم يوماً وهو في خلوة بيت الحريري « من ذا الذي ما ساءَ قط » فسمع البيت الثاني من قائل لم يرَ شخصه . ولا يذكر ابن خلكان دقائق القصّة كما يرويها ولد الشاعر . وليس بالعجيب ان يكون ابن الفارض كما ذكرنا وان يوهمه الانفعال النفسي انه يسمع صوت شخص لا يراه . فما ذلك الشخص الا نفسه الواجدة ، التي كثيراً ما كان الوجد يفصلها عن العالم المحسوس .

* * *

فرجل كابن الفارض شديد الاحساس والتأثر ، كثير الخلوة والتأمل ، ورع مترفع عن حطام الدنيا ، محبّ حسن الصحبة كثير الخير ، لا يُستغرب ان تفيض نفسه بقصائد الوجد والهيام ، وان ينال من معاصريه ومن تبعهم جميل الذكر والاكرام .

اثر الصوفية في شعره

مرّ معنا في القسم الاول من هذا الكتاب شيء عن الطريقة الصوفية ومنشإها ، فلا لزوم لاعادته هنا . على انه لا بدّ لنا لدرس ابن الفارض وتفهّم شعره ، من النظر في الصوفية ومصطلحاتها العامة فنقول :

« للقلب بابان ، باب مفتوح الى عالم الملكوت ، وباب مفتوح الى الحواس الخمس المتمسكة بعالم الملك والشهادة . فعلم الاولياء والانبياء يأتي من الباب الاول ، وعلم الحكماء (العلماء والفلاسفة) يأتي من الثاني . والفرق بين الفريقين ان الحكماء يعملون في اكتساب العلوم واجتلابها الى القلب ، واما الاولياء (الصوفية) فيعملون في جلاء القلوب وتطهيرها وتصفيتها

وتصقيلها فقط حتى تتلألأ فيه جليّة الحق بنور الاشراق ، وهذا هو الكشف »[1] .

فالصوفية اذن مجاهَدةٌ لتطهير القلوب من الادران والانفراد بذكر الله توصلاً الى الحصول على الالهام النورانيّ - او الاتحاد الكامل بالحق الاعلى .

وفي خلال هذه المجاهدة تمرّ نفس الصوفيّ في تطوّرات شتى ، منها ما يدعى مقامات ، ومنها ما يدعى احوالاً . ويراد بالمقامات قيام العبد بين يدي الله والانقطاع اليه ، ولزوم العبادات والمجاهدات والرياضات الروحية . وبكلمة اوضح هي المسالك التي يتدرج فيها المتصوف نحو غايته المنشودة ، كالتوبة - والورع - والزهد - والفقر - والصبر - والتوكل - والرضا وغير ذلك[2] .

واما الاحوال فهي ما يحلّ بالقلوب من صفاء الاذكار - او هي اختبارات النفس اذ تمرّ في شتى المقامات . ومن ذلك القرب - المحبة - الخوف - الرجاء - الشوق - الانس - الطمأنينة - المشاهدة - اليقين[3] .

وللصوفية مصطلحات يكثرون من ترديدها في اشعارهم ، وقد افرد لها ابن السرّاج الطوسيّ في اللُّمع باباً خاصاً ذكر فيه نحواً من ١٥٩ نوعاً ، ثم شرحها شرحاً وافياً فليراجعها من شاء[4] . وإنما نجتزىء هنا باشهرها واكثرها تردداً في الشعر الصوفي ، وخاصّة في شعر ابن الفارض - ومنها :

الجمع والتفرقة : فالجمع هو اتحاد الواجد بالله عن سبيل الوجد[5] ،

---

١ ملخصاً عن الاحياء للغزالي ٣ - ٢١ .

٢ من اراد معاني هذه الالفاظ من الوجهة الصوفية فليراجع اللمع ٤٣ - ٥٤ او كتاب قوانين حكم الاشراق لابي المواهب الشاذلي .

٣ راجع معانيها في اللمع ٥٤ - ٧٢ .

٤ اللمع ٣٣٣ - ٣٧٦ .

٥ وفي جامع البدائع (مصر ١٩١٧) ص ٨٧ ان كل واحد من الموجودات يعشق الخير المطلق عشقاً غريزياً ، وان الخير المطلق يتجلى لعاشقه وان غاية القربى منه هي قبول تجليه على اكمل ما في الامكان . وهو المعنى الذي يسميه الصوفية بالاتحاد .

والتفرقة تعلّقه بالبشرية :

فالاول عن طريق القلب والثاني عن طريق العقل – فمثال الجمع قوله :

لها صلواتي بالمقام اقيمها واشهد فيها انها لي صلّتِ
كلانا مصلٍّ واحد ساجد الى حقيقته بالجمع في كل سجدةِ

الفناء والبقاء – الفناء رؤية حركات العبد ، والبقاء رؤية عناية الله . كقوله :

وتلافي ان كان فيه ائتلافي بك عجّل به – جُعلت فداكا

وقوله :

ان كان في تلفي رضاك صبابة – ولك البقاء – وجدت فيه لذاذا

الحب والهوى – وما يتعلق به من كتمان – والم – ونحول – وشوق – وهجر – ووصل – وتهتك – وعذل وغيره من الوجهة الصوفية وهو الموضوع العام في شعر ابن الفارض ، والامثلة اكثر من ان تحصر هنا .

الوجد – ان ينقطع القلب عن العلاقات الدنيوية فيشاهد ويسمع ما لم يكن يتهيأ له من قبل :

يا اخا العذل في من الحق مثلي هام وجداً به عَدمتُ إخاكا
لو رأيت الذي سباني فيه من جمال – ولن تراه – سباكا

القبض والبسط – وهما حالان شريفان لاهل المعرفة (الصوفية) . اذا قبضهم الله حشمهم عن تناول المباحات حتى الاكل والشرب والكلام ، واذا بسطهم ردّهم الى هذه الاشياء حتى يتأدب الخلق بهم .

وفي رَحموت البسط كلّي رغبةٌ بها انبسطت آمال اهل بسيطتي
وفي رهبوت القبض كلّي رهبة ففيما اجلت العين منّي اجلّت

السكر والصحو – (الغشية والحضور) فالسكر غيبة القلب عن مشاهدة الخلق ومشاهدته للحق بلا تغير ظاهر على العبد . ويختلف عن

الغشية بانها تظهر) .

تهذب اخلاق الندامى فيهتدي بها لطريق العزم من لا له عزمُ
وفي سكرةٍ منها ولو عمر ساعة ترى الدهر عبداً طائعاً ولك الحكمُ

والصحو رجوع القلب الى ما غاب عن عيانه لصفاء اليقين ، ويختلف عن الحضور بأن هذا دائم والصحو حادث .

المحو وصحو الجمع – وهما حالان تتلوان السكر والصحو . فالمحو صعقة السكر ثانيةً بعد الصحو الاول يتلوها صحو الجمع وهو الرتبة العليا وفيها يتم الاتحاد بالله واذ ذاك تتساوى الطوالع وتجتمع الاضداد فيصبح العابد والمعبود واحداً ، وكذلك الرسول والمرسل والمحب والمحبوب ، والحاضر والماضي ، والليل والنهار ، والصفة والذات .

فالوجود واحد – وليس هنالك زمان ، او سابق ذوات ، أو اختلاف أديان ، أو أنا وأنت وهو ، بل روح واحدة هي حقيقة الحقائق التي تتجلى بمظاهر مختلفة في الوجود الحسّي .

ففي الصحو بعد المحو لم أكُ غيرها وذاتي بذاتي إذ تحلّت تجلّت
فكل الذي شاهدته فعل واحد بمفرده لكن بحجب الاكنّة
اذا ما ازال الستر لم ترَ غيره ولم يبق بالأشكال إشكال ريبة

واذا بزغت أنوار التوحيد على قلب الصوفي كسف سلطانها سائر الانوار .

وفي حبّها بعت السعادة بالشقا ضلالاً وعقلي عن هدايَ به عقلُ
وقلت لرشدي والتنسّك والتقى تخلّوا وما بيني وبين الهوى خلّوا

الكشف – بيان مـــا يخفى على الفهم فيكشف عنه للعارف كأنه

رأي عين :

وما برحوا معنىً اراهم معي فإن نأوا صورةً في الذهن، قام لهم شكل

* * *

فالدياجي لنا بــك الآن غرٌ حيث أهديت لي هدى من سناكا
واقتباس الانوار من ظاهري غــير عجيب وباطني مأواكا

التجريد – ما تجرّد للقلب من شواهد الالوهية اذا صفا من كدور البشرية :

ابعينيــه عمى عنكم كما صمَم من عذله في أذُنيَ
أوَ لم ينه النهى عن عذله زاوياً وجه قبول النصح زي

* * *

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا سرٌ ارقّ من النسيم اذا سرى
واباح طرفي نظرة امّلتهــا فغدوت معروفاً وكنت منكـّرا
فدهشت بينَ جماله وجلاله وغدا لسان الحال عني مخبرا

الشطح – كلام غريب يترجمه اللسان عن وجد يفيض عن قلب الواجد كما يفيض المــاء الغزير اذا جرى في مجرى ضيّق كقوله :

فخمرٌ ولا كرم وآدم لي أبٌ وكرم ولا خمر ولي امّها امٌ

وقوله في حالة الاتحاد :

فأتــلو علوم العالمين بلفظة واجلو عليّ العالمين بلحظةِ
واستعرض الآفاق نحوي بخطوة واخترق السبع الطباق بخطوة
فمن قال أو من طال او صال انما يمتّ بامدادي له برقيقــة
وما سار فوق الماء او طار في الهوا أو اقتحم النيران الّا بهمّتي
ومنّيَ لو قامت بميتٍ لطيفة لرُدّت اليه نفسه وأعيدتِ

اسلوبه الشعري

نشأ ابن الفارض في عصر بلغت فيه الأناقة البديعية نثراً ونظماً أعلى درجاتها. فهو عصر القاضي الفاضل، والعماد الاصبهاني، وابن التعاويذي، وابن النبيه، والبهاء زهير، وابن سناء الملك، وابن الساعاتي، وسواهم ممّن عاصروا شاعرنا او سبقوه قليلاً . وقد عُرفت هذه الطبقة جميعها بولعها الشديد بالصناعة اللفظية وتكلّف أنواع البديع. ولم يشذّ عنهم ابن الفارض، بل لعله أبعدهم شأواً في ذلك. فالتأنق البديعي عامّ في جميع قصائده بل في اكثر أبياتها. وأكثر ما يظهر في ما يلي:

الجناس (في أنواعه المختلفة) — ومنه:

التامّ:

ليت شعري هل كفى ما قد جرى مذ جرى ما قد كفى من مقلتَي

والملفّق:

جنّة عندي رباها امحلت ام حلت عجّلتها من جنتَي

المشتق او شبهه:

دار خُلد لم يدر في خَلَدي انه من ينأ عنها يلق غيّ

وكثيراً ما يعنى بجمع عدد من ضروب الجناس في بيت واحد. كقوله:

وبابنت بانات كذا عن طويلع بسلعٍ فسل عن حلّةٍ فيه حلّت

ففيه الملفّق والمحرّف وشبه المشتق.

فذاك هوى اهدى اليّ وهذه على العود إذ غنت عن العود اغنت

وفيه شبه المشتق والتام والناقص.

الطباق:

فلي بين هاتيك الخيام ضنينة عليّ بجمعي سمحة بتشتّتي

* * *

وبسطٌ طوى قبض التنائي بساطه لنا بطُوى ولّى بارغد عيشة

* * *

مني له ذل الخضوع ومنه لي عزّ المنوع وقوّة المستضعف

الطيّ والنشر :

فضعفي وسقمي ذا كرأي عواذلي وذاك حديث النفس عنها برجمة

* * *

فقلبي وطرفي ذا بمعنى جمالها معنّى وذا مغرى بلين قوام

* * *

وعقدي وعهدي لم يحلّ ولم يحل ووجديَ وجدي والغرام غرامي

وقد يحمله الشغف بهذه الصناعة على جمع بضعة من أنواع البديع — كقوله :

وقالوا: جرت حُمراً دموعك قلت عن امورٍ جرت في كثرة الشوق قلّتِ

نحرت لضيف الطيف في جفني الكرى قرى فجرى دمعي دماً فوق وجنتي

ففي هذين البيتين جناس وطباق ومراعاة نظير ومجاز مرسل .

وقوله :

أيْ صبا أيّ صباً هجت لنا سَحَراً من ابن ذيّاك الشّذَي

ذاك أن صافحت ريّان الكلا وتحرّشت بحوذان كُلَيّ

فلذا تُروي وتروي ذا صدا وحديثاً عن فتاة الحيّ حيّ

ففيه من الجناس التام والمحرّف، وفيه التناسب، والطباق ، والطيّ والنشر.

ومن مزايا اسلوبه توهّم التناقض ، وهو ان يوهمك بوجود تناقض في المعنى ، والحقيقة غير ذلك . كقوله :

ما بين ضال المنحنى وظلاله ضلّ المتيم واهتدى بضلاله

* * *

فلي بعد اوطاني سكون الى الفلا وللوحش انسي اذ من الانس وحشتي

* * *

فلعلَّ نار جوانحي ان تنطفي بهبوبها وأودّ ان لا تنطفي

* * *

وقلت لرشدي والتنسّك والهوى تخلـّوا وما بيني وبين الهوى خلـّوا

* * *

ومن أجلها أسعى لمن بيننا سعى واعدو ولا اغدو لمن دأبه العذل

ومنها لطف العبارة والاشارة وحلاوة الجـَرْس – ويكاد يكون مذهبه العام . ولا بدع فموضوعه حبّي والفاظه رقيقة مألوفة ، وهو يجمع بين سلاسة البحتري وصنعة ابي تمـــام جمعاً لطيفاً قد يعلو به عن كليهما . نعم تلك صفات الشعر الغزلي في كل زمان ، ولكن لابن الفارض نفَساً خاصاً يمتاز به : انه لطف روحي ينعكس على اسلوبه فيحبّبه الى القلوب برغم ما فيه من عيوب سيأتي ذكرها . ولو أردنا التدليل على ذلك لاتينا بأكثر ديوانه وانما نكتفي هنا بقوله :

يا اخت سعدٍ من حبيبي جئتني برسالةٍ اديّتها بتلطـّفِ
فسمعتُ مالم تسمعي ونظرت ما لم تنظري وعرفت ما لم تعرفي

وقوله :

زدني بفرط الحب فيك تحيّرا وارحم حشاً بلظى هواك تسعّرا
واذا سألتك ان اراك حقيقة فاسمح ولا تجعل جوابي، لن ترى

ومن حسناته دقـّة الوصف والتمثيل . وتظهر في بلاغـة تشابيهه ، ووضوح رسومه الفكرية كقوله :

خافياً عن عائد لاح كما لاح في برديه بعد النشر طي

فتشبيهه ما صار اليه من النحول باثر الطيّ في الثوب يـــدلّ على دقـّة في الرسم تذكر للشاعر . وقوله يصف شيوع الجمال الاسنى في كل شيء :

تراه ان غاب كلُّ جارحة في كل معنى لطيف رائق بهج
في نغمة العود والناي الرخيم اذا تآلفا بين ألحانٍ من الهزج

وفي مسارح غزلان الخمائل في برد الاصائل والاصباح في البلجِ
وفي مساقط انداء الغمام على بساط نَور من الازهار منتسج

الى آخر هذه الابيات المشهورة .

وقوله يشبّه تواجده بحال الطفل الذي يبكي من شدّ القماط ويحن الى الخلاص منه فيناغَى ويُهزّ فيجد في ذلك ما يسكّنه وينسيه شدّ القماط – (التائية) :

اذا أنّ من اشدّ القماط وحنّ في نشاطٍ الى تفريج افراط شدّةِ
يُناغَى فيلغى كلّ كَلٍّ اصابه ويُصغي لمن ناغاه كالمتنصّتِ
يُسكّن بالتحريك وهو بمهده اذا ما له ايدي مربّيه هزّتِ
وجدت بوجدٍ آخذي عند ذكرها بتحبير تالٍ أو بالحان صيّتِ

وقس على ما ذكر كثيراً من لطائفه التي يشرح بها حاله فيصف تأثير الحب او جمال المحبوب او ضلال العذّل ، وما الى ذلك مما يبلغ فيه الطبقات العليا من الخيال الشعري .

* * *

عيوب اسلوبه

على ان في شعر ابن الفارض عيوباً لا يجوز الاغضاء عنها أهمّها :

تكرير المعاني – وذلك طبيعي في قصائد تدور على موضوع واحد ، وما اشبهه في ذلك بأبي العتاهية . على ان شاعرنا لا يكتفي بتكرير المعنى بل كثيراً ما يكرر العبارة وقد يكرّر البيت في أماكن شتى . كقوله :

اخذتم فؤادي وهو بعضي فما الذي
يضرّكم لو كان عندكم الكلّ

فقد جاء في قصيدة أخرى :

أخذتم فؤادي وهو بعضي فما الذي يضرّكم لو تتبعوه بجملتي

وورد هذا المعنى مراراً في مواضع اخرى .

وقوله :

كهلال الشك لولا انه ان ّ عيني عينه لم تتأي

وتراه في موضع آخر :

كأني هلال الشك لولا تأوهي خفيت فلم تهدَ العيون لرؤيتي

وقوله :

ليت شعري هل كفى ما قد جرى مذ جرى ما قد كفى من مقلتَي

وقد ورد أيضاً بقوله :

قد كفى ما جرى دماً من جفون بك قرحى فهل جرى ما كفاكا

وقوله :

فلو بسطت جسمي رأت كل جوهر به كل حسن فيه كل محبّة

ومثله :

ولو بسطت جسمي رأت كل جوهر به كل قلب فيه كل غرام

وقوله عن العين :

فانسانها ميت ودمعي غسله واكفانه ما ابيضّ حزناً لفرقتي

ومثله :

فسهدي حيّ في جفوني مخلّد ونومي بها ميت ودمعي له غِسل

وقس على ما ذكر ما لم يذكر .

وقلما تجد قصيدة من قصائده تخلو من مخاطبة سائق الظعن ، والتقدم اليه ان يحمل السلام الى الاحباب ، وان يذكر لهم صبّاً صريعاً نحيل الجسم الى درجة الخفاء .

ويكثر في شعره التنقص من العذّل واللائمين ، وذكر ريح الصّبا التي يخصّها بحمل أخباره أو اخبار الحبيب .

ومن عيوبه الغموض – وهو امّا لبعد اشاراته وشطحاته أحياناً ، أو لتعسفه في الصناعة ؛ خذ قوله مثلاً :

ناب بدر التمام طيف محيّاك لطرفي بيقظتي اذا حكاكا
فتراءَيت في سواك لعينٍ بك قرّت وما رأيت سواكا
وكذاك الخليل قلـّب قبلي طرفه حين راقب الافلاكا

ومعنى الابيات : ظهر لي البدر نائباً عنك مشبهاً محيّاك ، فما ظهر لي سواك لأن عيني لا تشاهد إلّا جمالك . وكذا ابراهيم الخليل كان يراقب النجوم باحثاً عن مبعثها العظيم . وفي هذا التركيب من التعسف ما ترى .

وله من هذا القبيل ما يلفت النظر : واغمض منه شطحياته وهي راجعة الى غرائب ما يصفه من أحواله الصوفية وهذه لا يفهمها إلّا ارباب هذه الطريقة او المطلعون على اسرارها .

أما غموض البديع فمعروف وهو يشارك فيه كل أهل الصناعة ، وربما فاقهم أحياناً لمحاولته الجمع بين عدة ضروب في معنى أو بيت واحد .

* * *

وبرغم مقدرته اللغوية وشاعريته الممتازة لا يخلو ديوانه من هفوات لغوية أو اعرابية كقوله :

لو طويتم نصح جارٍ لم يكن فيه يوماً يألُ طيّاً يالَ طي

وصحيحه يألو طيّاً يا آل طي (وقد تقرأ يالطي) .

وقوله :

يضرّكم لو تتبعوه بجملتي — الصواب : لو تتبعونه .

وقوله : ناب بدر التمام طيف محيّاك — وصوابه : عن طيف محيّاك .

وقوله : لعلّ اصيحابي بمكة يبردوا بذكر سليمى ما تجن الاضالعِ

وصوابه : يبردون .

وقوله : فان لها في كل جارحة نصلُ وصوابه نصلاً . وقد يخرّجونه بتقدير ضمير الشأن فتصبح فانه الخ .

وهو يكثر من استعماله لغة « اكلوني البراغيث » كقوله :

وان كثروا اهل الصبابة او قلـّوا   وقوله : وان مزجوه عذّلي

وما الى ذلك مما يلاحظ في تضاعيف ديوانه .

ومن تساهله اللغوي قوله :

لم يرق لي منزل بعد النقا . وهو لطيف على ان فعل راق يتعدى رأساً فيقال راقني ذلك .

وليس ما ذكرناه بالذي يتفرّد به ابن الفارض ، فقد مرّ معنا ما عيب على المتنبي وغير المتنبي ، وقلما يخلو ديوانه من مثل هذه الهفوات . واكثرها للمحافظة على الوزن .

غزله

عُرف ابن الفارض بأنه شاعر الحب . والناس في ذلك طائفتان، اهل الظاهر ، واهل الباطن . فأهل الظاهر هم القائلون بأنه لا يخرج عن سبيل العشاق او الغزليين الذين وصفوا الجمال الانساني (ولا سيما جمال المرأة) وتأثيره في نفوس المحبين . وقد عزا اليه بعضهم ولعه بسماع الغناء من جوارٍ له وانه كان يرقص لذلك ويتواجد [1] . وعلى هذا الظاهر يفسّرون حبّه وسماعه او على الاقل لا يتعرّضون لما في ذلك من رموز صوفية . ذكروا ان بعضهم في عصر الحافظ بن حجر كتب عن التائية شرحاً ، وأرسله الى بعض عظماء صوفية الوقت ليقرّظه ، فأقام عنده مدة ، ثم كتب اليه عند ارساله الجواب اليه :

سارت مشرّقة وسرت مغرّباً   شتان بين مشرّق ومغرّب

« فقيل له في ذلك فقال : مولانا الشارح اعتنى بارجاع الضمائر والمبتدأ والخبر والجناس والاستعارة ، ومـــا هنالك من اللغة والبديع ، ومراد الناظم وراء ذلك كله » [2] .

---

١ شذرات الذهب ٥ – ١٥٢ .

٢ شذرات الذهب ٥ – ١٥١ .

ومن نظر إلى الديوان نظراً ظاهرياً ابن ابي حجلة . وقد قال في وصفه[1] : « هو من أرق الدواوين شعراً ، وأنفسها درّاً برّاً وبحراً ، وأسرعها الى القلوب جرحاً ، واكثرها على الطلول نوحاً – إذ هو صادر عن نفثة مصدور ، وعاشقٍ مهجور ، وقلبٍ بحرّ النوى مكسور » .

ولا يقصد ابن ابي حجلة بالعشق هنا النوع الصوفي الذي يرمز الى الجمال الإلهي ، إذ المعروف عنه انه كان من سيّئي الاعتقاد بابن الفارض[2] بل يقصد ما يذهب اليه كثيرون من ان غزله غزل عادي كغزل ابن ابي ربيعة ، وعباس بن الاحنف ، والبهاء زهير وسواهم . ولا ينكر ان شهرة شاعرنا قائمة عند الجمهور على هذه الوجهة الظاهرية ، فهم يحفظون قصائده ويرددونها لضربها على اوتار الغرام ، ولانها تلائم ما يشعرون به من خوالج الوجد والهيام . على ان شعور الجمهور لا يحتم علينا ان ننظر اليها كذلك . ومهما حاولنا ان نضرب صفحاً عن تصوّفه فان من قصائده ما لا يفسّر الا تفسيراً باطنياً او رمزياً (صوفياً) . ومن ذلك قصيدته الخمرية ، واليك مثالاً منها :

ولو جليتْ سرّاً على اكمهٍ غدا بصيراً ومن راووقها يسمع الصمُّ
ولو انّ ركباً يمموا ترب ارضها وفي الركب ملسوع لما ضرّه السمُّ
تقدّم كل الكائنات حـــديثها قديماً ولا شكلٌ هناك ولا رسم
وقامت بها الاشياء ثم لحكمة بها احتجبت عن كل من لا له فهم
وهامت بها روحي بحيث تمازجا اتحاداً ولا جرمٌ تخلّله جرم
وقالوا شربت الإثم كلّا وانمـــا شربت التي في تركها عنديَ الاثم

والذي يقرأ هذه القصيدة ويتفهم معانيهـــا ومراميها ، ثم يقابلها بخمريات ابي نواس مثلاً يرى فرقاً واضحاً برغم ما قد يتوهمه من تشابه الصفات في الخمرين النواسية والفارضية .

---

١ شذرات النهب ١٥١ .

٢ الديوان ١١ .

وأهمّ من هذه الخمرية واسمى تصوّفاً تائيته الكبرى « او نظم السلوك » التي مطلعها :

سقتني حميّا الحبّ راحةُ مقلتي   وكأسي محيّا مَن عن الحسن جلّت

وهي قصيدة فريدة في الادب العربي ، أو كما يقول المستشرق العلّامة هامَر في مقدمة ترجمته لها : « انها اسمى ما وصل الينا من هذا القبيل في أدب الشرق والغرب[1] » . ويقابلها « بنشيد الانشاد » في التوراة فيقول : « هي نشيد انشاد العرب في الحب الصوفي ولئن قصّرت عن « نشيد الانشاد » في الصور الطبيعية ، فانها تفوقه في الرموز التصوفية[2] » .

* * *

والمرويّ انه لم ينظمها على حدّ نظم الشعراء اشعارهم بل كانت تحصل له جذبات يغيب فيها عن حواسّه فاذا أفاق أملى ما فتح الله عليه منها ، ثم يدع حتى يعاوده ذلك الحال[3] .

ويصف ولده هذه الغيبوبة فيقول : « كان الشيخ في غالب اوقاته لا يزال دهشاً ، وبصره شاخصاً ، لا يسمع من يكلّمه ولا يراه : فتارة يكون واقفاً ، وتارة يكون قاعداً ، وتارة يكون مضطجعاً على جنبه ، وتارة يكون مستلقياً على ظهره مسجّى كالميت . ويمرّ عليه عشرة أيام متواصلة ، أو أقلّ من ذلك وأكثر ، وهو على هذه الحالة – لا يأكل ولا يشرب ولا يتكلم ولا يتحرك – ثم يستغيث وينبعث من هذه الغيبة ، ويكون اول كلامه انه يملي من القصيدة « نظم السلوك » ما فتح الله عليه »[4] .

وعلى ما رووه من غيبته يعقّب المستشرق الاستاذ نكلسون بقوله : « انّا لا نرى لزاماً ان نشك في صحة ما رووه ففي التاريخ ما يزكّيه – هذا بلايك (Blake) فقد قال عن نفسه ان سكرة روحية كانت تغشاه

---

١ مقدمة الترجمة XX (فيينا ١٨٥٤) .
٢ مقدمة الترجمة VIII .
٣ و ٤ الديوان ١١ .

كلما أمسك القلم او المرقم – وسانت كاترين اوف سيانا كانت تملي أحاديثها على كتبتها وهي في حالة الوجد او الغيبة (Ecstasy) . وكان جـــلال الدين الرومي ، إذا غاص في بحر المحبة ، أمسك بعمود في داره وأخذ يدور حوله وفي خلال ذلك ينظم ويملي »[1] .

فليس من الغريب ان تأخذ « الحال » شاعراً رقيق الشعور شديد التأثر كابن الفارض . والذي يتأمل تائيته العجيبة يرى فيها آثار تلك الحال ، كقوله :

ودلـّهني منها ذهولي ولم أفِق ... عليّ ولم أقفُ التماسي بظنـّتي
فاصبحت فيها والهاً لاهياً بها ... ومن ولـّهت شغلاً بها عنه ألهت
وعن شغـُلي عني شـُغلت فلو بها ... قضيت ردىً ما كنت أدري بنقلتي
وما زلت في نفسي بها متردّداً ... لنشوة حسّي والمحاسن خمرتي

وقوله :

يشاهدها فكري بطرف تخيّلي ... ويسمعها ذكري بمسمع فطنتي
ويُحضرها للنفس وهمي تصوّراً ... فيحسبها في الحسّ وهي نديمتي
فاعجبُ من سكري بغير مدامة ... واطرب في سرّي ومنـّي طربتي

وممّا يشير الى انه نظم كثيراً منها على اثر تواجد او «حال» ان المعاني تتكرر فيها على طرق شتى . ففي نفس الشاعر شوق مستعر يحمله الى العلى ، وكثيراً ما يحجب عنه أبواب التأمل المنطقي . على انه يثير شعوره فيظهر في أبيات أو قطع قد تختلف لفظاً عما نظم قبلاً ولكنها لا تختلف معنى . ومن ذلك معظم ما نظمه في الجمع والاتحاد والفناء والصحو وما شاكل من هذه المعاني التي كانت تشغل عقله فاذا غاب تسارعت الى خاطره فإلى لسانه . واذا اعتـُرض ان الصنعة البديعية فيها تعارض ذلك لتطلـّبها الدقيق في التركيب وامتلاك الحواس في اختيار الالفاظ المناسبة، قلنا قد يكون ذلك صحيحاً ، ولكنه ليس بمحتم . وإذا كان رجل كابن

---

[1] 167 - Studies in Islamic Mysticism

الفارض مشبع الروح بالتأملات الصوفية ، وكان مع ذلك واسع الاطلاع على لغة عصره الشعرية يخزن في ذاكرته الكثير من أوضاعهم وأساليبهم ، لم يستحل عليه حتى في حال ذهوله ان يبث شعوره بواسطة تلك الاوضاع والاساليب .

فالتائية الكبرى نشيد الوجد الروحي . فيها نشعر بذلك الحب الاسنى الذي يملك على الناظم حواسه فيسكره وينقله من عالم المادة الى عالم الروح . فيها نرى ذلك العراك المستمرّ بين الصلاح والشرّ وذلك الفوز النهائي الذي انما ينال بمشاهدة الجمال الإلهي :

وما هو الا ان ظهرت لناظري بأكمل اوصاف على الحسن اربتِ
فحلّيت لي البلوى فخلّيت بينها وبيني فكانت منك اجمل زينةِ

وما الحبّ الحقيقي إلّا الذي ينتهي بتلاشي ارادة المحب او اتحاده في حقيقة المحبوب .

وغُيّبت عن إفراد نفسي بحيث لا يزاحمني ابداء وصفٍ بحضرتي
وها انا أبدي في اتحادي مبدأي وأنهى انتهائي في تواضع رفعتي

أما الجمال فهو الجمال المطلق الذي يتجلّى في كل ما هو جميل في الطبيعة والانسان .

وصرّحْ باطلاق الجمال ولا تقل بتقييده ميلاً لزخرف زينةِ
فكلّ مليح حسنه من جمالها مُعارٌ له بل حسن كلّ مليحةِ

وحب الجمال هو حب الله نفسه وهو عند ابن الفارض أعلى من عبادة النسّاك ومن عبادة المثقلين أنفسهم بظواهر التقليد والنقل .

وطب بالهوى نفساً فقد سُدتَ انفسَ العباد من العبّاد في كل أمّةِ
وفُزْ بالعلى وافخر على ناسكٍ علا بظاهر اعمالٍ ونفس تزكّتِ
وجز مُثقلاً لو خفّ طفّ مؤملاً بمنقول احكام ومعقول حكمةِ
وحُز بالولا ميراث ارفع عارفٍ غدا همّه ايثار تأثير همّةِ
وتِه ساحباً بالسّحب اذيال عاشق بوصلٍ على أعلى المجرّة جُرّتِ

على ان الجمال الانساني لا يمكن مشاهدته الّا بعد التجرّد من أثواب العقل والحسّ .

الى ان بدا منّي لعينيَ بارقٌ وبان سنا فجري وبانت دجنّتي
هناك الى ما احجم العقل دونه وصلت وبي مني اتصالي ووصلتي
واستارُ لبس الحسّ لمّا كشفتها وكانت لها اسرار ُحكميَ ارخت
رفعت حجاب النفس عنها بكشفيَ النقابَ وكانت عن سؤالي مُجيبتي

ومتى شاهدت النفس المتجرّدة الجمال الاسنى تساوت لديها الاسماء والصفات وأصبحت هي والوجود الألهي شيئاً واحداً ، فرأت في كل الاشكال معنىً واحداً .

ترى صور الاشياء تجلى عليك من وراء حجاب اللّبس في كل خِلقةِ
تجمّعت الاضداد فيها لحكمة فاشكالها تبدو عـــلى كل هيئةِ

وكل الاديان مظاهر لدين واحد حتى عبّاد الاوثان ليست عبادتهم في الحقيقة إلّا اتجاهاً نحو الجمال الإلهي المطلق .

فما قصدوا غيري وان كان قصدهم سواي وان لم يظهروا عقد نيّةِ

ولشيوع مثل ذلك في شعره اتّهمه البعض بالحلول [1] وكفّروه ، حتى قال المناوي وهو من المدافعين عنه [2] : « والحاصل انه اختُلف في شأن صاحب الترجمة (ابن الفارض) وابن عربي ، والعفيف التلمساني (وفلان وفلان يعددهم) من الكفر إلى القطبانية ، وكثرت التصانيف من الفريقين في هذه القضية » على ان شاعرنا يدافع عن نفسه فيقول :

وكيف وباسم الحقّ ظلّ تحققي تكون اراجيف الضلال مخيفتي
ولي من أصحّ الرؤيتين اشارةٌ تنزّه عن رأي الحلول عقيدتي
وفي الذكر ذكر اللبس ليس بمنكر ولم اعدُ عن حكمَي كتابٍ وسنّةِ

فابن الفارض لا يعتمد في شعره الطريقة الجدلية ، ولا يدخل في نضال

---

١ الديوان ١٢ .

٢ شذرات الذهب ٥ – ١٥٢ .

فلسفي يدعمه بالادلّة والبراهين ، بل هو يصور الوجود بالوان الجمال المطلق ، وينسج من عواطفه حلّة سداها ولحمتها الحب المُسكر ، حلّة تلبسها النفس فتحتجب عن علاقاتها المادية ، وتعلو في لوح الفضاء الى حيث تمتزج بروح الكون . وفي ذلك المقام تطلّ على الوجود فلا ترى فيه إلّا شكلاً واحداً ولوناً واحداً وقوّة واحدة .

الحبّ هو نشيد ابن الفارض . وهو – سواء نظرت اليه من جهة الظاهر أو جهة الباطن – حب سامٍ يرفع النفس الى المثل العليا ، ويكشف لها عن جمال الوجود الاعظم .

وما ميّ ، وعُتب ، وريّا ، وسلمى ، وليلى وسواهنّ عنده الّا مرايا تعكس لنا نور المحبوب الاسنى .

وما الوجد ، والشوق ، والوصل ، والهجر ، والعذل ، والتعذيب ، والذّل ، والنحول ، والموت ، والغدر ، والوفاء ، واللوم ، والعتاب ، والرضا ، واضراب هذه الاوضاع الغزليّة الا اختبارات نفس شديدة الاحساس في سعيها نحو مصدر الجمال .

وما مرابع الحجاز الا رمز للمرابع العلوية ، ولذلك تراه يردد ذكراها في أكثر قصائده ، فيقول مثلاً :

يا ساكني البطحاء هل من عودةٍ احيا بها يا ساكني البطحاء

* * *

لا تُملني عن هوى مرتبعي عدوَتي تَيما لربعٍ بتُمَي

* * *

قسماً بمكّة والمقام ومن اتى البيت الحرام ملبّياً سيّاحا
ما رنّحت ريح الصبا شِيح الربى الّا واهدت منكم افراحا

تلك هي عاطفته الحجازية التي تبرز في أكثر قصائده . ومهما غلا المشككون فان في تلك العاطفة ما يبرّر قولنا بصوفيّة شاعرنا ونبالة حبّه .

المختار من شعر ابن الفارض

نفس رقيقة ترتفع على اجنحة الحب الى العلى ثمّ تذوب في الفضاء الواسع تاركة وراءها نغماً لطيفاً يرجّعه الشعر فيطرب السامعين .

يائيته المشهورة

سائقَ الاظعان يطوي البيدَ طَـي   منعماً عرّج على كثبان طَـيّ ١
وبذاتِ الشيح عنّي ان مرر   تَ بحيٍّ من عُريب الجزع حي ٢
وتلطّفْ واجرِ ذكري عندهم   علّهم أن ينظروا عطفاً الي
قل تركتُ الصبّ فيكم شبَحاً   ما له مما براه الشوقُ فَـي
خافياً عن عائـدٍ لاح كما   لاح في بُرْدَيه بعد النشر طي
كهلالِ الشكِ لولا أنّهُ   أنّ عيني عينَه لم تتأي ٣
مسبلاً للنأي طرفاً جاد إنْ   ضنّ نوء الطرف أن يسقطَ خي ٤
بين اهليه غريباً نازحاً   وعلى الاوطان لم يعطفه لَـي ٥

١ طي الاول مصدر طوى . والثانية اسم قبيلة .
٢ ذات الشيح : موضع . الجزع : منعطف الوادي . والحي (الثانية) أي سلم .
٣ هو في الخفاء كالهلال الذي لم تثبت رؤيته ولولا انينه لما رأت عيني ذاته (عينه) .
٤ ساكباً دموع طرف يجود بالبكاء وان بخل نجم « الطرف » عند سقوطه بالمطر .
٥ لي أي عطف .

نشرَ الكاشحُ ما كان له طاويَ الكشح قُبَيْل النأيِ طي
في هواكم رمضان عُمْرهُ ينقضي ما بين إحياء وطي[1]
حائراً في ما اليه امرُهُ حائرٌ والمرء في المحنةِ عي
يا أهيلَ الودّ أنّى تنكرو نيَ كهلاً بعد عرفاني فُتي
وهوى الغادةِ عَمري عادةٌ يجلبُ الشيب إلى الشاب الأحي[2]
ومتى اشكُ جراحاً بالحشا زيد بالشكوى اليها الجرح كي
عجباً في الحرب أدعى باسلاً ولها مستبسلاً في الحبّ كي[3]
هل سمعتم أو رأيتم أسداً صاده لحظ مهاةٍ أو ظُبي
وضعَ الآسي بصدري كفّه قال ما لي حيلةٌ في ذا الهُوَي
سقَمي من سُقم اجفانكمُ وبمعسول الثنايا لي دُوَي
رجعَ اللاحي عليكم آئساً من رشادي وكذاك العشق غي
أبعينيه عمىً عنكم كما صممٌ عن عذله في أذني[4]
ظلّ يهدي لي هُدىً في زعمه ضلّ كم يهذي ولا أصغي لغي
ذابت الروح اشتياقاً فهيَ بعدَ نفاد الدمع اجرى عبرتي
فهبوا عينيّ – ما اجدى البكا – عين ماءٍ فهي إحدى منيتي
او حشا سالٍ وما أختارهُ إن ترَوا ذاك به منّاً علي
بل أسيئوا في الهوى أو أحسنوا كلّ شيء حسنٌ منكم لدَي

* * *

روّح القلب بذكرِ المنحنى وأعدهُ عند سمعي يا أُخي
لم يرُقْ لي منزلٌ بعد النقا لا ولا مستحسنٌ من بعدِ مي
آهِ واشوقي لضاحي وجهها وظما قلبي لذيّاك اللُمَي[5]

---

١ بين سهر وجوع .
٢ الاحي أي الاسود الشعر .
٣ كي : جبان .
٤ هل عميت عينه عن جمالكم كما صمت أذني عن سماع عذله .
٥ تصغير لمى وهو سمرة في باطن الشفة أو ماء الثغر .

فبكلٍّ منه والالحاظ لي   سكرةٌ واطرَبا من سكرتَي
جنةٌ عندي رُباها أمحلتْ   أمْ حلت – عُجّلتها من جنتَي ١
دار خُلدٍ لم يدُرْ في خلَدي   أنه من ينأ عنها يلقَ غي

* * *

خاطبَ الخطب دع الدعوى فما   بالرّقى ترقى الى وصل رُقَي ٢
رُحْ معافىً واغتنم نصحي وإن   شئت ان تهوى فللبلوى تهَي
كم قتيلٍ من قبيلٍ ما له   قوَدٌ في حبّنا من كل حي
أيّ تعذيب سوى البعد لنا   منك عذبٌ حبّذا ما بعد أي ٣
ان تشيْ راضيةً قتلي جوىً   في الهوى حسبي افتخاراً أن تشَي
ما رأت مثلك عيني حسناً   وكمثلي بكِ صبّاً لم ترَي
نسبٌ أقربُ في شرع الهوى   بيننا من نسبٍ من أبوَي
ليت شعري هل كفى ما قد جرى   مذ جرى ما قد كفى من مقلتَي
سِرّكُمْ عنديَ ما اعلنَهُ   غير دمعٍ عندَمِيٍّ عن دُمي ٤
مظهراً ما كنت أخفي من قديـم حديثٍ صانه منيَ طي
يا أُصيحابي تمادى بينُنا   ولبعدٍ بينَنا لم يُقضَ طي
علّلوا روحي بارواح الصبا   فبريّاها يعود الميتُ حي
أيْ صَبا أيّ صباً هجت لنا   سحراً من أينَ ذيّاك الشّذَي ؟
ذاك ان صافحت ريّانَ الكلا   وتحرّشتِ بحوذانِ كُلي ٥
فلذا تُروي وتَرْوي ذا صدىً   وحديثاً عن فتاة الحيّ حي ٦
سائلي ما شفّني ، في سائلِ الدمـع لو شئتَ غنى عن شفتي

---

١ هي عندي جنة سواء اجدبت أم تحلت بالخصب ويشير بالجنة الثانية إلى السماء .
٢ رقي اسم فتاة ويكنى بها عن الجمال الاسنى .
٣ أي حبذا التعذيب .
٤ عندمي أي أحمر . دمي تصغير دم أي سال سائل من دمي .
٥ و ٦ أي انما ذلك الشذا لأنك لمست الكلأ الناضر وتحوشت بنبات الحوذان في وادي الحبيب. ولذا فأنت تروي صاحب العطش وتروي الخبر الصادق (الحي) عن فتاة الحي .

عُتْبُ لم تُعْتِبْ وسلمى اسلمت وحمى أهل الحمى رؤيةَ رَيّ [1]

هو الحب

هو الحبّ فاسلم بالحشا ما الهوى سهلُ
فما اختارَه مضنىً به وله عقــلُ
وعش خالياً فالحبّ راحتُه عناً وأوّلُه سقمٌ وآخره قتــل
ولكن لديّ الموت فيه صبابةً حياةٌ لمن أهوى عليّ بها الفضل
نصحتك علماً بالهوى والذي أرى مخالفتي فاخترْ لنفسك ما يحلو
فان شئت أن تحيا سعيداً فمتْ به شهيداً والا فالغرام له أهــل
فمَنْ لم يمت في حبّه لم يعش به ودون اجتناء النحل ما جنتِ النحل
تمسّك بأذيال الهوى واخلع الحيا وخلّ سبيل الناسكين وان جلّوا [2]
وقل لقتيل الحبّ وفّيت حقّه وللمدّعي هيهات ما الكَحَل الكُحل
تعرّضَ قــومٌ للغرام واعرضوا بجانبهم عن صحّتي فيه واعتلّوا
رضوا بالاماني وابتُلُوا بحظوظهمْ وخاضوا بحارَ الحبّ دعوى فما ابتلّوا

* * *

أحبةَ قلبي والمحبــة شافعي لديكم اذا شئتم بها اتّصل الحبل
عسى عطفةٌ منكم عليّ بنظرةٍ فقد تعبتْ بيني وبينكم الرّسل
احبّايَ أنتم أحسن الدهر أم أسا فكونوا كما شئتم انا ذلك الخِلّ
اذا كان حظي الهجرَ منكم ولم يكن
بِعادٌ فذاك الهجر عندي هو الوصل
وتعذيبكم عذبٌ لديّ وجوركم عليّ بما يقضي الهوى لكم عدل
وصبريَ صبرٌ عنكم وعليكم أرى أبداً عندي مرارته تحلو

---

١ يا من تسألني عما أصابني انظر الى الدمع السائل تجد فيه جوابي . وعتب وسلمى وري أسماء فتيات .

٢ إن حب الجمــال الأسنى والتمادي فيه (على طريقة الصوفية) هو أفضل الطرق فسر به ولو خالفت أهل الطرق الاخرى .

أخذتم فؤادي وهو بعضي فما الذي
يضرّكمُ لو كان عندكم الكلُّ

نأيتم فغير الدمعِ لم أرَ وافياً — سوى زفرةٍ من حرّ نارِ الجوى تعلو
فسهديَ حيٌّ في جفوني مخلّدٌ — ونومي بها ميتٌ ودمعي له غسْل

هوىّ طلّ مـــا بين الطلولِ دمي فمِن
جفوني جرى بالسفح من سفحه وبل[١]

تبالهَ قومي إذ رأوني متيّماً — وقالوا بمن هذا الفتى مَسّهُ الخبل؟
وماذا عسى عني يقال سوى غدا — بنُعمٍ له شغلٌ نـَعَم لي بها شُغل
وقالت نساء الحيّ عنّا[٢] بذكر من — جفانا وبعد العزّ لذّ له الذّلّ
اذا انعمتْ نُعم عليّ بنظرةٍ — فلا اسعدتْ سُعدى ولا اجملت جمل
وقد صدئت عيني برؤيةِ غيرها — ولثم جفوني تربهـــا للصدا يجلو
وقد علموا أنـّي قتيل لحاظها — فانّ لها في كل جارحةٍ نصل[٣]
حديثي قديمٌ في هواها وما له — كما علمت بعدٌ وليس له قبل
وما ليَ مثلٌ في غرامي بها كما — غدتْ فتنةً في حسنها ما لها مثل
حرامٌ شِفا سقمي لديها رضيت ما — به قسمت لي في الهوى ودمي حلّ
فحالي وان ساءَت فقد حسنت به — وما حط قدري في هواها به اعلو
ولي همةٌ تعلو اذا مـــا ذكرتها — وروحٌ بذكراها اذا رخصتْ تغلو
جرى حقها مجرى دمي في مفاصلي — فاصبح لي عن كلّ شغل بها شغل
فنافسْ ببذلِ النفس فيها أخا الهوى — فان قبلتْها منك يا حبّذا البذل
فمَنْ لم يجدْ في حبّ نعمٍ بنفسه — ولو جاد بالدنيا اليه انتهى البخل
ولولا مراعـــاة الصيانة غَـيْرَةً — ولو كَـثُـروا أهل الصبابة أو قلّوا
لقلت لعشّاق الملاحة اقبِلوا — اليها على رأيي وعن غيرها ولّوا

---

١ هوى هدر دمي بين طلول الاحبة فجرى من جفوني لذلك وابل من الدموع .

٢ عنا به أي ابعدوا ذكر من جفانا .

٣ الاصل فان لها نصلاً ولكنهم يخرجون الاعراب بتقديرهم ضمير الشان فكأنه يقول فـــانه لها الخ .

وان ذُكرت يوماً فخرّوا لذكرها سُجوداً وان لاحت الى وجهها صلّوا
وفي حبّها بعتُ السعادةَ بالشقا ضلالاً وعقلي عن هدايَ به عقل[1]
وقلت لرشدي والتنسّكِ والتقى تخلّوا وما بيني وبين الهوى خلّوا
وفرّغت قلبي عن وجودي مخلصاً لعلّيَ في شغلي بها معَها اخلو
واصبو الى العذّال حباً لذكرها كأنهمُ ما بيننا في الهوى رُسل
فان حدّثوا عنها فكلّي مسامعٌ وكلّيَ انْ حدّثتُهم ألسنٌ تتلو
تخالفت الاقوالُ فينا تبايناً برَجمِ ظنونٍ بيننا ما لها أصل
فشنّعَ قومٌ بالوصال ولم تصِلْ وارجف بالسلوان قومٌ ولم أسل
فما صدق التشنيعُ عنها لشقوتي وقد كذَبتْ عني الاراجيف والنقل
وكيف ارجّي وصلَ من لو تصوّرت حماهـا المنى وهماً لضاقت بها السبْل
تـرى مقلتي يوماً ترى من أحبّهم ويُعتبني دهري ويجتمع الشمل
وما برحوا معنىً أراهمْ معي فان نأوْا صورةً في الذهنْ قام لهم شكل
فهم نـُصب عيني ظاهراً حيثما سرَوا وهم في فؤادي باطناً أينما حلّوا
لهم أبداً مني حُنُوٌّ وان جفَوْا ولي أبداً ميلٌ اليهم وان ملّوا

أنا القتيل

ما بين معترك الاحداق والمُهَجِ أنا القتيل بـلا إثم ولا حرجِ
ودّعت قبل الهوى روحي لِما نظرت عينايَ من حُسنٍ ذاك المنظر البهج
للهِ أجفانُ عينٍ فيكَ ساهرةٍ شوقاً اليك وقلبٌ بالغرام شجِ
واضلُعٌ نحِلتْ كادتْ تقوّمها من الجوى كبدي الحرّى من العوج
وادمُعٌ هَملت لولا التنفّسُ من نارِ الهوى لم أكَدْ أنجو من اللجج
وحبّذا فيك اسقامٌ خفيتُ بها عني تقومُ بها عند الهوى حججي
أصبحتُ فيك كما أمسيتُ مكتئباً ولم أقل جزعاً يا أزمةُ انفرجي

---

[1] عقل الثانية مصدر عقل أي منع أو ربط .

أهفو إلى كلّ قلبٍ بالغرام له شُغلٌ وكلّ لسانٍ بالهوى لهجِ
عذّب بما شئت غير البعد عنك تجد
أوفى محبٍّ بما يرضيك مبتهجِ
وخذ بقيّةَ ما أبقيتَ من رمقٍ لا خير في الحُبّ إن أبقى على المهج
من لي باتلاف روحي في هوى رشإٍ حُلوِ الشمائل بالأرواح ممتزج
من مات فيه غراماً عاش مرتقياً ما بين أهل الهوى في أرفع الدّرج
محجّبٌ لو سرى في مثل طُرّته أغنتْه غُرّتُهُ الغرّا عن السّرج [1]
وان ضَلِلْتُ بِلَيلٍ من ذوائبه أهدى لعيني الهدى صبحٌ من البلَج
وان تنفّسَ قال المسكُ معترفاً لعارفي طيبه «من نشرهِ أرجي»
يا ساكنَ القلبِ لا تنظر إلى سَكَني
واربح فؤادك واحذرْ فتنةَ الدعجِ
تبارك الله ما أحلى شمائله فكم أماتتْ وأحيت فيه من مهج
يهوى لذكر اسمهِ من لجّ في عذَلي سمعي ، وان كان عذْلي فيه لم يلج [2]
وأرحمُ البرقَ في مسراه منتسباً لثغره وهو مستحيٍ من الفلج
تراه ان غاب عني كلّ جارحةٍ في كلّ معنىً لطيفٍ رائق بهج
في نغمة العود والناي الرخيمِ إذا تآلفا بين ألحانٍ من الهزج
وفي مسارح غزلان الخمائل في برد الاصائل والاصباح في البلَج
وفي مساقط انداء الغمام على بساط نور من الازهار منتسج
وفي مساحب أذيال النسيم إذا أهدى إليّ سُحيراً أطيبَ الارج
وفي التثاميَ ثغرَ الكأس مرتشفاً ريق المدامة في مستنزهٍ فرج
لم أدرِ ما غربةُ الاوطان وهو معي وخاطري أين كنا غير منزعج

---

١ أي لو سرى في ليل أسود كشعره لكان من غرته نور يغنيه عن السرج .

٢ أي يهوى سمعي ان يسمع كلام العاذل لأنه يذكر الحبيب وان كان (سمعي) لا يقبل العذل .

قلبي يحدثني

قلبي يحدّثني بانـــكَ متلفي ... روحي فداك عرفت أم لم تعرفِ
لم أقض حقّ هواك ان كنتُ الذي ... لم أقضِ فيه أسىً ومثلي من يفي[1]
ما لي سوى روحي وباذلُ نفسهِ ... في حبّ من يهواه ليس بمسرفِ
فلئن رضيتَ بها فقد اسعفتني ... يا خيبةَ المسعى إذا لم تُسعِفِ
يا مانعي طيبَ المنامِ ومانحي ... ثوبَ السّقام به ووجدي المُتلفِ
عطفاً على رمقي وما أبقيت لي ... من جسميَ المضنى وقلبي المُدنفِ
فالوجد باقٍ والوصال مماطلي ... والصبر فانٍ واللقاءُ مسوّفي
لم اخلُ من حسدٍ عليك فلا تُضِعْ ... سهري بتشنيعِ الخيال المُرجفِ
واسألْ نجومَ الليلِ هل زار الكرى ... جفني وكيف يزورُ من لم يعرفِ
لا غروَ إن شحّت بغُمض جفونها ... عيني وسحّت بالدّموع الذرّفِ
وبما جرى في موقفِ التوديعِ من ... ألمِ النوى شاهدتُ هول الموقفِ[2]
ان لم يكن وصلٌ لديك فعِدْ به ... املي وماطل ان وعدت ولا تفي
فالمطلُ منك لديّ ان عزّ الوفا ... يحلو كوصلٍ من حبيبٍ مسعفِ
أهفو لانفـــاس النسيم تعلّةً ... ولوجه من نقلتْ شذاهُ تشوّفي
فلعَلّ نار جوانحي بهبوبهـــا ... ان تنطفي ، وأودّ ان لا تنطفي
يا أهل ودّي أنتمُ املي ومن ... ناداكمُ يا أهلَ وديّ قد كُفي
عودوا لما كنتم عليه من الوفا ... كرماً فـــاني ذلك الخلّ الوفي
وحياتِكم وحياتكم قَسَماً وفي ... عمري بغير حياتكم لم أحلِفِ
لو أنّ روحي في يدي ووهبتها ... لِمُبشّري بقدومكم لم أنصفِ
لا تحسبوني في الهوى مُتصنّعاً ... كَلَفي بكم خُلُقٌ بغير تَكلّفِ
أخفيتُ حبّكمُ فأخفاني أسىً ... حتى لعمري كدتُ عنه اختفي
وكتمته عنّي فـلو أبديتهُ ... لوجدتـهُ أخفى من اللطف الخفي

---

١ اقضي الاولى أودي . والثانية أموت .

٢ الموقف يوم الحساب في الآخرة .

ولقد أقول لمن تحرّش بالهوى ... عرّضتَ نفسك للبلا فاستهدفِ
أنتَ القتيلُ بأيّ من أحببته ... فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي
قل للعذول اطلتَ لومي طامعاً ... أنّ الملام عن الهوى مستوقفي
دع عنك تعنيفي وذُق طعم الهوى ... فاذا عشقت فبعدَ ذلك عنّفِ
برحَ الخفاء بحبّ من لو في الدجى ... سفرَ اللثامَ لَقُلت يا بدرُ اختفِ
وهواه وهو أليّتي وكفى بـــه ... قسَماً أكادُ أجلّهُ كالمصحفِ [1]
لو قال تيهاً قف على جمرِ الغضا ... لوقفت ممتثــلاً ولم اتوقّفِ
لا تنكروا شغفي بما يرضى وان ... هو بالوصال عليّ لم يتعطّفِ
غلب الهوى فاطعت أمر صبابتي ... من حيث فيه عصيت نهيَ معنّفي
منّي له ذلّ الخضوع ومنه لي ... عزّ المَنوع وقوّةُ المستضعَفِ
ألِفَ الصدودَ ولي فؤادٌ لم يزل ... مذ كنت غير وداده لم يألفِ
لو اسمعوا يعقوب ذكرَ ملاحةٍ ... في وجهه نسيَ الجمال اليوسفي
او لو رآه عــائداً ايّوبُ في ... سِنة الكرى قدماً من البلوى شفي
كلّ البدور اذا تجلّى مقبــلاً ... تصبو اليــه وكلّ قدٍّ اهيفِ
ان قلتُ عندي فيك كل صبابةٍ ... قال الملاحةُ لي وكلّ الحسن في [2]
كَملتْ محاسنُهُ فلو أهدى السنا ... للبدر عند تمــامه لم يخسَفِ
وعلى تفنّن واصفيــه بحسنه ... يفنى الزمانُ وفيه ما لم يوصفِ
ولقد صرفتُ لحبّه كلّي على ... يدِ حسنه فحمدت حسنَ تصرّفي
اسعِدْ أخيّ وغنّني بحديثــه ... وانثر على سمْعي حلاه وشنّفِ
لأرى بعينِ السّمعِ شاهد حسنه ... معنًى فاتحِفْني بذاك وشرّفِ [3]
يا أختَ سعدٍ من حبيبي جئتني ... برسالةٍ ادّيتهــا بتلطّفِ

---

١ اليتي أي قسمي . والمصحف القرآن الكريم .

٢ أي وكل الحسن في .

٣ غنني بحديثه لأرى جماله عن طريق السمع وقد جعل السمع عيناً عن طريق المجاز .

فسمعتُ ما لم تسمعي ونظرت ما ... لم تنظري وعرفت ما لم تعرفي[1]
ان زار يوماً يا حشايَ تقطّعي ... كلَفاً به أو سار يا عين اذرفي
ما للنوى ذنبٌ ومن أهوى معي ... ان غاب عن انسان عيني فهو في[2]

زدني بفرط الحب

زدني بفرط الحبّ فيكَ تحيّرا ... وارحم حشىً بلظى هواك تسعّرا
واذا سألتك ان أراك حقيقةً ... فاسمح ولا تجعل جوابي لن ترى
يا قلبُ أنت وعدتني في حبّهم ... صبراً فحاذر ان تضيق وتضجرا
انّ الغرامَ هو الحياةُ فمتْ به ... صبّاً فحقّك ان تموت وتُعذرا
قل للذين تقدّموا قبلي ومَن ... بعدي ومن أضحى لأشجاني يرى
عني خذوا وبيَ اقتدوا وليَ اسمعوا ... وتحدّثوا بصبابتي بين الورى
ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا ... سرٌّ ارقّ من النسيم اذا سرى
واباح طرفي نظرةً املّتها ... فغدوت معروفاً وكنت منكّرا
فدُهشت بين جماله وجلالهِ ... وغدا لسان الحال عني مخبرا
فأدِرْ لحاظك في محاسن وجهه ... تلقى جميع الحسن فيه مصوّرا
لو ان كلّ الحسن يكمُلُ صورةً ... ورآه كان مهلّلاً ومكبّرا



١ أيتها الفتاة المنتمية إلى قبيلة سعد انك حملت لي رسالة الحبيبة ولكنك لم تسمعي منها ولم تعرفي ما سمعت وعرفت أنا .
٢ أي في القلب .

فهرس

ابو العتاهية – مصادر دراسته

المختار من شعره

ابو تمام – مصادر دراسته

المختار من شعره

البحتري – مصادر دراسته

المختار من شعره

ابن الرومي – مصادر دراسته

المعري – مصادر دراسته

المختار من شعره

أمثلة من لزومياته

ابن الفارض – مصادر دراسته

الثمن ١٠ ل. ل.